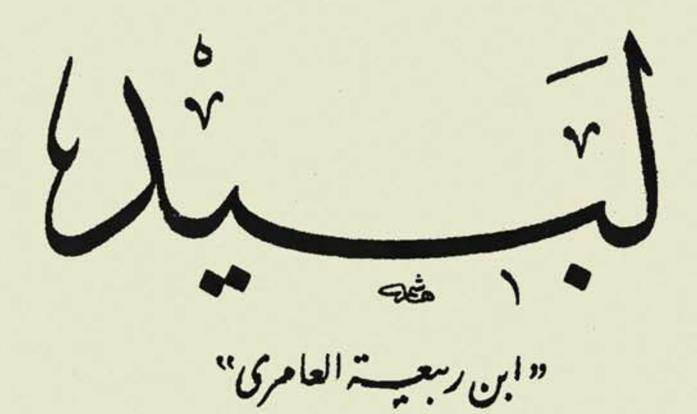


"ابن ربيعة العامري"

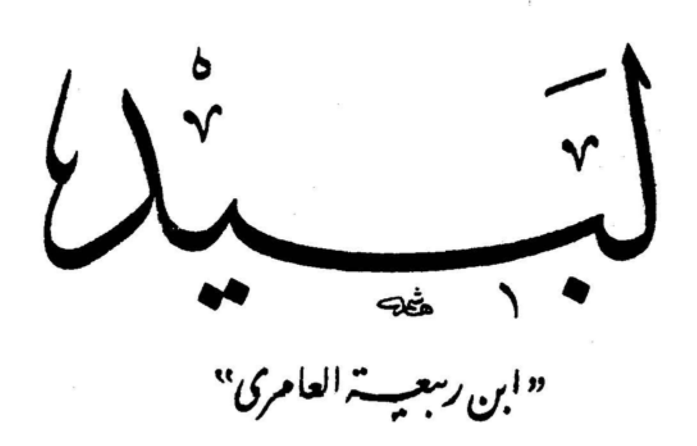
الدكتور يحيى الجبوري

الاستاذ بجامعة بغداد وجامعة قطر









لبيد

"ابن ربيعة العامري"

الدكتور يحيى الجبوري

الاستاذ بجامعة بغداد وجامعة قطر





الطبعة الأولى ١٩٧٠ م
الطبعة الثانية ١٩٨١ م
الطبعة الثالثة ١٩٨٣ م

دار القلم - الكويت

شارع السور - بجانب وزارة الخارجية - عمارة السور
ص . ب : ٢٠١٤٦ - هاتف : ٢٤٥٧٤٠٧ - ٢٤٥٨٤٧٨ - برقياً : توزيعكو

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

للشعر الجاهلي مكانة كبيرة في نفوس العرب ومتذوقي الأدب من غير العرب أيضاً. ذلك لأنه القمة الشامخة التي وصل اليها الشعر في جودة أسلوبه وحسن صياغته وجمال معانيه وسلامة لغته، وقد جعلته هذه المزايا قدوة للشعراء على مر العصور، فصاروا يقلدونه ويحاكونه وينسجون على منواله، طلباً للجودة ورغبة في الكمال.

وقد صاغ الشعر الجاهلي — لما فيه من مثل رفيعة وأغراض نبيلة — عقول الناس في العصور التالية، على مثل وأعراف وأخلاق كريمة، فوحّد عادات العرب وطبعها على سجايا وعادات تغنى بها العرب وأحبوها من مثل المروءة والشهامة والكرم والأريحية، وبذلك جعل الشعر للعرب شخصية واحدة وحفظ هذه الشخصية من الاضمحلال والزوال.

وما دام الشعر الجاهلي قمة الفصحى للغة العرب، فقد كان طبيعياً أن يرجعوا إليه في فهم لغتهم، وتفسير قرآنهم، ومعرفة أسلوب القرآن واحكامه والوقوف على سر بيانه، فأقبل المؤلفون يجمعون الشعر ويتفهمون لغته ويدرسون أساليبه، كل ذلك طلباً لفهم كتاب الله وحفظ لغته. وبذلك كان الشعر الجاهلي حافظاً للغة العرب، ومفسراً لكتاب الله، وجامعاً لعادات الناس وموجههم وجهة كريمة نبيلة.



وقد نظر الشعراء والأدباء في الشعر الجاهلي لغته وأساليبه ومعانيه وفنونه وأوزانه فأدهشهم كل ذلك ، فصار لهم قدوة ودليلاً ، فلم يخرجوا على نظامه ولم يجاوزوا أغراضه دهراً طويلاً اللهم الا في حدود قليلة معروفة .

وقد شاد صرح هذا الشعر الجاهلي جمهرة من الفحول والمبدعين المجودين ، ولبيد بن ربيعة واحد من أولئك الفحول المجودين الذين تركوا آثارهم الواضحة في شعراء العصور المتأخرة ، فهو واحـد من كبار الشعراء الذين بوأهم النقاد القدامى مكانة فاضلة ، واختاروا له قصيدة مطولة أسموها مذهبة أو معلقة ، مع ما اختاروا من القصائد السبع أو العشر .

ولبيد شاعر فرد بين شعراء الجاهلية وشعراء الاسلام ، وله خلال وصفات تثير الانتباه وتدعو الى الاعجاب ، فهو شاعر من فحول الشعراء ومجوديهم ، وهو فارس من فرسان قومه ، وسيد من سادات الجاهلية ، ومعمر من معمريهم ، وكريم من كرامهم ، ومؤمن ممن آمنوا بالله في عهد الشرك والوثنيـة ، ومسلم رجل صدق زهد وتنسك في عهد اسلامه ، وكذلك هو بر عف وقور حليم . وهذه خصال قل أن تجدها مجتمعة في شاعر من شعراء عصره .

وهذه الخصال الفريدة والشعر العالي المكانة المتين الذي يجمع بين القـوة والجمال والفخامة والنضج ، لفتت نظري منذ عهد بعيد ، فأحببت لبيداً شاعراً ورجلاً ومسلماً من المؤمنين ، فرحت أقرأ عنه ، وأقبلت على شعره أحاول فهمه والوقوف على معانيه ومراميه ، فكان بيني وبـين معانيه حجاب من كزازة ألفاظه وما فيها من غريب صعب مستغلق . ولكن الصورة المشرقة لحياة لبيد وسيرته ظلت عالقة في ذهني نيّفاً وعشر سنين . وقد قمت بمحاولة لدراسة لبيد وشعره فأصـدرت كتيباً في ١٣٦ صفحة بعنوان (لبيد بن ربيعة العامري) وذلك سنة ١٩٦٢ .



وحين كتبت رسالتي عن (شعر المخضرمين وأثر الاسلام فيه) التي حصلت فيها على درجة الماجستير بتقدير ممتاز ، ودرست العصر الذي عاش فيه لبيد ، والتيارات الأدبية والمذهبية التي كانت تتصارع آنذاك ، وحياة الأدب في حواضر المسلمين وبواديهم ، تفتحت لي جوانب مشرقة مبدعة من حياة لبيد وشعره فكان لبيد — مع حسان بن ثابت — أبرز شعراء فترة المخضرمين وأشدهم تمثيلاً لهذا الضرب من الشعر ، فلهما شعر في الجاهلية يصور بصدق بيئتهم وحياتهم ، ويترجم عن أمانيهم وعواطفهم ويمثل نضوج الشعراء الفني والعقلي ، وللبيد وكذلك حسان شعر في الاسلام عبر عند حسان الحضري عن الدعوة الاسلامية ، وحمل راية النضال ضد المشركين ، وترجم عواطف المسلمين وحكى أمانيهم وأفكارهم .

أما عند لبيد البدوي فقد مثل عواطف المؤمن الصادق وإيمان الرجل التقي ، وأبان عن دخيلة نفسه الممتلئة بالهداية والرحمة والبر والتقى . كما كان شعره معبراً عن الأفكار الاسلامية والمعاني القرآنية وملتزماً بآداب الاسلام وتعاليمه . هذا الى انه كان نموذجاً لمجموعة كبيرة من شعراء البادية الذين شملهم الاسلام واستجابوا له . ثم هو بعد كل ذلك يؤرخ الفترة ويحدد زمانها ، فحياته التي بدأت منذ زمن بعيد في الجاهلية وانتهت بنهاية عهد الراشدين تمثل فترة المخضرمين بكل ابعادها .

وحين أقدمت على دراسة لبيد وجدتني أمام شاعر جاهلي كبير يصور شعره الفترة الطويلة التي عاشها ، فهو يجمع بين تراث الجاهلية وتراث الاسلام ويحمل في طياته مثل الجاهلية ومثل الاسلام ، ويتضمن خصائص الشعر الجاهلي وخصائص الشعر الاسلامي . وما دام الأمر كذلك فان دراسة شعر لبيد دراسة متعمقة متخصصة تجعلنا نقف على الشعر الجاهلي ونعرف فنونه وخصائصه ، كما تجعلنا نفهم الشعر الاسلامي المتأثر بالاسلام ونقف على طبيعته وأسلوبه ، فكان لا بد من صرف الهم الى دراسة شعره دراسة دقيقة مستأنية ، تفهمه وتقف على

كل خصيصة من خصائصه ، وكل ميزة من ميزاته . وقد وضعت نصب عيني في هذه الرسالة أن أفيد من شعره فائدة كبرى ، فحاولت ان أدرسه دراسة فنية ، وأن أجعل شعره صورة لعصره وترجماناً لحياته وبيئته ، وقد أكدت على هذه الناحية لأنني وجدت الدراسات التي تناولت شعر لبيد – على قلتها – لم تمس شعره أو تدرس فنه ، فدراسة المستشرقين – وهم أول من أولوه العنـاية من المحدثين – كانت تاريخاً للعصر وحديثاً عاماً يصدق على لبيد كما يصلح لغيره ، وترجمة لحياته أكثر من معرفة شعره . وهذا ما يعيب الدراسات الأدبية بعامة ، انها تنصرف الى التاريخ وتهمل الفن أيما اهمال ، بينما نجد أن شعر لبيـد – والشعر الجاهلي – وثيقة تاريخية وصورة لحياة الشاعر وعصره وبيئته ، ومنه نستطيع ان نقف على كل احـداث العصر واتجاهاته الفكرية والفنية ، وبه نستعين على حل المشكلات واجتياز العقبات التي تعترض الدرس .

وحاولت أن أربط ما واتتني الفرصة بين خصائص الفن وظواهره في شعر لبيد ، وفي شعر الشعراء الجاهليين ، فأعقد مقارنة في الموضوعات والخصائص والعادات والسجايا ، فالشاعر ظاهرة من ظواهر العصر والبيئة ، فلا بد أن يشترك وأقرانه في صفات معينة من حياته ومن شعره ، وقد يشترك مع شاعر بعينه في هذه الخصيصة ، ويوافق شاعراً آخر في خصيصة غيرها .

ومن دراسة الشعر دراسة فنية ومقارنته بما يشبهه من شعر الشعراء الآخرين نستطيع أن نتبين الخصائص العامة للشعر في عصر الجاهليين ، ونتبين أيضاً الميزات التي يتفرد بها كل شاعر . ولو أتيحت دراسة الشعراء الفحول الجاهليين على هذا المنهج ، لاستطعنا بعد ذلك ان نبرىء الشعر الجاهلي من كثير من الأحكام التي تصلح أن تقال في كل شاعر وتشمل كل عصر .

وحاولت من جهة ثالثة ان التزم القصد والايجاز فلا أفصل في موضوع لا يغني فيه التفصيل ، ولا أوجز حيث ينبغي الافاضة والتفصيـل ، وحاولت



جهدي ألا أفيض في موضـــوع قد بحثه الباحثون قبلي بل اكتفي باشارات سريعة ، ايمـــاناً مني أن التوسع في درس موضوعات فرغ الباحثون من بحثها واستقرت على رأي معين ، أمر لا تسيغه طبيعة الدراسة الجامعية فلا بد من الافادة من جهود السابقين لأن الدراسات العلمية متكاملة فلا حاجة لبحث موضوع بذلت في سبيله جهود علمية صادقة ، وما دام هدف الدراسات الجامعية الوصول الى الحقيقة العلمية فلا ينبغي أن تهدر جهود الدارسين أو تغفل أعمالهم، ولذلك فقد اكتفيت في بعض الموضوعات بالاشارة الى أعمال الباحثين دون أن أكررها .

أما الدراسات التي تعرضت لهذا الموضوع فليس هناك دراسة ناضجة كاملة ، فعلى الرغم من عناية القدماء بشعر لبيد ، ومكانته العالية في النفوس ومنزلته الرفيعة بين سراة الجاهليين و كرامهم ، وبين جلة الصحابة في الاسلام ، فان الدراسات الحديثة أغفلت لبيداً أو تكاد . وفي الحقيقة أن الدراسات التي قامت حول شعراء المخضرمين أو شعراء عصر الرسول عامة قليلة بل نادرة ، ولذلك أسباب عدة ، منها : ان الفترة تقع بين عصرين كبيرين هما الجاهلية والأموية ، والشعراء المشهورون البارزون في الفترة الاسلامية كانوا يعدون ضمن الجاهلية غالباً ، وذلك تقليد ابتدعه ابن سلام حين عد أكثر المخضرمـــين الكبار في الجاهليين .

أما السبب الثاني في اهمال هذه الفترة ، فهناك فكرة شائعة خاطئة تزعم ان الدين الاسلامي كان قد عاق الشعر بل اضطهده، ناظرين الى صدر آية الشعراء « والشعراء يتّبعهم الغاوون ، ألم ترَ أنهم في كل واد يهيمون وأنهم يقولون ما لا يفعلون » دون عجزها وتمامها ، ودون النظر الى ظروف الدعوة وموقف الدين من الشعر في كل المراحل والظروف .

وسبب ثالث في ذلك هو وجود شك في شعر الفترة وذلك الذي نبه عليه



وأشار اليه النقاد القدامى وعلماء الشعر ورواته في وقت مبكر . هذه الأسباب وغيرها جعلت الباحثين يحذرون هذه الفترة ويتهيبون من دراستها ويترددون في بذل الجهد فيها .

وحقاً تعرض الذين كتبوا عن تاريخ الأدب العربي والذين شرحوا المعلقات الى سيرة لبيد وذكروا طرفاً منها ، الا ان هذه المباحث فيها عيبان : فهي موجزة شديدة الايجاز أولاً ، ومغرقة في الخطأ ثانياً . فكل الذي كتبوه لا يعدو ان يكون تكراراً للأخبار التي ساقها أبو الفرج في كتاب الأغاني على ما في روايته من اضطراب وتداخل وخطأ . ولا أعد تلك الكتابات ضمن الدراسة الأدبية بل هي أقرب الى الترجمات المدرسية منها الى البحث الناضج . وقد تعرض للبيد من الباحثين العرب اثنان : الأول الدكتور طه حسين في حديث الأربعاء ، فقد أفرد للبيد مقالة تحدث فيها عن معلقته وعرض ما فيها من صور وأفكار ، ثم عرض جوانب من حياة لبيد وشعره ، وهذه المقالة أقرب الى العرض الأدبي الذي يعتمد على القصة والصياغة الفنية وحلاوة الحديث ، منها الى البحث العلمي ، فهي مقالة وصفية جميلة ، ولكنها لن تقدم للدراسة العلمية شيئاً ذا أثر . أما الباحث الثاني فهو الدكتور شوقي ضيف الذي تعرض لشعر لبيد في كتابه العصر الاسلامي فكتب عنه مقالة موجزة أشار الى معالم حياته وحلل بعض النماذج من شعره ووقف عند نقاط معينة منه بالقدر الذي يسمح لدارس تاريخ الأدب أن يكتب عن شاعر من شعراء كثار في عصر يمتد من بداية الدعوة الاسلامية حتى نهاية العصر الأموي .

وقد كان المستشرقون أسبق من أبناء العربية الى العناية بلبيد وشعره ، ولكن دراساتهم تفتقر دائماً الى الجانب الفني الذي عماده الذوق النافذ والفهم الصحيح لطبيعة الشعر العربي . وقد درس لبيداً اثنان من المستشرقين : الأول وليام سالون الذي قدم رسالة صغيرة عن حياة لبيد بعنوان (لبيد الشاعر) الى جامعة ليبزك للحصول على درجة الدكتوراه سنة ١٨٧٧ م وهي رسالة موجزة

تقع في ست وثلاثين صفحة كتبها بالانكليزية ، وشغل أكثرها حديثه عن العرب والجزيرة العربية والجاهليين وعاداتهم وتقاليدهم والشعر العربي وقيمته وقدمه وموضوعاته . وقد استعرض سريعاً حال الشعر منــذ الجاهلية حتى العصر العباسي المتأخر ثم تعرض لحياة لبيد كما وردت في كتاب الأغاني ، فقد كان هذا الكتاب مصدره الأول والأهم من الكتب القديمة ، واستمد معلوماته عن الأدب العربي من كتاب (روضة الأدب في طبقات شعراء العرب) لاسكندر ابكاريوس اللبناني ، ولم يتعرض لشعر لبيد الا بقدر . وذلك لأن ديوان لبيد لما يطبع بعد (ظهرت طبعة الخالدي سنة ١٨٨٠ ، وطبعة هوبر سنة ١٨٩١) . وقد أغفل كثيراً من المشكلات التي تعترض حياة لبيد كما أنه لم يقطــع برأي حاسم في كثير من القضايا ، فهذه الرسالة لكل ذلك قليلة الفائدة وترجع قيمتها الى قدمها فهي أول دراسة معاصرة عن لبيد . وهي تعد كذلك بحكم المفقودة اذ لم أرَ لها اشارة في الكتب التي كتبت عن لبيد بعدها . ولم أجدها في أي من المكتبات العربية ، وقد استطعت الحصول عليها من مكتبة المتحف البريطاني بلندن ، ويبدو انها مجهولة بالنسبة للأوروبيين أيضاً ، فحتى برو كلمان في حديثه عن مصادر شعر لبيد في دائرة المعارف الاسلامية وفي ترجمة لبيد في كتابه تاريخ الأدب العربي لم يتعرض لذكرها على حين ذكر دراسة فون كريمر التي ظهرت بعدها بأربع سنين ، وعلى كل حال لم تستطع هذه الرسالة أن تقدم لنا فائدة كبيرة تستحق التنويه .

أما الدراسة الثانية فهي التي كتبها فون كريمر بالالمانية عن شعر لبيــد بعنوان (حول أشعار لبيد) وطبعت في مدينة وين سنة ١٨٨١ وهي مقالة نشرها في مجلة المستشرقين الالمان ثم أخرجها مستقلة ، وتقع في احدى وخمسين صفحة . وقد اعتمد في دراسته لشعر لبيــد على القصائد العشرين من رواية الطوسي التي طبعها الخالدي (اذ الجزء الأول الذي طبعــه هوبر وبرو كلمان لم يظهر بعد) . وهذه الدراسة خير من سابقتها اذ تناول فيها الحديث عن معلقة

لبيد وما فيها من تشبيهات وأوصاف واستدل من الشعر على معـــارف العرب وعن الأمم البائدة والمواضع الكثيرة في الجزيرة العربية ، وقد كانت عنايتـــه بالناحيـــة الجغرافية من الجزيرة العربية كبيرة ، وما في الشعر من دلالة على المواطن والمواضع ، كما استدل على معرفة الجاهليين بالدين واستشهد بشعر لبيد وقارن ذلك بما عند الشعراء الجاهليين وما عند العبرانيين والنصارى والأحناف ثم سجل ملاحظاته عن القصائد العشرين التي نشرها الخالدي من رواية الطوسي وما فيها من تصحيف وروايات . ولم يتطرق كريمر لحياة لبيد وأخباره، وتتسم الرسالة بكثرة الاستطراد لموضوعات خارجة عن شعر لبيد . ولا شك أن دراسة فون كريمر تناولت جانباً محدوداً وأشعاراً بعينها ، فهي على أهميتها ونضوجها قليلة الفائدة أيضاً اذ لم يفد منها هذا البحث الا بقدر ، ولكنها مع كل ذلك جهد محمود ، وبقي أن أشير الى المقدمة التي كتبها هوبر بالالمانية للجزء الأول من ديوان لبيد حين صدر سنة ١٨٩١ ، والى المقالة التي كتبها بروكلمان في دائرة المعارف الاسلامية ، فكلاهما تعريف موجز بلبيد وشعره ، ولم يخرج عن الحدود التي رسمها أبو الفرج في الأغاني عند حديثه عن لبيد وأخباره .

هذه أهم المقالات العلمية التي كتبت عن لبيد وهي لا شك قليلة وقصيرة وكان لها فضل التنويه بلبيد والتعريف به ، ولكنها جميعاً لم توف الشاعر حقه من الدرس والعناية والشمول وحقاً ان الكتب القديمة لم تقدم غير معلومات قليلة ومضطربة ومكررة عن حياة لبيد وقبيلته ، ولكن شعر لبيد في كتب اللغة والادب فيه مادة وافيـــة كبيرة لو درس دراسة ممحصة دقيقة متروية ... وكذلك فعلت .

وقد بذلت في هذه الدراسة الجهد الصادق في سبيل أن تقوم على أسس ثابتة أصيلة من البحث العلمي الجامعي ، فلا اشتط في اطلاق الاحكام الا بعد روية وتثبت وبعد ان اسوق العديد من الادلة والقرائن ، وان يكون الموضوع



متماسكاً والفصول مترابطة يدعو بعضها بعضاً من غير تعسف ولا اقحام ، فينساق الموضوع على طبيعته .

اما الاحكام والنتائج التي تعرضت لها هذه الدراسة وتوصلت اليها فانها أحكام ليست أخيرة ولا أزعم لها القطع واليقين الحاسم ، فان الدراسات الأدبية لا يكون يقينها الا ظناً قد ترجح كفته وقد تشيل .

وأصل هذا الكتاب رسالة جامعية تقدمت بها لكلية دار العلوم جامعة القاهرة فحازت درجة الدكتوراه بمرتبة الشرف الأولى . وحين اردت أن أخرج هذه الرسالة الى الناس وجدتها كبيرة ثقيلة تنوء بها طاقتنا المادية ، فارتأيت — ولعلي مخطىء في هذا الرأي — ان أخفف منها بعض فصولها فتناولتها بالحذف والتشذيب ، فحذفت كل ما يمكن حذفه من قضايا العصر وما يخص الديوان من تحقيق وتخريج واستدراك ، وجعلت هذه الدراسة خالصة للأدب في حياة لبيد وشعره .

وأرجو أن اكون قد قدمت لتراثنا العربي المجيد لبنة في بنائه الشامخ ، وأسديت الى لغتنا العربية بعض حقها على ابنائها . ومن الله الهداية وبه التوفيق .

بغداد ٢٤ جمادى الثانية ١٣٩٠ هـ .

الاربعاء ٢٦ آب ١٩٧٠ م .

يحيى الجبوري





الباب الاول

بيئة لبيد وحياته

الفصل الأول

بيئة لبيد وحياته

قبيلته بنو عامر

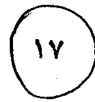
١

(بنو عامر بن صعصعة [1] من كبريات القبائل التي سكنت نجداً ، ويرجع نسبها الى قيس عيلان بن مضر ، وقيس عيلان هذه تشغل رقعة كبيرة من منطقة نجد حتى الحجاز ، وتتفرع منها قبائل لها أثر كبير في أحـداث القرنين الخامس والسادس من الميلاد حتى ظهور الاسلام ، وهو الحدث الضخم الذي هز الجزيرة وغطى على كل أحداث العصر ، التي كان لهـا دوي شديد في أرجاء الجزيرة ، وكان لقيس عيلان من ذلك النصيب الأوفى . ولا شك أن أكبر القبائل القيسية وأكثرها أهمية في الفترة التي تهمنا هما : غطفان ، بفرعيها المهمين عبس وذبيان ، وبنو عامر بن صعصعة من هوازن قبيلة لبيد الشاعر .

وقبيلة بني عامر كبيرة لها عشائر وبطون وأفخاذ ، وقـد أفاضت كتب الأنساب في ذكرها ، كما أفاضت في ذكر قبائل غطفان وغيرها .

---

١ – انظر مادة عامر بن صعصعة في دائرة المعارف الاسلامية (الاصل الانكليزي) .



وبنو عامر ينتسبون الى صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن بن منصور ابن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان [1] . ولصعصعة ابنان فيهما العدد والنسب ، هما : عامر ، الذي فيه البيت والعدد ، ومرّة ، وهم بنو سَلول نسبة الى أمهم . أما بقية أبنائه فليس لهم عدد ولا أثر ، وهم : غالب ، وأمه تماضر واليها نسب ولده ، وربيعة ، وأمه غويضرة واليها نسب ، وعبدالله والحارث ابنا عادية واليـــها نسبا ، وكبير وعمرو وزبير أمهم وائلة واليها نسبوا ، وقيس وعوف ومساور وسيار ومنجور ، أمهم عديَّة واليها نسبوا ، وكل هؤلاء قليل ليس منهم أحد مشهور ، حاشا بني مرة وبني عامر كما تقدم [2] .

أما عامر بن صعصعة فله أربعة أبناء : ربيعة وفيه البيت والعدد ، وهلال ، ونمير ، وسواءة [3] . فربيعة له أربعة أبناء : كلاب ومنه بنو جعفر وفيه البيت ، وكعب وفيه العدد [4] ، وعامر ، وكليب .

---

١ – ينظر نسب عامر بن صعصعة في جمهرة أنساب العرب ، ابن حزم الاندلسي (٣٨٤ – ٤٥٦ ﻫ) ص ٢٧١ – ٢٨٥ ، وقد اعتمدت في رسم شجرة النسب على هذا الكتاب بالمرتبة الأولى ، وعلى الكتب الاخرى رغبة في تفصيل الفروع وأهم هذه الكتب : الانباه على قبائـــل الرواة ، لابن عبد البر النمري (– ٤٦٣ ﻫ) ص ٨٥ – ٨٨ ، ونسب عدنان وقحطان، للمبرد ص ١٣ – ١٤ والمعارف ، لابن قتيبة ص ٨٧ – ٨٩ . وقد أفدت من جدول الدكتور وستنفيلد :

Wûstenfeld : Genealogische tabellen der Arabischen Stamme und familien Gottingen, 1852.

٢ – جمهرة الانساب ص ٢٧١ ، وفي المعارف ص ٨٧ يكتفي بذكر الأم غالباً .

٣ – جمهرة الأنساب ص ٢٧٢ ، ونسب عدنان وقحطان ص ١٣ ، والانباه على قبائل الرواة ص ٨٧ .

٤ – قال ابن عبد البر عن أبي حاتم السجستاني : في كلاب وكعب شرف بني عامر بن صعصعة وعددهم ، وايامهم عنى جرير بقوله :

فغض الطرف انك من نمير ... فلا كعباً بلغت ولا كلابا

(الانباه ص ٨٨)



فأما كلاب بن ربيعة ، فله من الأبناء : عامر ، وعبيد وهو أبو بكر ، وعمرو والحارث وهو رؤاس ، وعبد الله ، وكعب وهو الأضبط ، وجعفر (ومنه رهط لبيد) ، وربيعة ، ومعاوية وهو الضباب[1] ، فهم تسعة أخــوة ، فأما جعفر ابن كلاب ، فأبناوه : خالد الأصبغ ، وربيعة الأحوص ، ومالك الطيان ، وأمهم خبية بنت رياح بن الأشل الغنوية فأخوالهم في غنى. وعتبة وعوف وأمهما فاطمة بنت عبد شمس بن عبد مناف ، وأخوالهم في قريش[2] .

ولمالك الطيان بن جعفر بن كلاب ، عامر ، وهو أبو براء ملاعب الأسنة ، والطفيل وقد ساد وهو فارس قرزل والد عامر بن الطفيل ، ومعاوية معـــود الحكماء ، وعبيدة الوضاح ، وسلمى نزال المضيق ، وعمرو ، وعتبة ، وربيعة وهو ربيع المقترين والد لبيد الشاعر[3] ، وأبناء مالك هؤلاء هم أعمام لبيد ، منهم بنو أم البنين بنت عمرو بن عامر فارس الضحياء ، وهم خمسة : عامر ، وطفيل ، وربيعة وعبيدة ومعاوية[4] . وفي شجرة النسب الآتية تفصيل يغني عن الشرح في بيوت بني جعفر بن كلاب وعامر بن صعصعة[5] .

---

١ – جمهرة الانساب ص ٢٨٢ ، والانباه ٨٧ ، وسموا الضباب لأن ولد معاوية هم ضب ومضب وضباب وحسيل . وقد وهم ابن قتيبة حين عد بني كلاب عشرة وذلك انه كرر كعب الاضبط مرة باسمه ومرة بلقبه ، انظر المعارف ص ٨٧ .

٢ – جمهرة الأنساب ص ٢٨٤ والمعارف ص ٨٨ .

٣ – جمهرة الأنساب ص ٢٨٥ ، ونسب عدنان وقحطان ص ١٤ .

٤ – المعارف ص ٨٩ .

٥ – لقد آثرت في هذا الرسم ذكر أبناء جعفر بن كلاب وملاحقة تفرعات أبنائهم لأن أحداث القبيلة المرتبطة بلبيد تدور على هذه الفروع . أما الاصول الكبيرة من بني عامر فاكتفيت منها بما هو مرتبط بالوقائع قدر الامكان .



والملاحظ ان قبيلة بني عامر من أوسع القبائل مساحة ، وأكثرها أرضاً ، فمضاربهم تحتل رقعة واسعة في نجد ، تمتد شرقاً حيث نزل بنو كعب بن ربيعة بالفلج وباديتها [1] وهم يجاورون تيماً وضبة ، وانتشر بنو عامر غربي الجزيرة نحو الحجاز حيث سكن بنو كلاب بن ربيعة ، وبنو هلال ، وبنو سلول [2] ، وبقية بني عامر سكنت في المنطقة الغربية من نجد مما يــلي الحجاز [3] ، وهم في حمى ضرية عند فَيْد ، يجاورون طيئاً في جبل سلمى . وامتدت مضاربهم كذلك الى الجنوب من نجد عند اليمامة حيث سكن بنو نمير تجاورين باهلة ابن أعصر وبني حنيفة [4] ، هذه منازلهم التي كانوا فيها عند مجيء الاسلام . أما قبل هذا فقد كان العامريون يشتون بأرضهم من نجد ، ويصيفون بالطائف [5] ، وذلك ان أرض الطائف كانت في القديم لعَدْوان بن عمرو بن قيس عيلان ، فنزل بنو عامر ناحية من الطائف مجاورين لعدوان أصهارهم ، ثم وقعت حرب بين عدوان تفرقت على أثرها كلمتهم وضعف شأنهم ، فغلبتهم عامر على الطائف فصاروا « يتصيفون الطائف لطيبها وثمارها ، ويتشتون بــلادهم من أرض نجد لسعتها وكثرة مراعيها وأمراء كلئها » [6] ، وقد عرضت ثقيف على بني عامر أن ينزلوا لهم عن الطائف ليعمروها ويغرسوها ويقاسموهم بعدها الثمر كل عام ، ففعلت عامر. ثم لما تمكنت ثقيف وشرفت، حصنت بلادها، فشيدت القلاع والأسوار،

---

١ – معجم البكري ٩٠/١ .

٢ – معجم البلدان ، ياقوت ٢٠٥/٢ ومعجم البكري ٩٠/١ .

٣ – معجم البكري ٩٠/١ .

٤ – المصدر السابق ٩٠/١ .

٥ – المصدر السابق ٧٧/١ ، وتاريخ الكامل ابن الأثير ٤٢٠/١ .

٦ – المصدر السابق ٧٧/١ ، وابن الأثير ٤٢٠/١ .

وعندها امتنعوا على بني عامر ونقضوا ما كان بينهم من عهد ووفاق [1] ، وبذلك قطعت بنو عامر عن الطائف ، ونزلوا منازلهم تلك في نجد والحجاز .

وأول ما يلفت النظر في أمر بني عامر ، انهم لم يكونوا ذوي شأن ظاهر مرموق قبل ظهور زعيمهم خالد بن جعفر ، الذي التفت حوله هوازن كلها ، فقد كانت مكانة غطفان وشخصية زعيمها زهير بن جذيمة العبسي ، قد غطت على بني عامر ، وأخضعتهم لتبعية ذليلة . وذلك انهم كانوا يدفعون أتاوة سنوية لزهير العبسي [2] . وكذلك قيل أن النعمان كان يقول لعصيمة بن سنان وقد أجار بعض بني عامر : « ابعث الي بعبيدي » [3] . ثم ان بني عامر كانت من جملة القبائل النجدية التي تخضع لملوك كندة ، وكان على قيس عيلان أحد أبناء الحارث ابن عمرو ، ثم ثارت القبائل وقتلت ملوكها ، وكان أن قتل بنو عامر شراحيل ابن الحارث ، على نحو ما هو معروف في أحداث يوم خزاز [4] .

هذه الأخبار تظهر بني عامر من القبائل الخاملة ، التي لم يكن لها شأن ولا حول ولا طول ، ولا شك في صحة هذه الأخبار ، وهي تتحدث عن زمن متقدم من حياة بني عامر وهي لا تناقض — كما يبدو — الأخبار التي تتحدث عن العامريين بأنهم كانوا لقاحاً لا يدينون للملوك ، بل هم كثيراً ما يتعرضون للطائم النعمان ويغنمونها [5] ، وكان هذا في زمن بزوغ نجم بني عامر ، حين استطاع خالد ابن جعفر القضاء على سلطان زهير بن جذيمة العبسي [6] . وعندها صارت

---

١ — ابن الأثير ٤٢١/١ .

٢ — الخبر في يوم النفراوات ، الأغاني ١٠/١٠ ، وابن الأثير ٨٣٨/١٠ .

٣ — المحبر ٣٥٤ .

٤ — معجم البلدان ، مادة (خزاز) ٤٢٨/٣ .

٥ — الكامل ، ابن الأثير ٣٦١/١ .

٦ — سيأتي ذكر ذلك في يوم النفراوات .

الروايات تصف بني عامر بالعزة والكبر والمنعة وكثرة العدد، فالجاحظ يذكر بني جعفر بن كلاب على انهم من ذوي الكبر، وقد أبطرهم ما وجدوا لأنفسهم من الفضيلة [1]، والرواة يعدون بني نمير بن عامر بن صعصعة من جمرات العرب، وأشرف بيوت قيس عيلان قالوا: «وانما سموا بذلك لأنهم متوافرون في أنفسهم لم يدخلوا معهم غيرهم، والتجمير في كلام العرب التجميع، وهم بنو نمير بن عامر، وبنو الحارث بن كعب، وبنو ضبة بن أد، فطفئت جمرتان، وهما: بنو ضبة لأنها حالفت الرباب، وبنو الحارث لأنها حالفت مذحج، وبقيت نمير لم تحالف، فهي على كثرتها ومنعتها، وكان الرجل اذا قيل له من أنت؟ قال: نمري كما ترى» [2]، وكثرة بني عامر أمر يقرره كثير من الرواة، والكثرة عند العرب وفي مجتمعهم تعني العزة والمنعة والسؤدد. قال أبو عمرو بن العلاء: «جاء الاسلام وأربعة أحياء قد غلبوا على الناس كثرة: شيبان بن ثعلبة، وجشم بن بكر، وعامر بن صعصعة، وحنظلة بن مالك، فلما جاء الاسلام خمد حيان وطما حيان، طما بنو شيبان وعامر بن صعصعة، وخمد جشم وحنظلة» [3]. وقد استطاعت بنو عامر بكثرتها وعزتها أن تستلفت أنظار الملوك والقبائل الأخرى، فكان النعمان يقرب منهم الرؤساء، فعروة بن عتبة بن جعفر كان من أرداف الملوك [4]، ولهذا كله كان من غير المستنكر أن يفخر عامر بن الطفيل ويدل على الناس بقومه حين يقول [5]:

---

١ – الحيوان ٦/٧٢.

٢ – زهر الآداب، المصري ١/٢٥ ط ٢ السعادة.

٣ – الانباه على قبائل الرواة ص ٩٧.

٤ – سرح العيون في رسالة ابن زيدون ص ٩٠، تحقيق أبي الفضل ابراهيم، مصر ١٩٦٤.

٥ – الشعر والشعراء ص ١٩١ ط ليدن.

وما الأرضُ إلّا قَيسُ عيلانَ أهلُها   لهم ساحَتاها سَهْلُها وحُزُومُهـــا
وقد نالَ آفاقَ السمواتِ مجدُنا   لنا الصَّحْوُ من آفاقِها وغيومُها

وعرف العامريون بالاحامس لتشددهم في دينهم على مـــذهب قريش ، قال حسيل بن سجيح ، ذاكراً بلاءه في موقعة بالشَريف مع بني عامر [1] :

لقد علم الحيّ المصبح أنني غداة لقينا بالشريف الأحامسا

وكذلك يسير اليهم عمرو بن معد يكرب ، حين يخاطب العباس بن مرداس [2] :

أعباس لو كانت شيارا جيادنا   بتثليث ما ناصيت بعدي الأحامسا

وكذلك أنشدوا للقيط بن زرارة الدارمي في يوم جبلة ، وكان بنو عبس حلفاء لبني عامر بن صعصعة [3] :

أجذم اليك انها بنو عبس   المعشر الجلة في القوم الحمس

---

١ – شرح الحماسة ، المرزوقي ٢/٥٦٧ – ٥٦٨ .

٢ – السيرة ١/٢٠٠ .

٣ – انظر في معنى الحمس ، السيرة ١/١٩٩ ، والحمس رأي ابتدعته قريش وهو التشدد في الدين ، والحمس قريش وكنانة ، لنزولها مكة ومجاورتها قريشاً ، وكل من ولدت قريش من العرب ، وكل من نزل مكة من القبائل (المحبر ، ابن حبيب ص ١٨٧) فكنانة والهون بن خزيمة والغوث وثقيف وعدوان كلهم حمس (معجم البكري ١/٢٤٥) ، وكان القرشيون لا يزوجون أحداً إلا بعد أن يشترطوا عليهم أن يكونوا حمساً ، ويدان لهم وينتقل اليهم . (مختصر كتاب البلدان ، ابن الفقيه ص ١٨) .

وقد زوجت قريش ربيعة بن عامر بن صعصعة ، من مجد بنت تيم بن مرة .. من فهر فأنجبت له كلاباً وكعباً وعامراً وكليباً ، ولذلك يقول لبيد مفتخراً وداعياً لقومه بالسقيا[1] :

سَقَى قومي بَني مجدٍ وأسقى نميراً والقبائــــل من هلال

وقد عدوا بني عامر كلهم حمساً لتحمس اخوتهم من بني ربيعة بن عامر[2] .

ولقبيلة عامر تاريخ طويل مليء بالاحداث ، فقد خاضت معارك كثيرة مع القبائل المجاورة لها ، وبخاصة غطفان وتميم ، ولها في أيام العرب نصيب كبير وأثر واضح . ونحاول هنا — قدر ما تسعفنا المصادر — أن نرسم صورة لحياة هذه القبيلة ونحدد صلاتها بالقبائل الاخرى من قيسية وغير قيسية وكذلك نتبين صلاتها بملك الحيرة شرقاً وبقريش أهل البيت وكنانة غرباً ، نحاول أن نتعرف على كل هذه الأمور مستأنسين ومستفيدين من الاحداث الكبرى التي شملت هذا العصر .

٢

وأول تاريخ معقول نستطيع أن نتمسك به لنطل على الاحداث هو حوالي منتصف القرن السادس الميلادي[3] :

---

١ — المحبر ص ١٧٨ والديوان ص ٩٣ .

٢ — المحبر ض ١٧٨ — ١٧٩ .

٣ — يبدأ ذلك بمقتل شأس بن زهير العبسي الذي يحدده، برسيفال بين سنتي ٥٦١ — ٥٦٥ م انظر : C. de Perceval: Essai sur L'histoire des Arabes V. 2. P. 411



كان زهير بن جذيمة العبسي رئيساً لقبائل غطفان جميعها [1] وقد استطاع أن يوسع نفوذه ، بأن أخضع لسلطانه هوازن ، ففرض عليها ضريبة يتقاضاها منهم كل عام ، وقد صفت لزهير الأمور ، وتم له السلطان ، بعد أن تغلب على أبي الجناب زعيم تميم [2] ، وقد كانت صلة زهير بملوك الحيرة حسنة ، حتى انه زوج احدى بناته الى النعمان بن أمرىء القيس السائح (توفي سنة ٤٣١ م) [3] وقد ذهب شأس بن زهير لزيارة النعمان، فأكرمه وحباه بمجموعة من الهدايا النفيسة ، فيها المسك والبسط والثياب والقطيفة ، ومنها قطيفة حمراء ثم عاد شأس قاصداً موطنه ، فمر في طريق عودته بماء معروف بـ (منعج) للقبيلة غنى [4] ، ونزل قرب بيت منفرد لرياح بن الأشل الغنوي ، وتعرى ليستحم في الماء وامرأة رياح تنظر اليه ، فغضب رياح ورمى شأساً بسهم ، ثم واراه التراب وسلبه متاعه فأخفاه ، ونحر ناقته . وعبثاً حاول العبسيون العثور على أثر لشأس ، حتى اذا جاءوا عكاظ يوماً ، وجدوا امرأة الغنوي تبيع قطيفة حمراء هي بعض هدايا الملك ، فعرفوا قاتل شأس ، ثم جدوا في طلبه [5] ، وقد أوعزت غنى لرياح بالهرب على أمل أن يدفعوا الدية لغطفان ، ولكن زهيراً أبى الا أن يقتل بابنه كل من وجده من قبيلة غنى ، وقد غـــلا في انتقامه فصار يشوه القتلى بجدع أنوفهم [6] امعاناً منه في أذى أعدائه . فلما رأى خالد بن جعفر ما يفعله زهير بأخواله من غنى غضب ، وقد لقي زهيراً في سوق عكاظ فشاتمه وتوعده ، ثم

---

١ – تاريخ ابن خلدون ٢/١١٠ .

٢ – الأغاني ٢/٣٧٦ .

٣ – المصدر السابق ٢/٣٦٥

٤ – حي من سعد بن أعصر من قيس عيلان أبناء عم غطفان .

٥ – الأغاني ٢/٣٦٦ .

٦ – المصدر السابق .

خرج زهير بعد هذا الى مكان يعرف بـ (النفراوات) يريد الغرة على بني عامر ، فلما علم بذلك خالد مشى اليه فاقتتلا ، وتمكن خالد أن يصرع زهيراً ، فقال يفخر بذلك ويدل على هوازن [1] :

أبلغ هوازن كيف تكفر بعدما أعتقتهم فتوالدوا أحرارا

وقتلت ربهم زهيراً بعدما جدع الأنوف وأكثر الأوزارا

وهكذا اشتد العداء بين بني عامر وبين غطفان ، وقد ظلت الحرب دائرة بين الفريقين ، واستطاع خالد أن يشن حملات موفقة على ذبيان ويقتل مقتلة كبيرة من رجالهم في وادي حراض [2] وعند ذلك التف بنو عامر وهوازن حول زعامة خالد بن جعفر بن كلاب ، لما احرزه من نصر على غطفان . واتجه خالد الى ملك الحيرة فحسن صلته به ، وفي احدى زياراته للنعمان رأى في مجلسه الحارث بن ظالم الذبياني رئيس غطفان ، ورأى أن النعمان يحسن استقباله ومحادثته ، فحسده خالد على تلك المنزلة ، وأراد أن يكيد له ويؤذيه ، فعيره ان له فضلاً عليه ، اذ لولا قتله زهير بن جذيمة لما استطاع الحارث أن يتزعم غطفان ، فغضب لذلك الحارث وقال لخالد : سأجزيك على يدك عندي ، فسعى الحارث ليلاً الى خيمة خالد ، فقتله وولى هارباً الى قومه الذين انكروا عليه فعلته ، فأبوا أن يجيروه ، فلجأ الى تميم فأجاره حاجب بن زرارة وكان قتل خالد قد أقرّ عين قيس بن زهير العبسي ، اذ وجد في مقتله تنفيساً عن حزنه على فقد أبيه زهير .

بعد مقتل خالد بن جعفر تزعم أخوه الأحوص بن جعفر بني عامر ،

---

١ – الأغاني ١٠/١٦ .

٢ – الأغاني ١٠/١٦ وابن الأثير ١/٣٣٨ .



ونهض ليثأر من الحارث قاتل أخيه ، وكان التجاء الحارث الى بني تميم قد فتح جبهة جديدة من العداء بوجه بني عامر ولكنهم كسبوا — ولو لوقت قليل — ود ملك الحيرة لأنه غضب معهم على بني دارم الذين أجاروا طريدته الحارث بن ظالم [1] .

والتقى بنو عامر وبنو تميم عند جبل (رحرحان) [2] فاقتتلوا قتالاً شديداً ، هزمت فيه بنو تميم وأسر عامر والطفيل — ابناء مالك بن جعفر — معبد بن زرارة أخا حاجب سيد تميم ، وحاول لقيط ان يفتدي أخاه ، فرفض بنو عامر الادية الملوك ، وظل في الاسر حتى هلك .

كانت هذه الاحداث قد بلورت موقف بني عامر ، وحددت صلاتها بالناس فهي تعادي غطفان كلها ، وبين القبيلتين ثارات واحقاد ، وانضمت تميم الى معسكر الغطفانيين بعد رحرحان ، أما بنو أسد فكانوا حلفاء مخلصين لذبيان وهي معهم في حربها وسلمها ، وقد حاولت عامر ان تفصم تلك العلاقة فلم تستطع وعبر النابغة الذبياني عن ذلك أصدق تعبير حين قال [3] :

قالَتْ بنو عامرٍ خالُوا بَني أَسَدٍ ... يا بُؤْسَ للجَهلِ ضَرّاراً لاقوامِ

فصالِحونا جميعاً إن بدا لكمُ ... ولا تقولوا لنا أمثالها عامِ

---

١ — كان غضب النعمان على الحارث لأنه قتل خالداً وهو في جواره وحمله .

٢ — رحرحان : جبل قرب عكاظ خلف عرفات ، معجم البلدان (رحرحان) ، وانظر في هذا اليوم ، الأغاني ١/٢١٤ وابن الأثير ١/٣٤١ والنقائض ١/٢١٤ .

٣ — التوضيح والبيان عن شعر نابغة ذبيان ص ٦١ ط السعادة . عام : مرخم عامر .



كان هذا الموقف قبل ان ينشب الصراع الدامي بين عبس وذبيان في الحرب الطويلة المعروفة بداحس والغبراء ، فلما نشبت هـــذه الحرب وخذلت عبس — بعد حروب مريرة — التجأت الى بني عامر ، ولعله يبدو من الغريب ان تحالف عامر عبسا عدوتها بالأمس ، وبخاصة ان حرب داحس والغبراء كان مبدؤها محاولة قيس بن زهير العبسي جمع السلاح استعداداً لحرب عامر والأخذ بثأر أبيه زهير بن جذيمة الذي قتله خالد بن جعفر الكلابي .

ثم تتحول الحرب أول أمرها بين رجلين من عبس هما : قيس بن زهير والربيع ابن زياد ، ثم بينهما وبين حذيفة بن بدر الفزاري الذبياني ، ثم تمضي الأيام والحرب ينسب اوارها حتى نجد التقارب والتحالف بين عبس وعامر ، والمتتبع لحرب داحس والغبراء يجد ان قبيلة عبس لم يكن أمامها الا بنو عامر ، بعد ان عادت القبائل التي جاورتها او حالفتها وقد كان زعماء عبس على قدر كبير من الذكاء والفطنة حين اختاروا عامراً ، فهي القبيلة القوية التي تستطيع ان تصد ذبيان واحلافها من أسد والرباب ، وقد قال في ذلك الربيع بن زياد ، حين توجهوا لمحالفة بني عامر : « اما والله لأرمين العرب بحجرها »[1] . وكان لهذا الحلف أثر في اثارة غيظ ذبيان وتميم لغزو بني عامر وبني عبس ، وراح لقيط ابن زرارة سيد تميم يحرض القبائل المعادية لعامر ، ويغري الملوك بأموال العامريين وسباياهم ، فأجابه الجون الكلبي ملك هجر ، فجهز جيشاً من كندة عليه ابناه عمرو ومعاوية . وكذلك أرسل النعمان بن المنذر جيشاً عليه أخوه لامه حسان بن وبرة الكلبي ، ويقال ان الجموع التي جمعت لقتال عامر لم يكن في الجاهلية أكثر منها ، فلم تشك العرب في هلاك بني عامر[2] . وقد ارادت تميم واحلافها في هذه الحرب ان تقطع شأفة عامر وتثأر لقتلاها في يوم رحرحان

---

١ — النقائض ٢/٦٥٤ .

٢ — النقائض ١/٢١٥ .

وغيره [١] . أما بنو عامر فكان معهم عبس وغنى وباهلة وجماعة من بني سليم وقبائل من بجيلة . وكان الاحوص يدبر أمر الناس ، وعلى تعبئة المقاتلين ابنه شريح . وقد ارتأى بنو عامر أن يتحصنوا في شعب (جبلة) فلا قبل لهم بهذه الجموع المتحالفة في السهل . فلما صعد اليهم أعداؤهم أرسلوا عليهم الابل وهي عطاش ، وقذفوهم بالحجارة والسهام ، وانحطت الابل تحطم كل شيء مرت به ، وخبطت تميماً ومن معها ، ومضوا منهزمين وبأعقابهم بنو عامر يقتلونهم كيف شاءوا . فكانت شر هزيمة لقيها هؤلاء الاحلاف . وقد أسر منهم عدد كبير ، وقتل في ذلك اليوم لقيط بن زرارة سيد تميم ، ومعاوية بن الجون الكندي .

لقد كان يوم شعب جبلة يوماً حاسماً في حيـــاة بني عامر ، انتصروا فيه ووطدوا مكانتهم وبعثوا الرعب والهلع في قلوب اعدائهم ، وبخاصة ان هذا النصر الجديد توج نصرهم في رحرحان منذ عام واحد .

وقد ذكرت غير رواية تاريخ هذا اليوم ، وان لم تتفق على تاريخ معين ، مع ان الروايات كلها تعزى الى أبي عبيدة ، فرواية تقول انه كان قبل الاسلام بتسع وخمسين سنة [٢] (حوالي سنة ٥٥٣ م) ، وفي النقائض روايتان : الاولى تجعله قبل الاسلام بسبع وخمسين سنة [٣] (حوالي سنة ٥٥٥ م) ، والثانية تقول انه قبل الاسلام بأربعين الى خمس وأربعين سنة [٤] ، (أي بين سنتي ٥٦٧ و ٥٧٢ م)، وتذكر بعض الروايات أن لبيداً شهد هذا اليوم وعمره تسع سنوات [٥] وقيل

---

١ ـ هناك أخبار أخرى في سبب هذه الحرب ذكرها ابن الأثير ، تاريخ الكامل ٣٥٥/١ .

٢ ـ الأغاني ٧٦٠/١١ .

٣ ـ النقائض ٦٥٤/٢ .

٤ ـ المصدر السابق ٢٢٦/١ .

٥ ـ الأغاني ١٤٩/١١ .



بضع عشرة سنة [1] وكان عمه عامر بن مالك يقول له : « اليوم يتمت من أبيك ان قتل اعمامك » اشارة الى يتمه فقد كانت بنو أسد قتلت أباه في يوم ذي علق [2] .

ورجعت عامر فخوراً بهذا النصر الساحق ، غير انها لم تمكث طويلاً حتى سمعت أن ذبيان تعد العدة للثأر منها ، وتوجهت ذبيان لغزو عامر وفيهم بنو عبس ، فاقتتلوا في يوم (شعواء) ، فكان يوماً لذبيان على عامر ، وأسر في هذا اليوم قرواش بن هانىء قاتل حذيفة بن بدر في يوم الهباءة من أيام داحس والغبراء ، أسره طلحة بن سنان ، فدفع الى حصن ابن حذيفة ليقتله بأبيه .

وبعد هذه الهزيمة التي منيت بها عامر وعبس ساءت العلاقة بينهما ففارقت عبس عامراً [3] وجاورت الرباب ، فبغت عليهم تميم وقامت الحرب بينهما ، وقتل من عبس كثير من رجالها حتى ضعفت وأنهكتها الحروب ، فكانت مضطرة أن تلوذ بعدوتها ذبيان ، وفق ما أشار عليهم قيس بن زهير : « فالموت معهم خير من البقاء مع غيرهم » ، فساروا حتى نزلوا على الحارث بن عوف بن أبي حارثة ، واستقر الأمر بين القبيلتين . على الرغم من فعلة الحصين ابن ضمضم الذي (طوى كشحا على مستكنة) ، وقد أشاد زهير بن أبي سلمى في معلقته بموقف ذبيان الحكيم ، وبفضل الحارث بن عوف ، وهرم بن سنان ، اللذين قبلا الصلح وكانا سبباً في إطفاء نار الحرب التي ظلت متقدة الاوار ردحاً طويلاً من الزمان .

أما عامر التي فقدت حليفتها عبساً ، فقد خرجت من يوم شعواء وهي حريصة على أن تعد العدة لملاقاة أعدائها والقضاء عليهم ، وهداها التفكير الى

---

١ – المصدر السابق والصفحة .

٢ – تاريخ ابن الأثير ٣٩٢/١ .

٣ – مجمع الأمثال ٥٩/٢ وفيه يذكر سبب هذا الفراق .



أن تستعين بملك من كندة هو حسان بن كبشة ، فخرج اليه أعيان بني عامر ، فيهم عامر بن مالك ، وأخوه الطفيل وعمرو بن الأحوص ، ويزيد بن الصعق ، وعامر بن كعب بن أبي بكر ، وقدامة بن سلمة بن قشير ، فرغبوه في حرب بني حنظلة بن مالك من تميم ، وقالوا له فيما قالوا : « هل لك في ابل عكر ونساء كالبقر وتسير مبرداً وترجع سالماً غانماً ، من قوم قد أوقعنا بهم حديثاً وقتلنا فرسانهم ورؤساءهم » .

يشيرون بهذا الى ما أحرزوه من نصر في يوم شعب جبلة ، قبل عام من هذا اليوم (يوم ذى نجب) . وهكذا غرروا بالملك الكندي الذي سار معهم بصنائعه ، والتقى الناس واشتدت الحرب ، فكان القتل نصيب الملك الطامع في الغنائم والسبايا ، وهزم أصحابه كما هزمت عامر ، وقتل قائدها عمرو بن الأحوص ، كما قتل عبيدة بن مالك عم لبيد ، وهرب من الموت الطفيل بن مالك على فرسه المشهور (قُرْزل) ، وعاد فَلُّ عامر يجر أذيال الخيبة [1] ، ثم مات بعدها الأحوص حزناً على ابنه عمرو ، وبهذا تنتهي زعامة الأحوص ليقود بني عامر فارس حازم شجاع ، هو أبو براء عامر بن مالك ملاعب الأسنة عم لبيد .

٣

لم يغرب عن بال بني عامر موقف ملك الحيرة المعادي لهم في يوم شعب جبلة، حيث ناصر جيشه تميماً واشترك معهم في القتال ، ولذلك فقد تعرض العامريون للطيمة النعمان بن المنذر التي أرسلها لتباع بمكة ، فغضب النعمان ، وثارت ثائرته ، وقرر الانتقام من بني عامر ، فجهز جيشاً من صنائعه ووضائعه [2] ،

---

١ – ابن الأثير ٣٦٣/١ .

٢ – الصنائع : حرس الملك . والوضائع : ألف رجل من الفرس كانوا يستخدمون في نصرة ملوك الحيرة .



عليهم وبرة الكلبي أخو النعمان لأمه ، وأرسل الى بني ضبة فأجابوه وعليهم ضرار بن عمرو ، وأجابه غيرهم من الرباب ، وتميم وأمرهم أن يسيروا الى بني عامر في نواحي (السلان) على أن يكتموا أمرهم حتى يفرغوا من عكاظ وتنسلخ الأشهر الحرم [1] . فلما كانوا بعكاظ علمت قريش بنواياهم ، فأرسل عبد الله بن جدعان التيمي الى بني عامر يعلمهم بما دبر لهم النعمان وذلك لما كان بين قريش وعامر من الحمس والصهر فتهيأ العامريون وعليهم عامر بن مالك، والتقى الجيشان بالسلان ، فاقتتلوا قتالاً شديداً ، كان النصر المؤزر فيه حليف بني عامر وأسروا وبرة الكلبي ، وحبيش بن دلف، وقد كسب العامريون الثراء من فداء الأسرى[2] .

وبدأ نجم عامر بن مالك منذ ذلك اليوم يتألق ، وسمي بهذا اليوم ملاعب الأسنة ، وصار له خط الكتيبة أجمع ، كما وصفه أوس بن حجر [3] .

ومن هذا يتبين أن السمة الظاهرة في حياة بني عامر هي حياة حرب وفروسية وأيام مرة تكون لهم وكثيراً ما تكون عليهم ، وهم في كل ذلك مستبسلون مستعدون للغارة .

ولعل للكبر الذي عرف في خصالهم ــ وقد مرت الاشارة اليه ــ أثراً في كثرة هذه الحروب واستمرارها. وقد لاحظنا أن ثلاثة من أيامهم الكبرى كانت تتوالى على رأس كل عام ، فلم يمض يوم رحرحان الا جاءهم على رأس الحول يوم شعب جبلة ، وبعده بعام خاضوا غمار يوم ذي نجب ، هذا غير الحروب الأخرى التي كانت ــ وهي أقل شأناً من أن يستكثر بذكرها الحديث ــ تتخلل الأيام الكبرى . ولم تقتصر خصومات عامر على القبائل المجاورة ، من مثل غطفان

---

١ ــ ابن الأثير ٣٩١/١ .

٢ ــ المصدر السابق ٣٩٢/١ .

٣ ــ الشعر والشعراء ١٩٧/١ ، والجمهرة ، ابن دريد ٣١٦/١ .



وقبائلها عبس وذبيان وفزارة ، وقبيلة تميم ، والرباب وبني أسد ، بل جاوزتها الى الحرب مع ملك هجر وملك الحيرة ، ولم تقف عند حرب الأباعد ، بل تناولت أيامها حرب الأقربين لفروع من بني عامر أنفسهم ، كما حدث في الحرب المجلية بين بني جعفر بن كلاب وبين أبي بكر بن كلاب ، وكلاهما من عامر بن صعصعة ، وقد عرفت هذه الحرب في كتب الأيام بحديث (ابن ضبا) [1] ومجمل هذه الحرب انها بدأت بقتل سعد بن ضبا الأسدي جار عتبة بن مالك بن جعفر – ويقال أسيره – قتله بنو أبي بكر ، برجل منهم كانت أسد قتلته قبل ذلك . ثم تفاقم الشر ، فقتل منيع الجعفري رجلاً من بني أبي بكر (هو ابن أخي جواب) . وكانت غنى مجاورة لبني أبي بكر ، وقد أصابت دما من بني جعفر (هو ابن عروة بن جعفر) ، فقال جواب (مالك بن كعب بن عبيدة ابن أبي بكر) : « قد أصابت غنى منكم دما، وأصبتم منا دما ، فبوئوا أحد القتيلين بالآخر » [2] . فأبى بنو جعفر ، وقالوا : « نعطيك الدم الذي أصبنا من ابنك ، وخل بيننا وبين ثأرنا من غنى ، فانا لا نرضى منهم بدون دية الملوك ، فأذنوا بحرب » [3] .

وقامت الحرب بين الحيين ، وخذل بنو جعفر وأذعنوا لحكم جواب الذي قرر نفيهم عن بلاد عامر ، فيمموا وجوههم شطر اليمن ونزلوا على بني الحارث بن كعب وحالفوهم ، وأقاموا هنالك حولاً . وأراد بنو الحارث أن يوثقوا صلاتهم ببني جعفر ، وذلك بأن يتزوجوا منهم ويزوجوهم ، فرضيت بنو جعفر غير أن عامر بن مالك سيد قومه ، فطن لما أراد بنو الحارث الذين قال بعضهم لبعض : « ما يمنع أن نتزوج من بني جعفر عشرين امرأة ، ونزوجهم عشرين

---

١ – النقائض ٥٣٢/١ – ٥٣٥ ط أوربا .

٢ – المصدر السابق ٥٣٣/١ .

٣ – المصدر السابق ٥٣٣/١ .



امرأة وتشتبك الأرحام بيننا وبينهم ، فانهم الاشراف والأكفاء ولا نبالي اذا فعلنا ذلك من أجلب علينا من العرب »[1] ، فنادى أبو براء في بني جعفر أن احتملوا بأثقالكم ونسائكم وسيروا حتى تقطعوا ثنية القهر – باليمن – ثم انزلوا بعدها . ففعل الجعفريون . ثم اذا كانوا هنالك وقف عليهم عامر بن مالك وقال : « هل أخذت لكم دية أو أبتكم على خسف قط ؟ قالوا : لا . قال : والله لتطيعنني أو لأتكئن على سيفي حتى يخرج عن ظهري . أتدرون ما أراد القوم ، أرادوا أن يستعينوا بكم على العرب ويذلوكم وانتم سادة هوازن ورؤوسهم»[2] ودعاهم الى العودة الى بلادهم والى اخوانهم ، فخرجوا قاصدين بني أبي بكر بن كلاب ، وتراجع بنو عامر فيما بينهم ، فرضي الجعفريون بحكم جيواب (مالك بن كعب) الذي أكرمهم وتحمل دية القتيلين الجعفري والغنوي[3] ، الا ان لبيداً لم يكن ليرضى بهذا الذي رضي به قومه ، وساءه ما رأى من استعلاء بني أبي بكر عليهم وقال في ذلك شعراً سنراه في موضعه المرسوم .

وفي غياب الجعفريين عن بلادهم كان قومهم بنو عامر قد خاضوا معركة قاسية في يوم (النسار)[4] مع الرباب من ضبة ، وفي صف العامريين بنو سعد من تميم . وكانت طبيعة ذلك اليوم قد جعلت تميماً تتفق مع عامر على ما بينهما من عداء – وان كان هذا الحي من تميم غير موتور مثل بني حنظلة – ومع كل ذلك لم تثبت تميم في المعركة حين استحر القتال ، وتركوا العامريين تتخطفهم سيوف القبائل وتسبي نساءهم ، وكانت شر هزيمة لقيتها عامر ، فقد قتل في ذلك اليوم شريح بن مالك القشيري رأس بني عامر ، وتوزعت ضبة وأسد نساء العامريين

---

١ – المصدر السابق ٥٣٤/١ .

٢ – النقائض ٥٣٤/١ .

٣ – المصدر السابق ٥٣٥/١ .

٤ – تاريخ ابن الأثير ٣٧٦/١ .



سبايا مهتكة الأعراض ؛ ولا شك أن غيـــاب الجعفريين وفرسانهم من بني أم البنين وأمثالهم ، ترك أثراً ملحوظاً في هذه الهزيمة .

ولا بد بعد هذا أن نقف هنا قليلاً لنستعرض صلات بني عامر ، فالى أين انتهت في هذه الفترة ؟ ان علاقة عامر بغطفان لم تتحسن ، على الرغم من محالفة عبس والتجائها الى عامر في فترة الضعف ، ولم يدم عهد الوفاق مع عبس فسرعان ما تحولت اختها ذبيان ، وانتهت حرب داحس والغبراء في غير صالح بني عامر حيث عادت غطفان تلم شعثها وتسترجع قواها . أما تميم فلم تنسَ أوتارها وتتربص بالعامريين. وبنو أسد حلفاء مخلصون لذبيان أما ضبة فقد كانت مزهوة بالنصر الذي أحرزته يوم النسار ، والجراح الرغيبة التي خلفتها سيوفها في بني عامر لما تندمل . ولم يبق من خصوم بني عامر الا ملك الحيرة الذي لم ينسَ بعد هزيمة جنده وصنائعه في يوم السلان ، اوقاع القرنتين ، وعلى هذا فان القبائل المحيطة ببني عامر ، ترى فيها القوة الخطرة التي تهدد كيانهم وعزتهم . وما كان العامريون يصافون أحداً أو يبادلونه الاحترام الا قريشاً وكنانة ، للذي ذكرت من الصهر والحمس ، ولما تتمتع به قريش من مكانة دينية مقدسة ، فهي سادنة الكعبة ، وصاحبة البيت ، والقائمة بأمور الحاج . فالجبهة الغربية لبني عامر هي وحدها جبهة السلم والامان . على أن الاحداث لم تمهل هذا السلم فسرعان ما جاءت لتعكره ، بل لتقوضه ، واذن أهل الحمس بالقتال ، وشب ضرام الحرب في الاشهر الحرم . وكان المؤمل ان تنبثق الشرارة الاولى من مكة ، أو من حمى ضرية ، أو من بيئة أخرى من مواطن عامر في نجد . غير ان ذلك لم يكن ، بل قدحت الشرارة الاولى من الحيرة ، وفي مجلس النعمان بالذات . أما كيف حصل ذلك فبيانه آت ، ونحاول الا نستبق الاحداث بل نجري معها .

جاء في الاخبار : ان بني جعفر وفدوا على النعمان بن المنذر ، وكانوا ثلاثين رجلاً عليهم أبو براء عامر بن مالك ، وفيهم لبيد بن ربيعة ، وكان أصغر

القوم [1] وكان عند النعمان الربيع بن زياد العبسي نديم النعمان وخصم العامريين الالد . فكان يوغر صدر الملك عليهم ، ويصد وجهه عنهم ، واستطاع لبيد ان يفحم الربيع ويخزيه لدى النعمان بارجوزة له مشهورة ، كان من أثرها ان غضب النعمان على الربيع وأمره بالانصراف الى أهله . فحسنت بذلك منزلة العامريين عند النعمان ، فقربهم وحباهم وأحسن وفادتهم ولا شك ان النعمان كان حريصاً على ان يؤمن طريق تجارته بابعاد خطر العامريين عنها ويصطنع منهم حماية للطائمه ، يمنعون عنها الغزاة من ذئبان الصحراء ، ولذلك فقد وكل الى عروة الرحال بن عتبة بن جعفر العامري اجارة لطيمة له . وكان البراض بن قيس الكناني – أحد فسقة العرب الخلعاء – حاضراً يشهد حديث النعمان وعروة فساءه ما يرى ، وسأل عتبة : « اتجيرها على كنانة » ؟ قال عروة « نعم وعلى الخلق كله » [2] . فخرج عروة باللطيمة وتعقبه البراض يريد غفلته ، حتى اذا تمكن منه وثب عليه فقتله في العالية بتيمن ذي ظلال في الشهر الحرام ولذلك سمي الفجار [3] وقال ابن هشام : « فأتى آت قريشاً فقال : ان البراض قد قتل عروة وهم في الشهر الحرام بعكاظ ، فارتحلوا ، وهوازن لا تشعر بهم ثم بلغهم الخبر فاتبعوهم فأدركوهم قبل ان يدخلوا الحرم ، فاقتتلوا حتى جاء الليل ، ودخلوا الحرم فأمسكت عنهم هوازن » [4] . ثم استمر القتال بعدها كل عام ، فدامت الحرب اربع سنين وهي أيام الفجار الثاني ، وقد شهد رسول الله ﷺ بعض أيام هذه الحرب ، وعمره عشرون سنة [5] وقيل غير ذلك [6] وكان على بني

---

١ – خبر هذا الوفد مذكور في كثير من المصادر وسنعود اليه عند الحديث عن حياة لبيد بشيء من التفصيل . انظر هنا الأغاني ١٥/٣٦٣ – ٣٦٥ .

٢ – السيرة النبوية ١/١٨٥ .

٣ – السيرة النبوية ١/١٨٥ ومعجم البلدان (ظلال) ٣/٥٧٩ .

٤ – المصدر السابق ١/١٨٦ .

٥ – المصدر السابق والصفحة .

٦ – معجم البلدان ٣/٥٧٩ (ظلال) وعن أبي عمرو بن العلاء بدأت والرسول عمره أربع عشرة سنة او خمس عشرة سنة .



عامر في هذه الحرب عامر بن مالك ، وعلى قريش وكنانة حرب بن أمية ، وكانت الحرب سجالاً مرة لقيس على كنـــانة وقريش ومرة لهما على قيس . وانتهت بالصلح ، وكان لخداش بن زهير شاعر بني عامر شعر كثير في تلك الايام .

٤

كانت حروب الفجار آخر المعارك التي قاد أبو براء بني عامر فيها ، أما الحروب التي تلتها فان القيادة الحربية لبني عامر تنتقل لفارس جديد هو عامر ابن الطفيل الشاب الطموح المتلىء حماسة وقوة ، وهو ابن عم لبيد واصغر منه سناً . وبقيت زعامة بني عامر بيد أبي براء الذي صار يخطو نحو الشيخوخة ، وظل اسمه لامعاً مرموقاً حتى آخر أيامه .

وأول معركة خاضهـــا عامر بن الطفيل قائداً لقومه هي معركة (يوم الرُّقم) ، فقد خرجت بنو عامر من حروب الفجار بعد ان شغلت بها سنين عدداً ، لا لتلقي السلاح بل لتشحذه استعداداً لغارة جديدة على عدو قديم كان قد هزمها يوم شعواء وذلك العدو هو غطفان بنو مرة بن عوف ومعهم ناس من اشجع وفزارة — فالتقوا بالرقم واقتتلوا أشد قتال ، وقد ابلت غطفان في ذلك اليوم بلاء كبيراً ، استطاعت فيه أن تهزم بني عامر ، ثم عادوا ثانية فاوقعوا بالعامريين هزيمة أخرى في يوم (ساحوق)[1] وكبدوهم خسائر فادحة ، اذ أسروا منهم أربعة وثمانين عامرياً — وقبل سبعين —[2] ذبحتهم أشجع جميعاً .

---

١ — تتداخل اخبار يوم الرقم ويوم ساحوق ، ويخلط الرواة بينهما لتشابـــه احداث هذين اليومين فالأسر والهزيمة في بني عامر والظفر لغطفان ، وفي اكبر الظن ان بين اليومين أمداً قصيراً جداً ، وان اليوم الثاني امتداد للأول ، ينظر ابن الأثير ٣٩٤/١ والعقد الفريد ٣١٨/٣ .

٢ — ابن الأثير ٣٩٣/١ ، وانظر ديوان عروة بن الورد ص ١٣٥ ط ابي شنب ، الجزائر.

وفر الحكم ابن الطفيل في نفر من أصحابه حتى قطع العطش اعناقهم فماتوا ، وخاف الحكم أن يؤسر ويمثل به فشنق نفسه في شجرة ، والى ذلك يشير عروة ابن الورد في قوله :

عجبت لهم اذ يخنقون نفوسهم ... ومقتلهم تحت الوغى كان أجدرا

وكذلك فر عامر بن الطفيل ، ورجع العامريون يجرون أذيال الخيبة ، وبعد هذه الهزيمة ، قام عامر بن الطفيل بحملة انتقامية ، فأغار مع قومه على نعم لعبس وذبيان وأشجع وساقوها قاصدين بلادهم ، غير انهم ضلوا الطريق وسلكوا وادي النبأة [1] ، فلحق بهم فرسان غطفان واوقعوا بهم هزيمة منكرة ، قتلوا فيها رجالاً من اشراف بني عامر ، منهم البراء بن عامر بن مالك وعبد الله بن الطفيل أخو عامر بن الطفيل ، قتله الربيع بن زياد العبسي ، وقتل ثلاثة من أبناء مرة بن أنس بن خالد بن جعفر هم : نهشل ، وأنس ، وهزار . وفر عامر ابن الطفيل — ثالثة — على فرسه الورد .

وحين كانت عامر تنتجع موضعاً (يفيف الريح) ، جاءتها جموع كثيرة من غزاة بني الحارث بن كعب [2] — جيران الجعفريين حين نفاهم قومهم عن بلادهم — يقودها الحصين بن يزيد الحارثي . فالتحم الناس ، وقد أبلى بنو عامر في هذا اليوم بلاء شديداً ، ومعهم بنو نمير وكثر القتل في الفريقين ، والرواة يحمدون لبني عامر حسن صبرهم وبسالتهم في هذه الموقعة ، حيث يقولون : « وكان

---

١ — ابن الأثير ١/٣٩٥ ، وفي معجم البلدان (النتأة) كهمزة . وكذلك في الأغاني ١٠/٣١٣ .

٢ — فيهم بنو الحارث وجعفى وزبيد وقبائل سعد العشيرة ومراد وصدأ ونهد وخثعم . انظر ابن الأثير ١/٣٨٧ .



الصبر والشرف لبني عامر »[1] وقد أبدى عامر بن الطفيل في هذا اليوم بطولة واقداماً ، فقد ثبت في القتال وكثر فيه الطعن ، حتى أنه أصيب بعشرين طعنة ما بين ثغرة نحره الى سرته . وذهبت عينه في هذا اليوم ، لأنه كان يتعهد الناس وينظر في سيوفهم ، فاذا رأى في سيف أحدهم الدماء حمد له حسن بلائه ، والا فيدفعه ليطعن في الأعداء ، فجاء مسهر بن يزيد الحارثي — وكان جنى جناية في قومه فلحق ببني عامر وحضر معهم هذا اليوم — ليريه رمحه ، فلما قرب منه وجأه بالرمح في وجنته ففلقها وأصاب عينه وولى هارباً ليلحق بقومه[2] والى ذلك يشير عامر بن الطفيل بقوله[3] :

لعمري وما عمري علي بهين   لقد شان حر الوجه طعنة مسهر

وقد برز اسم اربد بن قيس — أخي لبيد لأمه — في هذا اليوم ، وعبيد بن شريح بن الأحوص ، لحسن بلائهما ، ويؤرخ هذا اليوم بمبعث رسول الله ﷺ[4] والقتال في هذا اليوم ثلاثة أيام ، في مواضع متصلة : (فيف الريح) و (الأجشر) و (بضيع)[5] ويسميه لبيد في شعره : يوم (الذهاب)[6] ، ويقول البكري : ان يوم فيف الريح جر يوم (العرقوب) وهو من ديار خثعم أغارت فيه بنو كلاب عليهم فقتلوا يومئذ اشراف خثعم[7] .

---

١ — الكامل ، لابن الأثير ٣٨٨/١ .

٢ — وانما دعاه الى ذلك ما رآه يفعل بقومه فقال : «هذا والله مبيد قومي» . ابن الأثير ٣٨٧/١ .

٣ — ابن الأثير ٣٨٧/١ ومعجم البكري ١٠٣٨/٣ .

٤ — معجم البكري ١٠٣٨/٣ والعقد الفريد ٨٩/٦ .

٥ — معجم البكري ١٠٣٨/٣ .

٦ — الديوان ص ١٣٢ — ١٣٣ .

٧ — معجم البكري ١٠٣٩/٣ .





بعد فيف الريح وما تبعه ، تهدأ ريح القتال التي هبت على بني عامر طيلة القرن السادس لتبدأ عهداً جديداً يتحول فيه وجه الدنيا ، وينشغل الناس عن المعارك التي دارت رحاها في نجد والحجاز بين العامريـــين وجيرانهم من شتى الجهات ، وتتجه الأنظار في هذه الحقبة المباركة نحو مكة مهبط الدين الجديد فقد ظهر النبي القرشي الذي جاء يبشر برسالة السماء ويدعو الى دين الله .

ولا شك ان عامراً قد سمعت برسول الله منذ وقت مبكر ، وعرفت موقف قريش منه وما فعلت به من أفاعيل ، لأن عامراً كانت على صلة وثقى بقريش ، وهي قريبة من مكة مطيفة بها في كثير من الأحايين . وكان رسول الله ﷺ يعرض نفسه على القبائل ويدعوهم الى الله تعالى « وهو لا يسمع بقادم يقدم مكة من العرب له اسم وشرف إلا تصدى له فدعاه الى الله وعرض عليه ما عنده »[1] فأتى النبي عامر بن صعصعة حين حضروا الموسم ، فدعاهم الى الله عز وجل ، فلم يستجيبوا له ، اذ كانوا ينظرون الى المكسب ويطمحون الى حكم الناس ، فقد سأله سائل منهم — هو بَيْحَرَة بن فراس — : « أرأيت ان نحن تابعناك على أمرك ثم أظهرك الله على من خالفك ، أيكون لنا الأمر من بعدك ؟ » قال رسول الله : « الأمر الى الله يضعه حيث يشاء »[2] ، فصدت عنه عامر مع انهم رأوا بفراستهم ما ينتظر هذا الرجل من مجد ونصر ، فقال أحدهم : « والله لو اني أخذت هذا الفتى من قريش ، لأكلت به العرب »[3] وتمضي الرواية فتبين ان رجلاً من شيوخ بني عامر — أدركته السن فلم يقدر ان يوافي معهم الموسم — كان يلوم قومه حين عادوا الى بلادهم ، على انهم أخطأوا طريق الصواب حين صدوا عن النبي ، وكان مما قال : « يا بني عامر ، هل لها من تلاف هل لذناباها

---

١ — السيرة النبوية ١/٤٢٥ .

٢ — المصدر السابق ، والطبري ١/١٢٠٦ ط أوربا .

٣ — المصدر السابق والصفحة .



من مطلب ، والذي نفس فلان بيده ما تقولها اسماعيلي قط ، وانها لحق فأين كان رأيكم منه »[1] .

وبقيت عامر على غير الاسلام ، كأكثر الاعراب الذين لم يسلموا الا عند ما كتب الله لرسوله والمؤمنين النصر والفتح ، بالقضاء على معقل الشرك والوثنية في مكة ودحر هوازن في يوم حنين ، وكان ذلك في السنة التاسعة من هجرة الرسول الكريم .

ولنمض مع بني عامر نحاول أن نستقرىء أحداثهم — على ما فيها من اضطراب .

٥

في الاسلام :

حياة بني عامر في الاسلام لها طابع جديد لم تكن تعهده من قبل ، ذلك ان بني عامر كانت تجتمع حول زعيم تطيعه وتمحضه ودها واحترامها ، وكان آخر زعيم قوي مطاع التفت حوله عامر هو أبو براء عامر بن مالك ، الذي قادها من نصر الى نصر ، وقد تقدمت به السن ، وأعطى قيادة فرسان قومه الى ابن أخيه الشاب عامر ابن الطفيل منذ يوم الرقم — كما تقدم — وظل أبو براء زعيم بني عامر المفضل ، ويبدو انه قد أصيب مع شيخوخته بمرض ، لذلك نجد لبيداً يقصد المدينة يلتمس دواء لعمه ومهما يكن من شيء فقد طمع في زعامة بني عامر رجلان لكل منهما أثره وخطره هما : عامر بن الطفيل فارس بني عامر وقائدهم في الحروب، وعلقمة بن علاثة حفيد الاحوص زعيم بني عامر ،

---

١ — المصدر السابق والصفحة ، الطبري ١٢٠٦/١ .

قبل ان تنتقل الزعامة الى أبي براء عم عامر بن الطفيل ، وتفاقم الشر بينهما فتنافرا [1] وكانت البداية ان تراشق المتنافران بنثر مسجوع ، كل منهما يفضل نفسه ويفخر على صاحبه ، فمما قال عامر : « والله لانا اكرم منك حسباً ، وأثبت منك نسباً ، وأطول منك منصباً » قال علقمة : « لأنا خير منك ليلاً ونهاراً » ثم قال عامر : « والله لأنا أركب منك في الحماة ، وأقتل منك للكماة وخير منك للمولى والمولاة » فقال علقمة : « والله اني أعز منك ، أني لـــبر وانك لفاجر ، واني لوفي وانك لغادر ، ففيم تفاخرني يا عامر » . فقال عامر : « والله أني لأنزل منك للقفرة ، وانحر منك للبكرة ، وأطعم منك للهبرة ، وأطعن منك للثغرة » فقال علقمة : « والله انك لكليل البصر نكد النظر وثاب على جاراتك بالسحر » [2] وهكذا تمضي المنافرة . ويسري الشر بينهما ، ثم تنافرا بخيرهما وأقربهما الى الخيرات على مائة من الابل . واحتكموا الى خزيمة بن عمر بن الرجيد ثم الى أبي سفيان بن حرب ... ثم الى حرملة بن الاشعر المري وكلهم يتحرج من الحكم فلا يقول بينهما شيئاً ، ثم انتهى الأمر الى هرم بن قطبة الفزاري [3] واستطاع هرم بدهائه وحسن حيلته ان يدفع الشر الذي شرى في بني عامر فأوهم كلا من الخصمين ان صاحبه أفضل منه وانه سيحكم له ، حتى

---

١ – هناك أكـــثر من رأي في سبب المنافرة ، لا أميل اليه ، من ذلك ما ذكره صاحب الأغاني (١٦/٢٨٣ ط الدار) من أن علقمة وعامراً تهـــاترا في أمر قبيح ، بدأ به عامر بن الطفيل ، ورأي آخر أضعف من سابقه مفاده : ان علقمة دخل على ملك الروم وكان الملك معجباً بعامر بن الطفيل ، فقـــال له : أنت ابن عم عامر ابن الطفيل ؟ فغضب علقمة . وكان ذلك مما أوغر صدره ودعاه الى المنافرة (بلوغ الأرب ٢/١٢٩) وهذا رأي يخطئه ان ذهاب علقمة الى بلاد الروم كان في زمن متأخر عن المنافرة ، وذلك حين أسلم ثم ارتد . وان المنافرة كانت قبل بئر معونة أي قبل سنة اربع للهجرة ، في وقت لم يك علقمة قد أسلم ولا ارتد .

٢ – الأغاني ١٦/٢٨٥ – ٢٨٦ ، وانظر الهجاء والهجاؤون في الجاهلية ، محمد حسين ص ٨٨ – ٩٣ .

٣ – الأغاني ١٦/٢٨٧ .



كان كل منهما يرجوه الا يفعل وان يرضي بينهما بالتسوية ، قال عامر بن الطفيل حين انفرد به هرم : « أنشدك الله والرحم الا تفضل علي علقمة ، فوالله لئن فعلت لا أفلح بعدها أبداً » وفي هذا المعنى قال علقمة كذلك حين انفرد به هرم[1] فلما كان اليوم الموعود للحكم بين المتنافرين ، قال هرم كلمته وقد سوى بينهما : « يا بني جعفر ، وقد تحاكمتما عندي وانتما كركبتي البعير الادرم تقعان على الارض معاً ، وليس فيكما أحد الا وفيه ما ليس في صاحبه وكلاكما سيد كريم »[2] لقد كانت هذه المنافرة من أشهر ما جرى في الجاهلية من منافرات ، وقد تحزب بنو عامر ، وغدوا طائفتين ، الاولى تتعصب لعامر ابن الطفيل ، والثانية تتعصب لعلقمة بن علاثة ، وقد كاد الخطب يحل وان تسيل دماء . وكان الشعراء يغذون هذه المنافرة بشعرهم الذي يحمس الناس ، وهم فئتان : فلبيد والأعشى مع عامر بن الطفيل ، والحطيئة وفتيان من بني الاحوص منهم السندري بن يزيد بن شريح ، ومروان بن سراقة مع علقمة ونلاحظ ان شاعرين من كبار شعراء العصر من غير بني عامر يثوران مع الثائرين هما : الاعشى والحطيئة ، وفي هذا دلالة واضحة على أهمية المنافرة ، وانتشارها وتحمس الشعراء لها . وقد هزت هذه الحادثة عواطف الناس ، فصارت تتحدث بها في مجالسها ، وتتناقل أخبارها على مر الزمان ، حتى ان عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، في عهد خلافته سأل هرماً – وكان هرم قد ادرك الاسلام وحسن اسلامه – عن أي الرجلين كان مفضلا لو فضل ، فأبى ان يفضل أحداً منهما على صاحبه « لو قلت ذاك يا أمير المؤمنين لعادت جذعة ، ولبلغت شعاف هجر »[3] فسر عمر لأمانة هرم ، وأثنى عليه .

---

١ – المصدر السابق ص ٢٩١ .

٢ – المصدر السابق ٢٩٢/١٦ .

٣ – نفس المصدر ٢٩٣/١٦ .

ترى اين كان عامر بن مالك سيد القوم من هذه المنافرة ، أكان راضياً عنها أم مبغضاً لهـــا ، لعل في هذا الخبر بياناً لموقفه ذاك الذي يبدو فيه بغضه لهذه المنافرة ، ففيها تفرقة لقومه واساءة الى الارحام من ناحية ، واشفاقه على ابن أخيه ان يدحر فيخذل أهله الأقربون من ناحية ثانية ، وفي الخبر أيضاً دلالة بينة على مكانة أبي براء وانتصاراته الكثيرة التي بلغت أربعين مرباعاً في أربعين غزوة : قالوا : « أتى عامر بن الطفيل عمه عامر بن مالك وهو أبو براء فقال : يا عماه ، اعني . فقال : يا بن أخي : سبني ، فقال : لا أسبك وأنت عمي . قال : فسب الاحوص . فقال عامر : ولا أسب والله الأحوص وهو عمي فقال : فكيف اذن أعينك ؟ ولكن دونك نعلي ، فاني قد ربعت فيها أربعين مرباعاً ، فاستعن بها في نفارك »[1] .

بهذه الحال انتهت المنافرة ، وما زال أبو براء هو زعيم القوم ، وعامر بن الطفيل هو قائدهم غير المطاع ، وبخاصة بعد المنافرة ، ودليلنا على هذا ان بني عامر – خذلت عامر ابن الطفيل حين غدر بالمسلمين ونقض جوار أبي براء في بئر معونة .

وقبل ان نبحث في أمر يوم معونة يجدر ان نقف قليلاً لننظر موقع هذه الاحداث من التاريخ . أكانت بئر معونة قبل المنافرة أم بعدها ؟ واذا عرفنا زمن بئر معونة لأنها حادثة اسلامية مدونة في كتب السيرة – فاننا نجهل زمن المنافرة ، أكانت قبل معونة أم بعدها ، في الجاهلية أم في الاسلام ؟

ان المنافرة لا بد ان تكون قد حدثت قبل بئر معونة ، لأن أبا براء شهد المنافرة كما مر بنا في رواية الأغاني[2] ومات بعد بئر معونة بقليل ، فقد قتل

---

١ – الأغاني ٢٨٦/١٦ .

٢ – المصدر السابق والصفحة .



نفسه على أثر هذا الحادث المؤلم بأن شرب الخمر ثم اتكأ على سيفه . وبئر معونة كانت سنة أربع من الهجرة المباركة [1] فتكون المنافرة سابقة لهذا التاريخ أي ـ لا تتعدى سنة أربع . فأما أن تكون قبل البعثة أو بعدها فاننا لا نستطيع الجزم بأحد الرأيين بغير دليل . فقد مرت بنا رواية [2] تنص على أن يوم فيف الريح كان عند مبعث رسول الله ﷺ ، وفي هذا اليوم كان عامر ابن الطفيل قائداً لبني عامر ، وكان صحيح العين حر الوجه ، حتى وجأه مسهر بن يزيد الحارثي برمحه في وجنته فاظلمت احدى عينيه ، وبذلك يقول مسهر الحارثي [3] :

وَهُضْتُ بِخُرصِ الرمحِ مقلةَ عامرٍ

فأضحَى بَخِيْصاً في الفَوَارِس أعوَرَا

وعامر نفسه يقر بذلك فيقول [4] :

لعَمْرِي وما عُمرِي عليَّ بهيِّنٍ … لقد شانَ حُرَّ الوجهِ طَعْنَةُ مُسْهِرِ

فبئْسَ الفتَى ان كُنت أعوَرَ عاقِرا … جَبانا وما أُغنِي لدَى كلِ محضَرِ

وعلى هذا يتأيد لنا ان اصابة عين عامر كانت في يوم فيف الريح وفي أول الاسلام ، وان المنافرة كانت بعد فيف الريح وتكون أيضاً في الاسلام ، وأية

---

١ ـ الطبري ١/١٤٤٢ ط أوربا وفي السيرة ٢/١٨٣ . بقول في صفر على رأس أربعة اشهر من أحد .

٢ ـ معجم البكري ٣/١٠٣٨ والعقد الفريد ٦/٨٩ .

٣ ـ ابن الأثير ١/٣٨٧ . خرص الرمح : سنانه . البخيص : الغائر العين .

٤ ـ المصدر السابق والصفحة .



ذلك ان علقمة حين نافر عامراً كان يعيره عور عينه ، وعامر يقر بذلك . قال علقمة : « أني خير منك أثراً واحد منك بصراء وأعز منك نفراً وأسرح منك ذكراً » قال عامر : « ليس لبني الاحوص فضل على بني مالك في العدد . وبصري ناقص وبصرك صحيح ... » [1] فلا شك بعد هذا ان المنافرة كانت في الاسلام وانها سابقة على بئر معونة بأعوام قليلة . فما بئر معونة هذي ؟

* قصد أبو براء عامر بن مالك مدينة الرسول بعد معركة احد ، وقد أعد هدية (فرسين وراحلتين) [2] ليقدمها الى رسول الله ﷺ ، فأبى الرسول الكريم ان يقبل هديته . على انها هدية مشرك وردها متلطفاً . ودعاه الى الاسلام ، وأخبره بما له فيه ، وما وعد الله المؤمنين من الثواب وقرأ عليه القرآن « فلم يسلم ولم يبعد » [3] . وقد كان قلب أبي براء ميالاً الى الاسلام مع شيء من التردد ، مرجعه محافظة الشيوخ على القديم الموروث وكان يود ان يسلم قومه وينتشر الاسلام في نجد ، وبذلك قال أبو براء : « يا محمد ان أمرك هذا الذي تدعو اليه حسن جميل ، فلو بعثت رجالاً من أصحابك الى أهل نجد فدعوهم الى أمرك ، رجوت ان يستجيبوا لك » [4] . وتخوف النبي من أهل نجد ، فتعهد أبو براء أن يكونوا في جواره وعهده ، فبعث رسول الله ﷺ ، المنذر بن عمرو في سبعين رجلاً من القراء [5] ، من خيار المسلمين ، منهم : الحارث بن الصمة ، وحرام بن ملحان ، وعروة ابن أسماء السلمي ، ونافع بن بديل الخزاعي ، وعامر بن فهيرة

---

١ – الأغاني ٢٨٥/١٦ .

٢ – امتاع الاسماع ، المقريزي ١٧٠/١ ط محمود شاكر ١٩٤١ م .

٣ – السيرة ١٨٣/٢ والطبري ١٤٤٢/١ .

٤ – الطبري ١٤٤٢/١ .

٥ – الطبري ١٤٤٣/١ وفي السيرة ٨٤/٢ أربعون رجلا ، وأكثر المراجع على ما أثبتناه . انظر الروض الآنف ، السهيلي ١٧٤/٢ .



مولى أبي بكر ، في رجال مسمين . فساروا حتى نزلوا بئر معونة وهي « بين أرض بني عامر وحرة بني سليم ، كلا البلدين منها قريب ، وهي الى حرة بن سليم أقرب »[1] فأرسل المسلمون حرام بن ملحان بكتاب رسول الله ﷺ ؛ الى عامر بن الطفيل فعدا عليه عامر وقتله ، واستصرخ قومه بني عامر على قتال المسلمين ، فأبوا أن يجيبوه وقالوا : « لن نخفر أبا براء ، وقد عقد لهم عقداً وجواراً » فاستصرخ عليهم قبائل من سليم : من عصبة ورعـــل وذكوان ، فأجابوه وحاصروا المؤمنين في رجالهم ، واقتتلوا حتى كتبت لهم الشهادة جميعاً غير كعب بن زيد فانه ادرك وبه رمق فارتث من بين القتلى[2] .

وقد كان في سرح المسلمين رجلان : عمرو بن أمية الضمري وأنصاري من بني عمرو ابن عوف ، فلما أقبلا وجدا مصاب اخوانهم ، فقاتلا القوم ، فقتلوا الانصاري وأخذوا عمرو بن أمية أسيراً ، ثم أطلقه عامر بن الطفيل بعد أن جز ناصيته وأعتقه عن رقبة زعم انها كانت على أمه[3] . ثم ان عمراً حين رجع لقي في طريقه — وهو بالقرقرة من صدر قناة[4] — رجلين من بني عامر — وكان معهما عقد وجوار من رسول الله ﷺ ، لم يعلم به عمرو — فعدا عليهما وهـــو يحسب انه قد أصاب بهما ثؤرة من بني عامر ، فلما قدم عمرو المدينة على رسول الله ﷺ أخبره الخبر ، فقال رسول الله ﷺ : « لقد قتلت قتيلين لأدينّهما » . ثم قال : « هذا عمل أبي براء ، قد كنت لهذا كارهاً متخوفاً »[5] . أما أبو براء

---

١ — السيرة ٢/١٨٤ .

٢ — المصدر السابق ٢/١٨٥ .

٣ — الطبري ١/١٤٤٤ .

٤ — المصدر السابق ١/١٤٤٤ ، ومعجم البلدان (قرقرة) .

٥ — السيرة ٢/١٨٦ والطبري ١/١٤٤٤ .



فقد شق عليه اخفار عامر إياه ، وما أصاب رسول الله بسببه وجواره ، وقد بكى شعراء المسلمين شهداء معونة ، ولاموا أبا براء في شعر حزين مؤثر ، فمما قال حسان بن ثابت ، يحرض على عامر بن الطفيل [1] :

بني أم البنين ألم يرعكم وأنتم من ذوائب أهل نجد

تهكم عـــامر بأبي براء ليخفره وما خطأ كعمد.. الخ

فلما بلغت أشعار المسلمين ربيعة بن عامر بن مالك . نهض الى عـــامر بن الطفيل – ابن عمه – فطعنه « فشطب الرمح عن مقتله ، فخر عن فرسه » ، فقال عامر : « هذا عمل أبي براء ، ان مت فدمي لعمي فلا يتبعن به ، وان أعش فسأرى رأيي » [2] ، ولم يمت عامر بن الطفيل ، وعاش غير طويل ليهلك في سنة تسع حتف أنفه .

واضطرب أمر بني عامر بعد بئر معونة ، وحزن أبو براء حزناً شديداً على فعلة ابن أخيه وما أورث قومه من هم ثقيل ، وعار لا تمحي وصمتـــه الأيام – وتفقد عامر سيدها الوقور أبا براء ، ويختلف الرواة في سبب موته ، فمن قائل : انه دعا قومه بني عامر الى الوثوب بعامر بن الطفيل لما فعله بالقراء المسلمين ، فلم يجيبوه فغضب فدعا بالخمر فشربها صرفاً حتى قتلته [3] ، ومن قائـــل : انه رأى قومه يرتحلون يريدون النجعة بغير أمره ولما سأل عن ذلك أجابه بعض بني أخيه : « انهم يزعمون انه قد حدث لك عارض في عقلك ، لإرسالك الى

---

١ – السيرة النبوية ١٨٧/٢ وما بعدها ، وهناك شعر كثير لحسان وكعب بن مالك بديوان حسان ص ٥٠ ط هيرسفيلد ليدن ١٩١٠ .

٢ – السيرة ١٨٨/٢ والطبري ١٤٤٦/١ .

٣ – الشعر والشعراء ص ٢٢٤ ط ليدن .



هذا الرجل » . يعني رسول الله ﷺ ، فكبر ذلك على أبي براء ، فدعا بالخمر فشرب وغنته قينتاه بشعر للبيد ، وقال له : « يا لبيد ، أرأيت ان حدث بعمك حدث ما أنت قائل فان قومك يزعمون ان عقلي قد ذهب ، والموت خير من عزوب العقل » ، فأنشده لبيد رثاء حزيناً ، حتى اذا أثقلته الخمر ، اتكأ على سيفه حتى مات [1] . ويزعم بعض بني جعفر ان عامراً مات مسلماً [2] .

ومهما يكن من شيء ، فقد انتهى أبو براء ، الذي كان يريد لقومه أن يسلموا ، ويتبعوا النبي الجديد ، وكانت بنو عامر تميل الى الاسلام ، فما يصدها عن ذلك الا عامر بن الطفيل ، وقد كانوا يرغبونه في الاسلام ويقولون له : « يا عامر ، ان الناس قد أسلموا فاسلم » [3] ، ويأبى عامر بن الطفيل الا العناد والمكابرة ، فكان يرى في رسول الله زعيماً من زعماء العرب ، لا يريد أن يذعن له أو يتبعه ، فلذلك يقول : « والله قد كنت آليت ألا أنتهي حتى تتبع العرب عقبي أفأنا أتبع عقب هذا الفتى من قريش » [4] .

وفي عام الوفود سنة تسع ، توجه عامر بن الطفيل — يصحبه اربد بن قيس (أخو لبيد لأمه) وجبار بن سلمى بن مالك — يريد رسول الله ﷺ ، لا ليسلم كما جاءت وفود العرب ، بل ليضمر الغدر والمكيدة ، وقد أمر أربد أن يغدر بالنبي فيعلوه بالسيف إذا انفردا به ، فخاب سعيهما ، ورجعا مغاضبين بعد

---

١ — المحبر، ابن حبيب ص ٤٧٣ . يبدو ان الروايتين واحدة ، كل منها تكمل الاخرى. وهناك رواية مغرقة في الخطأ تزعم ان الرهيص حيان بن عمرو قاتل عنترة العبسي ، هو قاتل عامر بن مالك ، (منتخبات من شمس العلوم ص ٤٢) .

٢ — سرح العيون ص ١٣٤ .

٣ — الطبري ١/١٧٤٦ .

٤ — المصدر السابق ١/١٧٤٦ ط أوربا .



كلام لهما مع النبي الكريم ، ويقال : ان رسول الله ﷺ استكفى الله بني عامر حين راوغ عامر وهدد وأوعد فقال : « اللهم أكفني عامراً وأهد بني عامر » وانصرف عامر وهو يقول : « لأملأنها عليك خيلاً جرداً ، ورجالاً مرداً ، ولأربطن بكل نخلة فرساً » [1] . وهلك عامر بن الطفيل وهو يغادر المدينة في طريقه الى أرض قومه فأصابته غدة بعنقه فمات في بيت امرأة من بني سلول [2] وكان عامر يتذمم من هذه النهاية فيقول : « أغدة كغدة البعير ، وموت في بيت سلولية » فذهبت مثلاً [3] وكذلك هلك أربد ، أصابته صاعقة فأحرقته [4] ، ويقال ان الآية الكريمة : « ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء» نزلت فيه[5] .

٦

وفي نفس العام الذي مات فيه عامر بن الطفيل أسلمت بنو عامر ، وقد بعث رسول الله ﷺ الضحاك بن سفيان اليهم يعلمهم الاسلام ، وييسر فيهم بكتاب الله وسنة رسوله ، وقد جاء المدينة وفد منهم — ثلاثة عشر رجلاً — فيه لبيد بن ربيعة ، وجبار بن سلمى فأنزلهم الرسول الكريم دار رملة بنت الحارث ، وقالوا : « يا رسول الله : ان الضحاك بن سفيان سار فينا بكتاب الله

---

١ — الشعر والشعراء ص ١٩٢ ط ليدن ، أسباب النزول ص ٢٧٦ ، البداية والنهاية لابن كثير ٥٧/٥ ، والكامل لابن الأثير ٢٠٤/٢ .

٢ — الطبري ١٧٤٧/١ .

٣ — مجمع الامثال ٥٧/٢ ، وانظر كذلك السيرة ٥٦٨/٢ .

٤ — السيرة ٣٣٧/٢ ، والطبري ١٧٤٧/١ ، وانظر كذلك الكامل ١٢٠٠/٣ ، وتفسير الطبري ٨٠/١٣ .

٥ — تفسير الطبري ٨٠/١٣ — ٨١ ، وانظر أسباب نزول القرآن ، الواحدي ص ٢٧٦ ، والشعر والشعراء ص ١٥١ .

وبسنتك التي أمرته ، وانه دعانا الى الله فاستجبنا لله ولرسوله وانه أخذ الصدقة من أغنيائنا ، فردها على فقرائنا »[1] .

وبهذه الحال دخلت بنو عامر فيما دخل فيه الناس ، من الايمان والهداية ، وقد شرفت عامر في الاسلام وعلا قدرها ، وذلك ان امرأتين منهم كانتا من أمهات المؤمنين ، هما ميمونة بنت الحرث من بني هلال بن عامر بن صعصعة ، وزينب بنت خزيمة أم المساكين من بني هلال بن عامر بن صعصعة[2] . وقبل ذلك كانت في بني عامر مجد بنت تيم بن مرة القرشية قد تزوجها ربيعة بن عامر فولدت له عامراً وكعباً وكلاباً وكليباً . وقد تشابكت الأرحام بين بني عامر وآل رسول الله ﷺ ، فتزوج علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، أم البنين بنت حزام بن خالد من بني عامر بن صعصعة ، فولدت له العباس وجعفر وعبد الله[3] وحسبنا هذا دون أن يدفعنا الاستطراد الى ذكر الذراري التي خلفها العامريون ، وكان لهم أثر في الاسلام وخاصة في العصر الأموي[4] . ولقد كان من بني عامر المصلح الذي وجد الثراء السريع لدى العمال وذلك هو المختار بن قيس من بني عمرو بن الصعق ، فكتب الى الخليفة عمر بن الخطاب رضوان الله عليه يقول[5] :

---

١ – نهاية الأرب ، النويري ٤٣/١٨ ط الدار ، والضحاك بن سفيان من بني أبي بكر بن كلاب وكان الرسول قد استعمله على بني سليم ، المعارف ص ٨٩ .

٢ – الانباه على قبائل الرواة ص ٨٧ ، والسيرة ٣٢٤/٤ – ٣٢٥ ط عبد الحميد .

٣ – المعارف ص ٨٨ ومعجم الادباء ، ياقوت ٢٦٥/٥ .

٤ – انظر جمهرة الانساب ص ٢٨٥ ، تجد ان ليلى بنت سهيل بن حنظلة بن الطفيل تزوجها عبد العزيز بن مروان فولدت له أم البنين التي تزوجها الوليد بن عبد الملك ، وكذلك تجد ان سعيد بن العاص تزوج بنت حبيب بن يحيى بن عمرو بن مالك بن جعفر الى غير ذلك .

٥ – جمهرة الانساب ٢٨٦ ، والعقد الفريد ٢٨١/٥ .



نحج اذا حجوا ونغزوا اذا غزوا

فأنى لهـــم وفر ولسنا بذي وفر

اذا التاجرُ الهنديُّ جاء بفارةٍ

من المِسْكِ راحت في مَفَارِقهم تَجْرِي

فدونَك مالَ اللهِ حيثُ وجدتَه

سيرضونَ ان شاطرتهم منك بالشَطْرِ

فشاطرهم عمر أموالهم ودفعها لبيت المال .

وكذلك كان منهم من ارتبط اسمه بحادثة كربلاء المشئومة ، وهو الشمر بن ذي الجوشن من بني معاوية بن كلاب الذي اشترك في سفك دم الحسين عليـــه السلام ، فيذكر كلما ذكر مصاب المسلمين بذلك اليوم الرهيب .

ولكن على الرغم من صلة الرحم هذه وقرب بني عامر من قريش ومن رسول الله ﷺ فقد ظلت الروح الاعرابية والحمية الجاهلية في كثير منهم. وقد ظهرت هذه الروح واضحة بارزة . وحسبنا في الدلالة على ذلك حادثتان : الاولى في الردة زمن أبي بكر الصديق رضوان الله عليه ، والثانية في يوم هرامت في العهد الأموي زمن عبد الملك ابن مروان .

فحين ارتدت القبائل الاعرابية في نجد ، من مثل أسد وغطفان وتميم وقفـه بنو عامر مترددين، فهم كما وصفوا : « قد قدموا رجلاً وأخروا أخرى، ونظروا



ما تصنع أسد وغطفان »[1] على أنهم سرعان ما ندموا وأعلنوا الطاعة والدخول فيما خرجوا منه ، وذلك بعد هزيمة أهل بزاخة ، وكان رأس الفتنة في هذه الردة : قرة بين هبيرة على بني كعب ومن لافها ، وعلقمة ابن علاثة على كلاب ومن لافها . وقبل خالد بن الوليد من بني عامر اسلامهم ، وكتب بذلك الى أبي بكر الصديق ، يقول : « ان بني عامر أقبلت بعد اعراض ، ودخلت في الاسلام بعد تربص ، واني لم أقبل من أحد قاتلني أوسالمني شيئاً ، حتى يجيئوني بمن عدا على المسلمين »[2] وكان قرة بن هبيرة ونفر معه قد آذوا المسلمين ، وعدوا عليهم ، فأخذ خالد قرة بن هبيرة موثقاً وأرسله ونفراً معه الى أبي بكر الصديق . أما علقمة فقد كانت له ردة قبل هذا في زمن الرسول عليه السلام ، وحين فتح المسلمون الطائف كان علقمة قد لحق بالشام فلما توفي النبي الكريم ، أقبل مسرعاً حتى عسكر في بني كعب مقدماً رجلا ومؤخراً أخرى ، وبلغ ذلك أبا بكر ، فبعث اليه سرية وأمر عليها القعقاع بن عمرو ، فطارد القعقاع علقمة فلم يتمكن منه وأتى بأهله وولده فأنكروا متابعتهم لعلقمة ، ثم قدم علقمة بعد ذلك ، وجاء تائباً مسلماً فقبل أبو بكر منه ذلك[3] .

على ان بني عامر لم تكن تفعل في ردتها ما فعلت أسد ، وغطفان ، وسليم من تنكيل بالمسلمين وعدوان عليهم غير قرة بن هبيرة وأنفار معه ، أصابوا جزاءهم وفاق ما عملوا[4] . وقد كان من العامريين من ثبت على الاسلام وأقام

---

١ - الطبري ١/١٨٩٩ وابن الأثير ٢/٢٣٦ .

٢ - الطبري ١/١٩٠٠ .

٣ - الطبري ١/١٩٠٠ ، وابن الأثير ٢/٢٣٦ .

٤ - كان قرة بن هبيرة وانفار معه قد انضموا الى أسد وغطفان وهوازن وسليم وطيء في حال ردتهم وأذوا المسلمين بأن حرقوهم ومثلوا بهم ، الطبري ١/١٩٠٠ ط أوربا .



عليه ، بل ذهب مذهب الزهاد والناسكين ، كما نعرف عن لبيد بن ربيعة الذي هاجر الى الكوفة وانصرف الى القرآن ، وعمل البر والصالحات .

أما الحادثة الثانية التي نتخذها مثلاً على تمسك عامر بعاداتها الجاهلية ، فقد كانت في يوم (هراميت) . وهراميت كما يقول ياقوت : أبار مجتمعة بناحية الدهناء[1] ، وقد بدأت المعركة حول بئر كان أحد بني جعفر بن كلاب — هو الجليح بن شديد يحتفرها ، فمنعه الأسود بن شقيق الضبابي ، واختصم الرجلان ، فضرب الضبابي الجعفري على أذنه فحذمها وشجه شجة واجتمع الناس وفضوا النزاع ، ورضيت الضباب ان يقتص الجعفريون من رجلهم ، فأبى الجعفريون الا أن يأخذوا حقهم عنوة ، فالتقت الفئتان — وكلاهما من بني كلاب بن عامر ابن صعصعة — وشب القتال ، ولجت بنو جعفر في عدوانها فأسرفت في القتل والتنكيل بالناس . والتقوا ثانية في قتال شديد كانت الهزيمة فيه نصيب بني جعفر ، التي اشتد بها الخوف والهلع لما أصابهم ، حتى انها هابت ان تنقل قتلاها ، فبعثوا النساء لنقل القتلى تحت جناح الظلام . واستمر الخصام طويلاً حتى قدم الحجاج الى المدينة بعد مقتل ابن الزبير ، واجتمع الناس على عبد الملك بن مروان ، فوجه الى بني عامر عثمان بن عبد الله بن سراقة القرشي ، فجمع الفريقين وسوى الأمر بينهما ، ثم نادى : من جاء بحزمة حطب فله بعير ، فجيء بحطب كثير فنضد بعضه الى بعض حول المتخاصمين ثم أشعل فيه النار ، فلما محشتهم النار وظنوا انه الموت ، نادى عثمان : من أطفأها فله بعير ، فاطفئت النار وأخرجهم وقد كادوا يحترقون ثم دعا بالصخر ليحطم أدرعهم فضجوا اليه ، فقال : اتعودون لأمر الجاهلية أبداً ، فتوسلوا اليه وتابوا ، واصطلح بعدها بنو كلاب[2] .

---

١ — معجم البلدان (هراميت) ٨/٤٥٠ .

٢ — النقائض ص ٩٣٧ ومعجم البلدان ٨/٤٥٠ .

ومهما يكن من شيء فان مجد بني عامر كان قد لمع في الجاهلية ، وكان لهم أثر كبير في منطقة نجد ، بحيث كانت تحارب على جبهات متعددة ، دون ان تضطر الى الاحتماء بقبيلة من القبائل الكبرى ، وقد مكن لها ذلك فرسان أشداء ، وقادة ذوو حزم وحيلة ودهاء ، كخالد بن جعفر ، والاحوص ، وابنه عمرو ، وعامر بن مالك وعامر بن الطفيل وعلقمة بن علاثة . ثم كثرة في العدد ، تلك الكثرة التي جعلت عامر ابن الطفيل يكابر أمام رسول الله ﷺ ، فيقول : « لأملأنها عليك خيلاً جرداً ، ورجالاً مرداً ، ولأربطن بكل نخلة فرساً »[١] والرسول الكريم يشير الى تلك الكثرة بقوله عليه السلام (والذي نفسي بيده لو اسلم فاسلمت بنو عامر لزاحموا قريشاً على منابرهم)[٢] واذا كانت تلك الكثرة تعني العزة والقوة والسلطان في الجاهلية ، فان الاسلام جاء بمفهوم جديد للعزة لا يقوم على الكثرة والقوة ، بل يقوم على الايمان والبر والتقوى . وقد جاء الاسلام بالفتح فانتشرت القبائل النجدية في انحاء من العالم الاسلامي ، وكان بنو عامر قد دخلوا الشام وانساحوا في العالم الاسلامي ، حتى ليذهب ابن خلدون الى انه لم يبق أحد منهم في نجد[٣] .

هذه جولة في حياة بني عامر ، منذ ظهر لهم كيان واضح حتى شملهم الاسلام برحمته . ولعلنا نستطيع بعد ذلك ان ندرس شعر لبيد ونفسره على ضوء من حياة قومه وتاريخ أيامهم .

---

١ – الشعر والشعراء ص ١٩٢ ط ليدن .

٢ – الأغاني ١٣٢/١٥ .

٣ – تاريخ ابن خلدون ١٢١/٢ .



الفصل الثاني

أسـرة لبيد

١

لقد مر بنا ان لبيداً من بني جعفر بن كلاب ، من بني عـــامر بن صعصعة وكلتا قبيلتيه الجعفرية والعامرية ذات شرف وسيادة ، ومكانة رفيعة في المجتمع الجاهلي ، وقد انحصرت زعامة بني عامر في بني جعفر بن كلاب ، كما شهدنا في تاريخ بني عامر في فصل تقدم . فمنذ ان ظهرت عامر على مسرح الأحداث تميز فيها زعماء بارزون هم : خالد بن جعفر ، ثم أخوه الأحوص بن جعفر ، فابنه عمرو بن الأحوص — فترة قصيرة في قيادة المحاربين — وكل هؤلاء من بني جعفر بن كلاب ، قوم لبيد . ثم تنتقل الزعامة الى أسرة لبيد نفسها حيث يتزعم بني عامر عمه عامر بن مالك بن جعفر ، ولبيد أثير عند عمه هذا بل هو وليه بعد أن فقد أباه ، وحين تتقدم السن بأبي براء يتنافس على الزعامة اثنان كلاهما من بني جعفر : أولهم عامر بن الطفيل وهو ابن عم لبيد ، والثاني علقمة بن علاثة من نسل الأحوص بن جعفر فهو ابن عم لبيد ايضاً ، يلتقي وإياه عند جفعر بن كلاب .

ولذلك كله نشأ لبيد في كنف أسرة من الزعمـــاء ، يشعر بكرامة أسرته وحسبها وعراقة نسبها ، وحميد أمجادها ومناقبها ، ولم يكن هذا شعور لبيد وحده ، بل عرف ذلك المتقدمون من أهل عصره ، ومن وليهم من أبناء الجيل

الثاني ، فحين يفخر الكوفي على البصري — في احدى المناظرات — يحضر في ذهنه ان الشرف في قيس متمثل في (عامر بن صعصعة ، في بني لبيد بن ربيعة الشاعر جاهلياً واسلامياً)[1] واشتهار بني عامر بالعزة والقوة والمنعة ، أمر عرفه الناس وشهدوا به . فهذا حميد بن ثور الشاعر ، يشير في سياق حديثه الى هذه المنعة والقوة في قوله[2] :

وقولا إذا جاوزتُما أرضَ عامرٍ   وجاوزتُما الحَيَّيْنِ نَهْدًا وَخَثْعَمَا

تَرِيعانِ من جَرْمِ بن زَبَّانَ إنَّهُم   أَبَوا أن يُرِيقوا في الهَزاهِزِ مِحْجَما

وكان عامر بن الطفيل يقول باعتداد واقتناع[3] :

وما الأرضُ إلا قيسُ عِيلانَ أهلُها   لَهُمْ ساحَتاها سَهْلُها وحزومُها

وقد نال آفاق السموات مَجْدُنا   لنا الصحوُ من آفاقِها وغيومها

وهنا يصدق قول الجاحظ بأن بني عامر — مثل بني زرارة بن عدس — معروفون بالكِبْر بين العرب النجديين[4] ومردّ هذا الكبر الى الفضيلة التي وجدها هؤلاء في أنفسهم حتى أبطرتهم ودفعتهم الى مجاوزة الحق والقصد . فلو

---

١ — مختصر كتاب البلدان ، ابن الفقيه ص ١٧١ .

٢ — الحيوان ١/٣٥٧ ، وديوان حميد بن ثور الهلالي ص ٢٨ ط دار الكتب ١٩٥١ م .

٣ — النقائض ٤٦٩ ، الأغاني ٥/٢١ والشعر والشعراء ص ١٩١ ط ليدن .

٤ — الحيوان ٦/٧٠ .

كانوا منصفين لمن دونهم ومتواضعين لغيرهم ، لأصبحوا في عزهم وفضلهم مثل بني هاشم أسرة رسول الله ﷺ ، الذين عرفوا بالانصاف والتواضع [1] .

ومثلما كانت مكانة بني جعفر عالية في نفوس العرب ، فهي كذلك عند الملوك ، فهم ينزلونهم منزلاً مرموقاً ، بل يتخذون منهم ندماناً وأردافاً كما تعرف عن عروة بن عتبة الجعفري الذي عرف بعروة الرحال ، لرحلته الى الملوك ومنادمتهم ، وكان من أردافهم أيضاً فصلته وثيقة بملوك الحيرة ، وكذلك بملوك كندة ، من مثل معاوية بن الجون الكندي الذي كان يصطحبه في غزواته [2] . والردافة منصب رفيع هو بمنزلة الوزارة في الاسلام [3] . ومن دواعي الفخر عند لبيد ان يظهر على خصومه في مجلس وأرداف الملوك حضر شهود [4] :

وشَهِدتُ أنجيةَ الأُفاقةِ عالياً كَعْبي وأردافُ الملوكِ شُهودُ

ومن صور هذه المكانة الرفيعة التي تتمتع بها أسرة لبيد لدى الملوك : ان وفد الجعفريين حين وفد لأمر ما – على النعمان بن المنذر ، كان النعمان قد أعد سرادقاً أو (قبة) اكراماً لذلك الوفد ، وتعظيماً لأبي براء عم لبيد ، وكان يرسل اليهم الذبائح كل يوم ، قبل أن يوغر الربيع بن زياد صدر الملك على الجعفريين . ثم يعيد القبة ثانية بعد انتصار لبيد وتنحية الربيع بن زياد عن

---

١ – الحيوان ٧٢/٦ .

٢ – سرح العيون ص ٩٠ .

٣ – ثمار القلوب ، الثعالبي ص ١١٤ .

٤ – ديوان لبيد ص ٣٥ ط احسان عباس والى هذه الطبعة رجعت في الدراسة وهي المقصودة حين يشار الى الديوان . وثمار القلوب ص ١١٤ .



مجلس النعمان [1] . ومع هذه المكانة المرموقة لدى الملوك لم يكن بنو عامر — ولا بنو جعفر — يوالون الملوك او يخضعون لهم ، فهم كما وصفوا : (لقاح لا يدينون للملوك) [2] .

ولا بد لهذه العزة التي تتمتع بها عامر من أسباب تعززها وتبررها وقد كان لهم في ذلك أمران :

أ — كثرة في عددها . ب — وكثرة في فرسانها وأبطالها .

فأما الكثرة في العدد فقد كانت عامر تنافس في ذلك بني شيبان في الجاهلية والاسلام . ويقول أبو عمرو بن العلاء : « جاء الاسلام وأربعة أحياء قد غلبوا على الناس كثرة : شيبان بن ثعلبة ، وجشم بن بكر ، وعامر بن صعصعة ، وحنظلة بن مالك ، فلما جاء الاسلام خمد حيان وطما حيان ، طما بنو شيبان وعامر بن صعصعة : وخمد جشم وحنظلة » [3] .

وأما كثرة الفرسان ، فكثير من بني عامر شهروا بالفروسية ، وأشاد الناس ببطولتهم ، وحسبنا أن نستعرض فرسان بني جعفر قوم لبيد الأقربين ، نجد أن جعفر بن كلاب فارس ، وخالد بن جعفر فارس معدود من فرسان العرب المشهورين وهو الذي قتل زهير بن جذيمة العبسي سيد غطفان ، والأحوص فارس وما كان يسود لولا هذه الفروسية ، وابنه عمرو قائد مظفر يوم ذي نجب ، وحين انتقلت قيادة بني عامر الى عامر بن مالك ، ظهرت البطولة متميزة في بني مالك بن جعفر بأبي براء الذي كان لفروسيته أن لقب بملاعب الأسنة ،

---

١ — امالي المرتضى ١/١٩٢ .

٢ — ابن الأثير ١/٣٦١ .

٣ — الانباه على قبائل الرواة ص ٩٧ .



وباخوته الطفيل فارس قرزل وسلمى نزال المضيق ، وما ألقابهم هذه الا أوسمة لبطولة عرفوا بها بين الناس وكذلك يقال في عروة الرحال الذي كان يجير للنعمان لطائمه . واذا غادرنا هذا الجيل الى جيل بعده ، نجد ثلاثة من أسرة لبيد هم : (رؤساء القوم وشياطينهم) بحق كما تصفهم كتب السيرة[1] : عامر بن الطفيل[2] وجبار بن سلمى ، واربد بن قيس . وعامر وجبار ابنا عم لبيد ، واربد أخوه لأمه وابن عمه أيضاً يلتقي وإياه عند خالد بن جعفر . ولبيد نفسه معدود من فرسان العرب [3] . فهذه القبيلة — كما هو ظاهر — فيها كثرة من الرجال الفرسان ذوي البأس الشديد .

ولا يفوتنا ان نذكر لبني عامر — اضافة الى مجدهم الدنيوي — ذلك المجد الديني الذي عرفوا به بين العرب ، من الحمس والصهر في قريش ، صاحبة البيت وسيدة العرب جاهلية واسلاماً [4] .

وقد مر ذلك .

* فلبيد على هذا من أسرة ذات شرف وسيادة ، ومجد وبلاء ، وهو يشعر شعوراً عميقاً بهذا الشرف وتلك السيادة ، فيفصح عن ذلك في كثير من الفخر والزهو [5] :

---

١ — السيرة النبوية ، ابن هشام ٥٦٧/٢ .

٢ — يقول عنه ابن دريد (انه فارس غير مدافع) ، الاشتقاق ص ٢٩٦ .

٣ — طبقات الشعراء ص ١١٣ والأغاني ٩٠/١٤ .

٤ — المحبر ، ابن حبيب ١٧٨ — ١٧٩ والأنباه على قبائل الرواة ص ٨٧ .

٥ — الديوان ص ٢٥٠ — ٢٥١ .



فَلا تسألينا واسألي عن بَلائِنا إباداً وكَلْباً من مَعَدٍّ ووائِلا
وقَيْساً ومن لَفَّتْ تميمٌ ومذحِجا وكِنْدَةَ إذ وافت عليكَ المنازِلا
لأحسابِنا فيهم بَلاءٌ ونعمَـــةٌ وام يَكُ ساعِينا عن المجدِ غافِلا

ولا بد لهذا الحسب والمجد والشرف في بني عامر عامة وبني جعفر خاصة من خلق كريم يدعمه ويقوم عليه ، من انصاف المظلوم ، واطعام الضيف ، وايواء الفقراء وذوي الحاجة ، وفي الرواية – التي تجيء – دلالة واضحة صادقة على ذلك . قال أبو الفرج : « لم يسمع من لبيد فخر في الاسلام غير يوم واحد فانه كان في رحبة غنى مستلقياً على ظهره ، قد سجَّى نفسه بثوبه ، اذا أقبل شاب من غنى فقال : قبح الله طفيلاً حيث يقول :

جَزَى اللهُ عَنَّا جعفراً حيث أشرَقَتْ بنا نَعْلُنا في الواطِئينَ فزلَّتِ
أَبوا أن يملُّـــونا ولو أن أُمَّنـــا تُلاقي الذي يلقونَ مِنَّـــا لملَّتِ
فذو المالِ موفورٌ وكلٌّ مصَعَّبٍ إلى حُجُراتٍ أدفَـــأتْ وأَظَلَّتِ
وقالت هَلمُّوا الدارَ حتى تَبَيَّنُوا وتنجَلِيَ العمياءُ عَمَّـــا تَجَلَّتِ

ليت شعري ما الذي رأى في بني جعفر حيث يقول هـــذا فيهم ؟ قال : فكشف لبيد الثوب عن وجهه وقال : يا ابن اخي ، انك أدركت الناس وقد جعلت لهم شرطة يدعون بعضهم عن بعض ، ودار رزق تخرج الخادم بجرابها فتأتي برزق أهلها ، وبيت مال يأخذون منه أعطيتهم ، ولو أدركت طفيلاً يوم

يقول هذا لم تلمه ثم استلقى وهو يقول : استغفر الله ، فلم يزل يقول استغفر الله حتى قام »[1] .

فشرف بني جعفر لم يكن ضرباً من الكلام يلفقه راوٍ أو يدعيه شاعر ، بل كانت تدعمه أفعال وأيام لهم معروفة ومشهودة . وعلى الرغم من هذه المكانة الرفيعة التي تتمتع بها أسرة لبيد فان المعلومات عنها قليلة بل نادرة من بعض نواحيها . مع علمنا بأن لها صلة بأحداث كبرى في حياة الجاهلية وحياة الاسلام ، وان الاخبار التي لدينا تنحصر في احداث معينة كمنافرة عامر وعلقمة . ويوم بئر معونة ووفود عامر واربد على رسول الله ﷺ ، ثم موتهما بعد ذلك . الا أن هذه الاخبار تتميز بأمرين : الأول انها محدودة ومحصورة بحادث بعينه والثاني انها مكررة ومختلفة روايتها . ففي حين ان الدارس يستطيع ان يجد أخباراً كثيرة في عشرات من المصادر – وان تكررت هذه الأخبار – عن نهاية اربد أخي لبيد ، فهو لا يستطيع أن يعرف غير القليل الذي لا غناء فيه عن حياة اربد او أبنائه . وكذلك يقال عن ربيعة والد لبيد وتامرة أمه وأم اربد . ومع كل ذلك سأحاول هنا أن أرسم صورة قريبة من الحقيقة لأسرة لبيد الخاصة . على قدر ما يعين شعر لبيد وأخباره القليلة المتناثرة في كتب الأقدمين بعد أن قدمت صورة لأسرة لبيد العامة المتمثلة في بني جعفر ابن كلاب .

٢

١ – أبو لبيد : ربيعة بن مالك الطيان الأخرم ابن جعفر ، وأم ربيعة أم

---

١ – الأغاني ١٤/٩٣ .



البنين ليلى بنت عمرو بن عامر فارس الضحياء ، ويعرف بربيع المقترين لجوده وسخائه [1] ، وقد ذكر لبيد هذه الخصلة في أبيه مقرونة بلقبه حين قال [2] :

ولا من ربيعِ المُقترينَ رُزِئتُهُ   بِذي عَلَقٍ فاقْني حياءَكِ واصبري

وهو أحد مطاعيم الريح في الجاهلية ، وكان يطعم الناس حين تهب الصبا ، لأن الصبا - كما يقولون - لا تهب الا في جدب [3] . وكرم ربيعة أمر يكرره لبيد ويؤكده في شعره فيقول [4] :

وَجدتُ أبي ربيعا لِليتامى   وللأضيافِ إذ حُبَّ الفَثيدُ

وكذلك يقول [5] :

وأبـــي الذي كانَ الأرا   مِـــلُ في الشتاء له قَطِينا

وليس لدينا من حياة ربيعة غير مقتله ، ويبدو انه قتل وهو شاب ، لأن مقتله كان في ذي علق وهو قبل شعب جبلة ، وفي يوم الشعب كان الأحوص زعيم بني عامر ، أي ان أبا براء لم يتزعم بعد ، وأبو براء لا زال شاباً في هذا اليوم ، وكانت زعامته في يوم السُّلان ، وربيعة في سن عامر ان لم يكن أصغر منه . وكان يوم ذي علق وقع بين عامر وبني أسد ، والدائرة فيه دارت على بني

---

١ - الأغاني ١٥/٣٦١ والشعر والشعراء ١٤٨ .

٢ - الديوان ص ٤٨ . ذو علق : جبل بديار بني أسد كانت فيه وقعة قتل فيها أبوه .

٣ - بلوغ الأرب ١/٩١ .

٤ - الديوان ص ٤٠ ، الفثيد : الخبز المليل .

٥ - ديوان لبيد ص ٣٢٢ .

عامر ، وقد اختلفوا في قاتل ربيعة فمن قائل ان قاتله هو منقـــذ بن طريف الأسدي [1] . ومن قائل ان قاتله هو الصامت بن الأفقم بن الحارث [2] . والظاهر ان الرواية الثانية هي الراجحة ، لأن ابن حزم يذكر مرة ان قاتله الصامت ، وفي أخرى يقول انه منقذ بن طريف ، وكذلك بن قتيبة يذكر منقـــذ بن طريف ثم يعدل عن ذلك فيقول : « ويقال قتله صامت بن الأفقم من بني الصيداء » [3] ، وهناك رواية لابن الأثير تعزز ما أرجحه حيث تقول : ان أبا براء عامر بن مالك سأل خصمه خالد بن نضلة الأسدي — الذي كان قد تبع بني عامر وهم منهزمون — هل علمت ما فعل بربيعة ؟ قال خالد : نعم تركته قتيلاً ، قال : ومن قتله ؟ قال خالد : ضربته أنا وأجهز عليه صامت بن الأفقم [4] ، ويؤكد ابن قتيبة ذلك بقوله : يقال ضربه خالد بن نظلة وتمم عليه هـــذا [5] ، ويريد بقوله (هذا) الصـــامت بن الأفقم . وفي شعر للجُمَيح الأسدي يصف مصرع ربيعة وهزيمة بني عامر جاء فيه [6] :

سائل مَعَدًّا عن الفوارسِ لا أُوفوا بجيرانِهم ولا سَلِمُوا

يسعَى بهم قُرزُلٌ ويستمع النا سُ اليهـــم وتَخْفِقُ اللِّمَمُ

ركضا وقد غادَرُوا ربيعةَ في الآثارِ لما تَقَاربَ النسَمُ

في صدره صعدةٌ ويُخْلِجُهُ بالرمحِ حَرّان باسِلاً اضمُ

---

١ — جمهرة الانساب ص ٢٨٥ والشعر والشعراء ص ١٤٨ .

٢ — جمهرة الانساب ص ١٩٥ وابن الأثير ٣٩٢/١ .

٣ — الشعر والشعراء ص ١٤٨ .

٤ — ابن الأثير ٣٩٢/١ .

٥ — الشعر والشعراء ص ١٤٨ .

٦ — ابن الأثير ٣٩٢/١ .



ولم يذهب دم ربيعة هدراً بل ثأروا له ، وكما اختلفت الرواية في قاتله كذلك اختلفت فيمن ادرك بثأره . يقول ابن قتيبة : « وأدرك بثأره عامر بن مالك ابن جعفر بن كلاب أخوه ، وذلك أنه قتل قاتله » [1] ، ولكن ابن حزم يقول : ان معاوية بن مالك هو الذي أدرك بثأر أخيه ، وذلك في يوم جبلة حيث أسر معاوية منقذ بن طريف — وهو منهزم — فقتله ومثّل به [2] .

واذا كنت قد رجحت ان قاتل ربيعة هو الصامت بن الافقم وليس منقذ بن طريف ، فأرجح هنا ان الذي أدرك بثأر ربيعة هو أبو براء عامر بن مالك وليس معاوية بن مالك .

وقد كان مقتل ربيعة بن مالك قد جر قتل حبان بن معاوية بن مالك [3] . فقد خرج هذا طالباً بثأر عمه . فقتله بنو أسد في موضع يعرف بـ (غُسْل) أو (ذات غُسْل) . كما يسميه لبيد حيث وقف على قبر ابن عمه يبكيه ويذكر انهم ثأروا له وقتلوا به تسعة ملحقين الموالي بالصميم [4] :

أقولُ لصاحِبَيَّ بذات غُسْلٍ ... أَلِمَّا بِي على الجَدَثِ المُقيمِ

لِنَنْظُرَ كيف سَمَّكَ بانياهُ ... على حِبَّانَ ذي الحسبِ الكريمِ

قتلنا تِسْعَةً بأَبِي لُبَيْنَى ... وأَلحَقْنا الموالِيَ بالصميمِ

---

١ — الشعر والشعراء ١٩٤/١ .

٢ — جمهرة الانساب ص ٢٨٥ .

٣ — وقيل حيان بن معاوية بن مالك .

٤ — معجم البكري ص ٩٩٨ مادة (غسل) وعنه أخذ الديوان ص ٢٩٢ .

وقد فقد لبيد أباه وهو صبي صغير ، اذ كان عمره يوم شعب جبلة — وهو يوم متأخر عن ذي علق — تسع سنوات[1] ، وهو برعاية عمه أبي براء وكان حينئذ يخاطبه بقوله : « اليوم يتمت من أبيك ان قتل اعمامك »[2] .

٢ — أما أمه ، فهي : امرأة من بني عبس اسمها تامرة بنت زنباع احدى بنات جذيمة بن رواحة[3] ، فهي من أسرة ذات سيادة وشرف تلتقي في نسبها مع زهير بن جذيمة سيد غطفان ، وقيس بن زهير ابنه سيد بني عبس ، وهي ابنة عم الربيع بن زياد يلتقيان في جد أبيه معاوية بن مخزوم بن عوف .

وقد كانت في حجر الربيع بن زياد وقد أشار لبيد الى هذا في المهاجاة التي كانت بينه وبين الربيع في مجلس النعمان . فحين انشد لبيد أرجوزته المشهورة :

يا رُبَّ هيجا هيَ خيرٌ من دَعَه

أقبل الربيع بن زياد على النعمان فقال : « كذب والله ابن الفاعلة ، ولقد فعلت بأمه كذا وكذا » فيجيبه لبيد : « مثلك فعل ذلك بربيبة أهله والقريبة من أهله .. »[4] وفي رواية يقول : « ان كنت فعلت لقد كانت يتيمة في حجرك ربيتها »[5] . وينص على انها ابنة عمه : « انت لذلك أهل ، وكانت ابنة عمك في

---

١ — وقيل بضع عشرة سنة ، الأغاني ١٤٩/١١ .

٢ — الأغاني ١٤٩/١١ .

٣ — اسماها البكري في فصل المقال ص ٨٢ (تامر) ، وفي رواية ان اسمها فاطمة بنت زهير بنت جعْوَنة ، أو اسماء بنت زهير . وتذكر الرواية نفسها ان أم لبيد سبية سباها قيس فولدت له اربد ثم تزوجها ربيعة فولدت لبيداً وحراماً . سمط اللآلىء ، البكري ٢٩٧/١ .

٤ — الأغاني ٣٦٥/١٥ .

٥ — عيون الاخبار ٦٥/٤ .



حجرك ، ومثلك من فعل هذا بابنة عمه »[1] ، وتذهب الرواية الى ان لبيداً حين شاتم الربيع وعرض هذا بأمه ، صدقه لبيد فيما يقول ، نكاية به لأنها من قومه ، وتعريضاً بنساء عبس على انهن فواجر ، حيث قال : « فانها من نسوة فُعَّل لذلك »[2] ، غير ان هناك رواية تنقض هذا فتجعله يقول : « أما انها من نسوة غير فعل »[3] ، واني أميل الى هذه الرواية فان الغضب مهما بلغ لا يدفع لبيداً الى شتم أمه والانتقاص من شرفها ، ولو لم يكن ذلك كذلك ، لما افتخر بأخواله الذين لهم المشارفة في قرى الارياف وأعطوا فوق ما يعطى الوفود[4] :

وشَارَفَ في قُرَى الأَريافِ خَالِي   وأُعطِي فوقَ ما يُعطَى الوفودُ

وَخَالِي خِذيَمٌ وأبو زُهَيرٍ   وزِنباعٌ ومولاهم أسيدُ

وقد جمع في هذه القصيدة بين الفخر بخؤولته وعمومته ، ولذلك يقول :

أُولئك أُسرَتي فاجمعْ اليهم   فما في شُعْبَتَيْك لهم نَديدُ

ولا ينتقص من تامرة كونها يتيمة ، فقد تربت في حجر سيد من الكملة ورئيس من رؤساء بني عبس هو الربيع بن زياد ، ابن احدى المنجبات الشهيرات وهي فاطمة بنت الخرشب الانمارية أم الكملة : ربيع الفاضل ، وقيس الحفاظ ، وعمارة الوهاب ، وأنس الفوارس[5] . ولهذه البيئة العريقة التي نشأت فيها تامرة

---

١ – انباء نجباء الابناء ص ١٧٣ .

٢ – الحيوان ١٧٣/٥ وعيون الاخبار ٦٥/٤ .

٣ – امالي المرتضى ص ١٩٢ .

٤ – الديوان ص ٣٩ . شارف : ولي المشارف .

٥ – مجمع الامثال ٣٤٩/٢ .

بنت زنباع ، طلبها شريفان من بني جعفر ، فتزوجها قيس بن جزء بن خالد فولدت له أربد ثم تزوجها بعده[1] ربيعة بن مالك فولدت له لبيداً ، وليس لأحد بعد هذا أن يطمع في معرفة معلومات واضحة عن حياة تامرة أم لبيد ، شأنها في ذلك شأن نساء عصرها .

٣ – واذا كانت هذه معلوماتنا عن أمه فان ما نعرفه عن زوجه لا يغني شيئاً فالوسائل التي بين أيدينا لا تمدنا بشيء واضح . وهذا أمر ليس بالغريب اذا عرفنا ان حياة الشواعر من النساء غامضة وحياة المعشوقات والزوجات غامضة أيضاً فما بالك بامرأة ما عرفت بشعر أو شهرة . وكثيراً ما كان الشاعر يذكر زوجته على انها عاذلة لائمة بخيلة في سياق حديثه عن شجاعته أو كرمه وتخرقه في بذل المال[2] : وهذا اسلوب عام لدى الشعراء في اصطناع أحاديثهم كما هو معروف عن حاتم الطائي حين يخاطب زوجه ماويه[3] : وكذلك فعل لبيد ، فهناك قصيدتان ذكر فيهما زوجته . في الاولى يتوعدها ان تترك اللوم والعتاب على ما يفعل من انفاق ماله في بناء الصالحات ، والا تفعل فلتفارقه ، فانها تلوم من لا يطيع[4] :

---

١ – كان قيس فارساً مات إثر عودته من غزوة وكان ربيئة لقومه على ظهر فرسه وعليه الدرع فهرأه البرد فقتله وذكره لبيد في شعره . (الديوان ص ٤٩) .

٢ – المرأة في الشعر الجاهلي ٢١٥ - ٢٣١ .

٣ – ديوان حاتم الطائي ص ٣٩ ط لندن ١٨٧٢ م .

٤ – ديوان لبيد ص ٧٠ . صديع : ثوب مشقوق بنصفين . اذا صدرت : يعني الابل . قارص : من اللبن . النقيع : الحليب المبرد . الجفنة : القصعة الكبيرة . اسبلت بدموع : أي من الدسم .



دعي اللَّومَ او بيني كشق صديع فقد لُمتِ قبلَ اليوم غيرَ مطيعِ

وان كنت تهوينَ الفراق ففارقي لأمرِ شَتَاتِ أو لأمرِ جميعِ

فلو انني ثَمَّرْتُ مالي ونسلَهُ وأمسكتُ إمساكاً كبخلِ مَنِيعِ

رضيتِ بأدنى عَيشِنا وحَمدِتِنَا إذا صَدَرت عن قارصٍ ونقيعِ

ولكنَّ مالِي غالَهُ كلُّ جَفْنَةٍ إذا حان وِرْدٌ أسبَلت بدموعِ

ويستطيع المرء ان يطمئن الى ان الحديث في هذه الأبيات منصرف الى زوجه [1] . غير ان حديثه في القصيدة الثانية والتي مطلعها :

إنَّ تقوَى رَبنا خيرُ نَفَلْ وباذنِ اللهِ رَيْثِي وعَجَلْ

يحتمل ان يكون الكلام فيها منصرفاً الى زوجه ، كما يصح ان يكون الشاعر يخاطب نفسه [2] ، الا ان الظاهر من سياق الكلام يناسب ان يكون المخاطب امرأة ، ما دام الحديث متصلاً بالشيب ، وهو حديث طالما خاطب الشعراء فيه زوجاتهم ، بان وراء هذا الشيب والكبر ، عزماً صارماً ورأياً حازماً وكرماً فياضاً وبأساً شديداً [3] يقول لبيد [4] :

---

١ – كذلك اشار ابن قتيبة اذ يقول (انه قوله لامرأته) المعاني الكبير ٧٤٢ .

٢ – هناك رواية في الخزانة ذكرها محقق الديوان ص ١٧٧ .

٣ – المرأة في الشعر الجاهلي ص ٢٣٢ .

٤ – الديوان ص ١٧٧ . اعوص بالخصم : آتيه بالأمر الشديد . القلل : هنا الاسنمة .

أعقلي ان كنتِ لما تعقِلي ... ولقد أفلحَ من كان عقَلْ
إنْ ترَي رأسيَ أمسَى واضِحاً ... سُلِّطَ الشيب عليهِ فاشتَعَلْ
فلقد أعوصُ بالخصمِ وقد ... أملأُ الجَفنَةَ من شحمِ القُلَلْ

وقد ذكرها في غير موضع ساخطاً عليها متذمراً منها [1] فهو يهددها بالفراق ان لم تترك اللوم الذي يضيق به ويكرهه :

أمَّ الوليدِ ومن تكوني همَّهُ ... يُصْبِحْ وليسَ لشأنهِ بحليمِ
آتي السَّدادَ فإنْ كرهتِ جَنَابنا ... فتنقلي في عــامرٍ وتميمِ
لا تأمريني أنْ ألامَ فانني ... آبى وأكرهُ أمرَ كلِ مليمِ

ويلاحظ ان لبيداً لا يذكر زوجته الا بما يسوء ، ويبدو انه غير سعيد بزوجته ولذلك لا تجد وصفاً لها فيه ثناء أو رضا . ولعلها كانت ضيقة به متذمرة منه وذلك ما يوحيه قوله — ان صح انه فيها — [2] :

تلكَ ابنةُ السعديُّ أضحَتْ تشتَكِي ... لِتَخونَ عهدِي والمخانَةُ ذامُ

ومهما كان الأمر فاننا لا نستطيع ان نخرج بصورة لزوجته من هذا الشعر الا هذه الصفات التي لا يرضاها الشاعر وحتى هذه الصفات لا يصح ان تؤخذ

---

١ — الديوان ص ١٠٧ . جنابنا : جوارنا . السداد : الصواب .

٢ — الديوان ص ٢٩١ . المخانة : الخيانة . ذام : عيب .

على انها حقيقة تمثل سلوك الزوجة فقد يكون الشاعر اصطنع هذا الخلق في المرأة كي يسوق حديثه الذي يريد عن كرمه وبطولته .

وفي شعر لبيد اسماء لنساء كثيرات تغزل بهن ، او استهل قصائده بذكرهن ومنهن : اسماء وسلمى [1] ، ونوار ، وسميَّة ، وكُبَيشة ، وهند ، أفتكون زوجه واحدة من هؤلاء ؟ هذا ضرب من الظن لا يغني عن الحق شيئاً . وخاصة ان لبيداً لم يكن منصرفاً الى الغزل ، بل يذكر المـرأة في شعره كتقليد مستحب ، فهو يختار اسماً يستسيغه أو يستدعيه الوزن فيذكره على ان اسم (سلمى) أحب الاسامي اليه ، فقد ذكره خمس مرات في شعره ، ومرتـين أخريين بصيغة التصغير ، ولا ندري بعد هذا من هي زوجه وكذلك لا نعلم عن حياتها أو وفاتها شيئاً . ونعرف للبيد جارية سوداء كانت تقوم بخدمته اسمها (أريكة) ، لعلها سبية حرب أو احدى هدايا الملك (خُمَيِّر) الذي أكرم لبيداً حين زاره وهو في مهاجره باليمن [2] وقد أخذها منه — يوم هضب الأجشر من أيام فيف الريح — بنو الديان ، فلما علموا انهـا للبيد أرسلوها ، ولبيد لا يعرف من أرسلها فقال في ذلك :

يا بِشْرُ بشرَ بني إيادٍ أيُّـكم أدى أُرَيْكَةَ يومَ هَضْبِ الأجْشَرِ [3]

جاءت على قَتَبٍ وعِدْلِ مَزادَةٍ وأرْحَتُموها من عِلاجِ الأيْصَرِ

---

١ — وجاءت بصيغة التصغير ايضاً (أسيماء وسليمى) .

٢ — الديوان ص ١٥٥ .

٣ — الديوان ص ٢٢٧ ومعجم البكري ١٠٣٨ . القتب : رحل صغير على قدر السنام . المزادة : الراوية . الايصر : حبل صغير ، او كساء للكلأ .

٤ – اما أبناء لبيد ، فقد عرف له ابنتان ولم يعرف له ولد . وجاء ذكر البنتين في اخباره وفي شعره واحدة منهما اسمها (بُسْرَة) وهي التي يخاطبها لبيد بقوله [١] :

وَأبوكِ بُسْرُ لا يُفَنَّدُ عمرَه وإلى بِلىً ما يرجَعَنَّ جديدُ

قال الطوسي في شرحه : « يعني بسرة ابنة لبيد بن ربيعة فرخمها » وذكرها كذلك في بيت آخر هو قوله [٢] :

إن أبانَ كانَ حلواً يُسْرا مُلِّيَ عَمْراً وَأرِبَّ عَمْرا

وقال ابن قتيبة : « اسم ابنته بسرة فناداها ورخم فقال بسرا » [٣] .

اما أختها فهي (أسماء » التي جاء ذكرها في قصيدة الوفاة . يقول لبيد [٤] :

وَحذِرْتُ بعدَ الموْتِ يو مَ تشينُ أسْمـــاءُ الجَبينا

وقد كانت احداهن شاعرة ، ولها شعر تجيب فيه الوليد بن عقبة امـــير الكوفة ، حين أرسل الى لبيد مـــا يعينه على مروءته مع شعر يمدحه فيه ، وأوله [٥] :

---

١ – الديوان ص ٣٥ . لا يفند : لا يسفه .

٢ – الديوان ص ٣٣٥ . أرب : جعل له ربيباً . ملىء عمراً : عاش عمراً طويلاً .

٣ – المعاني الكبير ص ٥٣٢ .

٤ – الديوان ص ٣٢٦ والأغاني ٩٧/١٤ .

٥ – الأغاني ٩٤/١٤ - ٩٥ وجمهرة اشعار العرب ٣١/٣٠ .

أرى الجَزّارَ يَشحَذُ شَفرَتَيه ... إذا هَبَّتْ رِياحُ أبي عَقيلِ

فردت عليه – بطلب من أبيها – تقول [1] :

اذا هَبَّتْ رياحُ أبي عقيلٍ ... دعونا عندَ هَبَّتِها الوَليدا

أشمَّ الأنفِ أروعَ عبشميا ... أعانَ على مروءتِهِ لَبيدا

بأمثالِ الهِضابِ كأنَّ رَكْبا ... عليها من بَني حامٍ قُعُودا

أبا وَهْبٍ جزاكَ اللهُ خيراً ... نحرناها فأطعمنا الثريدا

فَعُدْ إنَّ الكريمَ له مَعادٌ ... وظَنّي بابنِ أروى أنْ يَعُودا

وقولها تفخر بأبيها وانتصاره في مجلس النعمان [2] :

إنَّ أبانا كان حلواً مرّاً ... يأكل قبلَ الآكلينَ عَشرَا

وقد ذكر لبيد ابنتيه هاتين حين حضره الموت فكان يوصيهما بقوله [3] :

تَمَنّى ابنتايَ أن يعيشَ أبوهُما ... وهل أنا إلّا من رَبيعَة أو مُضَرْ

---

١ – الأغاني ١٤/٩٤ – ٩٥ .

٢ – انبـاء نجباء الابناء ص ١٧٤ ، وبتغيير بسيط في البيت باستبدال كلمة (مرا) بـ (بسرا) نعرف ان اسماء هي الشاعرة تخاطب اختها بسرة .

٣ – الأغاني ١٤/٩٨ ، وفي رواية الديوان خلاف ٢١٣ – ٢١٤ .

فان حانَ يوماً أن يموتَ أبوكُما فَلا تَخْمِشا وجهاً ولا تَحلِقا شَعَرْ

وقولا هو المرءُ الذي لا خليلَهُ أضاعَ ولا خانَ الصديقَ ولا غَدَرْ

الى الحولِ ثم اسمُ السلامِ عليكما ومن يَبْكِ حولاً كامِلاً فقد اعتَذَرْ

وقد أدت ابنتاه وصاة أبيهما : « فكانتا تلبسان ثيابهما في كل يوم . وتأتيان مجلس بني جعفر فترثيانه ولا تعولان ، فأقامتا على ذلك حولاً كاملاً ثم انصرفتا »[1]

وقد ظن بعضهم ان للبيد ابناً حيث يقول :

أَبُنَيَّ هل أَحسَسْتَ أَعمامي بَنِي أُمِّ البَنِينا

وقوله :

وإذا دفنتَ أباكَ فاجعلْ فوقَهُ خَشَباً وطينا

ولبيد هنا يخاطب ابن أخيه ولم يكن له ولد ، كما نص على ذلك أبو الفرج[2] .

٥ ـ وللبيد أخ مرّ ذكره هو اربد الذي بكاه بشعر كثير . فقد كان يملأ على لبيد حياته وينزل من نفسه منزلة كبرى ، فهو الأخ الأثــير الذي كان يرعاه ويعطف عليه ، وقد تمثل لبيد فيه الرجولة والبطولة والكرم والوفاء والرحمة . وأخبار اربد مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بدعوة رسول الله ﷺ ، عليه وعلى عامر ابن الطفيل ، حين وفدا على الرسول الكريم ، يريدان الغدر به ، ولذلك فقد

---

١ ـ المصدر السابق .

٢ ـ الأغاني ١٤/٩٧ .

كثر الحديث في خبر الصاعقة التي أصابته ، وأفاضت كتب التاريخ والتفسير والأدب في ذكرها وموجزها : ان عامر بن الطفيل واربد بن قيس وجبار بن سلمى ، وفدوا على رسول الله ﷺ وكان عامر بن الطفيل [1] قد أضمر الغـــدر بالنبي الكريم فقال لأربد : « اذا قدمت على الرجل فاني شاغل عنك وجهه ، فاذا فعلت ذلك فاعله بالسيف » ، فلما التقوا بالنبي كان عامر يحدثه وينتظر من اربد أن يغدر به ، فما صنع شيئاً فلما رجعوا قال عامر لأربد : « ويلك يا اربد أين ما كنت أوصيتك . والله ما كان على ظهر الأرض رجـــل هو أخوف على نفسي منك . وأيم الله لا أخافك بعد اليوم أبداً » .

وكان جواب اربد : « والله ما هممت بالذي أوصيتك به من مرة الا دخلت بيني وبين الرجل حتى ما أرى غيرك أفأضربك بالسيف » [2] ، وفي رواية ان اربد حين هَمَّ بضرب النبي رأى حائطاً من حديد يحول بينهما [3] . ثم قتل عامر ابن الطفيل بالغدة (أو الطاعون) ورجع اربد الى قومه فسألوه : « ما وراءك يا اربد ؟ قال : لا شيء والله لقد دعانا الى عبادة شيء ، لوددت انه عنـــدي الآن فأرميه بنبلي هذه حتى أقتله » [4] ، ثم خرج بعد مقالته هذه بيوم أو يومين معه جمل له يبيعه ، فأرسل الله عليه وعلى جمله صاعقة فأحرقتها .

هذه الرواية في موت اربد يؤيدها شعر لبيد في رثائه وفيه يقول [5] :

---

١ – السيرة ٥٦٨/٢ والطبري ١٧٤٦/١ والأغاني ١٣٣/١٥ والكامل للمبرد ١٢٠٠/٣ والسمط ٢٩٨/١ ، وانظر ثمار القلوب ٢٨٢ ومجمع الامثال ٣/٢ والعقد الفريد ٨٧/٢ ونهاية الارب ٤٢/٣ والخزانة ٤٧٤/١ وغيرها .

٢ – الطبري ١٧٤٦/١ .

٣ – الكامل للمبرد ١٢٠٠/٣ .

٤ – الطبري ١٧٤٧/١ .

٥ – الديوان ص ١٥٨ . الحتوف: الآجال. نوء السماك : يريد الصاعقة . النجد : الشديد.



أخشى على أربدَ الحتوفَ ولا   أرهبُ نوءَ السماكِ والأسدِ
فجعني الرعدُ والصواعقُ بالـ   فارسِ يومَ الكريهةِ النَّجُدِ

وكتب الأدب تتفق على مضمون هذه الحادثة ، أما اذا رجعنا الى كتب التفسير ، في تفسير قوله تعالى : « سَوَاءٌ منكم من أسرَّ القولَ ومن جهرَ بهِ » الآيات الى قوله تعالى : « ويُرسِلُ الصَّوَاعِقَ فيُصيبُ بها من يشاءُ وهُمْ يُجادِلونَ في اللهِ وهو شَديدُ المحالِ »[1] . فاننا نجد قولين : الأول يذهب الى ان الآيات انما نزلت في عامر بن الطفيل واربد بن قيس ، ثم يساق خبرهما كما ورد في كتب الأدب[2] . والقول الثاني يذهب[3] الى ان الآيات نزلت في رجل عاتٍ من فراعنة العرب . أبى أن يسلم فكان يسائل النبي ﷺ أو من أرسله النبي اليه ، عن الله تعالى : « أمن ذهب هو أم من فضة أم نحاس » فأحرقه الله بالصاعقة ونزلت فيه هذه الآيات . ومهما كان الأمر فان الرأي الراجح على ان الآيات نزلت في عامر بن الطفيل واربد بن قيس . وان مما يسترعي الانتباه حقاً ، أن يكون موت عامر واربد بهذه الصورة المفاجئة بعد رجوعهما من عند الرسول الكريم ، ويعزو المؤرخون المسلمون موتهما الى دعاء رسول الله ﷺ ، عليهما ، فاذا كان الأمر محض مصادفة ، فانها مصادفة معجزة . فمن وجهة نظر المسلمين انها شر دفعه الله عن رسوله الكريم ، وأما من ناحية

---

١ – سورة الرعد ١٠ – ١٣ .

٢ – تفسير الطبري ١٣/٨٠ ط بولاق ١٣٢٨ هـ ، البداية والنهاية ، ابن كثير ص ٥٠ ، التفسير الكبير المسمى بالبحر المحيط لابن حيان ٥/٣٧٥ ، تفسير الرازي ، مفاتيح الغيب ٥/١٩٦ ، اسباب النزول ، الواحدي ٢٧٦ ، رواية عن ابن عباس . الدر المنثور في التفسير بالمأثور ، السيوطي ٤/٤٦ ، تفسير البيضاوي ١/٤٧٨ .

٣ – نفس المصادر السابقة .

بني عامر ، فلعلها ما كانت تدري بكيد عامر واربد لرسول الله ، ولا بدعاء رسول الله عليهما . ثم انها كانت غير مسلمة فلا تحفل بشيء من ذلك حتى ولو علمت .

وقيل ان أربد شاعر وبرويت له أبيات هي قوله [1] :

وكائِن أَتى للدارِ بَعْدَكَ من شهرِ   وصفقِ سِوارِ من رياحٍ ومن قَطرِ
فامسكتُ فيها ابتغي العِلمَ عندَها   فضنَّتْ علينا بالجواب وبالخبرِ
وقد اشعَرتني جارَتايَ ملامةً   على اللهوِ يوماً في القِداحِ وفي الخَمْرِ
وعَقرِي لأصحابي الغداةَ مطيَّتِي   اذا أرمَلوا زادا بابيضَ ذِي أثرِ
فلا توعدانِي بالفراقِ فانَّني   على بين ذِي العقدِ المُفارِق ذو صبرِ
لعلَّكما إن تُرشَدَا إنْ رشدتما   بأمرِكُما أو تغويانِ فلا أدري

وهو شعر جيد متماسك جميل ، وعيبه في قلته .

ولاربد ابن اسمه (زِرّ) وهو شاعر أيضاً ورويت له هذه الأبيات [2] :

بانَ الخَلِيطُ لِنيَّةٍ فتصَدَّعوا   ورموا فؤادَكَ بالفراقِ فأوجَعُوا
وطلبتهم مَدَّ النهارِ فلم تَكَدْ   بالحَيِّ تلحقني الجنوب الميلَعُ

---

١ - المؤتلف والمختلف ص ٢٥ .

٢ - المؤتلف والمختلف ص ١٩٣ و ١٣٢ .

حَرَجٌ كأنَّ عِظامَها موصولةٌ بعِظامِ أخرى فهي حَرْفٌ شَرْجَعُ
قَبحَ الاله عداوةً لا تُتَّقى وقرابةً يُدلَى بها لا تَنْفَعُ

وما كنى أربد باسم ابنه هذا ، بل كنى بأبي المغوار وأبي الحزاز ، وبهذه الكنية كان يدعوه لبيد ، فهو حين يرثيه يقول [1] :

أبكي أبا الحَزَّازِ يومَ مَقامةٍ لِمُناخِ اضيافٍ ومأوَى مُقْترِ

أو يقول [2] :

فأخِي ان شَرِبوا من خيرهم وأبو الحَزَّازِ من أهلِ النَّفَلْ

أو يخاطبه على التصغير [3] :

فوَدِّعْ بالسلام أبا حُزَيْزٍ وقَلَّ وداعُ أربَدَ بالسلامِ

وسواء أكانت كنيته هذه أم تلك فهي لا تعني ان له أكثر من ابن فليس بين يدينا من أخباره غير زر بن أربد ، ولعله هو الذي ذكره لبيد عند وفاته ، وكانت كنية زر أبا حنيف فقال [4] :

---

١ – الديوان صفحة ١٦٦ .

٢ – الديوان صفحة ١٩٨ .

٣ – الديوان صفحة ٢٠٧ .

٤ – الديوان صفحة ٣٢٢ وجاء في الأغاني ١٤/٩٧ : (ان لبيداً لما حضرته الوفاة قال لابن أخيه ولم يكن له ولد ذكر : يا بني ان أباك لم يمت ولكنه فني ...) .

أنبِئتُ أنَّ أبــا حَنيـ ـفِ لامَني في اللائِمينا
أبُنَيَّ هل أحسَنتَ أعمـ ـامي بني أمِّ البنينا ... الخ

وقد ذكر للبيد أخ آخر غير أربد وهو حزام (أو حرام) بن ربيعة شقيق لبيد لأمه وأبيه[1] . غير أنه لم يشتهر ولم يذكره لبيد في شعره وليس لدينا معلومات عنه . ولكنا نجد في أخبار العصر الأموي ذكراً لولد حزام هذا اسمه مالك ، ظهر في أيام المختار الثقفي وقتلته المختارية يوم جبانة السبيع مع من قتلوا ، وكانوا أربعة : « النعمان ابن صهبان الراسبي ، والفرات بن زحر وعمرو ابن مخنف ، ومالك بن حزام بن ربيعة وهو ابن أخي لبيد الشاعر . ويقال قتل مع المضرية »[2] .

٣

هذه أسرة لبيد من المرتبة الأولى ، أما أسرته من المرتبة الثانية فهي تضم أعمامه وأبناء أعمامه ، وللبيد سبعة من هؤلاء الأعمام وكلهم فارس شريف ، وكلهم من مالك الطيان بن جعفر وهم : عامر أبو براء ، والطفيل فارس قرزل ومعاوية معود الحكماء ، وعبيدة الوضاح ، وسلمى نزال المضيــق ، وعمرو ، وعتبة ، وثامنهم ربيعة والد لبيد[3] وخمسة من هؤلاء أشقاء، أمهم أم البنين ليلى بنت عمرو بن عامر فارس الضحياء[4]، وهي احدى منجبات العرب وبهـــا

---

١ – سمط اللآلىء ، البكري ٢٩٧/١ .

٢ – انساب الاشراف ٢٣٤/٥ .

٣ – جمهرة الانساب صفحة ٢٨٥ .

٤ – لقد وهم البكري في السمط ١٩٠/١ اذ اسماها (الحيا) وصحيحه (ليلى) كما جاء في الروض الآنف ١٧٥/٢ والحيا منجبة غيرها هي أم عتبة بن جعفر بنت معاوية بن عامر بن ربيعة بن عامر بن صعصعة . وذكرها لبيد في قوله :

فعمي ابن الحيا وأبو شريح   وعمي خـــالد حزم وجود

ضرب المثل فقالوا : « أنجب من أم البنين»[١]، والمنجبة من النساء من ولدت ثلاثة بنين أشراف فأكثر [٢]، والمنجبات في هذا العصر معدودات معروفات، ويعنينا هنا منجبات بني جعفر ، فقد كان منهن ثلاث : أم البنين التي أنجبت : عامر ابن مالك والطفيل وربيعة ومعاوية وعبيدة وهؤلاء أولاد مالك بن جعفر [٣]، ومالك نفسه أمه منجبة كذلك هي خبيئة بنت رياح بن الأشل الغنوية زوجة جعفر بن كلاب ، ويقال انها رأت في منامها آت أتاها كرتين فقال لها : « عشرة هدرة أم ثلاثة كعشرة » فقصت رؤياها على زوجها فقال لها : ان عاد الثالثة فقولي له : « بل ثلاثة كعشرة » . فولدتهم وبكل منهم علامة : خالد الأصبغ لشامة بيضاء في مقدم رأسه ، ومالك الطيان لانطواء بطنه ، وربيعة الأحوص لصغر عينيه [٤]. وتزوج الأحوص احدى المنجبات هي أنيسة بنت الوحيد أم عوف وشريح وعمرو أبناء الأحوص . فهذه ثلاث منجبات في بني جعفر . ولا شك ان هذا مصدر اعتزاز وفخر لدى الجعفريين . فلبيد يفخر بجدته أم البنين حين يقول [٥] :

نحن بنو أم البنين الأربعة .

وهو هنا يستثني أباه لأنه كان قد قتل قبل هذا [٦]، وذكر أم البنين كذلك

---

١ – المستقصى في أمثال العرب ، الزمخشري ٣٨٢/١ وكذلك وهم البكري اذ عـد سلمى مكان عبيدة . السمط ١٩٠/١ .

٢ – المحبر صفحة ٤٥٥ .

٣ – المصدر السابق ومجمع الامثال ٢٥٠/٢ .

٤ – المستقصى في أمثال العرب ٣٨٣/١ .

٥ – الديوان صفحة ٣٤١ .

٦ – وقد قيل انه ذكرهم اربعة للضرورة وفيه خلاف عند الادباء . انظر الروض الأنف ١٧٥/٢ وامالي المرتضى ١٩٣/١ والخزانة ١٧٤/٤ .



في غير موضع[١] ، وهو يذكرها باعتزاز وفخر كما يذكر أبناءها الذين تكفلوا برعايته والعناية به بعد مقتل أبيه ، وهو يشير الى تلك الرعاية التي لقيها وهو صبي صغير يلعب على أكتافهم[٢] :

لَعِبْتُ على أكتافِهم وحجورِهم وليداً وسَمَّونِي لبيدًا وعاصِما

وأكبر رعاية لقيها لبيد كانت من عمه أبي براء الذي كان أفضل أعمامه ، وأقربهم الى نفسه وأحبهم الى قلبه ، فهو يؤثره ويعجب به ، وكان أعمامه الآخرون يشعرون بهذا الميل وتفضيل عامر عليهم ، وقد عبر لبيد عن ذلك حين قال[٣] :

مَنْ كانَ مِنّي جاهِلاً أو مُغَمَّراً فما كانَ بِدْعاً في بَلائي عامِرُ

أَلِفْتُكَ حتّى أَخْمَرَ القَومُ ظِنَّةً عَلَيَّ بنوام البنين الأكابِرُ

وأبو براء من فرسان بني عامر المشهود لهم بالجرأة والإقدام حتى قالوا في المثل : «أفرس من ملاعب الأسنة » وقد تزعم قومه بني عامر منذ يوم السُّلان ، وكان قائدهم وزعيمهم المطاع مدة طويلة ، حتى ليقال انه أخذ أربعين مرباعاً في الجاهلية[٤] . وفي لقب أبي براء (ملاعب الأسنة) دلالة كبيرة على فروسيته ، وقد جاءه هذا اللقب من قول أوس بن حجر في وصفه[٥] :

---

١ – الديوان صفحة ٢١٥ و ٣٢٢ .

٢ – الديوان صفحة ٢٨٧ فيه (مفيداً وعاصماً) وأثبتنا رواية الاغاني ١٥/٥٣ ، وانظر اللسان (لعب) .

٣ – الديوان صفحة ٢١٥ .

٤ – الشعر والشعراء صفحة ١٥١ والحيوان ٢/١٩٨ .

٥ – الشعر والشعراء صفحة ١٥٠ – ١٥١ ، وقيل سماه أوس بن حجر بذلك لقوله في مخاطبة الطفيل حين فر عنه :

فررتَ وأسلمتَ ابنَ أمك عامراً يلاعبُ أطراف الوشيج المزعزعِ

المستقصى في أمثال العرب ١/٢٧٠ ومرح العيون صفحة ١٣١ .

ولاعبَ أطرافَ الأسنّةِ عامرٌ　　فراحَ لهُ حظُّ الكتيبةِ أجمعُ

وكان ذلك في يوم الشّوبان [1] ووصفه لبيد بهذه الصفة مع احتياجه الى القافية فغير في قوله [2] :

لو أنَّ حيّاً مُدرِكُ الفلاحِ　　أدركَهُ مُلاعِبُ الرّماحِ

وكان أبو براء الى فروسيته وبطولته شهماً وفياً أبياً كريماً ، وقد بيّن ذلك في قوله [3] :

لحا اللهُ أنانا عن الضّيفِ بالقِرَى　　وألأمَنا عن عِرضِ والدِه ذَبّا

وأدخلَنا للبيتِ من قِبَلِ أستِه　　إذا القُورُ أبدَى من جوانبِهِ رَكْبا

وقد مر بنا جانب واسع من حياة أبي براء عند الحديث عن المنافرة أو بئر معونة ثم نهاية أبي براء وشعر لبيد في رثائه ، فنكتفي بذلك .

أما أعمام لبيد الآخرون فليس لهم أثر كبير في حياته ، ولأن معلوماتنا عنهم محدودة لا تعين على تكوين فكرة واضحة عنهم ، ولعل في ألقابهم التي عرفوا بها دلالة عما اتصفوا به من صفات الفروسية والحلم وعلو المكانة والسماحة والكرم .

---

١ — اللسان (لعب) .

٢ — الديوان صفحة ٣٣٣ واللسان (لعب) .

٣ — مرح العيون صفحة ١٣٥ . القور : الاكم والجبال الصغار .

فالطفيل بن مالك ، فارس قُرْزُل ، وان عرف بهروبه الكثير في المعارك، فكان أوس بن حجر يهجوه لفراره عن أخيه عامر ، بقوله [1] :

فَرَرْتَ وأسلمتَ ابن أُمّكَ عامِراً ... يُلاعِبُ أطرافَ الوَشِيجِ المزْعزَعِ

وكذلك قال فيه ضُبَيْعَة بن الحرث العبسي مخاطباً ابنه عامر بن الطفيل، ومعرضاً بأبيه [2] :

وفعلتَ فِعْلَ أبيكَ فارسِ قُرْزُلِ ... إن النَّدودَ هو ابن كُلِّ ندودِ

والطفيل – كما هو واضح – أبو عامر الفارس المشهور ، وأبو الحكم الذي خاف أن يؤسر يوم ساحوق فخنق نفسه في شجرة [3] . وكان الطفيل قد هلك بموضع يعرف بـ (الجُنَيْنَة) وهنالك قبره . وقد ذكره لبيد فقال [4] :

وبيتُ طفيـــلٍ بالجُنَيْنَةِ ثاوِيا ... وبيتُ سُهَيْلٍ قد علمت بصَوْءَرِ

وقد رثاه لبيد مع من رثى من أهله وعشيرته فقال [5] :

---

١ – المستقصى في أمثال العرب ١/ ٢٧١ .

٢ – اسماء خيل العرب وفرسانها ، ابن الاعرابي صفحة ٧٥ . الندود : النفور الفرور .

٣ – ابن الأثير ١/٢٩٤ .

٤ – الديوان صفحة ٥١ . بيت طفيل : بمعنى قبره . الجنينة : اسم روضة . سهيل : ابن طفيل ابن مالك . صؤر : موضع في ديار بني تميم .

٥ – الديوان صفحة ١ . ذات ظفر : المنية . لا تورع : لا تكف . اللجب : ارتفـــاع الاصوات واختلاطها .



وبعدَ طُفَيْلٍ ذي الفِعالِ تَعَلَّقَتْ   به ذاتُ ظُفرٍ لا تُوَرَّعُ باللَّجَبْ

ويذكر حزنه حين علم بموت عمه [1] :

لَمَّا أتاني عن طفيلٍ ورَهْطِهِ   هُدوءاً فباتَتْ غُلَّةٌ في الحيازِمِ

ثم يصف كرمه وبطولته بعد ذلك .

وعم لبيد الثالث هو معاوية بن مالك ، وأمه أم البنين ، ولقبه معوّد الحكماء وقد سمي به لقوله في شيء كان جرى بين بني عقيل وبني قشير ، فأصلح بينهم وهو حديث السن [2] :

سأعقِلُها وتَحمِلُها غَنِيٌّ   وأُورِثُ مَجْدَها أبداً كِلابا

أُعَوِّدُ مثلَها الحكماءَ بعدي   إذا ما مُعْضِلُ الحَدَثانِ نابا

ويبدو ان معاوية هذا مات منذ زمن بعيد وهو لما يزل شاباً ، ولذلك لا نجد له ذكراً في أيام بني عامر ، وكانت وفاته بسبب خمر شربها فحدث له حادث ، والى ذلك يشير لبيد في قوله [3] :

---

١ — الديوان صفحة ٢٩٥ . هدوءاً : بعد هزيع من الليل . الغلة : حرارة الحزن . الحيازم : اضلاع الفؤاد .

٢ — المؤتلف والمختلف صفحة ٢٨٨ وفيه البيت الاول فقط ، وسمط اللآلىء ١/١٩٠ وفيه البيتان وكذلك امالي المرتضى ١/١٩٣ .

٣ — الديوان صفحة ٤٧ . حومة : موضع . المتقطر : المصروع الساقط على قطريه أي جانبيه .

ولا من أبي جزءٍ وجارى حَمُومَةٍ قتيلَيْهما والشَّاربُ المُتقَطِّرُ

وفي شرح الطوسي لهذا البيت بيان لموته يقول : « ان مالك بن جعفر وابنه معاوية ، أتيا ملكاً من ملوك الحبشة باليمن ، فسقى معاوية بن مالك شراباً انتشى منه فسقط من فوق بيت فتقطر فمات ، فخشي ان يرسل مالكاً فبعث عليه سراً فخنقه بسرقة حرير ، فهو قوله قتيليهما ، يعني قتيل الملك وابنه معاوية » . وقد أشار لبيد ثانية للحادثة في قوله [1] :

وبعدَ أبي حَيَّانَ يومَ حَمُومَةٍ أُتِيحَ له زَأْوٌ فأُزلِقَ عن رَتَبْ

وأبو حيان هنا كنية معاوية .

وكما فقد بنو عامر معاوية وهو شاب ، فقدوا كذلك عبيدة الوضاح من بني أم البنين ، حيث قتل في يوم ذي نجب وهو على قرن الحول من شعب جبلة ، قتله زنباع بن الحارث أحد بني رياح ، وكانت عامر قد انهزمت في هذا اليوم ، ولذلك يقول سحيم بن وثيل الرياحي يفخر بأنهم قتلوا عبيدة بن مالك ، ويزيد ابن خويلد الصعق [2] :

ونحنُ ضرَبْنا هامةَ ابن خويلدٍ يزيدَ وضَرَّجنا عُبَيْدَةَ بالدَّمِ
بذي نُجُبٍ إذْ نحنُ دونَ حريمنا على كل جَيَّاشِ الأَجاري مِرْجَمِ

وقد بكى لبيد عمه عبيدة فوصفه بالجود ، والحزم ، والنجدة ، فقال [3] :

---

١ – الديوان صفحة ٢ . يوم حمومة : من أيام العرب . زأو : قدر . رتب : مرتفع .

٢ – النقائض صفحة ٦٦٨ وابن الاثير ٣٦٣/١ .

٣ – الديوان صفحة ٥١ .

ومن كان أهلَ الجُودِ والحَزْمِ والنَّدَى

عُبَيْدَةُ والحامِي لدَى كلِّ مَحْجَرِ

وخلف عبيدة ولدين : الحارث ، وكنانة ، وكلاهما قتل يوم الرقم ، وقد بكى لبيد ابن عمه كنانة المكنى بأبي حازم في قصيدته التي ذكر فيها أهله [1] :

أولئكَ فابكِي لا أباً لَكِ واندُبِي أَباحازِمٍ في كلِّ يومٍ مُذَكَّرِ

أما سلمى بن مالك عم لبيد فقد عرف بنزال المضيق ، وفي هذه التسمية ضرب من البطولة كبير ، ولم يك سلمى من بني أم البنين [2] ، بل ان أمه من بني سُلَيْم وأخواله منهم [3] . وقد عرف من خلفه جبار بن سلمى أحد شياطين بني عامر الذي كان بصحبة عامر بن الطفيل واربد بن قيس حين قصدوا رسول الله ﷺ ، يريدون الغدر به . وجبار هذا هو الذي نصر عامر ابن الطفيل في بئر معونة ، ومن جرائره المشهورة قتله الصحابي الجليل عامر بن فهيرة ، وكان جبار يحدث — حين أسلم — عن ذلك اليوم فيقول : « ان مما دعاني الى الاسلام اني طعنت رجلاً منهم يومئذ بالرمح بين كتفيه ، فنظرت الى سنان الرمح حين خرج من صدره فسمعته يقول : فزت والله ، فقلت في نفسي : ما فاز ألست قد قتلت الرجل . قال : حتى سألت بعد ذلك عن قوله ، فقالوا : للشهادة ، فقلت : فاز لعمرو الله [4] » . وهو الذي كان يحدث انه

---

١ - الديوان صفحة ٥٣ .

٢ - ذكره صاحب السمط من بني أم البنين خطأ ١/١٩٠ .

٣ - الديوان صفحة ٥١ ، شرح البيت ١٦ للطوسي .

٤ - السيرة ٢/١٨٦ والطبري ١/١٤٤٥ .

رأى عامر بن فهيرة قد رفع الى السماء [1] . وقد ذكر لبيد عمه سلمى في موضعين من شعره كلاهما في سياق الرثاء . قال في الموضع الأول يصف حاله وحزنه على سلمى وعامر بن الطفيل وعروة الرحال [2] :

أَصْبَحْتُ أَمشِي بعدَ سلمَى بن مالكٍ وبعدَ أَبي قَيْسٍ وعروةَ كالأَجَبْ

وذكره بالكرم والنجدة فقال [3] :

وسَلْمَى وسلْمَى أهلُ جُودٍ ونائِلٍ متى يَدْعُ مولاه إلى النَّصْرِ يُنْصَرِ

وبقي من أعمام لبيد اثنان من غير أم البنين ، أولهما : عمرو بن مالك ولا نعرف عنه الا أن له ابناً اسمه يحيى ، وخلف هذا بنتاً تزوجها سعيد بن العاص، وهي أخت حبيب بن يحيى [4] .

أما الثاني فهو عتبة بن مالك أبو عقبة ، وعقبة هو الذي يكنى بأبي حُفَيْد وقد ذكره لبيد في معرض الذم [5] :

ولستُ كما يقولُ أبو حُفَيْدٍ ولا نَدْمانُه الرِّخْوُ البَلِيدُ

والأمر الذي يلاحظ ان الأخبار المتصلة بأعمام لبيـــد قليلة جداً ولولا

---

١ – جمهرة الانساب صفحة ٢٨٦ .

٢ – الديوان صفحة ١ . الأجب : الجمل المقطوع السنام .

٣ – الديوان صفحة ٥١ .

٤ – جمهرة الانساب صفحة ٢٨٤ .

٥ – الديوان صفحة ٣٨ وفيه معلومات عن الطوسي .

الاشارات التي تستخلص من شعر لبيد ، لما عرفنا عنهم شيئاً يذكر ، وكل علمنا عنهم ، منحصر في أنسابهم وأصولهم وحتى هذه الأنساب والأصول تكاد تكون مطموسة في كثير من الأحايين .

وننتهي بعد هذا كله الى أن لبيداً كان من قبيلة لها مكانتها الكبرى في القرن السادس الميلادي في نجد والحجاز ، وهو من أسرة شريفة بارزة في هذه القبيلة العامرية ، وان زعامة بني عامر كانت منحصرة في أسرة لبيد — بني جعفر بن كلاب — وان أبطال العامريين وفرسانهم المشهورين كانوا من هذه الأسرة أيضاً ، وهم ولبيد من نسب واحد ، فهم بين عم له او أخ او ابن عم ، ولذلك فلا غرابة ان ينشأ لبيد في ظلال هذه الأسرة وقد أخذ عنها كل مزاياها ، فهو يشعر بالعز والفخر وكرم الأصل وعراقة النسب ; ولا بد أن يترك ذلك الشعور أصداءه الواضحة في شعره ، وسنراها عند الحديث عن فنون شعره وبخاصة في فخره ورثائه .

الفصل الثالث

حياة لبيد في الجاهلية

ليس لدينا من حياة لبيد في الجاهلية غير أخبار قليلة لا تجدي في تكوين صورة واضحة لسيرته ، فحياته – كحياة بقية الشعراء الجاهليين – يسودها الغموض ولا يضيئها الا لمحات او ومضات تظهر خلال شعره [1] .

١

وأول ما يشب لبيد نجده قد فقد أباه في يوم ذي علق وهـو لما يتجاوز التاسعة من عمره أو ما بعدها بقليل ، وتحديد هـذا العمر مستفاد من رواية

---

١ – انظر المقالة التي كتبها بروكلمان في دائرة المعارف الاسلامية (الاصل الانكليزي) حول حياة لبيد عامة ، وانظر كذلك ما كتبه سلون عن حياة لبيد :

Sloan: The poet Labid. P. 20 - 35.

وكذلك المقالة الموجزة التي كتبها هوبر تصديراً لديوان لبيد بعنوان :

Huber: Lebids Leben. P. 1 - 10. Leiden 1891.

والمقالة التي كتبها فون كريمر بعنوان (حول أشعار لبيد) في المجلة الالمانية للدراسات الشرقية صفحة ٥٥٥ – ٦٠٣ نشرها مستقلة سنة ١٨٨١ بعنوان :

Kremer: Ueber die Gedichte des Labyd. Wien 1881.



تقول : ان لبيداً حضر يوم الشعب مع أعمامه وكان عمـــره تسع سنوات [1] أو بضع عشرة سنة ، وكان مقتل أبيه – على ما تقدم – في يوم ذي علق وهـــو قبل يوم الشعب ، وقد ذكره لبيد وهو يحس بثقل المصيبة فقال [2] :

ولا من رَبيع المُقتِرِينَ رُزِئتُهُ   بِذِي عَلَقٍ فَاقْنِي حَياءكِ واصبِري

وأول يوم من أيام بني عامر يحضره لبيد هو يوم الشعب هذا ، وهو برعاية أعمامه ولذلك يقول له أبو براء : « اليوم يتمت من أبيك ان قتل أعمامك » [4] .

ثم يشب لبيد وتتوالى وقائع بني عامر ويخوضون المعارك ضد خصومهم في شتى الجهات ، وتذكر أسماء المحاربين وذوي البلاء من العامريين او الجعفريين ، ولا نجد ذكراً للبيد في تلك الوقائع والأيام ، مع العلم أن المصادر تذكر أعمام لبيد ، وأبناء أعمامه ، وتذكر أخاه اربد ، وقد تفصل بعض الروايات بأن تنسب أقاربه اليه ، فحين يعرف بأربد يقال (أخو لبيد لأمه) ، وحين يعرف بعامر بن الطفيل يقال (ابن عم لبيد بن ربيعة الشاعر) ولكن لبيداً نفسه لا يذكر في واقعة من الوقائع وهذا أمر يلفت النظر . مع ان لبيداً معـــدود من فرسان قومه ومعروف بالشجاعة والاقدام ، وحين ترجمت له المصادر وصفته بأنه كان : « فارساً شاعراً شجاعاً » [4] وهو : « من أشراف الشعراء المجيدين الفرسان » [5] والدراسة هنا تقف أمام احتمالين أو فرضين :

---

١ – الاغاني ١٤٩/١١ .

٢ – الديوان صفحة ٤٨ .

٣ – الاغاني ١٤٩/١١ .

٤ – طبقات الشعراء صفحة ١١٣ .

٥ – الأغاني ٩٠/١٤ .



الأول – أن يكون لبيد جباناً يخشى الحروب ولم يشارك فيها شأنه في ذلك شأن حسان بن ثابت في الاسلام . والفرض الثاني – ان لبيداً كان يشارك في أيام قومه وهو ذو جرأة واقدام ، ولكنه لم يكن مبرزاً مثل فرسان قومه ، ولم يشهر ببطولة كبطولة عامر بن الطفيل ، أو بطولة أخيه اربد ، وإنما كان حظه أدنى من ذلك ، فهو رجل من الناس من أوساط قومه شجاعة ، والرواية عادة تسمي الأبطال البارزين ، أو الجبناء المنهزمين ، ولم يكن لبيد واحداً من هؤلاء ، فلذلك اختفى اسمه من هذه الأيام ، اذ من غير المعقول أن يكون بمعزل عن معارك قومه وهي كثيرة .

ولقد أميل الى هذا الفرض الثاني ، مع ملاحظة تظهر واضحة في فخر لبيد ، هي انه مع اعتزازه بشجاعته ، ميال الى السلم والأمن والانصاف ، ولا يركب الحروب الا مضطراً ، واذا افتخر ببطولته فهو فخر في غير شطط او اسراف .

أما وصف الفروسية الذي اقترن بذكر لبيد فلم يطلق عليه عبثاً ، وأكبر الظن انه جاء من الوهم الذي ذهب اليه ابن قتيبة [1] ومن تابعه من القدامى ، في ان لبيداً كان على رأس جيش غساني أرسله الحارث بن أبي شمر الغساني الأعرج لاغتيال المنذر بن المنذر بن ماء السماء [2] ، وتذكر الرواية انهم دخلوا معسكر المنذر ، وأظهروا الدخول في طاعته ، فلما تمكنوا منه قتلوه ، فلما أحس بهم

---

١ – الشعر والشعراء ص ١٤٨ .

٢ – عند ابن قتيبة ، الشعر والشعراء ص ١٤٨ ، ومن تابعه ، هو المنذر بن ماء السماء وهو خطأ لأن المنذر هـذا قتل في يوم أباغ (ابن الأثير ١/٣٢٦) أما المنذر بن ماء السماء فهو الذي قتل يوم حليمة (ابن الأثير ١/٣٢٨) ولعل الروايات التي ذكرت يوم حليمة اختصرت الاسم فحذفت منذراً فوقع الخطأ .



جند المنذر اصطدموا بهم فقتل أكثرهم ونجا لبيد ، حتى أتى الملك الغساني فأخبره الخبر ، فحمل الغسانيون على جيش المنذر فهزموهم في يوم حليمة [1] .

والفارس لا شك هنا هو غير لبيد بن ربيعة الشاعر بل هو لبيد بن عمرو الغساني ، وقد نص على ذلك المفضل الضبي الذي روى حادثة تتعلق بلبيد وحليمة بنت الملك ، حيث انه قبلها حين دنت منه لتطيبه ، فاستشاطت غضباً ، غير ان أباها هدأها بقوله : « ويلك اسكتي فهو أرجاهم عندي ذكاء قلب » [2] . ومن المعروف ان المفضل الضبي الذي سمى لبيد بن عمرو الغساني باسمه كاملاً يتقدم على ابن قتيبة بما يقرب من قرن من السنين (توفي المفضل سنة ١٧٠ هـ وابن قتيبة ٢٧٦ هـ) ، والظاهر ان ابن قتيبة لم ينتبه لاسم الشاعر أو الفارس الذي ذكره المفضل الضبي [3] ، كما انه لم يفطن لفارق الزمن الذي يفصل بين لبيد الشاعر ولبيد الفارس ، فلبيد بن ربيعة الشاعر كان على صلة بالنعمان بن المنذر أبي قابوس (حكم من ٥٨٢ — ٦٠٢ م) ، وكانت أول صلته به وهو غلام كما تصفه الرواية [4] ، أي ان لبيداً الشاعر لم يدرك المنذر بن المنذر لأنه أدرك ابنه وهو صغير . ثم ان النابغة الذبياني — وهو معاصر للبيد الشاعر — يشير الى يوم حليمة على انه ماض بعيد ، وذلك حين يقول في مدح الغسانيين [5] :

---

١ — نسبة الى حليمة ابنة ملك غسان ، وقيل نسبة الى موضع يعرف بمرج حليمة (معجم البلدان ٣/٣٣٠ وابن الاثير ١/٣٢٨) التي طيبت فرسان أبيها حين توجهوا للقتال وألبستهم الاكفان والدروع وبرانس الاضريح (الخز الاحمر) ، الشعر والشعراء ص ١٤٨ ولذلك قالوا في الامثال : (ما يوم حليمة بسر) مجمع الامثال ٢/١٥ . وانظر فصل المقال ، البكري ١١٣ حيث قال ان اليوم نسب الى حليمة لانها أشارت على أبيها بالمكيدة .

٢ — امثال العرب ، المفضل الضبي ص ٧٩ .

٣ — وكذلك ذكره الميداني ، مجمع الامثال ٢/١٥ ، ٢٥٢ .

٤ — أمالي المرتضى ١/١٩٠ .

٥ — أمثال العرب ، الضبي ص ٨٩ وفصل المقال ، البكري ص ١١٣ .



ولا عيبَ فيهم غيرَ أن سيوفَهُمْ بِهِنَّ فلولٌ من قِراعِ الكتائبِ

تُخُيِّرْنَ من أزمانِ يومِ حَليمةٍ إلى اليومِ قد جُرِّبْنَ كُلَّ التجاربِ

وبذلك فات على ابن قتيبة ان يمحص الحادثة، فذكرها في ترجمة لبيد الشاعر على انه هو الفارس المعني . ثم جاء الذين كتبوا عن لبيد من المتقدمين ، فنقلوا رواية ابن قتيبة دون تمحيص أيضاً ، كما فعل ابن خلدون وان كان قد ذكر ان لبيداً كان غلاماً ، وهو يذكر اسم لبيد ويصفه بالشاعر[1] . أما البغدادي فقد نقل رواية ابن قتيبة نصاً[2] ، على ان كثيراً من القدماء ذكروا اسم الفارس (لبيد) مغفلين اسم أبيه ولقبه مما أوقع المتأخرين في خطأ لم ينتبهوا اليه .

والذي ساعد على انتشار هذا الوهم ، ان المعاصرين الذين ترجموا للبيد وتعرضوا الى ذكره اتكأوا على رواية ابن قتيبة دون تحقيق او تمحيص ، او حتى اطلاع على ما كتبه القدامى كابن الأثير او المفضل الضبي او الميداني[3] .

ومن هنا جاء وصف الفروسية والبطولة للبيد الذي يتعارض وخلو أيام بني عامر من ذكره كفارس من فرسانها ، وان كان هذا لا يعني جبن لبيد وانعزاله عن احداث عصره ، وأيام قبيلته . وهو أقرب ما يكون الى الدعة والهدوء وايثار السلم ، منه الى الحروب وخوضها والتحريض عليها ، ولذلك نجده كثير

---

١ – تاريخ ابن خلدون ٢/٥٨٥ ط لبنان سنة ١٩٥٦ .

٢ – خزانة الادب ١/٣٣٧ .

٣ – ينظر في ذلك على سبيل المثال : احمد الشنقيطي ، شرح المعلقات ص ٢٣ . ومصطفى الغلاييني ، رجال المعلقات العشر ص ١٦٠ – ١٦١ . واحمد الاسكندري ومصطفى عناني ، الوسيط ص ٨٦ . وبدر الدين العلوي ، مجلة الزهراء مجلد ٤ ص ٤٧ . والدكتور بدوي طباته ، معلقات العرب ص ١٥٣ وغيرهم . وقد نبه الى هذا الوهم محمد بهجت الاثري في رده على مقال العلوي عن لبيد في مجلة الزهراء م ٤/٢٧٧ .

الفخر بأمجاد قومه وأبطالهم ، ويذكرهم بأنهم يمنعونه ويحمونه ، ويدفعون عنه كيد الخصوم ، يقول [1] :

إني امرؤٌ مَنَعَتْ أَرُومَةُ عامِرٍ ... ضَيْمِي وقد جَنَفَتْ عَلَيَّ خُصُومُ

جَهَدُوا العَدَاوَةَ كُلَّها فأَصَدَّها ... عَنِّي مَنَاكِبُ عِزُّها مَعْلُومُ

لقد أطلع لبيد على أيام قومه ، وعرف انتصاراتهم ، وحفظ مناقبهم ، فهي تاريخ القبيلة وسجل أمجادها ومفاخرها . وأول يوم يذكره لبيد من تلك الأيام هو يوم مَنْعِجٍ أو يوم الرَّدْهَة بين بني عامر وغطفان ، وفي هذا اليوم قتل رياح ابن الأشلّ الغَنَوي شأس بن زهير [2] ، فيعير لبيد عيينة بن حصن الفزاري ويحقره على هزيمة قومه وما لحقهم من الذل ، ويفخر بانتصار قومه فيقول [3] :

رأيتَ ابنَ بدرٍ ذُلَّ قومِكَ فاعتَرِفْ

غَداةَ رَمَى جَحْشٌ بأفوقَ مالِكا

بخَيرِكُم نفساً وخَيرِكُمُ أباً

أعزُّهم حَيّاً عليهم وهالِكا

---

١ – الديوان ص ١٣٢ . الأرومة : الأصل . جنفت : جارت . جهدوا : بلغوا جهدهم . أصدها : ردها . مناكب : جماعات .

٢ – الأغاني ٨/١٠ وابن الأثير ٣٣٧/١ .

٣ – الديوان ص ٢٣٠ . الافوق : السهم . الرده : ج ردهة وهي النقرة في الجبل وهنا موضع .

تذكَّرتَ منهُ حـاجَة قد نَسِيتَها

وبالرَّدْهِ منه حاجَةً من ورائِكا

وفي ذهن لبيـد من بطولات قومه وانتصاراتهم يوم رَحْرَحان ، الذي ظهرت فيه عامر على تميم ، وكانت تميم قد اجارت الحارث بن ظالم المري قاتل خالد بن جعفر الكلابي غدراً عند النعمان [1] فيقول لبيد في سياق تعداد مفاخر قومه وأيامهم [2] :

مِنها حُوَيٌّ والذُّهابُ وقبلَه   يومٌ بِبُرقَةِ رَحْرَحانَ كَريمُ

وبعد عام من رحرحان يشهد لبيد مع قومه معركة الشُّعْب – التي مرت الاشارة اليها – وهو صغير وهو أول يوم يشهده ، فذكره مزهواً في ضمـن القصيدة السابقة :

مِنّا حُماةُ الشِّعْبِ يومَ تواكَلَتْ   أَسَدٌ وذُبيانُ الصَّفـا وتَميمُ

فارَتَثَّ كَلْماهُم عشيَّةَ هَزْمِهِم   حَيٌّ بمنعَرَجِ المَسيلِ مُقيمُ

وهناك قطعة من شعر لبيد تتصل بحياته الأولى يوم كان فتى ، وهي ترجع الى ما قبل يوم ذي نجب الذي قتل فيه يزيد بن الصعق [3] وقبل هجرة بني جعفر

---

١ – النقائض ٢١٤/١ والأغاني ٣٠/١٠ وابن الأثير ٣٤١/١ .

٢ – الديوان ص ١٣٢ . الشعب : شعب جبلة . وجبلة : أكمة . الصفا : المودة . تواكلت: تخاذلت وضعفت .

٣ – ابن الأثير ٣٦٣/١ .



عن بلادهم . قالها حين أغار الربيع بن زياد العبسي على يزيد بن الصعق فغنم سروح بني جعفر والوحيد ابني كلاب ، وكان يريد قتل يزيد بن الصعق فأخطأه لأنه كان في جماعة من الناس فلم يستطعه ، وسبب هذه الغارة ان بني عامر رعت في ناحية من بلاد غطفان — وكانت مخصبة — مما أثار غضب الربيع فغزاهم ، وقال في ذلك شعراً يذكر فيه ما فعله ببني عامر :

فإنْ أخطأْتَ قومَكَ يا يَزيدا فأنعي جَعفَراً لكَ والوَحِيدا [1]

وقد أثارت هذه الغارة غضب لبيد فقال يوعد الربيع وينتقص من بني بغيض ويفاخر بقومه [2] :

لستُ بغافِرٍ لِبَني بغيضٍ سَفاهَتَهم ولا خَطَلَ اللسانِ
سآخذُ من سَراتِهم بِعِرضِي ولَيسوا بالوَفاء والا المُداني
فانَّ بقِيَّةَ الأحسابِ مِنّا وأصحابَ الحَمالَةِ والطِّعانِ
جراثِيمُ مَنَعْنَ بَياضَ نَجْدٍ وأنتَ تُعَدُّ في الزَّمَعِ الدَّواني

ولعل هذا أول هجاء عرفه لبيد ، وأول لقاء بالربيع بن زياد الذي يعد من أخواله ، وهذا الشعر من تجارب لبيد الأولى . ويقال ان النابغة الذبياني رد على لبيد يهجوه بقوله [3] :

---

١ — الخزانة ٢٠٦/١ وديوان لبيد ٣٢٨ . خطل اللسان : يريد طوله . سراتهم : أشرافهم. الحمالة : تحمل الدية . الجراثيم : الأصول . الزمع : ج زمعة ، هنة زائدة في قوائم الشاة .

٢ — الديوان ص ٣٢٨ .

٣ — ديوان لبيد ص ٣٢٨ ، الخزانة ٢٩٠/١ ط عبد الحميد . ولم أجد البيتين في ديوان النابغة او العقد الثمين .

ألا مَنْ مبلِغٌ عنّي لَبيدا   أبا الدَّرْداء جَحْفَلَةَ الأَتانِ
فقــد أرخى مطيَّتَهُ إلَينا   بمنطقِ جاهلٍ خَطِلِ اللسانِ

وفي قول النابغة (بمنطق جاهل خطل اللسان) مــا يؤيد ان لبيداً كان في زمن الفتوة والصبا وان شعره من تجاربه الأولى . وشعر لبيد هذا ورد النابغة هو صورة من صور المناقضات الأولى التي لم تكن لتبدأ أموية قبل بدئها — على هذه الصورة الكاملة — جاهلية .

٢

على ان شخصية لبيد القوية الفعالة في قومه تظهر — أول مــا تظهر — في حادثة انقسام بني عامر ، وخلافهم الذي أدى الى نفي بني جعفر قوم لبيد الى اليمن [١] ؛ فقد قتل منيع بن عروة الجعفري مرة بن طريف من بني أبي بكر بن كلاب ، فهاج الشر بين الحيين وأوذنوا بحرب مهلكة ، وظهر لبيد في هذا اليوم له مكانة واضحة في القبيلة ، فهو لسانها الذي يترجم عن أمانيها ، فيعرض في شعره قصة هذا الخلاف ، وموقف بني جعفر ، وعدوان بني أبي بكر ، وحرصه وحرص قومه على سلامة بني عامر عامة ، فهو يبين محاولاتهم في صلاح القبيلة ووفاقها ، ونظرتهم الى وحدة القبيلة وصلات النسب وتريثهم وتفكيرهم قبل أن يقدموا على الخطر المحدق والشر المنتظر فيقول [٢] :

فلمَّا رأيْنــا أن تُرِكنا لِأَمرِنا   أَتَينا التي كانَتْ أَحقَّ وأَكرَما
وقلنا انتظارٌ وانتمارٌ وقوَّةٌ   وجُرثُومةٌ عــاديَّةٌ لن تَهَدَّما

---

١ — النقائض ص ٥٣٣ كما مر في حديث ابن ضبا .

٢ — الديوان ص ٢٨٠ . جرثومة عادية : أصل قديم .

وقد عرض الجعفريون على جَوَّاب — مالك بن كعب — ان يخلي بينهم وبين غنى وأن يقبل هو دية القتيل ، ولكن جواباً أراد ان يبؤ أحد القتيلين بالآخر[1] وذلك حيث يبين لبيد رأي قومه :

وقُلْ لابنِ عَمْرٍو ما تَرى رأْيَ قومِكم

أبا مُدْرِكٍ لو يَأْخــذِونَ المُزَنَّما

ونحنُ أُناسٌ عودُنا عــودُ نَبْعَةٍ

صَليبٌ إذا ما الدَّهرُ أجشَم مُعْظِما

وتعد هذه القصيدة بمثابة رسالة سياسية يفاوض فيها لبيد عن قومه ، بني أبي بكر ، فيذكرهم بأواصر القربى والمودة ، وان قومه بني جعفر ليس لهم يد في دفع منيع لارتكاب جريمته ، فان يقبلوا المعروف فهم أهله الساعون اليه ، وان أبوا الا الحرب فتلك سبيلهم ، وهم غير حراص على هذه الحياة :

فأَبلِغْ بني بَكْرٍ إذا ما لَقيتَها ... على خيرِ ما يُلْقَى به من تَزَغَّما

أبونا أبوكُم والأَواصِرُ بينَنا ... قَريبٌ ولم نأمرْ مَنِيعاً ليأْثَما

فان تَقْبَلوا المعروفَ نَصبِرْ لحَقِّكم ... وان يعدَم المعروفُ خفَّاً ومَنْسِما

وإلّا فما بالمَوتِ ضُرٌّ لأَهلِه ... ولم يُبْقِ هذا الدَّهرُ في العَيشِ مندَما

---

١ — النقائض ١/٥٣٣ والديوان ص ٢٨١ . المزنم من الابل : الكريم الذي جعل له زنمة علامة لكرمه . أجشم : كلف المشقة . المعظم : الذي يرمى بالعظيم من الأمر . تزغم : تغضب.

ولكن الوئام والصفاء الذي أراده لبيد لقبيلته لم يكن ، بل قامت الحرب وهزمت جعفر ونزلت على حكم جواب الذي قضى بنفيها عن ديارها . وقد غضب لبيد لهذا الحكم الجائر ، وثارت ثائرته فقال قصيدة يهجو فيها جواباً ويسخر منه وينكر عليه نفي جعفر عن بلادها فهو يهدده ويوعده بغارة يشنها فرسان بني جعفر [1] :

وَلدَتْ بنو حُرْثانَ فرخَ محرّقٍ بِلِوَىٰ الوَضيعَةِ مُرتَجَ الأَبوابِ
لا تسقِنِي بيديكَ إِن لم أَلتَمِسْ نَعَمَ الضَّجُوعِ بِغارةٍ أَسرابِ
تَهدِي أَوائِلَهنَّ كُلُّ طِمِرَّةٍ جَرْداءَ مثل هِراوةِ الأَعزابِ
يحملنَ فتيانَ الوغى من جَعْفَرٍ شُعْثاً كأَنَّهم أُسودُ الغابِ

ويخاطب بني كلاب وقد كبر عليه ان يهجر قومه ديارهم ، لتحل بها بنو ضبينة — وهم أخوال جواب لأن أمه غنوية من بني حرثان من بني ضبينة — الذين كانوا قد قتلوا ابن عروة :

أَبنِي كِلابٍ كيفَ تُنْفَى جَعفَرٌ وبنو ضُبَيْنَةَ حاضِرُو الأَجْبابِ
قتلوا ابنَ عروةَ ثم لَطُّوا دونَه حتّى نحاكِمُهم إِلى جَوّابِ

ويذكر لبيد قومه بني جعفر ويشبههم في عزهم وقوتهم بأسرة حاجب وشهاب من بني تميم :

---

١ — الديوان ص ٢١ — ٢٢ . اللوى : طرف الرمل حين يستدق ويفضي الى الجدد . الوضيعة : مكان . مرتج : مغلق . الضجوع : رحبة لبني أبي بكر بن كلاب . الطمرة : المشرفة من الخيل والسريعة . هراوة الاعزاب : فرس كان يستعيرها العرب ليغنم فيتزوج . الاجباب : الآبار . لطوا : ستروا . اللديد : جانبا الوادي .

يرعونَ منخَرِقَ اللَّديدِ كأنَّهمْ   في العِزِّ أُسرَةَ حاجِبٍ وشِهابِ

مع ان تميماً كانت قد غزت بني عامر في شعب جبلة ، وهو يرفع بهذا من قدر أعدائه ، ولذلك فقد أخذ الجاحظ على لبيد هذه الزلة ، وعد القصيدة من الأشعار الغائظة لقبيلة الشاعر فقال : « ومن الأشعار الغائظة لقبيلة الشاعر ، وهي التي لو ظنت الشعراء ان مضرتها تعود بعشر مـــا عادت به لكان الخرس أهون عليها من ذلك القول » ثم يذكر شعر لبيد [1] .

ب ومضى بنو جعفر – نزولاً عند حكم جواب – متوجهين الى اليمن ليحالفوا بني الحارث بن كعب ، وحزن لبيد لفراق بلاده فقال يبكي الديار التي خلت من بعدهم [2] :

ب بَكَتنا أرضُنا لَمَّا ظَعَنَّا   وحَيَّتْنا سُفَيرةُ والغِيامُ
مَحلُّ الحَيِّ إذ أمسوا جميعاً   فأمسَى اليومَ ليس به أنامُ

وقد مكث الجعفريون في اليمن [3] – مجاورين بني الحارث بن كعب – عاماً كاملاً ، وهو وقت طويل أتاح للبيد أن يتصل بأحد ملوك الحبشة باليمن ، هو

---

١ – الحيوان ٥/١٧١ .

٢ – الديوان ٢٩٣ .

٣ – لقد ذهب الطوسي شارح الديوان ص ٤١ الى ان القصيدة رقم ٧ والتي مطلعها : (انما يحفظ التقى الابرار . والى الله يستقر القرار) ، قالها لبيد حين ارتحل بنو جعفر عن أرضهم ، غير أنه ليس في القصيدة ذكر لبني جعفر بل هو وداع لعامر كلها والقصيدة حافـــلة بالمعاني الدينية التي فيها نفحات من هدى الاسلام . وقد لاحظ المحقق ان هذه القصيدة قيلت زمن الفتوح حـــين ارتحل بنو عامر عن أرضهم الى الأمصار الاسلامية وهي ملاحظة صائبة . ينظر مقدمة الديوان ص ١٩ .

(خمير) لأمر يتعلق بفداء قوم كما يقول الطوسي [1] ، ولا ندري هل كان هؤلاء القوم أسرى من بني جعفر ، وهذا يقتضي أن يكون لهم صدام مع جند هذا الملك ، وهذا أمر لم تتحدث عنه أخبار بني جعفر ، أو قد يكون الأسرى من بني الحارث بن كعب جيران بني جعفر – وهذا أمر راجح – ويقول لبيد ان هذا الملك أجازه وأكرمه فكتب له (طرساً ناطقاً) ليعطى ، كما أعطاه بعض العبيد [2] :

ولقد دَخلتُ على خُمَيِّرَ بيتَهُ مُتَنَكِّراً في مُلْكِهِ كالأغلَبِ
فأجازَني منه بِطِرْسٍ ناطِقٍ وبكُلِّ أطلَسَ جوبُه في المَنْكِبِ

وقد مرّ بنا في أمر هذه الهجرة ، ان بني الحارث بن كعب عرضوا على بني جعفر ان يزوجوهم عشرين من نسائهم ، ويتزوجوا عشرين من بني عامر ، وقد أحس عامر بن مالك – سيد القوم – بما يريد بنو الحارث من إذلالهم والاستعانة بهم ، وكان لهم موقف معروف هو الذي دعا بني جعفر الى العودة الى بلادهم ومصالحة بني أبي بكر . وكان لبيد في صف عمه أبي براء ، وكان له أثر في جمع كلمة قومه بعد أن أوشكوا على الخلاف والفرقة ذكر ذلك في قصيدة له متأخرة عن هذا التاريخ في سياق معاتبة عمه أبي براء ، وقد اختلف وإياه فقال [3] :

---

١ – الديوان ص ١٥٥ .

٢ – الديوان ص ١٥٥ . ولعل جاريته السوداء أريكة من عطايا هذا الملك . الأغلب بالغليظ : العنق . الاطلس : الحبشي . الجوب : الترس .

٣ – الديوان ص ٢١٨ . الفقر : الشق على أنف البعير يحز ويوضع فيه الحبل ليذلل . وفاقر : هنا بمعنى الأثر البعيد أي ان أثري كان يومئذ أثراً بعيداً .



ويومَ منعتَ الحَيَّ أنْ يَتَفرَّقُوا بنجرانَ فَقْري ذلكَ اليوم فاقِرُ

هذه الهجرة وما رافقها من أحداث كانت عاملاً على إظهار شخصية لبيد على انه شاعر القبيلة .

٣

وكان أهم حدث لمع فيه لبيد وكان له أثر كبير في شهرته واعتداده بنفسه ، هو ما قيل من حضوره مجلس النعمان بن المنذر ، مع وفد قومه بني جعفر ومهاجاته الربيع بن زياد وهو أمر مشهور انتصر فيه لبيد ، وعلمت مكانته وصار مقرباً بعد ذلك الى الملك [١] .

وحقيقة هذا اليوم ان بني جعفر بن كلاب وفدوا على النعمان بن المنذر أول ملكه (سنة ٥٨٢ م) وهم ثلاثون رجلاً عليهم أبو براء عامر بن مالك ، وفيهم لبيد بن ربيعة [٢] . أما سبب هذه الوفادة فمن الصعب القطع بها ، وقد تكون للتهنئة ، وقد تكون لافتداء بعض الأسرى العامريين ، ولعلي أميل الى هذا الأمر الثاني ، فهناك رواية ساقها صاحب الخزانة عن أبي الحسن الطوسي شارح

---

١ – ذكرت الحادثة على خلاف في التفصيل في: الأغاني ٣٦٣/١٥ – ٣٦٦ وأمالي المرتضى ١٨٩/١ – ١٤٣ وأنباء نجباء الابناء ص ١٦٩ – ١٧٤ وفصل المقال في شرح كتاب الامثال، البكري ص ٨١ – ٨٢ ومجمع الأمثال ، الميداني ١٠٢/٢ – ١٠٤ وعيون الاخبار ٦٥/٤ والفاخر ، للمفضل بن سلمة ص ١٧٣ والمستقصي في أمثال العرب ، الزمخشري ١٩٠/٢ وغير ذلك .

٢ – أمالي المرتضى ١٨٩/١ – ١٩٠ ، وذكر الصقلي ، أبناء نجباء الابناء ص ١٦٩ : من أعيان هذا الوفد عامر بن مالك وطفيل بن مالك ومعاوية بن مالك وعبيدة بن مالك وعروة بن عتبة بن جعفر .

ديوان لبيد [1] ، تنص على ان وفد بني عامر « أتوا النعمان بن المنذر أول ما ملك ، في أساري من بني عامر يشترونهم منه [2] » .

ومما يقوي هذه الرواية قول النعمان يخاطب عصيمة بن سنان :

« ابعث إليَّ بعبيدي » [3] يريد الأسرى الذين لديه من بني عامر ، أو الذين أجارهم عصيمة بن سنان . وكان النعمان يعرف لأبي براء مكانته وعزته في قومه ، فأكرمه وضرب عليه قبة ، وأجرى عليه وعلى من معه النزل . فكان الربيع بن زياد – خصم بني عامر [4] – نديماً للنعمان أثيراً لديه ، وكان يوغر صدر الملك على بني عامر ويذكر معايبهم اذا ما خلا به ، حتى استطاع ان يصده عنهم . وقد آذى بني جعفر كيد الربيع وجفوة الملك . وتقول الرواية :

ان لبيداً كان أصغر الوفد سناً ، فاذا حضر أعمامه مجلس النعمان تركوه في رحالهم وسروحهم ، فرآهم يتذاكرون أمرهم يوماً وهم غضاب ، وحاول أن يعرف جلية الأمر فكتموه ، لأن الربيع بن زياد عبسي ، وأم لبيد عبسية ، كانت يتيمة في حجر الربيع . ومن هنا فقد أضيف للرواية خيال قصصي طريف ، فيزعمون ان لبيداً يلح على أعمامه ليعرف سبب غضبهم بل ويهددهم الا يحفظ لهم متاعاً ولا يسرح لهم بعيراً أو يخبروه ، ثم ينزل أعمامه عند رغبته قائلين له : خالك قد غلبنا على الملك وصد عنا وجهه . ويبدي لبيد استعداده

---

١ – ونقل البغدادي يسند عن الطوسي وعن المفضل بن سلمة وابن خلف في شرح أبيات سيبويه .

٢ – الخزانة ٤/١٧١ ط بولاق ، وديوان لبيد ص ٣٤٠ .

٣ – المحبر ص ٣٥٤ .

٤ – يقال ان بني عامر أسروا الربيع بن زياد، أمالي المرتضى ١/١٩٠ . وقد مر بنا غارة الربيع على بني عامر وما ساق من سروح بني جعفر وبني الوحيد ، ديوان لبيد ص ٣٢٨ .



لأن يزجر الربيع ويفحمه بقول ممض لا يلتفت اليه النعمان بعده أبداً ، على ان يجمعوا بينه وبين الربيع في بلاط الملك . ويشك أعمامه بقدرته ، ويريدون منه برهاناً على ما يقول فيبلونه بهجاء بقلة كانت أمامهم تدعى (التربة) ، فاقتلعها لبيد من الارض وصار يخاطبها بسجع منمق جميل : « هذه البقلة التربة التفلة الرذلة ، التي لا تذكي ناراً ولا تؤهل داراً ، ولا تستر جاراً ، عودها ضئيل وفرعها كليل وخيرها قليل ، بلدها شاسع ونبتها خاشع وآكلها جائع والمقيم عليها قانع ، أقصر البقول فرعاً ، وأخبثها مرعى وأشدها قلعاً ، فحرباً لجارها وجدعاً ، القوابي أخا بني عبسي ، أرجعه عنكم بتعس ونكس ، واتركه من أمره في لبس »[1] ولا بد أن يعجب هذا الكلام رجال الوفد . وهم يعرفون ان من يتأهب لأمر عظيم يشغله التفكير ويهجره النوم ، فكانوا يرمقونه من بعيد ، فيرونه قد ركب رحلاً وهو يكدم في وسطه ، ثم يصبح الصباح فيتهيأ بنو جعفر ومعهم لبيد للقاء خصمهم الألد الربيع بن زياد .

وتأبى الرواية — أو يأبى الراوية — الا ان توغل في الخيال . فتصف رسماً من رسوم الجاهلية كان الشاعر القديم يلتزم به اذا هو غضب وأراد الهجاء . وكذلك فعلوا بلبيد ، فقد ألبسوه حلة وحلقوا رأسه وتركوا ذؤابته ودهنوا أحد شقي رأسه دون الآخر ، وجعلوه ينتعل نعلاً واحدة ويرخي ازاره وتلك سنة عادية يعرفها شعراء الجاهلية .

وجاءوا مجلس الملك وهو في قبته وحولها ناس كثير ، ومع الملك في القبة الربيع بن زياد يؤاكله ، فنادى لبيد من وراء القبة[2] :

---

١ — في النص خلاف وتغيير في بعض الألفاظ ومواقع العبارات ، من مصدر لآخر وقد فضلت رواية الأمالي للمرتضى ١/١٩٠ .

٢ — هذه الرواية ينفرد بها الصقلي مع الأبيات الأولى وهي ليست في الديوان ، أنباء نجباء الأبناء ص ١٧١ ، وانظر الديوان ص ٣٤٠ — ٣٤٣ ، وتنسب الأبيات الأولى الى النابغة الذبياني ، العقد الثمين ص ١٦٥ .



أنامُ أم يسمَعُ رَبُّ القُبَّه   يا أوهبَ الناسِ لعَنْسٍ صُلْبَه
ذات هَبابٍ في يَديها خـدبه   ضَـرَّابة بالمِشْفَرِ الأذبَّـه
في لاحبٍ كأنَّه الأطِبَّـه

فلما سمع النعمان كلامه أذن لهم ، فدخلوا ، فأدناهم الى المائدة وبسط الملك يده الى الطعام ، وبسط الربيع بن زياد يده أيضاً ، فقال لبيد وهو يشير الى صحفة الطعام .

أنا لَبيدٌ ثم هَـذِي المُتْرَعَـة   مهلاً أبيتَ اللَّعْنَ لا تَأْكُلْ معه

فقال النعمان : ولِمَ يا غلام . قال لبيد :

ان أسته من برص ملمعـه   وانه يدخـل فيها اصبعه
يدخلها حتى يوارى أشجعـه   كأنه يطلب شيئـاً ضيعـه

ثم قال :

نحن بنو أمّ البنين الأربعَة   ونحن خيرُ عامرِ بنِ صَعْصَعَة
المطعمونَ الجَفْنَـةَ المُدَعْدَعَة   والضَّارِبونَ الهامَ تحتَ الخَيْضَعَة
أكلُّ يومٍ هامتي مُقَزَّعَـة   يا رُبَّ هَيْجا هِيَ خيرٌ من دَعَه

ويتأفف النعمان مما يسمع فقد أفسد عليه طعامه وكره اليه الربيع ، ويحسب ان برص الربيع حقيقة مثلما قال لبيد ، وهم يكرهون البرص ويخشون منه ومن عدواه وينبذون صاحبه . فنظر النعمان الى الربيع شزراً وقال : « مـا أنت

بأكل معنا بعد اليوم » وعبثاً يحاول الربيع ان يبرىء ساحته . ويمتليء غضباً وغيظاً فيتقول على أم لبيد ويرميها بالفحش ، ولكن لبيداً يحسن اجابته ويرد عليه اتهامه ، ويخزيه مرة ثانية [1] .

ويحاول ضمرة بن ضمرة الدارمي أن يقيـل عثرة الربيع فينصره بكلام وكان ضمرة شيخاً مجرباً شاعراً ، ولبني كلاب قوم لبيد يَدٌ عليه حيث أسروه ثم منوا عليه . فقال لبيد يزجره [2] :

يا ضَمْرُ يا عَبْـدَ بني كِلابِ ويا بنَ كلبٍ مُعْلَـقٍ بِنابِ

أكانَ هـذا أولَ الثَّوابِ لا يعلقَنْـكَ ظفري ونابِي

إنِّي إذا عاقَبْتُ ذو عِقابِ

ويُفحم ضمرة فيسكت ، ويقال انه آلى على نفسه بعد هذا الا يهجو كلاباً ما دام حياً .

أما لبيد فيزدهيه النصر ويشعر ببطولة واعتزاز ، وقد زاد ذلك الشعور اكرام الملك اياه ، فقد قربه وزاده وسادة — وهذه عادة النعمان مع من يغلب في حضرته — وأمر أن يطعم عشر لقمات من طعامه قبل أن يأكل أحـد . وبذلك فسروا قول ابنة لبيد حين افتخرت بأبيها [3] :

---

١ – انظر نص المحاورة في أمالي المرتضى ص ١٩٢ والأغاني ٣٦٥/١٥ ونجباء الأبناء صفحة ١٧٣ .

٢ – نجباء الأبناء صفحة ١٧٣ .

٣ – نجباء الأبناء صفحة ١٧٤ .

ان أبانا كانَ حُــلواً مُرّا يأكلُ قَبْلَ الأكلِينَ عَشْرَا

على ان النصر الكبير الذي أحرزه لبيد هو ابعاد الربيع عن مجلس النعمان، وإصرار النعمان على بغضه وترحيله ورد شفاعته.

وشد الربيع رحاله خائباً مقهوراً، وكان قد أرسل الى الملك أبياتاً يقول فيها [1]:

لئن رحلت جمالي لا الى سعة ما مثلها سعة عرضاً ولا طولا..الخ

ويجيبه الملك غير مخفٍ غضبه واشمئزازه منه بقوله [2]:

شَرِّدْ برحلِكَ حيثُ شِئتَ ولا

تُكثِرْ عليَّ ودعْ عنكَ الأباطِيلا

وارحلْ بحيثُ عَلِمتَ الأرض واسعة

وانشُرْ بها الطَّرفَ إنْ عرضاً وانْ طولا

قد قِيلَ ما قِيلَ إنْ حقّاً وإن كَذِباً

فما اعتذارُكَ من قولٍ إذا قِيلا

---

١ - الأغاني ١٥/٣٦٥ .

٢ - نجباء الأبناء صفحة ١٧٤ .

وبعد : فقصة لبيد هذه في مجلس النعمان بالشكل الذي صنعتـه الرواية وتناقلته الأخبار ، باطل لا حق فيه ، وهي أقرب الى القصص الخيالي منها الى حقيقة الحياة الجاهلية ، ولكن الأمر الذي لا يرقى اليه الشك هو أن لبيداً كان مع الوفد الجعفري ، وكان الربيع بن زياد يكيد لهذا الوفد ، وقد وقف لبيد — وهو شاعر شاب ولم يكن غلاماً غراً كما تصفه الرواية — وقف يدافـع عن شرف قومه وكرامتهم ، واستطاع بشكل أو آخر أن يفحم الربيع بن زياد ويحظى باعجاب الملك والحاضرين . ويكون لذلك الموقف أثر كبير من نفس لبيد هو نفس الأثر الذي يشعر به الشاب المتحمس الذي يلقي لأول مرة خطبة بليغة موفقة أمام عظيم من الناس ، وفي جمهور منهم ، ويحوز اعجابهم ويستحق ثناءهم وكذلك كان شأن لبيد .

٤

وقد أيقظ هذا الموقف الشعور في نفس لبيد على انه شاعر قبيلته المرتجى ، وعليه تبعات الدفاع عنها ، والتعبير عن ارادتها ومطامحها ، والتغني بأحسابها وأمجادها ، ويُعد هذا اليوم أيضاً نقلة كبرى في حياته اذ رفع مكانته وحـاز شهرة ذائعة ومنزلة كبيرة ، وصار لبيد يعتد بشاعريته ويستجيد شعره ، ولعل خير تعبير عن هذا الاعتداد بشاعريته والرضا عن شعره ، الرواية التي تقول : ان لبيداً كان قبل هذا اليوم ينظم الشعر ويقول لا تظهروه ، أما بعد هذا النصر فقد أذن باذاعته وروايته [1] .

ومما يجعل الدارس مطمئناً الى صحة هـذه الحادثة — بصرف النظر عن

---

١ — الأغاني ١٤/٩٧ .

تفاصيلها القصصية – ان لبيداً يكثر الفخر بهذا الموقف في كثير من قصائده التي نظمها بعد هذا اليوم ، فمن ذلك قوله يبين ما فعله بالربيع [1] :

وسُقْتُ ربيعاً بالفِنـاء كأنَّه   قريعُ هِجانٍ يبتغي من يُخاطِرُ
فأفحَمْتُه حتى استكانَ كأنَّه   قريحُ سُلالٍ يكتِفُ المشيَ فاتِرُ

وكل الاخبار على ان لبيداً غلام في هذا اليوم ، وعند الرجوع الى شعره في وصف هذا المجلس ، نجده يزعم ان عامراً قبيلته دعتـه الى نصرتها فأجاب دعوتها [2] :

ولدَى النعمان مِنّي موطـنٌ   بينَ فاثورِ أفاقٍ فالدَّحـلْ
إذ دعتني عـامرٌ أنصُرُها   فالتَقَى الألسنُ كالنَّبْلِ الدوَلْ

وعامر – بطبيعة الحال – لا تستنصر بغلام ناشيء، بل الذي ينصرها شاعر له أثره وخطره ، وله تجربته وخبرته في الحياة ، فلا بد أن يكون لبيد في عمر يناسب هذه المكانة .

ولكن هناك رواية تعترض هذا الفرض ، وهي متعلقة بمجلس النعمان أيضاً، فقد روى حماد الراوية قال : « نظر النابغة الذبياني الى لبيد بن ربيعة وهـو صبي مع أعمامه على باب النعمان بن المنذر . فسأل عنه فنسب له ، فقال له :

---

١ – الديوان صفحة ٢١٧ – ٢١٨ . القريع من الابل : الذي يختار للفحلة . يخاطر : يحرك ذيله أو يراهن . قريح : جريح . سلال : داء يكتف المشي : يمشي مشياً رويداً .

٢ – الديوان صفحة ١٩٤ . فاثور أفاق فالدحل : موضعان وهو يوم الافاقة. النبل الدول: المتداولة المتراشقة .



يا غلام ان عينيك لعينا شاعر أفتقرض من الشعر شيئاً ؟ قال : نعم يا عم . قال فانشدني شيئاً مما قلته ، فأنشده قوله :

أَلَمْ تربع عـلى الدِّمَنِ الخَوالي

فقال له : يا غلام ، أنت أشعر بني عامر ، زدني يا بني ، فأنشده قوله :

طَلَـلٌ لخَولَةَ بالرُّسَيْسِ قَـديمُ

فضرب بيديه الى جنبيه وقال : اذهب فأنت أشعر من قيس كلها، أو قال: « هوازن كلهـا »[1] وزادت الرواية بأن أنشده (عفت الديار) فقال : اذهب فأنت أشعر العرب .

وليس من الحق أن نترك هذه الرواية وفيها ذكر لثلاث قصائد جياد دون مناقشة ، فعندي ان لقاء لبيد والنابغة أمر مقبول ومحتمل ، لأن النابغة كان يفد على النعمان وينال جوائزه ، ولكن ان ينشد لبيد — وهو ما زال فتى أو غلاماً — هذه القصائد فهو أمر لا يصح وغير مقبول بأي حال . لأن القصائد التي ذكرتها الرواية ، فيها ما يدل على انه قالها وهو كبير وناضج . قد يكون لبيد أنشده من شعره الذي قاله في زمن الصبا ، اما ان ينشده هذه القصائد الجيدة فأمر جد بعيد ، ولكي نستخلص أسباب ذلك ننظر في هذه القصائد الثلاث :

* فأما القصيدة الاولى (ألم تربع على الدمن الخوالي) ، فانها من القصائد الفنية التي شغلت بالوصف ، وهي تلائم ما ينشد في مثل هذه المواقف ، واذا كان أنشده إياها حقاً فانه في أكبر الظن حذف الأبيات الأربعة الأخيرة[2] من

---

١ – الأغاني ١٥/٣٧٧ .

٢ – الأبيات في صفحة ٩٤ من الديوان .

القصيدة في عتاب قومه ولومهم ، وهو مما لا يصح ان يذيعه عن قومه من التقصير .

وحكم النابغة ان لبيداً في هذه القصيدة أشعر بني عامر ، وهو حكم ليس فيه غلو ولا مجازة لواقع الحال . ففي بني عامر شعراء هم عامر بن الطفيل ، والسندري وشعرهما لا يقوم أمام شعر لبيد ، وهناك شاعر ناضج له شعر في أيام بني عامر وخاصة في أيام الفجار ، هو خداش بن زهير[1] ، ومع ذلك فشعره لا يرقى الى شعر لبيد . فعلى هذا لا مانع ان ينشد لبيد قصيدته هذه ويعجب النابغة بها .

أما انشاده القصيدة الثانية (طلل لخولة بالرسيس قديم) فأمر لا يصح لأمرين الاول — ان لبيداً يذكر فيها وقائع لهم حدثت بعد لقائه النابغة في هذا المجلس ، مثل يوم فيف الريح او الذهاب ، وكان هذا اليوم بين بني الحارث بن كعب وبين بني عامر ، وذلك حيث يقول لبيد[2] :

منها حُوَيٌّ والذُّهابُ وقبلَهُ   يَومٌ بِبُرْقَةَ رَحْرَحانَ كريمُ

وهو يوم متأخر كانت القيادة لعامر بن الطفيل على بني عامر ، ويؤرخ أبو عبيدة هذا اليوم بمبعث رسول الله ﷺ[3] . وبين هذا اليوم وبين لقاء النابغة بلبيد ما يقرب من الثلاثين سنة[4] .

---

١ — ابن عمرو بن عامر فارس الضحياء بن ربيعة بن عامر بن صعصعة .

٢ — الديوان صفحة ١٣٢ .

٣ — النقائض صفحة ٤٦٩ .

٤ — حكم النعمان من سنة ٥٨٢ م . ومبعث الرسول سنة ٦١٢ م .

والأمر الثاني : ان في هذه القصيدة أبيات يفخر فيها لبيد بأن قومه سحقوا الأحلاف [1] وعلى رأسهم غطفان قوم النابغة ، وذلك في قول لبيد [2] :

وكتيبةُ الأَحلافِ قد لاقيتُهم حيثُ استفاضَ دكادِكٌ وقَصِيمُ

واذا كانت غطفان قبيلة النابغة الكبرى ، فان لبيداً يخصص ذبيان قبيلة النابغة القريبة ، ويذكر هزيمتها مع أحلافها يوم الشعب [3] :

منا حُماةُ الشِّعْبِ يومَ تواكلت أَسَدٌ وذبيانُ الصَّفا وتَمِيمُ
فارتَثَّ كلما هم عشيةَ هَزْمِهم حَيٌّ بمنعَرَجِ المسيلِ مُقِيمُ

ولا شك ان النابغة لا يعجب بقصيدة فيها هجاء قومه ، ولا يقدم صاحبها ويجعله أشعر من قيس كلها ، وفي قيس النابغة نفسه .

وكذلك يقال في القصيدة الثالثة وهي المعلقة ، فمن غير المعقول أن ينظمها لبيد في مقتبل عمره ، وهي تمثل نضجه الفني بل ذروة ما وصل اليه شعره من الجودة والاتقان ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فان في القصيدة نفسها ما يشير الى انتصاره في ذلك المجلس . فمتى قال ذلك ، ان لم يكن بعد فترة بعيدة من هذا اللقاء .

---

١ — الأحلاف هم غطفان وأسد وبعض طيء وبعض نبهان وضبة وعكل .

٢ — الديوان صفحة ١٣٤ — ١٣٥ . استفاض : اتسع . دكادك : أرض مستوية أو رمل ليست مرتفعة واحدها دكداك . قصيم : رمل خفيف وهو منبت الغضا .

٣ — الديوان صفحة ١٣٥ — ١٣٦ . تواكلت : تخـــاذلت . أرتث : حمل وبه رمق . كلماهم : جرحاهم . حي بمنعرج المسيل : أي أكلتهم الضباع بمنعرج الوادي .





ومهما يكن من شيء ، فاذا كان لا بد من لقاء النابغة بلبيد ، فيكون لبيد قد أنشده بعض شعره مما قاله في أيامه الأولى في الوصف وذكر الحيوان ، ولا بأس ان تكون القصيدة الأولى مما أنشده . ولا غرابة أن يعجب النابغة بلبيد ويفضله على شعراء عامر كلهم ، فهو حقيق بذلك وقصيدته جديرة بالاعجاب .

وبقي لدينا نقطتان نود ان نثبتها ونتحقق من صحتها ، الاولى : ان لبيداً كان شاباً ، ولكن لا يقل عمره عن التسعة عشر عاماً أو العشرين ولم يكن غلاماً بأي حال . والثانية : ان للبيد مواقف وزيارات متعددة لمجلس النعمان دافع فيها عن قومه وهو كبير ، وان زيارته الأولى فقط في زمن الصبا والشباب.

فأما عن النقطة الأولى الخاصة بعمره زمن الوفادة الاولى ، فنرجع فيها الى يوم الشعب ونلاحظ جملة حقائق : فقد مرت بنا رواية تقول ان لبيداً شهد يوم شعب جبلة وكان عمره تسع سنوات [١] وقيل أكثر من ذلك وقد أرّخ الرواة يوم الشعب : فهو عند المقل أربعون سنة قبل الاسلام [٢] وعند المكثر تسع وخمسون سنة قبل الاسلام [٣] ، ومعنى هذا ان يوم الشعب يقع بين هذين التاريخين (٥٥٣ — ٥٧٢ م) فاذا أخذنا بأدنى الفروض نجد ان عمر لبيد سنة ٥٧٢ م تسع سنوات أي انه ولد سنة ٥٦٣ م ، واذا كان الوفد الجعفري ذهب الى النعمان أول ملكه (ملك النعمان من سنة ٥٨٢ — ٦٠٢ م) يكون عمر لبيد تسع عشرة سنة ، وهو عمر ينسجم مع الروايات التي تصفه بأنه أصغر ذلك الوفد ، اذا ما قيس بأعمامه ، وينسجم هذا العمر ونداء النابغة (يا غلام) لأن النابغة كان في طور الكهولة ويناسبه أيضاً جواب لبيد (يا عم) ، هذا اذا

---

١ — الأغاني ١١/١٤٩ .

٢ — النقائض ١/٢٦٦ .

٣ — الأغاني ١١/٧٦٠ .



أخذنا بالاعداد الدنيا من تقدير الرواة ، والا كان عمر لبيد سيرتفع حتى يتجاوز الثلاثين . هذا فيما يتعلق بعمر لبيد زمن الوفادة .

أما النقطة الثانية الخاصة بزيارات لبيد وتعددها : فان لبيداً حضر مجلس النعمان وهو شاب مع وفد قومه، وأنشد الأرجوزة في هجاء الربيع بن زياد ثم كثرت بعد ذلك زياراته — حين نضج وتقدم به العمر — للنعمان وبخاصة في مجالسه التي كان يعقدها في البادية في مواضع الافاقة ، أو الغبيط وغيرها . والذي يقوله ياقوت عن موضع الافاقة هو : « موضع من أرض الحزن قرب الكوفة . وقال المفضل : هو ماء لبني يربوع ، وكان النعمان بن المنذر يبدو اليه في أيام الربيع »[1] ، والى هذا المكان يشير لبيد في رثائه للنعمان[2] :

فانّ امرءاً يرجو الفَلاحَ وقد رَأى ... سَواماً وحَيّاً بالأُفاقَةِ جاهِلُ

وكان لبيد يزور هذه الأماكن كما يزورها غيره من الشعراء ، ويتفاخر الناس في مجلس النعمان ، وكان لبيد يفخر بقومه ويدفع عنهم خصومهم وكثيراً ما يدعوه قومه الى النصرة فيجيبهم كما قال : (اذ دعتني عامر أنصرها) . ومن طبيعة شعر لبيد الذي ذكر فيه مجالس النعمان ان فيه أوصافاً لمجالس مختلفة متعددة . ففي المجلس الأول الذي أنشد فيه الارجوزة ينص صراحة على هجائه الربيع بن زياد وغلبته حتى صار كالبعير المريض الذي به داء السلال وقروحه[3]:

---

١ — معجم البلدان (الافاقة) ٣٢٢/١ .

٢ — الديوان ص ٢٦١ .

٣ — الديوان ص ٢١٧ — ٢١٨ . يريد ان ربيعاً كان كالفحل قوة لا يرى مثل نفسه فساقه بالفناء فأذله فجعله كبعير به داء السلال يمشي رويداً .



وسُقْتُ ربيعــاً بالفِناءِ كأنَّهُ   قَريعُ هِجانٍ يبتَغِي من يُخاطِرُ
فأفحَمتُه حتى استكانَ كأنَّهُ   قريحُ سُلالٍ يكتِيفُ المَشْيَ فاتِرُ

ومن الواضح ان هذا المجلس هو غير مجالس الأفاقة التي يذكرها بقوله :

وشَهِدتُ أنجيةَ الأُفاقَةِ عالياً   كَعْبِي وأردافُ الملوكِ شُهودُ[1]

ويحدد هذا الموضع ويوضحه بقوله[2] :

ولدَى النعمانِ منِّي مَوْطِــنُ   بــينَ فاثُورِ أُفاقٍ فالدَّحَلْ

ولعل المجلس الذي شهده لبيد بصحراء الغبيط هو مجلس آخر[3] :

ويوماً بصحراءِ الغَبيطِ وشاهِدي الـ   ـمُلوكَ وأردافُ الملوكِ العَراعِرُ

والذي يطمئن الدارس الى أن مجلس صحراء الغبيط هو غير المجلس الذي هاجى فيه الربيع بن زياد، ان لبيداً ذكر في نفس القصيدة السابقة غلبته الربيع ابن زياد ، ثم انتقل الى مفاخر أخرى كان يعددها حتى جاء الى يوم الغبيط على انه يوم جديد من أيام فخره ، ثم يتركه الى فخر آخر في ذكر مقاماته وأمجاده، ويوجز أخيراً ما فصل بقوله :

---

١ – الديوان ٣٥ . الأفاقة : موضع بالحــزن كانت تتبدى فيه بنو نصر ملوك الحيرة . الانجية : مجتمع القوم . الردف : دون الملك ويكون ملازماً له .

٢ – الديوان ص ١٩٤ .

٣ – الديوان ص ٢١٩ . العراعر : السادة مفردها عُراعر (بضم العين) . العواور : الجبناء والضعفاء مفردها عُوار (بالضم والتشديد) .

وفي كلِّ يومٍ ذي حِفاظٍ بلوتَني   فَقُمْتُ مقاماً ما لم تقمه العَواوِرُ

وهو يخاطب بهذه القصيدة عمه أبا براء .

ولا يكتفي لبيد بذكر الحادثة أو المجلس بل يمضي في وصف المجلس والحاضرين من السادة الأشداء ، والحراس وهيئتهم وهم وقوف على الأبواب ، وكيف كان بليغاً مفوهاً في موقف يتلكأ فيه ذوو اللسن وتضطرب أفئدتهم ، وكذلك كان دأبه وسعيه الى العلى : [1]

ومقـــامةٍ غُلْبِ الرقاب كأنَّهم   جِنٌّ لدى طرف الَحصير قيامُ
متخصرين البـــاب كل عشية   غلباً مخالط فرطها أحلامُ [2]
دافعت خطتها وكنت وليَّهـــا   اذ عِيٌّ فصل جوابها الحكامُ
ضارستهم حتى يلينَ شريسُهم   عني وعندي للجمـــوح لجامُ
وبكل ذلك قد سعيت الى العُلَى   والمرء يُحْمَدُ سعيُه ويُلامُ

وحين ينظم لبيد معلقته لا ينسى ان يفخر ببلائه في مجلس النعمان ، ويكاد يكرر ما قاله سابقاً من وصف لذلك المجلس فيقول [3] :

---

١ – الديوان ص ٢٩٠ – ٢٩١ . غلب الرقاب : غلاظها . الحصير : الملك . ضارستهم : جربتهم . شريسهم : شديدهم من الشراسة .

٢ – هذا البيت موضعه المناسب هنا كما في رواية البكري . وجاء في الديوان بعد قـــوله (وبكل ذلك قد سعيت ...) .

٣ – الديوان ص ٣١٧ – ٣١٨ . النوافل : هنـــا الغنائم . غلب : غلاظ الاعناق . تشذر : تهدد وتتوعد . الذحول : الاحقاد . البدي : موضع وواد لبني عامر . بؤت بحقها : اعترفت بحقها .

وكثـــيرة غرباؤها مجهولة ترُجى نوافِلُها ويُخشى ذامُها

غُلْبٌ تشذَّرِ بالذحول كأنها جنّ البَدِيّ رواسيا أقدامها

أنكرت باطلَها وبُؤتُ بحقها عندي ولم يفخرْ عليَّ كِرامُها

وعلى كل حال فان لقاء الجعفريين بالنعمان وانتصار لبيد في مجلسه وهزيمة الربيع بن زياد عدوهم ، قد مكن لبني عامر عند النعمان ، وقضيت حاجاتهم وتحسنت صلاتهم به ، وصاروا موضع اعتماده وثقته ، ولذلك نجد بعدها ان النعمان يكلف عروة الرحال بن عتبة بن جعفر ، ان يجير تجارة له . وعروة هذا جعفري كما ترى . ويكون ما يكون من أمر البراض الكناني وغدره بعروة الرحال حيث عدا عليه فقتله في موضع (ظلال) وبسببه قامت حروب الفجار بين عامر من جهة وبين كنانة وقريش من جهة أخرى ، ويهب لبيد يستصرخ قومه بني عامر ، ويسمي كل حي من أحيائها باسمه يستنهضه ويثير النخوة والحماسة فيه كي يدرك ثأر عروة الذي أمسى قبره عند تيمن ذي ظلال [1] :

فأبلغ ان عرضتَ بني كِلابٍ وعامرَ والخطوبُ لها مَوالي

وبَلّغ ان عرضتَ بني نُمَيْرٍ وأخوالَ القتيل بني هِلالِ

بأنَّ الوافدَ الرَّحال أمسى مقيماً عند تَيْمَنَ ذي ظلالِ

ثم يرثي عروة — حين يرثي أهله — ويسمي قاتله [2] :

---

١ — معجم البلدان ، ياقوت (ظلاّل) بتشديد اللام وجاءت في الشعر مخففة ٥٧٩/٣ . والشعر في السيرة ١٨٦/١ والديوان ص ٢٧٦ .

٢ — الديوان ص ٤٨ .

ولا الا حوصين في ليالٍ تتابعا ولاصاحب البَرَّاض غير المغَمَّرِ

ولكن على الرغم من اعتزاز لبيد بعروة وحرصه على ألا يذهب دمه هدراً، فان المتتبع لأيام الفجار لا يجد ذكراً للبيد فيهـــا ، أو حتى اشارة تعين على استنتاج اشتراكه في تلك الأيام التي جرها مقتل عروة .

ثم يتزعم بني عامر ، عامر بن الطفيل ابن عم لبيد ويخوض بهم في معارك متتالية كان آخرها معركة فيف الريح [1] التي أبدى عامر بطولة وصبراً عـــلى المكروه الذي كاد يحيق ببني عامر من تجمع قبائل بني الحارث بن كعب، وجعفي ابن سعد العشيرة ، وقبائل مُرَّان وحَرَيم وغيرها [2] . أما لبيد فليس من السهل أن نقطع بحضوره هذه الموقعة أيضاً بل ان هناك ما يشير الى غيابه عنها وذلك حين يقول :

شفى النفسَ ما خُبِّرتُ مُرَّانَ أزهِفَتْ
وما لَقِيَتْ يومَ النُّخَيْل حَريمُ [3]
قبائـــلُ جُعفِيِّ بن سَعْدٍ كأنما
سقى جمعَهم ماءَ الزُّعاف منيمُ

---

١ – المعارك في هذا اليوم في مواضع متعددة ومتصلة بمعجم البكري ٣/١٠٣٨ والديوان ص ١٣٢ .

٢ – ابن الأثير ١/٣٨٧ .

٣ – الديوان ص ٩٨ – ٩٩ ، وقد أشار الى هذا اليوم الذي يسميه يوم الذهاب (منها حوى والذهاب وقبله ...) . أزهفت : قتلت وأهلكت . الزعاف : القتل . منيم : مهلك . مأقط : محبس ، موضع المعركة . تلافتهم : تداركتهم .

تلافَتْهم من آلِ كَعْبٍ عِصـــابةٌ

لهـــا مأقِطٌ يومَ الحِفاظ كريمُ

ويلاحظ هنا قوله (ما خُبِّرَت) التي تفيد غيابه عن المعركة ، هذا اذا لم تذهب الى تفسير (خبرت) على انه أسلوب يتفنن لبيد في صياغته . على ان هناك ما يرجح – مرة ثانية – غياب لبيـــد ، وهو ذلك الود والتقدير الذي يكنه خصوم العامريين للبيد ، فقد أسرت للبيد في هذا اليوم جاريته السوداء (أرَيْكة) ، فلما علم الذين أسروها انها جارية لبيد أرسلوها معززة مكرمة فقال لبيد في ذلك شعراً يبين وصول جاريته مرتاحة مطمئنة [1] ، وليس في هذا الشعر ما يدل على حضوره ذلك اليوم وافتخاره به .

٥

وفي حدود هذه الفترة – وربما قبلها بقليل – قتل النعمان بن المنذر وبسببه نشبت حرب ذي قار بين العرب والفرس ، وهو أول يوم انتصف فيه العرب من العجم ، وكان بعد مبعث النبي ﷺ [2]. وقد عرفنا بلاء لبيد في مجلس النعمان وفخره بذلك البلاء بحضرة الملك وصورة الملك في ذهن لبيد ، صورة لها جلالها وروعتها ، فرثاه لبيد بقصيدة طويلة ، فيها حكم ومواعظ وروح ديني ، وتوحيد الله تعالى واضح لا غموض فيه . وليس بغريب أن ينظم لبيد المعاني الدينيـــة الموحدة ، فقد كانت هذه الفترة فترة ارهاص وتطلع لظهور دين موحد ، وقد شاعت في هذا الحين المعاني الدينية التي تكثر التساؤل عن الحياة ومصـــيرها .

---

١ – له شعر في ذلك في الديوان ص ٢٢٧ .

٢ – الطبري ٢/١٤٨ وابن الأثير ١/٢٨٩ .

والناس وخالقهم والبعث والحساب كما نجد ذلك عند أمية بن أبي الصلت، وزيد ابن عمرو بن نفيل وأتباعهما أو أصحابها من الأحناف ، ونجد كذلك هـذه النغمة الروحية عند الشعراء المعاصرين للبيد أو الذين سبقوه بقليل كزهير بن أبي سلمى والأعشى والنابغة الجعدي .

واستطاع لبيد أن يستخلص العبرة والموعظة من هلاك النعمان ، وكيف ان مجد الدنيا لا يدوم وان المنية لا تخطىء أحداً . ويصف ما كان للنعمان من مجد دنيوي ، وما له من القوة وسعة السلطان . ثم يذكر مجالس شربه وما تفعله فيه الخمرة فتهزه الى الكرم والغزو والغارة ، وقد أفاض في ذكر قوة النعمان وجنده وسلاحه ومواكب تجارته وضخامة تلك المواكب وما فيها من ثياب ودروع ونفائس وعطور ، لينتهي بعد ذلك الى استخلاص العبرة من أفاعيل الزمان فيقول [١] :

فَبادوا فما أمسى على الأرضِ منهمُ ... لَعَمْرُكَ إلَّا أنْ يُخَبِّرَ سائِلُ

كأن لم يكن بالشَّرْعِ منهم طلائعٌ ... فلم تَرْعَ سَحّاً في الربيع القنابلُ

•

وأمسى كأحلام النيامِ نعيمُهم ... وأيُّ نعيمٍ خِلْتَهُ لا يُزايِلُ

تَرُدُّ عليهم ليلةٌ أهلكَتهمُ ... وعامٌ وعامٌ يتبع العامَ قابلُ

ولم ينسَ لبيد أن يؤرخ للنعمان حكمه فقال :

---

١ – الديوان ٢٦٥ – ٢٦٦ . الشرع : موضع . سحاً : متتابعاً . القنابل : جماعات الخيل .

رعى خرزاتُ المُلكِ عشرين حِجَّةً   وعشرينَ حتى فادَ والشيبُ شاملُ

وقد قال ابن قتيبة في هذا ، « ان الملك اذا ملك سنة زيد في تاجه وقلادته خرزة ليعلم عدد السنين التي ملك فيها » [1] ، وبيت لبيد يوافق الحقبة التاريخية في مدة حكم النعمان (٥٨٢ — ٦٠٢ م) .

ورثاء لبيد للنعمان يشعر انه فقد عظيماً من العظماء الذين يكبرهم ويعجب بهم ، ولولا هذا الاكبار والاعجاب لما استطاع لبيد أن يعيش بهذا الجو الروحي ، ويسمو الى هذه المعاني الدينية الرائعة التي تدل على ايمان عميق ، ايمان بوحدانية الله ، وايمان بالبعث والنشور والحساب ، وايمان بعجز الانسان وفنائه ، وان كل شيء في الحياة باطل وصائر الى زوال [2] :

أرى النَّاسُ لا يدرون ما قَدْرُ أمرِهم
بلى : كلُّ ذِي لُبٍّ الى اللهِ واسِلُ

ألا كلُّ شيءٍ ما خــلا اللهَ باطلُ
وكل نعيم لا مَحــالَةَ زائِــلُ

وكل أناسٍ سوف تدخل بينَهم
دُوَيْهِيَّــةٌ تصفرُّ منهــا الأناملُ

---

١ — المعاني الكبير صفحة ٤٧٥ .

٢ — الديوان ص ٢٥٦ . الواسل : الطالب والراغب . دويهية : الداهية العظيمة والتصغير للتعظيم هنا .

وكلُّ امرىءٍ يومــاً سيعلمُ سعيَهُ
إذا كُشِّفَتْ عندَ الإله المحاصلُ

ولولا اقتران هذه القصيدة : بدلائل موثوقة تحقق جاهليتها ، لمـــا تردد الدارس في عدها اسلامية ، بل من جياد القصائد التي فيها روح اسلامي . وأبرز هذه الدلائل التي اقترنت بها القصيدة اثنان وكلاهما متعلق بقوله :

ألا كلُّ شيءٍ ما خلا اللهَ باطلُ وكلُّ نعيمٍ لا محــالةَ زائلُ

الأول قول رسول الله ﷺ : « أصدقُ كلمةٍ قالها الشاعرُ كلمةُ لبيد : ألا كلُّ شيء ما خلا الله باطلُ » [1] .

٦

وأما الثاني فحادثة عثمان بن مظعون رضوان الله عليه ، فقد أنشد لبيد هذه القصيدة في مجلس لقريش ، ونشب حول البيت السابق كلام ثم خصام ، كان ضحيته عثمان بن مظعون ، وهذه حادثة معروفة اعتنت بها كتب السيرة لأنها تتعلق بصحابي جليل عميق الايمان صلب العقيدة . كان عثمان في جملة المسلمين الذين هاجروا باذن من رسول الله ﷺ الى الحبشة نجـــاة بدينهم وأنفسهم ، وقد بلغهم اسلام قريش ، فعادوا قاصدين مكة ، فلما كانوا على مشارفها علموا ان اسلام أهل مكة كان باطلاً ، «فلم يدخل منهم أحد الا بجوار او مستخفياً» ، أما عثمان فقد دخل في جوار الوليد بن المغيرة ، فكان آمنـــاً من أذى قريش وعدوانهم . ثم رد عثمان بن مظعون على الوليد بن المغيرة جواره ، غيرة منه على دينه واخوانه في الله من المسلمين قائلاً :

---

١ – صحيح مسلم ١٧٦٨/٤ .



« والله ان غدوي ورواحي آمناً بجوار رجل من أهل الشرك ، وأصحابي وأهل ديني يلقون من البلاء والأذى في الله مـــا لا يصيبني ، لنقص كبير في نفسي »[1] .

فلما كان لبيد في مجلس قريش ينشدهم قصيدة في رثاء النعمان ، جلس عثمان يستمع مع الناس الى شعر لبيد ، فلما بلغ لبيد الى قوله :

ألا كل شيء ما خلا الله باطل .

قال عثمان : صدقت ، ثم قال لبيد :

وكل نعيم لا محالة زائل .

قال عثمان : كذبت ، فلم يدرِ القوم ما عنى ، فأشار بعضهم على لبيد ان يعيد فأعاد ، فصدقه في صدر البيت و كذبه في عجزه . وقد فسر عثمان مـــا أراد بتكذيبه ان « نعيم الجنة لا يزول »[2] .

ولا شك ان لبيداً قد استاء — كما استاء الحاضرون — فعاتب قريشاً بقوله : « يا معشر قريش ، ما كان يؤذي جليسكم ، فمتى حدث هـــذا فيكم » . وقال قائل منهم : « ان هذا سفيه في سفهاء معه ، قد فارقوا ديننا فلا تجدن في نفسك من قوله » ، وترادّ عثمان وبعض الحاضرين القول ، حتى لطمه أحـــدهم لطمة خضرت عينه[3] ، فقال الوليد بن المغيرة وكان حاضراً يشهد ما أصاب عثمان :

---

١ – السيرة ١/٣٧٠ .

٢ – المصدر السابق والأغاني ١٥/٣٧٥ .

٣ – هو أبيّ بن أبي خلف أو ابنه ، السيرة ١/٣٧٠ . خضرت عينه : جعلتها خضراء متورمة .



« أما والله يا ابن أخي ان كانت عينك عما أصابها لغنية ، لقد كنت في ذمة منيعة » ، ويجيبه عثمان بروح اسلامي لم يعهده الناس قبل : « بل والله ان عيني الصحيحة لفقيرة الى مثل ما أصاب أختها في الله ، واني لفي جوار من هو أعز منك وأقدر يا أبا عبد شمس » . ثم عرض الوليد عليه أن يعود الى جواره فأبى عثمان [1] .

لقد آثرت أن أذكر الرواية بشيء من التفصيل لم أحذف منها الا القليل ، ففي ظني ان هذا المثل الذي ضربه عثمان في الثبات على الايمان ، وروح التضحية ، واحتمال الشدائد والعذاب في سبيل الله ، لا بد أن يكون له أثر في نفس لبيد ، تمثل في سبقه الى الاسلام قبل قومه ، وفي ثباته على الدين حين ارتد من ارتد من قبيلته ، وممن حوله من اعراب البادية .

وأكثر الاخبار على ان هذه الحادثة مع عثمان بن مظعون [2] . على ان هناك رواية تقول ان لبيداً قدم على أبي بكر الصديق رضي الله عنه فقال :

ألا كل شيء ما خلا الله باطل . فقال صدقت .

وقال : وكل نعيم لا محالة زائل .

فقال أبو بكر : كذبت عند الله نعيم لا يزول . فلما ذهب لبيد قال : ربما قال الشاعر الكلمة من الحكمة [3] .

وليس ببعيد أن يسمع أبو بكر – كما سمع عثمان في مجلس غيره – شعر لبيد،

---

١ – السيرة ٣٧٠/١ والأغاني ٣٧٥/١٥ .

٢ – السيرة ٣٦٤/١ – ٣٧١ والأغاني ٣٧٤/١٥ – ٣٧٥ والموشح صفحة ٧٢ .

٣ – الموشح صفحة ٧١ والخزانة ٧٩/٢ .



ويعقب عليه بفهمه الاسلامي ، من أن في الآخرة نعيماً ابداً . أما لبيد فكان يريد نعيم الدنيا ، ثم هو لم يكن بعد مسلماً ، ليتسع أفقه الى نعيم الآخرة .

ومهما يكن من شيء فان هذه القصيدة — قصيدة رثاء النعمان — من القصائد التي أبدع فيها لبيد وأجاد، لأنه قالها في رجل تمثل فيه العظمة والقوة والسلطان وقد افتقد بموته هذه العظمة .

٧

وكذلك افتقد لبيد العظمة في موت بطلين من أبطال قومه بني عامر من ذوي النجدة والقوة والبلاء ، هما ، الطفيل بن عامر عم لبيد ، وقد رثاه بأبيات تتصل بكرم الطفيل وبطولته ، وعوف بن الأحوص الذي بكاه بأبيات حزينة تقوم على تعداد فضائله وصفاته [١] :

قــومي إذا نامَ الخَلِيُّ ... فأَبنّي عــوفَ الفواضلْ
عوفَ الفوارسِ والمجا ... لسِ والصواهلِ والذوايلْ
يا عوفُ احلَمَ كلٌّ ذي ... حــلمٍ وأقول كلٌّ قائلْ
يا عوفُ كنتَ أمــامنا ... وبقيــةَ النَّفَرِ الأوائلْ

وهكذا طوى الموت فرسان عامر كما طوى قبل ذلك زعماءهم ، ولم يبقَ من أعمام لبيد الذين يجلهم ويعتز بهم غير أبي براء عامر بن مالك . وقد ظل لبيد يمحضه الحب والولاء حتى نهاية حياة أبي براء . غير اننا نجد ثمة اضطراباً يعكر

١ — الديوان صفحة ٢٣١ .

صفو المودة بين لبيد وعمه ، وذلك ما تفصح عنه القصيدة التاسعة والعشرون ، وسببه على ما يروي البغدادي : ان أبا براء اعتدى على رجل من بني القَيْن — ضربه بالسيف — وكان لبيد قد أجار هذا الرجل وجعله في حمايته فغضب لبيد لفعلة عمه ، وقال قصيدته يعاتب فيها عمه ويعلن غضبته ، ويعدد بلاءه عند عمه ، وحبه له وانحيازه اليه دون سائر ذوي قرباه ، فيقول [1] :

من كان منّي جاهلاً أو مغمَّراً   فما كان بِدْعاً في بلائِي عامرُ
أَلِفْتُكَ حتى أخمرَ القومُ ظِنَّةً   عَلَيَّ بنوامِ البــنين الأكابرُ

وبعد أن يعدد مواقفه وأيامه التي وقفها يدافع عن عمه ، يذكر مــا فعله بجاره أبي مالك :

وما يكُ من شيء فقد رُعتَ روعةً   أبا مالك تبيضُّ منها الغَدائِرُ [2]
فلو كان مولايَ امرءاً ذا حفيظةٍ   إذاً زَفَّ راعي البَهْم والبَهْمُ نافرُ

ولكن هذه الحادثة أمر طارىء فلم تطل الجفوة بين لبيد وعمه ، فسرعان ما عاد الصفاء بينهما . وعاد لبيد الى ملازمة عمه ، والاخلاص له ، والاقتداء به ، في مواقفه وآرائه ، وقد ظهر هذا الاقتداء جلياً في موقف أبي براء من المنافرة بين ابن أخيه عامر بن الطفيل وبين علقمة بن علاثة . ورأينا في المنافرة ان أبا براء كان يريد أن يعين ابن أخيه دون أن يسيء الى علقمــة ، لأن في

---

١ – الديوان صفحة ٢١٥ . المغمر : الجاهل . اضمروا ظنه : اضمروا الظن وتشككوا .

٢ – قال الطوسي في شرح هذا البيت : (أبو مالك هنا مفعول للفعل رعت ، لا منادى) صفحة ٢٢٣ . رعت : افزعت . تبيض منها الغدائر : يشيب لها الشعر . والغدائر : الذوائب . زف : أسرع .



الاساءة اليه اساءة الى عمه الأحوص ، فكان لذلك محرجاً ، وقد بيَّن حرجه هذا حين قال [1] :

أأومر أنْ أسبَّ أبا شُريحٍ ولا والله أفعلُ ما حَيِيتُ

وكذلك أحرج لبيد في هذه المنافرة ، ووقف موقف عمه عينـــه ، فهو حريص على أن يعين ابن عمه عامر بن الطفيل ، وهو حريص من جهة ثانية ألا يسيء أو يسب أعمامه ولا يريد أن يهجو علقمة . على الرغم من أن شعراء علقمة قد بدأوا الاساءة ، كما فعل السندري حين وقف يفاخر ويتحدى [2] :

أنا لمن أنكر صوتي السندري

أنا الفتى الجعد الطويل الجعفري

من ولد الأحوص أخوالي غني

ولم يكن السندري كفوءاً للبيد فهو شاعر مغمور وجدته أمة اسمها عيساء [3] وحين دعا عامر بن الطفيل لبيداً ان يعينه ويهاجي رهط علقمة ، أبدى لبيد تحفظه وتمنعه من أن يسيء لأعمامه وذوي قرباه ، وان كان السندري قد بدأ بالاساءة فقال لبيد [4] :

---

١ – الأغاني ٢٨٨/١٦ والمؤتلف والمختلف صفحة ٢٨٦ .

٢ – الأغاني ٢٩٠/١٦ .

٣ – الأغاني ٢٩٠/١٦ ، والسندري ضرب من الطير، الاشتقاق ، ابن دريد صفحة ٥٦١ .

٤ – الديوان صفحة ٢٨٦ – ٢٨٧ . نديدي : ندي . العماعم : الجماعات . التميمة : التعويذة .



لمـــا دعاني عامر لا سبَّهم   أبيتُ وان كان ابن عيساء ظالما

لكيما يكون السندريّ نديدتي   واجعل أقواماً عموماً عماعما

وانبش من تحت القبور أبوة   كراماً هم شدوا عَليَّ التمائما

لعبت على اكتافهم وحجورهم   وليداً وسموني مفيداً وعاصما

وكان قحافة بن عوف بن الأحوص أحد شعراء علقمة قد عرض ببني مالك، انهم نحّوا أبا براء عن زعامة عامر، فقال [1] :

أنتم هزلتم عامرَ بن مالكِ   في سنواتِ مُضَرِ الهَوالكِ

يا شَرَّنا حَيّاً وشَرٌّ هالكِ

ولا شك ان هذا هجاء قاس، ومسبة واضحة لبني مالك رهط لبيد. أما لبيد فيتغاضى عن ذلك بكرم، ويكتفي بأن يقول في حلم :

بلَى أيُّنا مـــا كان شراً لمالكِ   فلا زالَ في الدُّنيا ملوماً ولائِما

٨

ولبيد في هذا ــ كدأبه دائماً ــ متعقل متزن حريص على وحدة القبيلة وسلامتها شأنه في ذلك شأن أبي براء وعقلاء بني عامر. وقـــد كان من هؤلاء العقلاء عبد عمرو بن شريح بن الأحوص، الذي لم يكظم سخطه على هـــذه المنافرة الشائنة التي تسيء الى الأرحام فقال [2] :

---

١ ــ الديوان صفحة ٢٨٧ .

٢ ــ الاغاني ١٦/٢٨٨ .

لَحَى اللهُ وفدينا وما ارتَحَلا له   من السوءةِ الباقي عليهم وبالُها

الا إنمــا بردى صِفاق متينة   أبى الضيم أعلاها واثبت حالها

ولكن شعراء علقمة لم يكونوا على مثل اتزان وتعقل عبد عمرو ، بل كان بعضهم يوغل في الاساءة ويحرض على العدوان ، ويمشي في الشربين الحيـــين ، وكان يسوؤهم ان يسكت لبيد ويتجاوز عنهم ويغض من ذكرهم ، فهم يبدأون لبيداً بالاساءة ويخصونه بالهجاء ، فهذا قحافة بن عوف بن الأحوص يقول [1] :

نهنِهـــه إليكَ الشعرَ يا لبيدُ   واصدُدْ فقد ينفعُك الصدودُ

ساد أبونا قبلَ أن تسودوا   سؤدُدكم مـــطرفٌ زهيـــدُ

وأمام هذا التحريض والاغراء ، انحاز لبيد الى عامر بن الطفيل ، فحين جد الجد واتفق المتنافران على تحكيم هرم بن قطبة بن سنان الفزاري ، سارع لبيد الى الحكم يعلمه بخطورة حكومته وما سيترتب عليها من نتائج ، ويدعوه ان يحسم القضية ، ويغريه أن يحكم لعامر على علقمة [2] :

يا هَرِمَ ابنَ الأكرمين منصِبا   إنك قد وَلِيتَ حكماً مُعْجِبا

فاحكم وصوِّب رأس من تصوَّبا   إن الذي يعلو عليها تُرْتَبا

---

١ — الاغاني ٢٨٩/١٦ .

٢ — الديوان صفحة ٣٣١ — ٣٣٢ . الترتب : القيم الثابت . الركب : الاصل .

ـ لَخَيْرُنا عمّـاً وأمّـاً وأبـاً وعـامرٌ خيرُهمـا مُرَكَّبا

وعـامر أدنى لقيسٍ نَسَبا

وللبيد أرجوزة أخرى في مخاطبة الحكم واغوائه أن يحكم لابن عمه [1] .

ويلاحظ من احداث هذه المنافرة ، ان لبيداً كان يخاصمه شعراء قومه رهط الأحوص، أما الدائرة التي كان فيها شعراء من غير بني عامر كالحطيئة والأعشى الذي حكم نفسه ، فلم يتعرض لهم ولم يتعرضوا له . وكان لبيد ينظر الى هـذه المنافرة على انها مشكلة القبيلة وحدها ، ويريد لها أن تحسم على خير الوجوه ، مع حفظ كرامة أهله الأقربين بني مالك، الذين وقفوا بجانب عامر بن الطفيل.

وقد انتهت المنافرة – كما ألمحنا بها في فصل سابق – بأن ساوى هرم بن قطبة بين المتنافرين ، فكلاهما سيد وهما كركبتي البعير الأدرم الفحل تقعان على الأرض معاً [2] . ولكن المتتبع لأحوال بني عامر يجد أن شخصية عامر بن الطفيل هي القوية الراجحة ، فقد فرض عامر نفسه على بني عامر وصـارت كلمته هي المسموعة النافذة . وآية ذلك ان أبا براء عامر بن مالك حين يجير القراء المسلمين ، فان عامر بن الطفيل يخفر جوار عمه ويغدر بالمسلمين ، فيقتلهم في بئر معونة ، دون ان ينهض أحد من العامريين في وجه هذا الطاغية ، فيمنعه من فعلته النكراء تلك . وحقاً ان بني عامر لم ينصروا عامراً على قتال المسلمين حفظاً لجوار أبي براء ، وقد اضطر الى أن يستصرخ عليهم أحياء من سُلَيْم . ومع كل ذلك فانهم لم يحولوا أو لم يستطيعوا أن يحولوا بين عامر وعدوانه ذلك.

---

١ – الديوان صفحة ٣٤٣ – ٣٤٤ .

٢ – الاغاني ١٦/٢٩٢ – ٢٩٣ .

وكذلك نجد ان أبا براء حين يغضب على ابن الطفيل ، لم ينهض لغضبته تلك غير ابنه ربيعة بن عامر الذي طعن عامراً برمح أخطأ مقتله .

وبعد كارثة معونة وبسبب منها كانت نهاية أبي براء . وقد فقد لبيد آخر بطل ممن يحبهم ويخلص لهم الود من قومه — خلا أربد — وقد رافقه حتى ساعاته الأخيرة ، فحين عزم أبو براء أن ينهي حياته كان يستمع الى لبيد وهو ينوح عليه بشعر جاء فيه [1] :

يا عامرَ بن مالكٍ يا عَمَّا | أهلكتَ عَمّاً وأَعشتَ عَمّا
ان تُمسِ فينا خِلَقاً رِمَمّا | فقد تكونُ واضِحاً خِضَمّا
مرتدياً سابغةً معتَمّا | متَّخِذاً أرضَ العدُوِّ حَمّا

وبعد هذه الفترة يدخل لبيد في حياة جديدة ، قوامها التقوى والبر والصلاح ، وتلك هي حياته الآمنة الوادعة في ظلال الرحمة ، ظلال الاسلام ، وهي حياة نرى تفصيلها في فصل آت .

---

١ — الديوان صفحة ٣٤٥ . يا عما : يخاطب عمه . اهلكت عما : افنيت جما كثيراً . وأعشت عما : وجبرت جماً . الحم : القصد أو المال والمتاع . سابغة : درع واسعة . خلقاً رمما : بالياً .

الفصل الرابع

حياة لبيد في الاسلام

١

أدرك لبيد الاسلام وهو كبير ، له خبرة وتجربة ، وحلم وتوقر ، ورجاحة عقل ، وقد مر بنا من سجاياه الجاهلية كثير مما يوافق الاسلام ، ويمت اليـــه بأسباب ، ورأينا في شعره نظرات في الحياة والموت والزمان الذي أباد الأمم وأفنى الملوك ، وتطلعاً نحو السماء يلتمس العدل والرحمة والثقة والايمان . وقد ظهر ميله نحو الدين والتوحيد في القصائد التي قالها قبل الاسلام بقليل ، وبخاصة قصيدته في رثاء النعمان التي أنشدها في مجلس قريش .

فلما ظهر الاسلام في مكة وانتشر في بعض بيوتها ، كان رسول الله ﷺ ، يدعو الناس الى الايمان ، والدخول في دين الله ، ويعرض نفسه على القبائل حين توافي الموسم . وكانت بنو عامر من تلك القبائل التي عرض الرسول عليها نفسه ، ولكنها أخطأت الهداية ، فلم تستجب لداعي الايمان . ويشاء الله أن يمكن لدينه فينتشر في أحياء من العرب ، وتمتد الدعوة الى المدينة ، ويشتد أمر المسلمين فيها بعد الهجرة .

ويكتب لهم النصر في بدر ، ثم الصبر في أحد ، وعند ذلك يزور أبو براء المدينة ويمثل بين يدي رسول الله ﷺ ، ويعرض الرسول عليه الاسلام . ولكن

أبا براء كان متردداً ، فلم يسلم ولم يبعد . ويكون من نتائج هـــذه الزيارة يوم معونة ، والبلاء الذي نزل بالقراء المسلمين في ذلك اليوم ، حيث غدر بهم عامر ابن الطفيل ، وأخفر جوار ابي براء وذلك سنة أربع [1] . والى هنا لا نجد للبيد ذكراً يتصل بالاسلام ، ثم تبدأ الروايات بعد هذا التاريخ تتحدث عن هـــداية لبيد واسلامه .

ان تحديد سنة معينة لاسلام لبيد أمر غير ميسور ، ومن الصعب القطع به ، ولكن من الممكن تحديد فـــترة لاسلامه ، تقع بين السنة الرابعة — سنة بئر معونة — والسنة الثامنة ففي هذه السنة أعطي لبيـــد من غنائم هوازن يوم حُنَيْن ، على انه من المؤلفة قلوبهم . وقد وزعت هذه الغنائم بالجِعْرانة بعد حصار الطائف سنة ثمان [2] .

ولا بأس بعد هذا أن ننظر في الروايات التي تفصل أمر اسلامه ، وأكثرها تذهب ان لبيداً قدم على رسول الله ﷺ ، مع وفد قومه بني جعفر بن كلاب ، فأسلموا ورجعوا الى بلادهم [3] . وهذا يعني انه أسلم في السنة التاسعة سنة الوفود وهناك رواية تنص على انه أسلم بعد وفاة أخيه أربد وعامر بن الطفيل [4] ، مع وفد قومه ، والظاهر ان وفادة لبيد مع وفد قومه ، كانت وفادة ثانية ، وفي الرواية ما يدل على ذلك ، قالوا : « قدم وفد كلاب على رسول الله ﷺ في سنة تسع من الهجرة ، وهم ثلاثة عشر رجلاً فيهم لبيد بن ربيعة ، وجبار بن سلمى ،

---

١ – الطبري ١/١٤٤٢ ط أوربا .

٢ – السيرة ١٣٤/٤ ومعجم البكري (الجِعْرانة) .

٣ – الشعر والشعراء ص ١٤٨ ، الطبقات الكبير ابن سعد ٢٠/٦ – ٢١ ط ليدن ، الاستيعاب ١٣٣٥/٣ ط البجاوي مطبعة نهضة مصر ، الاصابة ٣٢٤/٣ ، أسد الغابة ٢٦٠/٤ ط طهران ، شرح شواهد العيني ٥/١ – ٦ ، الخزانة ٣٣٦/١ .

٤ – الأغاني ٣٦٢/١٥ .

فأنزلهم دار رملة بنت الحارث فقالوا : يا رسول الله، ان الضحاك بن سفيان سار فينا بكتاب الله وبسنتك التي أمرته ، وانه دعانا الى الله فاستجبنا لله ولرسوله، وانه أخذ الصدقة من أغنيائنا ، فردها على فقرائنا [1] . ومعنى هذا ان الوفد كان مسلماً حيث سار فيهم الضحاك بن سفيان بسيرة الاسلام ، ودفعوا له الصدقات فردها في فقرائهم .

ولدينا غير هذه روايتان تشيران صراحة الى اسلام لبيد قبل اسلام قومه بني عامر :

تقول الرواية الاولى : ان أبا براء أصيب بدبيلة ، فبعث لبيداً الى رسول الله ﷺ في المدينة ، يلتمس له الشفاء ، وأهدى له رواحل ، فقدم لبيد المدينة ، فأبى الرسول الكريم ان يقبل هدية أبي براء قائلاً : « لو قبلت من مشرك لقبلت منه » وزوّده بما يشفي عمه أبا براء . ثم أسلم لبيد وأقام في المدينة يقرأ القرآن ، وكتب سورة الرحمن ثم خرج بها الى قومه [2] .

والرواية الثانية تبين ان بني عامر أرسلوا لبيداً الى رسول الله ﷺ يستطلع لهم أمره ، فقالوا له : « أقدم لنا على هذا الرجل فاعلم لنا علمه » ، فلما قدم لبيد الى المدينة ، أسلم وأصيب فيها بحمى ، فمكث قليلاً ثم رجع الى قومه وهو مسلم ، يذكر البعث والجنة والنار ، وقد عرضه هذا الى سخط سراقة بن عوف بن الاحوص، الذي قال يؤنبه ويلومه على اسلامه، ويبين انهم أرسلوه ليستطلع لا ليسلم :

لعمر لبيدٍ انه لابن أمهِ ولكنْ أبوه مَسَّهُ قِدَمُ العَهْدِ

---

١ - الطبري ٢/٣٢ ونهاية الأرب ، النويري ٨/٤٣ .

٢ - الأغاني ١٥/١٣٨ ط ساسي .



دفَعناكَ في أرضِ الحِجازِ كأنما دفعناكَ فَحْلاً فوقَه قرعُ اللبدِ
فعالجت حماه وداء ضلوعِه وترنيق عيشٍ مَسَّهُ طرفُ الجهدِ
وجئتَ بدينِ الصابئين تشوبُهُ بألواحِ نَجْدٍ بُعْدَ عهدِك من عَهْدِ
وإنَّ لنا داراً زعمتَ ومرجِعاً وثَمَّ إيابُ القارظين وذي البردِ

وحين علم بذلك عمر بن الخطاب رضوان الله عليه كان يقول : « وأيم الله إياب القارظين وذي البرد » [١] .

وعندي ان هاتين الروايتين هما رواية واحدة ، اختلف الرواة في ذكر تفصيلها ، سواء أكان لبيد مرسلاً من قبل عمه يطبّ له ، أم من قبل قومه ، ولذلك عدّ من المؤلفة قلوبهم لأنه أسلم في وقت كان قومه ما زالوا على الشرك .

وأمامنا رواية تبين وفادة لبيد الى المدينة مع وفد من قيس حين اشتد الجدب على مضر ، وتذكر الرواية ان لبيداً أنشد رسول الله ﷺ أبياتاً يتوسل اليه فيها ان يدعو لهم بالسقيا ويبين ما أصاب قومه من الأذى والجهد فيقول [٢] :

أتيناكَ يا خيرَ البرية كلِّها لترحَمنا مما لَقينا من الأزْلِ
أتيناكَ والعذراءُ يدمي لَبانُها وقد ذهلت أمُّ الصبيِّ عن الطفلِ

---

١ – الأغاني ١٥/١٣٨ ط ساسي .

٢ – الديوان ص ٢٧٧ . الازل : ضيق العيش . تكنيه : ما يستتر به . العلهز : طعام يؤكل في المجاعات ، وأصله : القراد . العبهر : النرجس والياسمين . العامي : الحولي . الفسل : الرذل أي الذي لا يؤكل .

وأَلقى تكنيه الشجاعُ استكانةً من الجوع صُمتا لا يُمِرُّ ولا يُحلي

ولا شيء مما يأكل الناسُ عندنا سوى العِلْهَزِ العامِيّ والعَبْهَرِ الفَسْلِ

وليس لنا الا إليــك فرارُنا وأين يفرُّ الناس إلا الى الرُّسْل

فان تدع بالسقياوبالعفو ترسل السماءِ لنا والأمر يبقى على الاصل

واذا صحت هذه الرواية [٣] فانها تكون متأخرة عن سنة تسع وان هــذا الوفد كان مسلماً ، ففي القصيـــدة ما يفيد ايمانهم بالرسول فهم يفرون اليه ، (وأين يفر الناس الا الى الرسل) .

وفي السنة التاسعة يؤلف عامر بن الطفيل وفداً الى رسول الله ﷺ فيه اربد وجبار بن سلمى . ويتخلف عنهم لبيد لانه مخالف لهم في الرأي فهو مسلم وهم بعد مشركون . ويكون هذا الوفد شاذاً بين الوفود ، اذ ذهب عامر ليساوم ويتحدى ، ثم يضمر الغدر ، ويحاوله ، فلما خاب ورجع استكفاه رسول الله فاصيب في طريقه بالغدة ومات بسببها وقتل اربد بالصاعقة على نحو ما مر بنا . ثم يسلم بنو عامر بعد وفاة عامر بن الطفيل ويذهب لبيد مع وفد من قومه يتكون من ثلاثة عشر رجلاً وهذه هي وفادته الثانية وهو فيها مسلم قد آمن بالله ورسوله .

---

٣ - في الرواية جملة عيوب منها انها مما لم يرو السكري ، وقد ضعفها أبو علي القالي، البارع ص ٣١ حين نسبها لاعرابي ، ولم تذكرها المصادر المتقدمة بل جاءت في الاصابة ٣/٣٠٨ ط مصطفى محمــد ١٩٣٩ وهو متأخر وكثير الوهم والخطأ ولو صحت لذكرها صاحب السيرة . وكذلك لم ترد في المخطوطات التي اعتمد عليها المحقق ولذلك فلست مطمئناً الى صحة نسبة هذه الابيات للبيد .

٢

وكل الاخبار على أن لبيدا اطمأن الى الحياة الاسلامية ، وأقبل عليها اقبالاً ، فقد امتلأت نفسه بهدى الدين ، ونعمة الايمان . فهو على الرغم من اعرابيته وبدويته ، لم يكن كالاعراب في خفة ايمانهم واضطراب نفوسهم ، ولذلك فان الردة التي جاءت ففتنت الاعراب ، وارتدت قبائلها ، ما كانت لتهز لبيداً أو تدخل الشك في قلبه ، فقد ثبت على الاسلام ، وانصرف اليـــه وتمسك به ، والناس من حوله مضطربة قلوبهم ، مزعزعة الايمان ، وقبيلته قلقة متربصة ، تقدم رجلاً وتؤخر أخرى ، تريد انجلاء الأمر .

والردة — لا شك — حدث كبير ، وخطر هائل ، هدد المسلمين ، واحاق بالدين ، وان من بني عامر من كان لهم يد في اضرام نار الفتنة وبث المعصية ، كقرة بن هبيرة ، وعلقمة بن علاثة ، ومن معهما من قوم لبيد[1] ونتساءل هنا : أما كان للبيد شعر في هذه الردة ، شعر يخفف فيه من غلواء المرتدين المتربصين ، او يدعو قومه الى الرشاد والتمسك بدين الله ؟

ليس بين أيدينا شعر للبيد قاله في الردة ، ذلك ان الردة جاءت مفاجئة مباغتة ثم انها ما كادت تشب حتى اطفأها جند المسلمين[2] ، ولعل لسرعة القضاء عليها من جهة وتجنيد المرتدين ودفعهم نحو الفتوح من جهة أخرى ، تفسيراً لسكوت لبيد في هذه المناسبة ثم ان الشعر الذي قيل في الردة عامة قليل ،

---

١ — الطبري ١٨٩٩/١ ط أوربا وابن الأثير ٢٣٦/٢ .

٢ — ينظر في شعر المرتدين ، ديوان الحطيئة صفحة ٣٢٩ — ٣٣١ وشعر قيس بن عاصم في سجاح مروج الذهب ٣١٠/٢ والكامل للمــبرد ١٣٦/٢ وشعر الخيطل بن أوس الطبري ١٨٧٥/١ وأبو شجرة بن عبد العزى ، ابن الأثير ١٣٤ وشعر عمرو بن معد يكرب ، السيرة ٥٨٥/٢ . وفي شعر المسلمين ينظر فتوح البلدان صفحة ١٠٩ ومروج الذهب ٣٠٨/٢ .



وأكثر هذا الشعر قيل من قبل شعراء المرتدين او من قبل المحاربين من جند المسلمين الذين قمعوا الردة ، وأبادوا الفتنة ولم يكن لبيد في هؤلاء أو هؤلاء .

وتسير جيوش المسلمين بعد الردة نحو الفتوح ، وتمضي عامر مع الفاتحين فتغادر ارض نجد الى الامصار الاسلامية ، في العراق والشام . اما لبيد فقد قعدت به السن دون الجهاد في سبيل الله فمكث قليلاً في نجد ، وهو يحس بوحشة لفراق قومه ، بعد ان اقفرت منهم مواطنهم ، ولم يبق فيها غير ما يترك المسافرون من أثر دارس أو متاع بال . ولعل قصيدته السابعة التي ظن الطوسي ان لبيداً قالها حين هاجر قومه بنو جعفر الى بلاد بني الحارث ، لعل هذه القصيدة قالها لبيد في توديع بني عامر عامة ، حين اتجهوا نحو الفتوح[1] وفي القصيدة ما يرجح هذا الرأي ، ففيها هموم الشيخوخة والسأم من الدهر الطويل الذي عاشه[2] وهذا يعارض زمن هجرة بني جعفر الى اليمن ، لانه كان فتى آنذاك ، هذا الى المعاني الاسلامية الواضحة الظاهرة ، في حديثه عن الابرار ، والعمل الصالح ، والبعث والحساب ، والملائكة التي تحصي اعمال الناس في كتاب . الى غير ذلك من المعاني التي تعلمها من القرآن الكريم . على شاكلة ما يقول[3] :

انما يحفظ التُّقى الأَبرَارُ ... والى اللهِ يستَقِرُّ القَرَارُ

والى الله تُرْجعُونَ وعندَ ... اللهِ وِرْدُ الأمورِ والإِصْدَارُ

---

١ – كذلك ذهب المحقق ، مقدمة الديوان صفحة ٢٨ .

٢ – البيت العاشر في الديوان صفحة ٤٣ ، قوله : (عشت دهراً ولا يدوم على الايام الأيرمرم وتعار) .

٣ – الديوان صفحة ٤١ . عم : نخل طوال . موسقات : ذات اوساق أي احمال والوسق ستون صاعاً بصاع رسول الله (ص) . حفل : كثيرات الحمل ، ممتلئات . ابكار : أول حملها .



كلَّ شيءٍ أحصَى كِتابا وعِلْما ولديهِ تجــلَّتِ الأسرَارُ

يومَ ارزاقُ من يُفضَّلُ عُمٌّ موسَقاتٌ وحُفَّلٌ أبكارُ

وينظر في ديار قومه الموحشة المقفرة وقد خلت من أهلها ورجالها ولم يبق منهم غير الصبية والفتيان الذين لم يبلغوا بعد مبالغ الرجال الذين ذهبوا يحمون الثغور ويقاتلون في التخوم [1] :

هلكت عامرٌ فلم يبقَ منها برياض الأعرَافِ إلا الديَارُ

غيرُ آلٍ وعُنَّةٌ وعَريشٌ ذَعْذَعتْها الرياحُ والأَمطارُ

وأرَى آلَ عامرٍ ودَّعوني غيرَ قومٍ افراسُهم أمهارُ

واقفيها بكل ثغرٍ مَخُوفٍ هم عليها لَعَمْرُ جَدّي نُضارُ

لم يُهينوا المولى على حَدَثِ الدهرِ ولا تَجْتَوِيهمُ الأَصهارْ

فعلَى عامرٍ سلامٌ وحَمْدٌ حيثُ حُلُّوا من البِلادِ وسارُوا

ولم يطل مكث لبيد في نجد بعد ان رحل قومه وتفرقوا في البلاد ، فحين خط عمر الكوفة رحل لبيد إليها ، وصارت له موطناً ومهاجراً،وصار عطاؤه هناك وكان الفي درهم [2] .

---

١ – الديوان ص ٤٤ – ٤٥ . الآل : عيدان الخيمة . العنة : الحظيرة تجمع اغصان الشجر فيحظر بها . ذعذعتها : فرقتها . العريش : ظلة من سعف وخشب . افراسهم امهار : كناية عن الشباب والاحداث . نضار : خلص . تجتويهم : تكرههم .

٢ – الشعر والشعراء ص ١٤٩ والأغاني ٩٤/١٤ .

وفي ديوان لبيد قصيدة اسلامية – في رثاء أربد – فيها وصف رحلة شاقة ، لعلها هي رحلته الى الكوفة ، ففيها ينبذ الكسل والتردد ويشد العزم والهمة ، ويكذب النفس التي تجنح الى الراحة فيقول[1] :

واذا رُمتَ رحيلاً فارتَحِلْ	وأعصِ ما يأمُر توصيمُ الكَسَلْ
وأكذبِ النفسَ إذا حدَّثتَها	إنَّ صِدقَ النفسِ يُزري بالأَمَلْ
غيرَ أنْ لا تَكْذِبَنْها في التقى	وأخزُها بالبِرِّ لِله الأَجَلْ
واضبطِ الليلَ إذا طالَ السُّرَى	وتَدَجَّى بعدَ فَوْرٍ واعتَدَلْ

ثم يمضي في وصف الرحلة المضنية ، ويذكر صاحباً له غراً غير خبير بالاسفار ، لا يطيق مكارهها ولا يصبر على مشاقها .

واستقر لبيد في الكوفة ، واتخذها مهاجراً وموطناً ، ولا نعرف من أخباره الصريحة الواضحة أنه بارحها الى غيرها خلا رحلة الى المدينة لعله ذهب حاجاً الى بيت الله فالتقى بالخليفة العادل عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فلدينا روايتان تفيدان ذلك وكلتاهما متصلة بأمير المؤمنين عمر . فاما الرواية الاولى فتقول : « روينا بسند صحيح ان لبيد بن ربيعة وعدي بن حاتم هما اللذان سميا عمر بن الخطاب (أمير المؤمنين) حين قدما عليه من العراق »[2] ونتبين هنا قوله (حين قدما عليه من العراق) فهذا يفيد بان هذه الزيارة تمت بعد هجرة لبيد الى الكوفة .

---

١ – الديوان ص ١٧٩ – ١٨٠ . التوصيم : التوهين . اخزها بالبر : اقهرها . تدجى : عم الليل . الفور : العتمة ، شدة الظلمة .

٢ – شرح شواهد المغنى ، السيوطي ص ٥٧ .

والرواية الثانية — تتصل بالاولى في زمنها — تبين ان عمر بن الخطاب شك في العقاق والهجن من الخيل ، فجاء سلمان بن ربيعة الباهلي [1] بطست فيها ماء وضعها على الارض ، ثم قدم الخيل فرساً فرساً فما ثنى سنبكه فشرب جعله هجيناً ، وما شرب ولم يثن سنبكه جعله عتيقاً وذلك لأن في أعناق الهجن قصراً فهي لا تنال الماء على تلك الحال حتى تثني سنابكها ، وأعناق العتاق طوال . واعجب لبيد بخبرة سلمان ونباهته وعلمه بالخيل وقد دعاه اعجابه هذا الى أن ينظم أرجوزة قال فيها :

من يَبْسُطِ اللهُ عليه إِصْبَعَا   بالخيرِ والشَّرِّ بأَيٍّ أُولِعَا

يَملأْ له منه ذُنُوبا مُتْرَعا

ثم يمضي في استخلاص العبرة من الأمم الماضية والملوك الهالكين حتى ينتهي الى ذكر سلمان الباهلي وما انعم الله عليه من علم وفضل ، فيقول [2] :

أنتَ جعلتَ الباهِليَّ مِقْنَعَا   فينا فأمسَى ما جدا ممنَّعا

وَحقٌّ من رَفَعتَهُ أَنْ يرفَعا   وكان شَيخاً باهِلِيّاً أَضلَعا

لا يُحسِنُ النَعْلَ إذا تَشَسَّعا   فاليومَ قد نالَ خِلالا أَربَعا

عِزّاً ومَجْداً وغِنَى ومَفزَعا   فما يَنَلْ فما نراهُ ضَيَّعا

---

١ — يخلط بعض الكتاب الفرس بين لبيد بن ربيعة وسلمان بن ربيعة الباهلي فيسميه لبيد الباهلي ويترجم له على انه لبيد الشاعر ، انظر تذكرة الشعراء للسمرقندي ص ١٩ — ٢٠ .

٢ — الديوان ص ٣٣٧ — ٣٣٩ .



ومهما يكن من شيء فقد استقر لبيد في الكوفة وهو شيخ ، وانصرف الى القرآن الكريم يتلوه ويحفظه ، ويتدبر معانيه ، وقد شغل بالبر والتقى وزهد في حياته وتنسك ، فوصفه الرواة بالصلاح والصدق والأمانة والعفة وحسن الاسلام . وقد عرف الناس ذلك عن لبيد فأجلوه وأكرموه ، وقد كانت منزلته جليلة في نفوس الولاة والأمراء . وقد جاوزت سمعة لبيد في حسن اسلامه وايمانه، الولاة الى الخلفاء ، فقد عرف ذلك أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، وشكر له تلك السيرة ، وأكرمه اكراماً كبيراً ، فضله على أقرانه ، وزاد في عطائه خمسمائة في حادثة مشهورة ، يسوقها الرواة على انها تتصل بتقوى لبيد من ناحية وبهجره الشعر من ناحية ثانية . والحادثة طريفة فيها دلالة كبيرة على تقوى لبيد وحسن اسلامه ، تقول الرواية : « كتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه [1] الى المغيرة بن شعبة وهو على الكوفة : ان استنشد من قبلك من شعراء مصرك ما قالوا في الاسلام ، فأرسل الى الأغلب الراجز العجلي فقال له :

أنشدني ، فقال :

أَرَجزاً تُريدُ أم قَصيدا لَقَدْ طَلَبْتَ هَيِّناً موجودا

ثم أرسل الى لبيد فقال : أنشدني ، فقال : ان شئت ما عفي عنه — يعني الجاهلية — فقال : لا أنشدني ما قلت في الاسلام ، فانطلق فكتب سورة البقرة في صحيفة ثم أتى بها وقال : أبدلني الله هذه في الاسلام مكان الشعر . فكتب بذلك المغيرة إلى عمر ، فنقص من عطاء الأغلب خمسمائة ، وجعلها في عطاء لبيد

---

١ – في بعض المصادر ان عمر هو الذي سأل لبيداً فأجابه ، ولا شك ان المصادر التي ذكرتها اختصرت الرواية فأغفلت ذكر المغيرة ، انظر الشعر والشعراء ص ١٤٩ والروض الانف ٣٣٨/٢ ومطالع البدور ، الغزولي ٥٣/٢ .



فكان عطاؤه ألفين وخمسمائة فكتب الأغلب : يا أمير المؤمنين ، أتنقص عطائي ان أطعتك ، فرد عليه خمسمائة وأقر عطاء لبيد على ألفين وخمسمائة » [1] .

وفي هذه الرواية من الدلالة على زهد لبيد وحسن اسلامه ، أكثر مما فيها من دلالة على هجرة الشعر ، هذا الزعم الذي ألح القدماء على توكيده ، وهو زعم مرفوض أتفرغ اليه في حينه .

٣

ويمتد العمر بلبيد فيدرك خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه ، وولاية أخيه لأمه الوليد بن عقبة ، وكما كانت مكانة لبيد رفيعة مبجلة لدى المغيرة والخليفة عمر كانت عالية عند الأمير الجديد ، بل ربما عرف الوليد من حق لبيد وكرمه ومروءته أكثر مما عرف المغيرة بن شعبة فصلة لبيد بالوليد صلة وثيقة ، فهو يحضر مجلس الامير ، والامير يقربه ويسائله عن احداث الجاهلية ، وما كان له فيها من مفاخر ومشاهد ، وكان لبيد تقياً لا يريد العودة لذكر الجاهلية ، متواضعاً في أحاديثه ، يتردد كثيراً قبل أن يقص على الناس أخباره . بل كثيراً ما يلح الأمير على لبيد ويعزم عليه — ولعزمة الامير حق يعرفونه — لأن لبيداً عاش دهراً طويلاً وشهد تاريخاً بعيداً ، فكانت المجالس تأنس بهذه الأحاديث الجاهلية التي بعد العهد بها ، وربما أثارت أحاديث لبيد هذه غيرة الحساد وحفيظتهم فيعترضون عليه ويضايقونه ، وكان لبيد يحسن الاجابة ، ويجيد الرد في كثير من الذكاء والادب ، فمن ذلك ما قالوا : « اجتمع عند الوليد بن

---

١ — الأغاني ١٥/٣٦٩ وانظر كذلك طبقات الشعراء ص ١١٣ والامالي لليزيدي ص ١٠ وشرح شواهد المغنى ص ٥٦ — ٥٧ والاصابة ٣/٣٠٧ والخزانة ١/٣٣٧ . ولعل لبيداً كان قد كتب حزباً من سورة البقرة أو آيات منها فالسورة طويلة (آياتها ٢٨٦) ولا تتيسر كتابتها في ذلك الوقت بسهولة .

عقبة سمّاره وهو أمير الكوفة وفيهم لبيد ، فسأل لبيداً عما كان بينه وبين الربيع بن زياد عند النعمان ، فقال له لبيد : هذا كان من أمر الجاهلية وقد جاء الله بالاسلام ، فقال له : عزمت عليك — وكانوا يرون لعزمة الامير حقاً — فجعل يحدثهم ، فحسده رجل من غنى ، فقال : ما علمنا بهذا . فقال : أجل يا ابن أخي ، لم يدرك أبوك مثل ذلك ، وكان أبوك ممن لم يشهد تلك المشاهد فيحدثك »[1] .

وليس بغريب أن يكون لبيد محسداً في هذا العصر ، وهناك غير سبب لذلك ، فلبيد رجل أوتي من مجد الجاهلية شيئاً كثيراً تتقاصر دونه أعناق الحاسدين ، وقد جمع بين مجد الجاهلية ومفاخرها بحضوره مجالس ملك الحيرة ، وبين مجد الاسلام بما أنعم الله عليه من ايمان وبرٍّ وتقى وحفظ لكتاب الله وصحبة لرسوله الكريم[2] ، والى كل ذلك مكانة أثيرة عند الامير القرشي . ويلاحظ ان الرجل الذي اعترض على لبيد وحسده كان من غنى ، وبين غنى وجعفر عداء قديم ونائرة يرجع عهدها الى حديث ابن ضبا ، وجلاء بني جعفر عن أرضهم وهجرتهم الى اليمن ، ولذلك فان بعض شبان الغنويين كانوا يسمعون لبيداً ما يكره حسداً منهم للجعفريين وكرهاً لهم على ما كان لهم من أحساب مجيدة ، ففي يوم من أيام لبيد هذه بالكوفة كان مستلقياً على ظهره في رحبة غنى ، وقد سجّى نفسه بثوبه ، اذ أقبل شاب غنوي فشتم طفيل بن مالك عم لبيد ، وأنكر على الجعفريين كرمهم وعزهم ، فقال : قبّح الله طفيلاً حيث يقول :

---

١ — الأغاني ١٥/٣٦٧ .

٢ — أربعة من صحابة رسول الله (ص) لهم اسم لبيد : لبيد الشاعر ، ولبيد بن عطارد التميمي احد وفد تميم سنة تسع ، ولبيد بن سهل الانصاري الذي ورد ذكره في التفسير في قوله تعالى : « ومن يكسب خطيئة أو إثماً ثم يرم به بريئاً » ، ولبيد بن عقبة بن رافع بن امرىء القيس . انظر الاستيعاب ١/٢٣٧ ط الهند سنة ١٣١٨ هـ .



جَزَى الله عنا جعفراً حيث أشرَقَتْ
بنا نَعْلُنا في الواطِئـــينَ فزَلَّتِ

أَبَوا أن يَمــلُّونا ولو أنَّ أمَّــنا
تُلاقي الذي يلقــونَ مِنَّـــا لَملَّتِ

فذو المالِ موفــورٌ وكلٌّ مصعَّبٍ
الى حُجُراتٍ أدفــأتْ وأظَلَّتِ

وقالت هلموا الدارَ حتى تَبَيَّنُوا
وتنجــلي الغَمَّاءُ عمـــا تجلَّتِ

ليت شعري ما الذي رأى في بني جعفر حيث يقول هـــذا فيهم ؟ قال : فكشف لبيد الثوب عن وجهه وقال : يا ابن أخي ، انك أدركت الناس وقد جعلت لهم شرطة يزعون[1] بعضهم عن بعض ، ودار رزق تخرج الخادم بجرابها فتأتي برزق أهلها ، وبيت مال يأخذون منه أعطيتهم ، ولو أدركت طفيلاً يوم يقول هذا لم تلمه ، ثم استلقى وهو يقول : « استغفر الله ، فلم يزل يقول استغفر الله حتى قام »[2] .

ولم يكن كل أهل الكوفة كالغنويين يسيئون الى لبيد ويثيرون حفيظته ،

---

١ – ويروى يَدْعثُون .

٢ – الأغاني ١٥/٣٦٨ .

بل كانوا يرون فيه الرجل التقي الصالح الوقور . الذي نال من الدنيا ما لم ينالوا وشهد من العهود ما لم يشهدوا ، فكانوا يسألونه اذا سمر في المجالس ، ويسألونه اذا سار في طرقات المدينة ، يسألونه عن أخبار الجاهليـــة واحداثها ، وشعر الجاهلية وشعرائها وأي الشعراء هو أشعر ، فكان لبيد يقـــدم أمرأ القيس ، ويثني بطرفة بن العبد ، ثم يضع نفسه بعده [1] .

كان أهل الكوفة يحبون لبيداً لصفات حميدة كثيرة فيه ، ولعل أبرز هذه الصفات وأكثرها انتشاراً بين الناس وذكراً في مجالس القوم : هو كرمه الذي عرف عنه في الجاهلية ، كما عرف عنه في الاسلام وصارت رياح الصبا مقرونة بذكر أبي عقيل .

وقد واظب لبيد على كرمه وتخرقه في البذل ، على الرغم من تغير حاله ، فتتحدث المصادر ان لبيداً تعرض في أخريات أيامه الى اقتار وسوء حال [2] ، فأمواله وقطعانه الكثيرة قد أفنتها رياح الصبا ، وعطاؤه من بيت المال يذهب في وجوه الخير والانفاق على ذوي الحاجة من الفقراء والمساكين وأهل المسجد خاصة .

وقد عرف أهل الكوفة نذر لبيد في (ان يطعم ما هبت الصبا) كما عرفوا عسر حاله وضيق ذات يده ، فكانوا يعينون لبيداً على مروءته اذا هبت الصبا ، وكان الامراء أول المتطوعين لذلك ، دعا المغيرة بن شعبة الناس الى اعانته في عهد عمر [3] . ودعا الوليد بن عقبة في زمن عثمان ان يعينوا لبيداً عـــلى الوفاء

---

١ – الأغاني ١٤/٩٣ و ٩٥ .

٢ – الكامل ، المبرد ٢/٧٨ والخزانة ١/٣٣٧ .

٣ – طبقات الشعراء ص ١١٤ والشعر والشعراء ١٥٠ ط ليدن .

بنذره ، وكان هو أول من سارع الى اكرامه ، أرسل اليه مائة بكرة مع قطعة من شعر يعتذر فيها ويمدحه على كرمه ومروءته ، وكان لهذا التكريم أثر بالغ في نفس لبيد وفي نفوس الناس ، ولذلك فقد غدت هذه المناسبة حديث الناس، تناقلوا قصتها وأنشدوا شعرهـــا وتبسطوا في روايتها فقالوا : « هبت الصبا يوماً والوليد بن عقبة على الكوفة ، فصعد الوليد المنبر فخطب الناس ثم قال : ان أخاكم لبيد بن ربيعة ، قد نذر في الجاهلية ألا تهب صبا الا أطعم ، وهذا يوم من أيامه ، وقد هبت صبا ، فأعينوه ، وأنا أول من فعـــل ، ثم نزل عن المنبر ، فأرسل اليه بمائة بكرة ، وكتب اليه بأبيات قالها :

أرى الجزارَ يشحَذُ شَفرَتَيْهِ إذا هَبَّتْ رياحُ أبي عقيلِ

أشمُّ الأنفِ أصيـــدُ عامريٌّ طويلُ الباعِ كالسيفِ الصقيلِ

وفَى ابنُ الجعفريّ بحلفَتَيْهِ على العِلَّاتِ والمـــالِ القليلِ

بنحرِ الكُومِ إذْ سَحَبتْ عليهِ ذيولُ صَبا تجاذَبَ بالأصيلِ

فلما بلغت أبياته لبيداً قال لابنته : اجيبيه ، فلعمري لقد عشت برهة وما أعيا بجواب شاعر .

فقالت ابنته :

إذا هَبَّتْ رياحُ أبي عقيلٍ دَعونا عندَ هَبَّتِها الوليدا

أشمَّ الأنفِ أروعَ عبشميّاً أعانَ على مروءَتِه لبيدا

بأمثالِ الهِضَابِ كأنَّ ركبا عليها من بني حامٍ قُعُودا

أبا وَهْبٍ جزاكَ اللهُ خَيرا نحرناها فأطعَمنا الشريدا

فَعُدْ إن الكريمَ له مَعادٌ وَظَنّي بابنِ أَروَى أن يَعودا

فقال لها لبيد : احسنت لولا انك استطعمته فقالت ان الملوك لا يستحيا من مسألتهم ، فقال : وانت يا بنية في هذا أشعر »[1] .

وهكذا قضى لبيد أيامه الأخيرة كريماً جواداً ، رفيع المنزلة أثيراً لدى الولاة ، يحضر مجالسهم ويحظى بأكرامهم وتوقيرهم .

وأدرك لبيد عهد الفتنة التي قامت حول الخلافة ، وانتهت بمصرع أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه ، وشهد الصراع الدامي الذي نشب بين الفرق والاحزاب ، وكانت الكوفة احدى عواصم الخلاف والاضطراب . ولكن لبيداً كان شيخاً كبير السن يترقب أيامه الأخيرة ، وكان قد زهد وتنسك ، ولم يكن يعنيه من أمر هذه الفتن ما يعني الطامحين من ذوي الهوى ، ولذلك لا نجد للبيد ذكراً في هذه الاحداث وليس له أخبار في خلافة علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، كما انه كان قد توقف عن قول الشعر أو العناية به ، وهو توقف اقتضته الشيخوخة وأوجبه الهرم .

وشيخوخة لبيد ثقيلة مضنية ، سئم منها وتشكى من تطاول أيامها ، فهو أحد المعمرين الذين عاشوا دهراً طويلاً ، فقد شهد اجيالاً متعاقبة تعاصره ثم

---

١ - الأغاني ١/٣٧٠ - ٣٧١ ط الدار وانظر كذلك الشعر والشعراء ص ١٥٠ ، والكامل ، المبرد ٢/٧٨١ وجمهرة اشعار العرب ص ٣٠ والحماسة ، ابن الشجري ص ١٠٦ ولباب الآداب ، اسامة بن منقذ ص ٩٣ - ٩٤ وهبة الايام ، البديعي ص ٢٤٥ ومطامع البدور في منازل السرور ١/٥٢ وشرح الشواهد ، السيوطي ص ٥٧ والاستيعاب ٣/١٣٣٦ والاصابة ٣/٣٠٩ والخزانة ٢/٧٤ .

تفنى منذ الجاهلية حتى نهاية الخلافة الراشدة . وفي شعره أبيات غير قليلة يستثقل فيها الحياة ويسأم من تطاول سنيها ، وبطء أيامها ، وقد ضجر من كثرة ما سأل الناس (كيف لبيد) [1] :

وَلَقَدْ سَئِمْتُ من الحياةِ وطولِها وسُؤالِ هذا الناس كيفَ لبيدُ

وفي شعر لبيد رهبة من الشيخوخة وخوف من أسقامها ، ولذلك فهو لا يأبه متى هلك ولا يأسف على شيء اذا مات ، بعد ان ملّ الحياة واستكثر العمر المتطاول [2] :

فَمَتَى أَهْلِكْ فلا أَحفِلُه بَجَلِي الآنَ من العيشِ بَجَلْ

من حياةٍ قد مَلِلْنا طولَها وجديرٌ طولُ عَيْشٍ أن يُمَلْ

وهو يرهب الشيخوخة لأن فيها العجز والمرض والضعف [3] :

أليسَ ورائي إن تراخَتْ منيَّتي لُزومُ العَصا تُحنَى عليها الأَصابِعُ

أُخَبِّرُ أَخبارَ القُرونِ التي مَضَتْ أَدِبُّ كأَنّي كُلَّما قُمتُ راكِعُ

فأَصبحتُ مثلَ السيفِ أخلقَ جفنَهُ تقادم عهدِ القَيْنِ والنصلُ قاطِعُ

---

١ – حماسة البحتري ص ١٥٠ والديوان ص ٣٥ .

٢ – الديوان ص ١٩٧ . احفله : ابالي به . بجلي : حسبي .

٣ – كتاب المعمرين ص ٧٧ والديوان ص ١٧٠ – ١٧١ . تراخت : ابطت وتباعدت . ورائي : هنا بمعنى قدامي . اخلق : بلي . النصل : حديدة السيف .

ولم يكن لبيد وحده الذي عاش عمراً طويلاً شكا منه واستثقل وطأته بل كان غيره من الناس قد سئموا الحياة وقالوا في ذلك شعراً ، كالمستوفر بن ربيعة وأكثم بن صيفي ، وثعلبة بن كعب الاوسي وغيرهم كثير [1] ولكن ما روي للبيد في هذا الضرب من الشعر ، لم يرو لغيره ومع كثرة هذا الشعر الذي يتشكى فيه من طول الحياة وسأمها وصحته وجودته هناك شعر آخر في عمره لفق عليه ونسب اليه والناظر فيه يرى أثر الصنعة واضحاً بيناً فهو شعر ضعيف مفكك لا يرقى الى شعر لبيد ، وهو شعر لفق وفق قصة محبوكة سايرت عمره حقبة بعد أخرى ، فهو متذمر من الزمان ساخط على تطاول العمر منذ كان ابن سبع وسبعين سنة اذ جعلوه يقول :

قامت تشكي الى النفس مجهشة   وقد حملتك سبعاً بعد سبعين

فان تزادي ثلاثاً تبلغي أملاً   وفي الثلاث وفاء للثمانين

فلما بلغ التسعين رووا له هذا البيت :

كأني وقد جاوزت تسعينَ حِجَّةً   خلعتُ بها عن منكبّي رِدائيا

فاذا بلغ المائة وعشرا قالوا :

أليسَ في مائةٍ قد عاشَها رجلٌ   وفي تكاملِ عشرٍ بعدَها عمر

وهكذا تمضي الرواية تروي على لسانه الاشعار فترة بعد أخرى [2] . وهذه

---

١ - حماسة البحتري ص ١٥٠ .

٢ - الأغاني ١٥/٣٦٢ ط الدار وانظر ايضاً المعمرين ص ٦٩ والعقد الفريد ٢/٧٧ والاضداد ، ابن الانباري ص ١٣٠ وشرح المقامات للشريشي ٤/٥٨ وأسد الغابة ٤/٢٦٢ والاستيعاب ٣/١٣٣٨ .

الاشعار أبيات مفردة منفرطة لم تنتظمها قصائـــد أو مقطعات . وقد فطن القدماء الى أن هذه الأشعار مصنوعة محمولة عليه ، فنبه الى ذلك العالم الراوية الناقد ابن سلام ، اذ خطأ الرواة في حمل هذا الشعر وقال : « لا اختلاف في أن هذا مصنوع تكثر به الأحاديث ويستعان به على السهر عند الملوك والملوك لا تستقصي »[1] . وكان الناس يروون هذا الشعر على انه حقيقة صادقة ووضعوا رواية على لسان الشعبي يخفف بها من ثقل الموت ورهبته عن عبد الملك بن مروان حين احتضاره وانه كان ينشده من شعر لبيد هذا فيشعر بالخفة[2] .

٤

وقد نظر القدماء الى شعر لبيد الذي قاله في عمره ، ما كان منه صحيحاً أو مصنوعاً فعرفوا من ذلك انه معمر عاش عمراً طويلاً . ثم ذهبوا يغالون في هذا العمر ، ويستكثرون منه ، فقالوا : انه « لم يمت حتى حرم عليه نكاح خمسمائة امرأة من نساء بني عامر »[3] وقدروا عمراً طويلاً له يقـــع بين المائة والعشرين والمائة والستين ، فمنهم من قال أنه عاش مائة وعشرين[4] ، أو مائة وثلاثين[5] ، وآخرون قالوا بل عاش مائة وأربعين[6] وقال غيرهم بل عاش مائة

---

١ – طبقات الشعراء ص ٥٠ والمزهر ، السيوطي ٢/٢١٠ .

٢ – الأغاني ١٥/٣٧٥ والمعمرين ص ٦٨ – ٦٩ .

٣ – جهرة أشعار العرب ص ٣١ .

٤ – المعمرين ص ٦٧ .

٥ – المصدر السابق والصفحة .

٦ – اللباب في تهذيب الانساب ١/٢٣٠ وشرح شواهد المغنى ص ٥٦ وأسد الغابة ٤/٢٦٢ .



وخمسة وأربعين عاماً [1] ، وزاد بعضهم هذا التقدير الى مائة وخمسين [2] أو مائة وسبعة وخمسين عاماً [3] والمكثر فيهم قال انه بلغ مائة وستين [4] . ومما هو ظاهر ان هذه التقديرات جميعها لا تستند الى شيء من الحقيقة ، ان هي الا ظنون وروايات ينقلها لاحق عن سابق . وأحاول هنا أن أستقرىء حوادث لبيد وبني عامر لأخرج بتقدير يستند الى منطق مقبول ، ولنبدأ من وفاته : فقد مرت بنا روايات تحقق اتصاله بالوليد بن عقبة أمير الكوفة من قبل الخليفة عثمان ابن عفان . فيقال ان لبيداً مات بالكوفة في هذه الفترة وان الوليد أرسل الى منزله عشرين جزوراً فنحرت عنه [5] .

ولكن هناك روايات كثيرة تجعله يدرك زمن معاوية ، وانه توفي ليلة نزل معاوية النخيلة لمصالحة الحسن بن علي [6] ، وتعزز هذه روايات أخرى تتصل بعطاء لبيد والعلاوة التي زادها عمر بن الخطاب حين عرف حسن اسلامه وكتب له سورة البقرة بعد أن أغناه الله بها عن الشعر . ويقال أن كلاماً جرى بين معاوية ولبيد ، وان معاوية سأله : « يا أبا عقيل ، عطائي وعطاؤك سواء ، لا أراني الا سأحطك ، قال : أو تدعني قليلاً ، ثم تضم عطائي الى عطائك فتأخذه أجمع » [7] . ويتغير في الرواية فيقال : « هذان الفودان فما بال العلاوة » قال لبيد : « انما أنا هامة اليوم أو غد فأعرني اسمها فلعلي لا أقبضها أبداً فتبقى

---

١ – الأغاني ١٤/٩٠ والاصابة ٣/٣٠٧ .

٢ – العبر في خبر من غبر ، الحافظ الذهبي ١/٥٠ ط الكويت ١٩٦٠ .

٣ – الشعر والشعراء ١/١٩٥ والاصابة ٣/٣٢٨ والاستيعاب ٣/١٣٣٨ والخزانة ١/٣٣٧ .

٤ – الاصابة ٣/٣٠٩ .

٥ – العبر في خبر من غبر ١/٥٠ والاستيعاب ٣/١٣٣٧ والخزانة ١/٣٣٧ .

٦ – طبقات ابن سعد ٦/٢٠ – ٢١ وشرح شواهد المغنى ص ٥٦ .

٧ – طبقات الشعراء ص ١١٣ .



لك العلاوة والفودان » فرقّ له معاوية وترك عطـــاءه على حاله ، فمات ولم يقبضه [1] . وتروى هذه المحاورة مع زياد [2] وسواء أكانت مع معاوية أم مع زياد ، فان لبيداً أدرك هذا العصر وتوفي سنة احدى وأربعين . واذا رجحنا هذه السنة تاريخاً لوفاته فان ميلاد لبيد لا يمكن أن يتعين بمثل هذه البساطة . ولكن لدينا بعض المعالم التي تعين على معرفة سنه على وجه التقريب . فقد لاحظنا في دراسة الأيام ان يوم شعب جبلة كان قبل الاسلام بأربعين سنة [3] فاذا كانت البعثة النبوية توافق سنة عشر وستمائة (٦١٠) للميلاد ، يكون يوم الشعب سنة سبعين وخمسمائة (٥٧٠) وهذا يوافق ميلاد رسول الله ﷺ ، وعام الفيل في أحد الأقوال . ولدينا رواية تبين أن عمر لبيد يوم الشعب كان تسع سنين [4] ، فيكون ميلاد لبيد سنة احدى وستين وخمسمائة (٥٦١) للميلاد ، وتعرضنا هنا عوائق في هذا التقدير ، هي اضطراب المؤرخين في تاريخ يوم الشعب ، فهناك روايتان ، الاولى تجعله قبل الاسلام بسبع وخمسين سنة (٥٧) [5] ، والثانية تجعله قبل الاسلام بتسع وخمسين سنة (٥٩) [6] ، وهاتان الروايتان بعيدتان عن الواقع لأن هاتين السنتين تقعان في التاريخ بين سنة احدى وخمسين وخمسمائة ، وبين سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة (٥٥١ — ٥٥٣) ، ويكون ميلاد لبيد على

---

١ – الشعر والشعراء ص ١٤٩ والأغاني ١٥/٣٧٠ والمعمرين ص ٦٧ والفائق ، الزمخشري ٢/١٨٣ والروض الأنف ، السهيلي ٢/٣٣٨ والخزانة ١/٣٣٧ .

٢ – يقال ان معاوية كتب الى زياد وهو على الكوفة (ان المال قليل والناس كثير فمن كان في ألفين وخمسمائة فحط الخمسمائة) شروح سقط الزند ٤/١٨ – ١٩ ، والاصابة ٣/٣٠٨ .

٣ – النقائض ١/٢٦٦ .

٤ – الأغاني ١١/١٤٩ ط الدار ، ١٠/٤٢ ط سامي .

٥ – النقائض ٢/٦٥٤ .

٦ – الأغاني ١١/٧٦٠ .

هذا التقدير يقع بين سنة أربع وأربعين وخمسمائة ، واثنتين وأربعين وخمسمائة (٥٤٤ — ٥٤٢) . واذا علمنا أن وفادة بني جعفر على النعمان بن المنذر كانت في أول ملكه سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة (٥٨٢)[١] فيكون عمر لبيد عند الوفادة ثمان وثلاثين سنة أو أربعين سنة وهذا ينافي كون لبيد غلاماً . ولذلك نرفض هاتين الروايتين الأخيرتين ونتمسك بالاولى التي تقول ان يوم الشعب كان على أربعين سنة من الاسلام (سنة ٥٧٠) ويكون عمر لبيد عند وفادته الاولى على النعمان احدى وعشرين سنة ، وهو تقدير مقبول يناسب وصف المصادر للبيد آنذاك بأنه كان غلاماً ، وأنه أصغر ذلك الوفد ، ومن كل ذلك نخرج بهذه الحقائق :

ان ميلاد لبيد كان سنة (٥٦١ م) احدى وستين وخمسمائة .

وان وفادته على النعمان كانت سنة (٥٨٢ م) اثنتين وثمانين وخمسمائة . وكان عمره آنذاك احدى وعشرين سنة على التقريب .

وان عمره عند ظهور الاسلام تسع وأربعون سنة (٤٩) ، واذا كان أكبر تقدير لاسلام لبيد سنة ثمان ، لأنه معدود في المؤلفة قلوبهم ، فيكون عمره عند اسلامه (٦٨) ثمان وستين سنة .

واذا اعتمدنا على الروايات التي تؤكد وفاة لبيد في أول خلافة معاوية سنة احدى وأربعين ، يكون عمر لبيد مائة سنة (١٠٠) منحصرة بين سنتي (٥٦١ — ٦٦١) احدى وستين وخمسمائة واحدى وستين وستمائة ، موزعة بين الجاهلية والاسلام ، ثمان وستون سنة في الجاهلية ، واثنتان وثلاثون سنة في الاسلام . وهو عمر طويل حقاً ولكنه لا يبلغ ما قدر له الرواة من سنين .

---

١ — مر بنا تحقيق سن لبيد عند الوفادة في (حياة لبيد في الجاهلية) .



وبذلك نرفض كل الروايات التي قيلت في عمر لبيد ، كما رفضنا الشعر الذي قيل في عمره وهو ابن ثمانين أو تسعين أو غيرها .

وفي حدود سنة احدى وأربعين كانت وفاة لبيد ، وهي أمر ينتظره بل يستبطئه ، فهو يعرف انه هامة اليوم أو غد ، فكان لذلك مطمئناً حين حضره الموت غير وجل ولا جزع فأحب في آخر عهده بالدنيا أن يسمع بكاء أهله عليه ، فحين دخل عليه أشياخ بني جعفر وشبانهم قال لهم : « أبكوا عليّ حتى أسمع ، فقال شاب منهم :

لتَبْكِ لبيدا كلُّ قِدْرٍ وجَفْنَةٍ ... وتبكي الصّبا من بادَ وهو حميدُ

قال : أحسنت يا ابن أخي فزدني ، قال : ما عندي غير هذا البيت ، قال : ما أسرع ما أكديت » [1] . وقد أوصى لبيد عند وفاته بوصية حزينة مؤثرة ، يظهر فيها صفاء نفسه وبره وتقاه ، وتمسكه بآداب الاسلام في اداء حق الميت ، قالوا : « ان لبيداً لما حضرته الوفاة قال لابن أخيه — ولم يكن له ولد ذكر — يا بني ، ان أباك لم يمت ولكنه فني فاذا قبض أبوك فأقبله القبلة وسجّه بثوبه ، ولا تصرخن عليه صارخة ، وانظر جفنتي اللتين كنت أصنعهما فاصنعهما ثم احملهما الى المسجد ، فاذا سلم الامام فقدمها اليهم ، فاذا طعموا فقل لهم فليحضروا جنازة أخيهم ، ثم أنشد قوله :

واذا دفَنتَ أبـاكَ فاجْـعَلْ فوقَـه خَشَباً وطينا

وسقائِفـاً صمّـاً رَوا سيها يُسَـدِّدْنَ الغُضُـونا

---

١ — شرح شواهد المغنى ص ٥٧ .

لِيَقْـــينَ حُرَّ الوجـــهِ سَفْ ساف التراب ولن يقينا[1]

وللبيد شعر عند الوفاة لعله متصل بالوصية السابقة ، يوصي فيه ابنتيه كيف تؤديان حقه بعد الموت ، ويبين لهما طبيعة الحزن الذي تلتزمان به ومدته دون جزع أو صراخ ، أو خمش لوجوه وحلق للشعر ، كما كانت النساء تفعل في عهد جاهليتها[2] :

تمنّى ابنتايَ أن يعيشَ أبوهما وهل أنا الا من ربيعةَ أو مُضَرْ

ونائحتان تنــدُبانِ بعاقـــلٍ أخا ثِقَةٍ لا عَيْنَ منه ولا أثَرْ

وفي ابني نِزارٍ أُسوةٌ ان جزعتُما وإن تسألاهم تُخبَرَا فيهم الخَبَرْ

فإن حانَ يوماً أن يموتَ أبوكُما فلا تَخْمُشا وجهاً ولا تَحْلِقا شَعَرْ

وقولا هو المرءُ الذي لا حَليفَه أضاعَ ولا خانَ الصديقَ ولا غَدَرْ

الى الحولِ ثم اسمُ السلامِ عليكما ومن يَبْكِ حولاً كاملاً فقد اعتَذَرْ

قالوا : فكانت ابنتاه تلبسان ثيابهما في كل يوم ، ثم تأتيان مجلس بني جعفر ابن كلاب ، فترثيانه ولا تعولان ، فأقامتا على ذلك حولاً كاملاً ثم انصرفتا »[3] .

---

١ – الأغاني ٣٧٨/١٥ وجمهرة أشعار العرب ص ٣١ والقصيدة أطول من ذلك في الديوان صفحة ٣٢٢ – ٣٢٦ .

٢ – الديوان صفحة ٢١٣ والأغاني ٣٧٩/١٥ ط الدار ، ٩٨/١٤ ط ساسي .

٣ – الأغاني ٣٧٩/١٥ .

والبيت الأخير في هذا الشعر هو حكم لبيد الذي شهر وعرف وسار مضرب المثل ، وفي ذلك يقول أبو تمام [1] :

ظعَنُوا فكانَ بُكايَ حَوْلاً بعدَهم
ثم أرعَوَيْتُ وذاكَ حُكْمُ لبيــدِ

وكثيراً ما كان يتمثل به الشعراء ، ويتواسى به المحزونون ، كما فعل أرطأة ابن سُهيّة المري حين مات ولده [2] ، وقد خرج على حكم لبيد الحارث الحمداني الذي جاوز حد التعقل في حزنه حيث يقول [3] :

وحُكمي بكاءُ الدهرِ فيما ينوبُني
وحكمُ لبيــدٍ فيه حَوْلٌ محرمُ

وانتهت حياة لبيد في الكوفة بعد هذا العمر الطويل ، ويسجل ابن سعد نهايته بقوله : « ودفن في صحراء بني جعفر بن كلاب ، ورجع بنوه الى البادية اعراباً » [4] .

والمعروف ان لبيداً لم يكن له أولاد ذكور ، فلعله يريد أهله وفيهم ابن أخيه وابنتاه .

---

١ – هبــة الايام ، البديعي صفحة ٢٤٣ ، ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي صفحة ٣٩٢ تحقيق عبده عزام .

٢ – أمالي الزجاجي صفحة ١٦ .

٣ – هبة الايام صفحة ٢٤٦ .

٤ – الطبقات ، الكبير ٦/٢٠ – ٢١ ط ليدن .

الفصل الخامس

معالم شخصية

١ – في الجاهلية :

وقد آن لنا أن نعرف لبيداً الرجل من حيث مكانته وصفاته وثقافته وخلقه : تكاد الروايات تجمع على أن لبيداً فارس ، شاعر ، شجاع ، شريف ، عذب المنطق ، رقيق حواشي الكلام ، حكيم ، مجرب ، رجل صدق[١] ، ومن ذوي القدر والرياسة ، والبيان والخطابة ، والحكمة والدهاء ، والنكراء . فهو بمصاف أكثم بن صيفي أو ربيعة بن حذار ، وهرم بن قطبة ، وعامر ابن الظرب[٢] . وهذه الصفات مع الجود والكرم الذي عرف به لبيد ، تعد كال الرجولة في العصر الجاهلي . وقد كان لبيد الى كل ذلك ، من مثقفي عصره ، العارفين بأحواله وأيامه ، وأخبار ماضيه ، فهو قارىء كاتب – ككثير من شعراء عصره – ولدينا من الدلائل على ذلك الشيء الكثير ، وأبرز تلك الدلائل شعره ، ففيه صور وتشابيه عن الكتابة والقلم والألواح والكتب ، وليس هناك أروع ولا أشهر من الصورة التي رسمها لبيد للسيول التي تكشف عن الطلول حين

---

١ – طبقات الشعراء صفحة ١١٣ ، الأغاني ١٥/٣٦١ .

٢ – البيان والتبيين ١/٣٦٥ .

شبهها بالأقلام التي تجدد الكتابة القديمة ، وقد انطمست معالمها ، وذلك في قوله[1] :

وجلا السيولُ عن الطُّلولِ كأنَّها   زُبُرٌ تُجِدُّ متونَها أقلامُها

ومعروفة سجدة الفرزدق اعجاباً بهذا البيت[2] .

ويعود ثانية فيذكر الكتابة في المعلقة أيضاً، حيث يشبه رسوم الديار المقفرة بكتابة محفوظة في الأحجار[3] :

فمدافِعُ الرَّيَّانِ عُرِّيَ رسمُها   خَلَقًا كما ضَمِنَ الوُحِيَّ سِلامُها

ولدينا — غير هذا — روايتان صريحتان في كتابـــة لبيد : الاولى في خبر اسلامه ، حيث ذهب الى المدينة يطب لعمه أبي براء فلقي الرسول الكريم ثم أسلم وكتب سورة الرحمن[4] .

أما الرواية الثانية فهي التي قيل ان عمر بن الخطاب رضوان الله عليه سأل المغيرة بن شعبة — وكان عامله على الكوفة — عن شعراء مصره وما أحدثوا في

---

١ — الديوان صفحة ٢٩٩ .

٢ — الأغاني ٩٥/١٤ .

٣ — الديوان صفحة ٢٩٧ . المدافع: مجاري المياه ومكان اندفاعها. الريان: واد . الوحي : الكتابة . السلام : الحجارة .

٤ — الأغاني ٩١/١٤ ط ساسي .

الاسلام من الشعر ، فلما سأل المغيرة لبيداً كتب له سورة البقرة ، وقال : « قد أبدلني الله بالشعر سورة البقرة وآل عمران » [1] .

فلبيد — لكل ذلك — قارىء كاتب ، عارف بأمور عصره ملم بأخبار الماضين الماماً يدعو الى الاعجاب ، فهو أوسع الشعراء أفقاً في معرفة الأمم البائدة ، والملوك الأقدمين يذكرهم في سياق الحكمة والاعتبار بمصير الجبابرة الهالكين ، أو الحكماء الماضين . فهو يذكر لقمان وعمره وقصته مع النسر (لبد) . فقد قالوا في قصصهم ان لقمان بن عاد خير فاختار عمر سبعة أنسر ، فأوتي سؤله ، فكان يأخذ فرخ النسر ، فيجعله في خربة من الجبل الذي هو في أصله ، فاذا استوفى النسر عمره أخذ فرخاً آخر فوضعه مكان الاول وهكذا الى آخر النسور ، وآخرها وأطولها عمراً هو لبد ، الذي ضرب به المثل في طول العمر وفي الهرم والفناء أيضاً ، فقيل : (أتى أبد على لبد) و (أخنى عليه الذي أخنى على لبد) ويروون هنا شعر لبيد [2] :

ولقد جرى لبد فأدرك جريه ... ريب الزمان وكان غير مثقل

لما رأى لبد النسور تطايرت ... رفع القوادم كالفقير الاعزل

من تحته لقمان يرجو نهضه ... ولقد رأى لقمان ان لا يأتلي

وأمر لقمان ولبد معروف عند العرب لم ينفرد بذكره لبيد من الشعراء ، فقد ذكره تيم اللات فقال [3] :

---

١ — طبقات الشعراء صفحة ١١٣ ، الأغاني ١٤/٩٤ ، الشعر والشعراء صفحة ١٤٩ .

٢ — كتاب التيجان في ملوك حمير ، وهب بن منبه صفحة ٦٧ ، وأخبار عبيد بن شرية صفحة ٣٦٦ — ٣٦٧ ، والمعمرون والوصايا صفحة ٥ ، ومجمع الامثال (طال الأبد على لبد) ١/٤٢٩ ، وثمار القلوب ٣٧٦ — ٣٧٧ ، والديوان صفحة ٢٧٤ . غير مثقل : لخفته وقدرته على الطيران . الفقير : الذي كسرت فقراته . الاعزل : المائل الذنب . يأتلي : يقصر ويبطىء .

٣ — التيجان ، لوهب بن منبه صفحة ٧٦ .

رأيت الفتى ينسى من الدهر حقه حذاراً لريب الدهر والدهر آكله

ولو عاش ما عاشت للقمان أنسر لصرف الليالي بعد ذلك يأكله

وذكره النابغة الذبياني أيضاً فقال[1] :

أمسَتْ خَلاءً وأمسَى أهلُها احتَمَلوا أخْنَى عليها الذي أخْنَى على لُبَدِ

واذا كان الشعراء قد أشاروا الى الأمم الماضية والملوك في سياق العبرة ، فان لبيداً كان يلح على هذه الاشارات ويكـــثر من ذكرها وتكرارها ، بل ويفصل فيها ، فهو في هذا يعين دارس التاريخ والاخبار لكثرة المعلومات التي ترد في شعره ، فهو يبين ما أصاب الأمم البائدة وملوكها من مثل ارم وعاد وحميَر ، وملوك اليمن التبابعة ، وذي القرنين ، والنعمان ، وحال داود ودروعه المتينة المحكمة كل ذلك في سياق التماس العبرة من هؤلاء وما أوقع الدهر بهم من هلاك وفناء[2] .

ويتفكر لبيد بمصائر ملوك اليمن وكندة ودومة الجندل، ويتخذ الموعظة من لقمان وقس بن ساعدة[3] .

ولم ينس لبيد أن يسجل أحداث عام الفيل حين غزا ابرهة الحبشي الكعبة

---

١ - التيجان ص ٧٦ .

٢ - الديوان ص ٢٠٨ - ٢٠٩ .

٣ - المصدر السابق ص ٥٥ - ٥٦ .

فبيّن ما أصاب هذا العبد وجيشة من هزيمة منكرة ، وما كان من دعاء عبد المطلب ربه لحماية البيت الحرام[1] :

والفيلَ يومَ عَرَنَاتٍ كَعْكَعا إذ أزْمَعَ العجمُ به ما أزْمَعا

نادى مُنادٍ رَبَّهُ فأسمَعا فذَبَّ عن بِلادِهِ وَوَرَّعا

وحابسَ الحاسرَ والمقَنَّعا وأفْلَتَ الجيشُ بِخِزيٍ مُوجَعا

تمج أخراهم دماء دفعا

وحين يذكر لبيد أولئك الملوك وتلك الأمم ، لا يستعرض أسماء سمعها ، بل يقص بعض قصصها ويحكي حوادثها ، كأنه أخباري مولع بحفظ الوقائع أو مؤرخ شديد الاطلاع كثير المعرفة وهو لذلك يذكر ملوك العرب كما يذكر ملوك العجم ، وقد ساعده ذلك اطلاعه على الأنساب ، ومعرفته بالقبائل ، وقد لوحظ أن لبيداً يعنى بأنساب الأقدمين ، حتى أنه ذكر من آباء العرب عدنان مع ان النسابين وقفوا عند معد ، وقالوا في هذا : « لم يذكر عدنان جاهلي قط غير لبيد بن ربيعة »[2] في قوله :

فإنْ لم تجِدْ من دونِ عدنانَ والِدا ودُونَ معدٍّ فلتَزَعْكَ العَواذِلُ

---

١ — المصدر السابق ص ٣٣٨ ، وذكر ابرهة في قصيدة ثانية ص ٢٧٥ كما ذكر فيها هرقل والحارث الكندي . عرنات : موضع دون عرفات. كعكع : حبس ومنع . وزّع : كف ورد .

٢ — طبقات الشعراء ص ١٠ .

على أن هناك شاعراً معاصراً للبيد ذكر عدنان أيضاً هو العباس بن مرداس حيث قال [1] :

وعكّ بن عدنانَ الذين تَلقَّبوا بغسَّانَ حتى طُرِّدُوا كلَّ مطردِ

وقد أتاحت الأسفار الكثيرة التي سافرها لبيد ، وتنقله في بيئات كثيرة ، في البادية والحيرة واليمن والحجاز ، أتاحت له هذه الثقافة الواسعة ، واذا أضفنا الى هذه الثقافة فحولة لبيد بين الشعراء ، وكرمه بين الكرام ، استطعنا بعد ذلك أن ندرك المكانة الكبيرة التي يتمتع بها لبيد عند العرب عامة ، وعند قبيلته خاصة ، ولعل من صور هذه المكانة في نفوس العرب ، أن بني الديان حين أسروا جارية لبيد وعرفوا بعد ذلك أنها له أرسلوها اليه مكرمة [2] ، وان زيارات لبيد الكثيرة لمجالس النعمان دليل آخر على مكانته الرفيعة .

واذا كانت هذه مكانته بين الناس ، فانها عند قبيلته أرفع وأسمى . لأنه شاعر القبيلة الذائد عنها ، والمفصح عن رأيها ، الذي ينصرها ويرفع من شأنها بين العرب ، وقبيلته تدعوه الى نصرتها وعونها لأنه الشاعر المدخر لجلائل الأمور ، الحقيق بحمايتها ، ولذلك يقول [3] :

وحَميتُ قومي إذْ دَعتني عامِرٌ وتقَدَّمتْ يومَ الغَبِيطِ وفُودُ

وقوله [4] :

---

١ – الانباه على قبائل الرواة ص ٤٨ . وانظر ديوان العباس بن مرداس ص ١٢٠ تحقيق يحيى الجبوري .

٢ – الديوان ص ٢٢٦ .

٣ – المصدر السابق ص ٣٧ . يوم الغبيط : يوم لبني عامر .

٤ – المصدر السابق ص ١٩٤ . فاثور وأفاق والدحل : مواضع . النبل الدول : التي تتداول .

ولدَى النعمان مني موطِنٌ   بين فاثورِ أفاقٍ فالدَّحلْ
إذ دَعتني عامرٌ أنصرُها   فالتَقى الألسُنُ كالنَّبْلِ الدُّوَلْ

وعامر لا تستنصر الا برجل عالي المكانة ، كبير المنزلة ، كفء باقتحام العظائم ، ودفع الشدائد . ولا تتمثل هذه المكانة الرفيعة في دفاعه عن قومه بلسانه وشعره ، بل تشمل دفعه العظائم عنها بفروسيته وجرأته ، فهو يحميها من الغارة ويدفع عنها البلاء [1] :

ولقد حَميْتُ الحَيَّ تحمل شِكَّتي   فُرُطٌ وشاحي إذ غدوتُ لِجامُها

وكيف لا ترتقي مكانة لبيد في قبيلته وهو : « خير شاعر لقومه ، يمدحهم ويرثي موتاهم ويعد أيامهم ووقائعهم وفرسانهم » [2] ويحب كذلك لهم الخير والوئام والصفاء ، ويودهم ويخلص لهم الود ، وليس أحد أفضل عنده من قومه فهم خير الناس فيما يرى . أليس هو القائل [3] :

بنو عامرٍ من خيرِ حَيٍّ علمتُهُمْ   ولو نَطَقَ الأعداءُ زُورا وباطِلَا

فهو يحبهم ويعتز بهم ويدعو لهم بالسقيا فيقول [4] :

---

١ – الديوان ص ٣١٥ . الشكة : السلاح . فرط : فرس سريع .

٢ – طبقات الشعراء ص ١١٤ .

٣ – الديوان ص ٢٤٩ .

٤ – المصدر السابق ص ٩٣ . مجد : ابنة تيم بن غالب بن فهر ، وهي أم كلاب وكعب وعامر بني ربيعة بن عامر بن صعصعة .

سقى قومي بَنِي مَجْدٍ وأسقى نُمَيْرا والقبائِلَ من هِلالِ

وكان من أصدق دلائل حبه لقومه وايثارهم ، ان كان يطعمهم وينفق على فقرائهم ، وينحر لهم الجزور ويخصهم بسهامه في الميسر . واذا اشتد الجدب وأمحلت الأرض نحر لهم جياد الابل وأطعمهم . وقد صارت له هذه العادة سنة لازمته طيلة حياته ، سواء في الجاهلية أم في الاسلام ، فقد نذر أن يطعم ما هبت الصبا [1] والصبا تهب عادة في أوقات البرد والجدب . وآلى على نفسه أن يلتزم بهذه العادة ، كأنها دين عليه أو واجب في عنقه . وقد عرف لبيد بهذا النذر ، فشهر بأنه من مطاعيم الريح [2] ومطاعيم الريح قلة من أجواد العرب .

ولم يكن كرم لبيد موقوفاً على هذا النذر ، بل كان سمحاً جواداً ، والجود طبيعة متأصلة فيه ورثها عن أبيه ربيع المقترين ، وزاد على كرم أبيه أن كانت له جفنتان يملأهما ويطعم قومه كل يوم [3] وقد قيل عنه : « لا يمر بلبيد يوم الا أراق فيه دماً .. وربما ذبح العتاق » [4] ولست أشك بهذا الكرم الواسع الذي يكاد ان يكون ضرباً من الاساطير ، وقد كان لتأصل الكرم في نفس لبيد انه لم ينس حتى ساعة الموت أن يوصي ابن أخيه بأن يملأ الجفنتين طعاماً ، ويطعم من في المسجد ، حتى اذا فرغوا من الطعام ، أخبرهم أن يحضروا جنازة أخيهم لبيد بن ربيعة [5] .

---

١ – الشعر والشعراء ص ١٤٩ ، الأغـاني ١٥/٣٧٠ ، ومطالع البدور ١/٥٢ ، وحماسة ابن الشجري ص ١٠٦ ، جمهرة الاشعار ص ٣٠ ، لباب الآداب ص ٩٣ ، والخزانة ١/٧٤ .

٢ – بلوغ الأرب ١/٩١ .

٣ – الأغاني ١٥/٣٧٠ .

٤ – لباب الآداب ص ٩٣ .

٥ – الأغاني ١٤/٩٧ .

وصور الكرم في شعر لبيد كثيرة ، وبخاصة كرمه للفقراء والأيتام والأرامل وذوي الحاجة ، فهو يؤويهم ويطعمهم عند الجدب والبرد وهبوب الرياح الباردة تلك الرياح التي اقترن اسمه بها ، بل أضيفت اليه ، فقالوا : (رياح أبي عقيل)[1] .

وصور الكرم عند لبيد كثيرة . وكرمه ليس أمراً طارئاً ، فهو من قوم حسبهم أنه قال فيهم[2] :

يكبونَ العِشارَ لمن أتاهُمْ   إذا لم تُسْكِتِ المائةَ الوَليدا

ولم يكن لبيد كريماً فحسب ، بل كان على خصال يندر أن تجد لها مثيلاً في حياة الجاهليين ، تلك الحياة التي تقوم على الحمية والعصبية والطيش وسرعة الغضب . وكأن لبيداً كان غريباً عن مجتمعه ، فهو انسان نادر لا يشبهه في خلقه من شعراء الجاهلية غير زهير ابن أبي سلمى وبين الرجلين شبه كبير ، في الخلق والسماحة وكرم النفس وسلامة الطبع والتعفف ومجانبة السفه والتعهر .

والعفة أمر ظاهر في سلوك لبيد ، فلن نجد في غزله أو فخره ذلك اللون الذي تجده عند طرفة ، أو أمرىء القيس ، أو الأعشى ، من الاسراف في الخمرة والمجون والسمو الى الجارات في غفلة عن أزواجهن . بل كان لبيد مقتصداً في سلوكه ، راغباً في العفة ، مترفعاً عن الدنايا ، محافظاً على عرضه أن يدنس ، ولذلك يقول[3] :

---

١ – انظر شعر الوليد بن عقبة في الشعر والشعراء ص ١٤٩ .

٢ – المعاني الكبير ٤١١/١ . والديوان ص ٣٥٠ . يكبون : ينحرون . عشار : جمع عشراء ، وهي الناقة التي أتى عليها عشرة أشهر من يوم لقاحها ، ثم ما يزال اسمها كذلك حتى تضع وبعد ما تضع .

٣ – الديوان ص ٣٧ . العرض : الحسب والاصل . النجوة : الارتفاع .

أكرمتُ عِرضي أنْ يَنالَ بنَجْوَةٍ　　إنَّ البريءَ من الهَنات سعيدُ

ويقول [1] :

إني أكاثِرُ في النَّدى إخوانَهُ　　وأعِفُّ عِرضي إن ألَمَّ لِمامُ

وهو في سبيل هذا لا يضن بمال بل يسعى مـــا وسعه الجهد ليكسب حسن الأحدوثة وحمد الناس [2] :

أقي العِرْضَ بالمال التِّلادِ وأشتري　　به الحَمْدَ إنَّ الطالبَ الحمدَ مشتري

وكم مُشترٍ من ماله حُسنَ صِيتِهِ　　لأيامه في كل مبدى ومَحْضَرِ

أباهي به الأكفاء في كل موطنٍ　　وأقضي فروضَ الصالحينَ وأقتَري

وهو يعامل الناس بالحسنى يريد رضاهم ومودتهم ، وقد يحتمل منهم الاساءة والجور حلماً منه حتى انه ليكرم من لا يوده ويصاحب من لا يصافيه [3] :

وإني لأُعطي المالَ من لا أوَدُّهُ　　وألبَسُ أقواماً على الشَّنَآنِ

ولبيد ميال الى المسالمة والموادعة لا يرغب في الاساءة او اثارة الضغائن وبث الأحقاد ، يبغض الحرب والقتال فــلا يركبها الا مضطراً نرى ذلك واضحاً في موقفه حــين اختلف قومه بنو جعفر وبنو أبي بكر ، فهـــو

---

١ – الديوان ص ٢٩١ .

٢ – الديوان ص ٤٦ – ٤٧ . المال التلاد : القديم . اقترى : أقرى الضيف .

٣ – الديوان ص ٣٢٧ . ألبس اقواماً : احتملهم . الشنآن : البغضة .

يدعوهم الى الوفاق وايثار السلم. ويذكرهم بالمعروف الذي لا يضيع بين الذاكرين للخير العارفين بالحقوق [1] :

فأبلغْ بني بَكْرٍ إذا ما لقيتَها ... على خير ما يُلقَى به من تزَغَّما
أبونا أبوكم والأواصِرُ بيننـا ... قريبٌ ولم نأمُرْ مَنيعاً ليأثَما
فان تقبلوا المعروفَ نصبِرْ لحقِّكم ... ولن يَعْدَمَ المعروفُ خُفّاً ومَنْسِما

وعلى حين يدعو الى المعروف ويجنح الى الموادعة لا يستسلم للضعف ولا يرتضي الذل ، فهو يقدم الوفاق على الحرب ، والسلم على القتال ، فان أجدى فيها والا (فما بالموت ضر لأهله) وهذا شأنه مع خصومه يدعوهم الى الخير فان أخذوا به فهو مبتغاه ومطلبه ، وان لم يكن من الخصومة بد فهو مضطر الى ركوبها يقول [2] :

فان يُسْهِلُوا فالسَّهْلُ حظي وطُرْقَتي ... وان يُحزنوا أركبْ بهم كلَّ مركبِ

ومن سجايا لبيد أنه عزيز النفس أبي الطبع ، لا يرتضي الضيم أو يسكت عليه ، فهو كما يقول [3] :

ترَّاكُ أمكنةٍ إذا لم أرضَها ... أو يعتلِقْ بعضَ النفوسِ حِمامُها

---

١ – الديوان ص ٢٨٥ – ٢٨٦ . تزغم : تغضب . منيع : ابن عروة قاتل مرة بن طريف . المنسم : خف البعير . والمنسم : الطريق والوجهة ، وهنا جاء مثلاً أي لن يعدم المعروف من يسعى فيه ويسلكه .

٢ – الديوان ص ٢٠ . طرقتي : حالي . يحزنوا : يركبوا الحزن أي يتصعبوا .

٣ – الديوان ص ٣١٣ .

وهذا سبيله مع أصدقائه أيضاً ، فهو يودهم ويؤثرهم على نفسه ، ولكنه اذا أحس منهم جفوة أو توقع اساءة ، انصرف عنهم نجاة بكرامته [1] :

أجازي وأُعطي ذا الدّلالِ بحكمةٍ
إذا كان أهــلاً للكرامةِ واصِلا

وان آتِه اصرفْ إذا خِفْتُ نَبْوَةً
وأحبسْ قَلُوصَ الشُّحِّ إن كان باخِلا

وأوضح هذا الرأي في بيت آخر فقال [2] :

واحبُ المجامِلَ بالجزيل وصَرْمُهُ   باقٍ اذا ضَلَعَتْ وزاغَ قِوامُها

وهو يختار لنفسه من الناس من كان خــيراً صالحاً (فالمرء يصلحه الجليس الصالح) [3] . ولبيد وفيّ لأصدقائه وأصحابه ، حريص على مودتهم ، بعيد عن الغدر والخيانة ، وتلك خلة أوصى ابنتيه — حين دنت منيته — أن تنوحا عليه وتذكراه بها [4] :

وقولا هو المرءُ الذي لا خليله   أضاعَ ولا خانَ الصديقَ ولا غَدَرْ

---

١ — المصدر السابق ص ٢٤٨ .

٢ — المصدر السابق ص ٣٠٣ . أحب : أعط . المجامل : الذي يجامل بظاهر المــودة . صرمه : قطعه .

٣ — المصدر السابق ص ٣٤٩ .

٤ — المصدر السابق ص ٢١٤ .

وهذا الوفاء وحسن المعاشرة تمثل في رعايته لجاره ، فقد مرّ بنا أن لبيداً خالف عمه أبا براء لجار له أساء اليه عمه [1] ، وكان مما عاتب به عمه ان قال :

وإنَّ هوانَ الجارِ للجارِ مؤلمٌ ۝ وفاقِرَةٌ تأوِي إليها الفَواقِرُ

ومنزلة الجار عنده ، كبيرة مكرمة ، فهو يدفع عنه الضيم ويضفي عليه من رعايته وحمايته وكرمه ، يقول مفتخراً بذلك [2] :

ومولَى قـد دفعتُ الضَّيْمَ عنهُ ۝ وقد أمسَى بمـنزلةِ المُضيمِ

هذه الخصال الحميدة الرفيعة كان لها أثر واضح في هجائه ، فيلاحظ ان هجاءه قليل وهذا القليل يخلو من الفحش والبذاءة والقسوة ، اذا استثنينا أرجوزته في مجلس النعمان التي قالها وهو شاب متحمس وفي سورة غضب .

هذا جانب السماحة واللين في خلق لبيد ، على ان هذا لا يعني الضعف بأي حال فقد كان لبيد بعيد الهمة ماضي العزيمة قوياً صابراً ، محتملاً الرزايا والخطوب مغالباً نزوات نفسه وميلها الى الراحة والقنوط ، يقول في ذلك [3] :

واذا رمتَ رحيـلاً فارتَحِلْ ۝ واعصِ ما يأمر توصيمُ الكَسَلْ

---

١ – المصدر السابق ص ٢١٥ . والبيت في ص ٢٢٠ . الفاقرة : الداهية التي تكسر فقار الظهر . تأوي اليها الفواقر : تنضم اليها كبرى الدواهي .

٢ – الديوان ص ١٠١ . المولى : ابن العم . المضيم : المركوب بالظلم .

٣ – المصدر السابق ص ١٧٩ – ١٨٠ . التوصيم : الفتور والتراخي . والوصم : العيب والعار . ان صدق النفس يزري بالأمل : مثل يضرب في الحث على الجسارة أي حدثها بالظفر وبلوغ الأمل اذا هممت بأمر لتنشطها للاقدام ولا تنازعها بالخيبة فتثبطها .





وأكذبِ النفسَ إذا حدَّثتَها	إنَّ صِدْقَ النفوسِ يُزْرِي بالأَمَلْ

ويبيّن مضاء عزيمته وبعد همته في قوله [1] :

ما يمنعُ الليلُ منّي ما هَمَمْتُ به	ولا أُحارُ إذا ما اعتادَني السَّفَرُ

إني أَقاسي خُطوباً ما يقوم لها	إلا الكرامُ على أمثالها الصُّبُرُ

وهذا الذي مرّ بنا من خصال لبيد، لا يعني انه كان لا يجاري أخلاق عصره ويشاركهم فيما تعارفوا عليه من مثل في الرجولة والفتوة ، فعندهم ان الخمر من خصال الكرام الأشراف ، لا يعرض عنها الا البخيل اللئيم . ولذلك فهو يفخر بحضور مجالسها ويبذل في سبيلها نفيس أمواله، فيشرب ويسقي ندمانه ويستمع الى جارية تعزف له وتغنيه ، يصف كل ذلك لنوار فيقول :

بل أنتِ لا تدرينَ كم من ليلةٍ	طَلْقٍ لذيذٍ لهوُهـــا ونِدامُها

قد بِتُّ سامِرَها وغايةَ تاجرٍ	وافيت إذ رُفِعَتْ وعَزَّ مُدامُها

أَغلي السِّباء بكُلِّ أدكنَ عاتقٍ	أو جَوْنَةٍ قُدِحَتْ وفُضَّ خِتامُها

وصَبُوحِ صافيةٍ وجذبِ كرينَةٍ	بمـــؤتَّرٍ تـــأتالُهُ إبهـــامُها

الا ان الملاحظ ان وصف الخمر في شعر لبيد قليل ، وأكثر ما جاء للخمر من ذكر في شعره انما يكون في سياق وصف مجالس غيره ، كمجالس النعمان أو أربد ، فانه يكرم أضيافه خمراً وغناء ، أما الخمر عند لبيد فقليـــل ذكرها .

---

١ – المصدر السابق ص ٦٢ – ٦٣ . يريد اذا همّ بأمر أمضاه لا يعوقه شيء دونه .

وأكبر الظن انه كان يصفها في شعره كتقليد سار عليه الشعراء، من غير إلحاح أو إسراف.

ولعل إقباله على الميسر كان أكثر من إقبـــاله على الخمر، لأن لعب الميسر ضرب من الكرم وبخاصة اذا قلّ الزاد وشاع القحط واشتد البرد ونزل الجمد، وهو يفخر – في غير موضع من شعره – باجالته القداح في مثل هذه الايام، يقول [1]:

ويومِ هـــوادي أَمره لشَمالِه يُهتِّكُ أَخطالَ الطِّرافِ المُطَنَّبِ

يُذبحُ المخاضَ البُرْكَ والشمسُ حيّةٌ إذا ذُكّيتْ نِيرانُها لم تَلَهَّبِ

ذَعَرْتُ قِلاصَ الثلجِ تحتَ ظِلالِه بمثنى للأَيادي وللمنيحِ المُعقَّبِ

وهو انما يدخل الميسر رغبة منه في افاضة الخير على الناس واطعام الضيف والجار الجنيب [2]:

وجزورِ أيسارٍ دعوتُ لحَتْفِها بمغـــالِقٍ متشابهٍ أجسامُها

---

١ – الديوان ص ١٦ – ١٧ . أخطال : حبال . الطراف : البيت من ادم . المطنب : الشديد الحبال . المخاض : الحوامل . والشمس حية : أي بيضاء لم تغب . القلاص : الفتاه من الابل . المنيح : القدح لا حظ له . المعقب : المشدود بالعقب .

٢ – الديوان ص ٣١٨ . الجزور : الناقة أو الجمل . الأيسار : المضاربون بالقداح . المغالق: القداح لانـــه يغلق بها الرهن . ادعو بهن : أي بالمغالق . لعاقر أو مطفل : ناقة عامر سمينة او مطفل غالية . اللحام : اللحم . الجار الجنيب : الغريب . تبالة : واد مخصب باليمن . الاهضام : ج هضم ، بطون الاودية ذات النخيل والفواكه .

أدعو بِهِنَّ لعاقرٍ أو مطفلٍ   بُذِلَتْ لجيرانِ الجميعِ لِحامُها
فالضيفُ والجارُ الجنيبُ كأنَّما   هَبَطا تَبالَةَ مُخْصِبـــا أهضامُها

وعرف لبيـــد أنه صاحب فخر ، يفخر بقومه ويمدحهم ويعتز بهم ويذكر فضائلهم على الناس ، ويفخر بنفسه بطلاً شجاعاً وكريماً فياض الكرم ووفياً كثير الوفاء وذا عزيمة ماضية تركب الأخطار ، ولكن كل ذلك الفخر معتدل مقبول ليس فيه كذب او غلو أو مجاوزة للحق والقصد .

وقد كان للعمر المديد الذي عاشه لبيد في الجاهلية ، أن أكسبه خــبرة وتجربة وتوقراً ، جعلته – هذه الخبرة – يبرأ من كثير من عـــادات الجاهلية وحميتها ومساوئها ، فعاش وادعاً مسالماً يحب الاستقامة والخير داعياً اليهما ، بعيداً عن التهور والشطـــط مؤثراً الاعتدال . وهذه خصال عزيزة في ذلك العصر .

٢ – في الاسلام :

واذا رحنا بعد هذا نتلمس أخلاق لبيد ومعالم شخصيته في الاسلام نجـــد ان الاسلام قد هذب نفسه وحسن سجاياه الى ما كان له في الجاهلية من خلق كريم يوافق خلق الاسلام ، فقد غدا لبيد صافي النفس حـــلو الشمائل كريم السجايا ، وفياً براً محسناً ، قليل الفخر قليل الكلام ، لا يفخر الا ان يثار ويساء اليه ، فاذا رد على متحامل أو حاسد ، فسرعان ما يعود الى نفسه وإيمانه ويستغفر الله ثم يستغفر الله ولذلـــك فقد قيل : ما عرف عن لبيد فخر في الاسلام غير مرة واحدة ، واذا نظرنا في هذا الفخر نجد لبيداً مقتصداً فيه غير مسرف فهو معاتب وناصح ، ثم يستغفر الله على ما بدر منه [١] .

---

١ – الاغاني ١٥/٣٦٨ .

وقد ترك لبيد كل ما من شأنه أن يعارض الاسلام من عادات الجاهلية ، ترك الخمر وذكرها والميسر ومجالسه ، والفخر والحمية ، لأن الإسلام ينهي عن كل ذلك ، ولكنه تمسك بسماحته وكرمه ، وبما كان قد نذر في الجاهلية ان يطعم ما هبت الصبا ، لأن الاسلام يحث على الكرم ويحب الكرام ويدعو الى البذل والانفاق في سبيل الله ، وكان لبيد كذلك ينحر للناس ويطعمهم ، كما كان يطعم في الجاهلية حتى ليروى انه ما كان يمر به يوم الا أراق فيه دما [1] . وقد اتخذ كرمه في الاسلام طابعاً جديداً ، فبعد أن كان منصرفاً الى الاضياف صار انفاقاً في سبيل الله ، وفي بيوت الله ، للفقراء والمساكين .

وكانت له في الاسلام جفنتان يملأهما بالطعام كل يوم ويخرج بهما الى المسجد ، وواظب على هذه الحال حتى أيامه الأخيرة ، فقد كان حريصاً على أن يعلم ابن أخيه عند الموت كيف يصنع الجفنتين ويطعم مَن في المسجد [2] .

وكل الاخبار على ان لبيداً زهد وتنسك حين أسلم ، وانصرف الى القرآن يحفظه ويتدارسه ويتلوه وقد كتب لنفسه مصحفاً [3] ، وعرف بهذه الصفات حتى عده صاحب الاغاني من القرّاء فقال في صفته : « من أشراف الشعراء المجيدين الفرسان القرّاء المعمرين » [4] . ولعل أبا الفرج قد استنتج هذه الصفة مما عرف عن لبيد من انصراف الى القرآن وما روى عن هجره الشعر لاستغنائه عنه بالقرآن الكريم . ولكنني لا أعرف ان لبيداً بين القراء المعروفين ، فلم تذكره كتب طبقات القراء ، ولم أجد هذه الصفة في الكتب التي تقدمت على

---

١ – لباب الآداب ، اسامة بن منقذ ص ٩٣ .

٢ – الأغاني ١٥/٣٧٨ .

٣ – جمهرة اشعار العرب ص ٣١ .

٤ – الأغاني ١٥/٣٦١ ط الدار .



كتاب أبي الفرج ، ككتاب السيرة أو طبقات ابن سعد ، ولم أجدها في الكتب التي تأخرت عنه ولا في الكتب التي اعتنت بتراجم القراء والصحابة والمفسرين.
وأمامنا لتفسير صفة القراءة عند لبيد عدة فروض :

أولها : ان هذه الصفة لا يقصد بها المعنى الاصطلاحي للقراء المعروفين بقراءاتهم المتواترة ، كأصحاب القراءات السبع أو القراءات العشر وغيرها [1] ، وانما أراد حفظ القرآن وتلاوته تعبداً ، يقرأه لنفسه كما يقرأه المسلم الصالح .

والفرض الثاني : ان القراء هنا جمع قار من قراية الضيف ، لا جمع قارىء من قرأ ، لأن لبيداً قد اشتهر بالقرى والضيافة [2] ، وهو وأبوه من مطاعيم الريح الذين ضرب بهم المثل : (أقرى من مطاعيم الريح)[3] ، وهذا فرض له وجاهته، ولعلي أميل الى هذين الفرضين معاً .

أما الفرض الثالث : فيلمح من ارسال القراء الاشراف الى لبيد وهو بالكوفة يسألونه عن أي الشعراء هو أشعر ، ففي رواية عن : « عبد الملك بن عمير : أخبرني من أرسله القراء الاشراف — قال الهيثم فقلت لابن عياش : من القراء الاشراف ، قال : سليمان بن صرد الخزاعي ، والمسيب بن نجبة الفزاري، وخالد ابن عرفطة الزهري، ومسروق بن الأجدع الهمداني وهانىء بن عروة المرادي — الى لبيد بن ربيعة وهو في المسجد وفي يده محجن فقلت : يا أبا عقيل ، اخوانك يقرونك السلام ويقولون أي العرب أشعر ؟... الرواية » [4] . فلعل أبا الفرج قد استنتج ان لبيداً حين سأله اخوانه القراء كان واحداً منهم .

---

١ — انظر في ذلك مثلاً : تقريب النفع في القراءات السبع ، علي محمد الضباع . وتقريب النشر في القراءات العشر ، ابن الجزري . والبدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة ، عبد الفتاح الكافي. واتحاف فضلاء البشر في القراءات الاربعة عشر، احمد بن محمد الشافعي البناء. وغاية النهاية في طبقات القراء ، ابن الجزري ، وغيرها .

٢ — انظر حسن الصحابة في شرح أشعار الصحابة ، علي فهمي الموستري ص ٣٥٠ .

٣ — مجمع الامثال ١٢٧/٢ — ١٢٨ .

٤ — الأغاني ٣٧٢/١٥ .



وعلى كل حال ففي الخبر ما يدل على معاصرة لبيد لجمهرة من ثقات القراء في الكوفة .

ومهما يكن من شيء فليس لدينا دليل قوي يثبت ان لبيداً واحداً من القراء وان كان قد انصرف الى القرآن يتلو آياته ، ويتـــدبر معانيه وينعم بنوره وهدايته ، فلبيد من الصالحين الأتقياء ما في ذلك شك ، ولم يكن صلاح لبيد هذا وانصرافه الى البر والتقى غريباً عليه ، فقد كان مهيّأ للايمان ، متجهاً نحو ذكر الله وتوحيده ، مؤمناً بالبعث والحساب ، منذ كان في جاهليته . كان لبيد على بصيرة وهدى وتطلع دائم نحو السماء ، نحو العدل الإلهي . ولا ندري على التحقيق هل كان على معرفة بمذهب الاحناف ووجهتهم في ذلك الحين ، وما اذا كان قد سمع بدعوة داعيهم الذي يقول : « اعلموا والله ما قومكم على شيء ، لقد أخطأوا دين أبيهم ابراهيم ، ما حجر نطيف به لا يسمع ولا يبصر ، ولا يضر ولا ينفع . يا قوم التمسوا لأنفسكم ديناً فانكم والله ما أنتم على شيء »[1] .

هل سمع لبيد بهذا النداء ، وذهب يلتمس دين أبيه ابراهيم ، ان القطع بانتماء لبيد الى الاحناف أمر غـــير ميسور[2] ، والذي بأيدينا من أخبار الأحناف ورجالهم ، لا يعين على الجزم بذلك ، فلم يذكر لبيد فيهم ، ولكن الدلائـــل كلها تشير الى ان لبيداً كان في طريقهم وعلى سنتهم ، ويلتقي وإياهم في إيمانه بالله الواحد الخالق القادر المدبر الذي بيده الأمر واليه المصير ، واذا نظرنا في شعره الذي قاله في فترة قريبة من ظهور الاسلام ، أو قبل اسلامه بقليل ، نجد

---

١ — مقالات الاسلاميين ، الاشعري ص ١٧٨ .

٢ — انظر في هذا رأي بروكلمان حيث يستبعد ان يكون من الاحناف (دائرة المعارف الاسلامية) مادة (لبيد) الاصل الانكليزي م ٣ ص ١ — ٢ . أما فون كريمر فيحاول أن يجعله تحت تأثير المسيحية ويعده كذلك من الاحناف .

Von Kremer: Ueber die Cedichte des Labyd P. 17 - 18.



التوحيد الواضح الصريح الذي لا يشوبه شيء من شرك أو وثنية ، فهو يرى ان مرجع الناس جميعاً الى الله ، وان الله واحد هو الحي الباقي ، وكل ما سواه باطل وضلال [1] :

أرَى النّاسَ لا يدرونَ ما قَدْرُ أمرِهم
بَلَى كلُّ ذِي لُبٍّ إلى اللهِ واسِلُ
ألا كلُّ شيءٍ ما خَلا اللهَ باطلُ
وكل نعيمٍ لا مَحالَةَ زائِلُ

وهو الى ايمانه بوحدانية الله ، يؤمن بالآخرة والبعث والحساب ، يوم يمثل الخلق بين يدي الله ، فتكشف أعمالهم ، ويحصل ما في الصدور :

وكلُّ امرىءٍ يوماً سَيَعْلَمُ سعيَهُ   اذا كُشِّفَتْ عندَ الإلهِ المحاصِلُ

ولذلك فخير ما يقدمه الانسان في حياته هو الحمد والتقى ، اذ لا ينفع الانسان عند الموت الا ما قدم من الصالحات .

وقد رويت للبيد أبيات فيها ايمان بالقدر ، فهو يؤمن ان الخير والشر وكل ما يصيب الانسان مقدر مكتوب عليه ، ولا راد لما قدر الله . وهذه النظرة معروفة عند الجاهليين وظاهرة في شعرهم ولم ينفرد بها لبيد ، فهذا زهير بن أبي سلمى يقول [2] :

---

١ – الديوان ص ٢٥٦ . الواسل : ذو الوسيلة ، الراغب والطالب . المحاصل : الحسنات والسيئات .

٢ – ديوان زهير ص ٣٠ .

وَمَن هابَ أَسبابَ المَنايا يَنَلْنَهُ   وَلَو نالَ أَسبابَ السَماءِ بِسُلَّمِ

وكذلك يقول أفنون التغلبي[1] :

لَعَمْرُكَ مايدري الفتى كيف يتَّقِي   اذا هو لم يجعلْ له اللهُ واقِيا

على ان هذه الافكار ان هي الا خواطر ترد الى ذهن الشاعر من نظرته الى الحياة والموت والزوال ، وهي تأتي في هذا السياق غالباً . ولم تكن هذه الفكرة مبنية على رأي فلسفي منظم وقد لاحظ القدماء هذا المنحى عند لبيد ، فقال الجاحظ: من العجائب ان الأعشى كان في الجاهلية يعتقد مذهب المعتزلة فيقول :

استأثر اللهُ بالوفاء وبالعَدْ   ل وَوَلَّى الملامَةَ الرَجُلَا

ولبيد يذهب مذهب أهل السنة والجماعة فيقول :

إنَّ تقوَى رَبِّنا خيرُ نَفَلْ   وبإذنِ اللهِ رَيْثِي وَعَجَلْ
مَنْ هداهُ سُبُلَ الخيرِ اهتدى   ناعِمَ البالِ ومن شاءَ أَضَلّ[2]

وعلى كثرة ما اعتنت المصادر بهذه الرواية ، فانها أخطأت الشاهد الجاهلي ، فشعر لبيد هذا اسلامي فهو من قصيدة في رثاء اربد ، وفي الرواية طعن آخر فبيت الأعشى من قصيدة نبه ابن قتيبة على انها محمولة عليه[3] وقد حمل على الأعشى

---

١ ــ تأويل مشكل القرآن ، ابن قتيبة ص ٩٧ .

٢ ــ خاص الخاص ، الثعالبي ص ٧٩ ، وانظر الأغاني ١١٢/٩ ، وأمالي المرتضى ٢٦/١ ، وتأويل مشكل القرآن ص ٩٨ ، وسرح العيون ص ٤١٧ ، والعقد الفريد ٣٧٨/٢ ، والبيتان في الديوان ص ١٧٤ ، وبيت الاعشى في ديوانه ص ٢٣٣ ط محمد حسين .

٣ ــ الشعر والشعراء ص ١٠ .

شعر كثير يمثل تدينه أو نصرانيته ، لفقه يحيى بن متى راوية الأعشى « وكان نصرانياً عبادياً وكان معمراً »[1] لاثبات نصرانيته ، وما كان الأعشى غير وثني على دين الجاهلية .

وعلى كل حال فما كان لبيد ليدرك العصر الذي نشأت فيه وشاعت فكرة الجبر والاختيار ليقول في ذلك وفق مفاهيم أهل الكلام التي عرفت عند المعتزلة والمرجئة وغيرهم ، وانما أدرك ذلك الجيل الذي خلف لبيداً من الشعراء ، كذي الرمة ورؤبة ، فقد روي أن الأول كان قدرياً ، والثاني كان جبرياً ، ورويت عنهما رواية تمثل رأي كل منهما[2] .

وفي فترة سبقت الاسلام بقليل يغلب على لبيد وشعره ميل ديني حتى انه ليستبدل المطالع الغزلية أو الطللية بمطالع دينية في حمد الله وتسبيحه وشكر نعمته ، فمن ذلك قوله[3] :

قُضِيَ الأمورُ وأُنجِزَ الموعودُ ... والله ربي ماجدٌ محمودُ
وله الفواضِلُ والنوافلُ والعُلَا ... وله أثيثُ الخيرِ والمعدودُ

وفي مطلع آخر يبدأ قصيدته بالحمد والثناء والتقى[4] :

---

١ – الأغاني ٩/١١٢ .

٢ – أمالي المرتضى ١/١٤ .

٣ – الديوان ص ٣٤ . النوافل : العطايا . أثيث الخير : كثيرة . وانظر مطالع القصائد ٧ و ٢٦ و ٣٦ و ٣٩ و ٥٨ .

٤ – الديوان ص ٣٨ . يقتال : يقول ويطلب .

حمدتُ اللهَ واللهُ الحميدُ ولله المؤئــل والعَديدُ
فإنَّ اللهَ نافِــلَةٌ تُقَاهُ ولا يقتالها الا سعيدُ

كل هذا شعر جاهلي فيه ايمان لبيد وتطلعه الى الهداية ودين الحق .

واذا أضفنا الى هذا أمرين ، الأول : ان شعر لبيد يخلو من ذكر الأوثان والاصنام ، أو القسم بها والتقرب اليها ، وتخلو أخباره ، كذلك من أي نزعة نحو الوثنية أو تقديسها . والثاني ان لبيداً من قوم كانوا حمساً متشددين في دينهم يعظمون البيت ويذكرون الله ، وحمس بني عامر متأت من صهرهم بقريش حيث تزوج ربيعة بن عامر بن صعصعة ، مجد إبنة تيم بن غالب . ولبيد يعتز ويفخر بها وبقومه من ذريتها ، وذلك في قوله [1] :

سَقى قَومي بني مَجْدٍ وأسقَى نُمَيْراً والقبائلَ من هِلَالِ

اذا أضفنا هذا الى ما تقدم نجد ان نفس لبيد كانت مهيأة لتقبل الاسلام ، وفي اسلام لبيد ما يدل على صفاء نفسه واستعدادها للهداية ، فحين زار المدينة وسمع تلاوة القرآن الكريم ، وقع في قلبه ، ومالت اليه نفسه فأسلم وكتب سورة الرحمن ، ورجع الى قومه يدعوهم الى دين الله ، فنال لأجل ذلك سخط الساخطين وهجاءهم [2] .

ولم يكن انتقال لبيد من عهد الجاهلية الى الاسلام ليحدث تبديلاً كبيراً وانقلاباً في نفسه ، ولم يكن معرضاً لصراع في نفسه بين القديم البالي والجديد

---

١ – الديوان ص ٩٣ .

٢ – الأغاني ١٥/١٣٨ ط ساسي .

المشرق ، بل لقي الاسلام في نفس لبيد اصداء ورضى واطمئناناً . وتمسك لبيد بالعروة الوثقى ولزم العبادة وأعمال الخير والـــبر والتقى ، وصار يحمد الله ويستغفره في كل حين ويتضرع اليه أن يرحمه ويعفو عنه ، فالى الله المرجع والمآب ، وبين يديه الحساب وكل شيء عند الله يومئذ في كتاب ، وعند الله علم ما تخفي الصدور [1] :

انما يحفظ التقى الأبرارُ ... والى اللهِ يستقرُّ القرارُ

والى اللهِ تُرجَعُونَ وعند اللهِ وِردُ الأمور والإصدارُ

كلُّ شيءٍ أحصَى كتاباً وعِلماً ... ولديـــهِ تجلَّتِ الأسرارُ

ويحرص لبيد على اتباع ما أمر الدين ، وينبذ ما دون ذلك من عادات الجاهلية ، فحين توافيه المنية ، يوصي ألا تندب عليه نادبة ولا تنوح نائحة ولا يلطم لأجله خد ، أو يشق جيب ، أو يقص شعر (ولا تخمشا وجهاً ولا تحلقا شعر) [2] ولا شك أنه في هذا يتبع آداب الاسلام ، وينكر خلـــق الجاهلية ويستجيب لقول رسول الله ﷺ : « ليس منا من لطم الخدود وشق الجيوب ودعا بدعوة الجاهلية » [3] .

وبعد فهذه سيرة لبيد في الاسلام ، وهذه أخلاقه ، وهذا تدينه وورعه وبره وتقاه . وعلى الرغم من قلة أخباره في الاسلام ، فان الناظر فيما بأيدينا منها ، يجدها تصفه بخير ما يرجى للرجل المسلم الصالح أن يوصف ، فهو كريم النفس ، رفيع الخلق لطيف المعشر ، صافي الطبع ، حلو الشمائل ، فرحم الله لبيداً ، فقد كان فاضلاً كريماً حليماً في الجاهلية ، براً صالحاً تقياً في الاسلام .

---

١ – الديوان ص ٤١ .

٢ – الديوان ص ٢٣٣ .

٣ – صحيح البخاري ٢٢٦/١ ط ليدن .



الباب الثاني

شِعْرُ لَبِيْد

الفصل الأول

ديوانه وتوثيق شعره

١

ديوان لبيد :

لقد حظي شعر لبيد بعناية الرواة منذ القديم، لما فيه من ثروة لغوية كبيرة، فاهتم لذلك به رواة الكوفة ، كما اهتم به رواة البصرة وقد عمله من القدماء : أبو عمرو الشيباني (توفي ٢٠٦ هـ) وهو كوفي ، والأصمعي (توفي ٢١٦ هـ) وهو بصري [١] . وهذان من أعلام الرواة المتقدمين كما عمله رواة آخرون من تلامذة المدرستين الكوفية والبصرية مثل : أبي الحسن علي بن عبدالله بن سنان الطوسي (المتوفي سنة ٢٥٠ هـ) الذي أخذ عن مشايخ الكوفيين والبصريين [٢] ، وكانت أكثر مجالسته وروايته عن ابن الاعرابي [٣] ، فهو بهذا يرجح كفة الكوفيين . وكذلك عمله يعقوب بن السكيت (توفي ٢٤٦ هـ) [٤] ، الذي أخذ

---

١ – الفهرست صفحة ١٥٨ ط فلوجل .

٢ – الفهرست صفحة ١٠٦ ونزهة الالباء صفحة ١٢٥ – ١٣٦ .

٣ – المصدر السابق ، وابن الاعرابي هو ابو عبد الله محمد بن زياد الاعرابي المتوفى سنة ٢٣١ هـ .

٤ – الفهرست صفحة ١٥٨ .



عن أبي عمرو الشيباني ، وابن الاعرابي الكوفيين . وعمله من الرواة الجماعين أبو سعيد الحسن بن الحسين السكّري [1] ، (المتوفي ٢٧٥ ﻫ) ، المعروف بجمعه بين رواية أهل البصرة ورواية أهل الكوفة ، فقد أخذ عن السجستاني ، والرياشي ، وهما بصريان ، وأخذ عن محمد بن حبيب وابن السكيت وهما كوفيان وكان السكري مشهوراً بالجمع والاستيعاب وكثرة الرواية [2] .

وروى ياقوت ان محمد بن حبيب (المتوفي ٢٤٥ ﻫ) صنع كتاب شعر لبيد العامري [3] . وجاء في معجم البكري [4] ذكر هذا الكتاب في قوله : (وقال محمد بن حبيب في شرحه لشعر لبيد: ساق جبل لبني أسد بين النباج والنقرة)[5] .

والظاهر ان ديوان لبيد كان – في القديم – شائعاً منتشراً ، وكان معنياً به ، يقول الزبيدي صاحب التاج [6] : ان أبا سهل الهروي أطلع على ديوان لبيد ، وكانت منه نسخة بخط عمر بن عبد العزيز الهمداني ، مصححة مقروءة على الأئمة .

وان أبا علي القالي حين رحل الى الأندلس صحب معه – مع ما صحب – ديوان لبيد [7] وقد بقي الديوان الى عصر متأخر ، فقد نقل عن شرح الطوسي

---

١ – المصدر السابق والصفحة .

٢ – ياقوت ، ارشاد الأريب ٦٢/٣ .

٣ – ياقوت ، ارشاد الأريب ٤٧٦/٦ .

٤ – معجم ما استعجم ، البكري صفحة ١٣٢١ ط السقا .

٥ – انظر مادة (النقرة) في المصدر السابق .

٦ – تاج العروس مادة (قعنل) .

٧ – الاشبيلي ، فهرست ما رواه عن شيوخه صفحة ٣٩٧ .

عبد القادر البغدادي (توفي ١٠٩٣ هـ) في الخزانة ، وأشار لذلك كثيراً [١] ، ولكن لم يصل الينا من كل تلك الشروح والروايات غير جزء من شرح الطوسي . أما بقية ما لدينا من مخطوطات الديوان فكلها نسخ حديثة مجهولة الأصل الذي نقلت عنه ، وأحاول هنا أن ألقي نظرة فاحصة على النسخ المخطوطة والمطبوعة من شعر لبيد :

أ – النسخ المخطوطة :

١ – شرح الطوسي :

وهو الجـــزء الذي طبعه الخـــالدي ويحتوي على عشرين قصيدة وقطعة ، ومن هذا الشرح نسخة في دار الكتب المصرية ، محفوظة برقم ٩٧٧ شعر تيمور ، وهذه النسخة مثل سابقتها نسخت في القاهرة في الربع الأخير من القرن السادس فقد جاء في آخرها : « وافق الفراغ من نقله في العشرة الاواسط من شهر شوال سنة تسع وثمانين وخمسمائة بالقاهرة المعزية » ، ونسخة تيمور حديثة الخط ولم تعرف الرواية التي نقلت عنها . وشرح الطوسي هذا أهم ما تبقى من شعر لبيد . ونرجىء الكلام عنه الى موضعه في طبعة الخالدي .

٢ – نسخة الشنقيطي :

وفي دار الكتب المصرية مجموعة تحوي عدة دواوين خطية محفوظة برقم ٦ ش كتبها محمد محمود بن التلاميد التركزي الشنقيطي ، وقد جاء في أول هذه المجموعة ديوان حسان بن ثابت وصدرت بذكر أسماء الدواوين واسم مالكها : « ملك هذا المجموع الفائق الرائق المشتمل على جملة وافرة من دواوين العرب

---

١ – انظر في ديوان لبيد على سبيل المثال القصائد رقم ٢٦ ، ٢٩ ، ٣٦ .



العرباء أولها هذا[1] وواحد وثلاثون من دواوين شعراء هذيل ، وديوان لبيد ، وديوان الشماخ وديوان الأعشى ، وديوان ذي الرمة ، وديوان ابن الدمينة ، وديوان سراقة البارقي ، محمد محمود بن التلاميد التركزي الشنقيطي المدني ثم المكي » . وهو بخط مغربي حديث كتبه « واقفه محمد محمود سنة ثلاث وتسعين ومايتين وألف » . وبالنسبة لديوان لبيد لم يذكر الرواية ولا النسخة التي نقل عنها ، ويشغل ديوان لبيد خمسا وعشرين ورقة (من ١٢٩ — ١٥٤) تحوي ثمان وأربعين قصيدة وقطعة ، مرتبة قوافيها حسب الترتيب الهجائي غير ان حرف الدال وقع في آخرها وأول القصائد تبدأ بقوله :

أرى النفسَ لجَّت في رَجاء مكذّبِ　　　وقد جرَّبتْ لو تقتدي بالمُجَرّبِ

وتنتهي بالقطعة التي أولها :

حَمِدْتُ اللهَ واللهُ الحميدُ　　　ولِلّهِ المؤثّـــلُ والعديدُ

وبعدها قوله : « تم ديوان لبيد رضي الله عنه » .

وهذه النسخة حديثة وغير معتمدة وخالية من الشروح، الا بعض التعليقات في الهوامش وضعها ناسخها ابن التلاميد وهي قليلة ، وأكثر القصائد فيها شكل جيد ، وقد أعيد على هذه النسخة بخط مغربي أيضاً أحدث من سابقه ، صحح فيه بعض المفردات المطموسة أو المصحفة ، وأضاف أبياتاً ناقصة ، ويبدو أن ناسخها قد راجع الشعر على بعض الكتب كما جاء في البيت :

وكلُ أُناسٍ سوفَ تدخلُ بينَهم　　　دُوَيهيَّةٌ تَصْفَرُّ منها الأَناملُ

---

١ — يعني ديوان حسان .

قوله : « وفي المحكم ، أنه يروي خويخية بمعجمتين بمعنى دويهية » .

وهذه النسخة هي التي قابل عليها احسان عباس في طبعته ، وهي نسخة كاملة للديوان .

٣ - نسخة مكة المكرمة :

وهي نسخة كاملة للديوان ، موجودة في دار الكتب المصرية برقم ٥٤٧ أدب وتشبه الى حد كبير النسخة ٦ ش ، الا أنها مستقلة ليست ضمن مجموع . وتقع في عشرين ورقة كتبت بخط نسخي جيد ، وقد جاء في أولها :

« هذا ديوان أحد أدباء المتقدمين ، ونبغا [١] الشعراء المتكلمين ، لبيد الشاعر ، غفر الله لكاتبه آمين » وقد بدأت الصفحة الاولى بقصيدة مختارة من مراثيه في أربد هي :

طرب الفؤاد وليته لم يطرب وعناه ذكرى خلة لم تصقب

ثم يبدأ الديوان في الورقة الثانية بعد البسملة بالقصيدة الاولى التي في ٦ ش ومطلعها :

أرى النفسَ لجَّتْ في رَجاءِ مكذَّبِ وقد جرَّبتْ لو تقتدي بالمجرَّبِ

وتجري القصائد على نفس الترتيب الهجائي للقافية في ٦ ش ، وكذلك وقع حرف الدال في الآخر ، فقد جاءت القطعة التي أولها :

---

١ - كذا بالأصل .

حمدتُ اللهَ واللهُ الحميدُ   ولله المؤثَّـــلُ والعديدُ

آخر ما في الديوان . وختمت هذه النسخة بذكر تاريخ النسخ ومكانه ، فقيل : « تم ديوان لبيد الشاعر المجيد غفر الله لكاتبه والمسلمين وكان الفراغ بمكة المشرفة أواخر شهر ذي الحجة سنة ١٢٨٧ من هجرته ﷺ » .

وهذه النسخة حديثة كما يتضح من التاريخ السابق ، وتفتقر الى معرفة النسخة التي نقلت عنها، وقد خلت كسابقتها من الشرح، الا ما وضعه الناسخ من شرح لبعض المفردات في الهوامش الجانبية ، وفيهـــا تصحيح للمطموس من كلماتها ، أو المصحف منها ، والتصحيف فيها كثير .

ويبدو أن نسخة الشنقيطي في المجموع السابق منسوخة عن هذه النسخة فهي أختها ، وقد نسخت هذه في أواخر ذي الحجة سنة ١٢٨٧ هـ ، ونسخة الشنقيطي نسخت في سنة ١٢٩٣ هـ ، وهما متشابهتان في ترتيب القصائد وعددها وكل ما بينهما من فرق هو ، أن هذه مصدرة بقصيدة مختارة من رثاء لبيد في اربد وهذه القصيدة ليست في نسخة الشنقيطي [١] .

هذه أهم النسخ الخطية التي نعرفها وهي – باستثناء شرح الطوسي – حديثة ، ومجهولة الأصل الذي نسخت عنه ، ولا تمثل رواية معتمدة لديوان لبيد ، وهذا ما يجعلها قليلة الأهمية لا يمكن التعويل عليها ، والاطمئنان اليها .

---

١ – هذه القصيدة هي رقم ١٧ ب في طبعة احسان عباس نقلها عن الاغاني ولم يشر الى هذه النسخة . وقد أورد بروكلمان في الملحق من طبعته صفحة ٤٨ منها قطعتين رقم ٦ ، ٧ وهي عنده ثمانية أبيات من اصل اثني عشر بيتاً .

ب – النسخ المطبوعة :

١ – طبعة الخالدي :

وقد نشر الاستاذ يوسف ضياء الدين الخالدي لأول مرة القسم الموجود من شرح الطوسي ، والذي أسماه الجزء الثاني سنة ١٢٩٧ هـ ١٨٨٠ م بمدينة وين – وكان استاذاً بجامعتها – ويحتوي هذا القسم على عشرين قصيدة كما مر في النسخة ٩٧٧ تيمور . وقد بين الخالدي أنه اشترى الجزئين الاول والثاني من ديوان لبيد من دار الخلافة ، وقال : « وعندما وجدت الجزء الاول عديم النفع لا يمكن قراءته أصلاً ، ضربت عنه صفحاً ، واعتمدت على جمع ما يوجـــد في الكتب من اشعاره اتماماً للمرغوب »[١] فهو قد نشر الجزء الثاني كما هو ووعد باتمام الجزء الاول مع ترجمة لبيد ، ولكنه توفي ولم يحقق رغبته . ويبدو ان تجزئة الديوان على هذه الحال من عمل النساخ المتأخرين . وهذا القسم الثاني من رواية الطوسي قد طبعه الخالدي كما هو لم يغير فيه ولم يبدل ودون شرح ، وقال في آخر المطبوعة « هذا ما وجدته من شعر لبيد بن ربيعة العامري من هذا الجزء فطبعته على مثاله »[٢] .

والقصائد العشرون في هذه الطبعة غير مرتبة على الترتيب الهجائي بل تجري قوافيها على هذا النسق :

١ – وشومُ . ٢ – الهمومِ . ٣ – القرارُ . ٤ – الأجَبْ . ٥ – ولد ٦ – المصانعُ . ٧ – محمودُ . ٨ – الغُيَّبِ . ٩ – المجربِ . ١٠ – العديدُ . ١١ – مطيعِ . ١٢ – تذرُ . ١٣ – السوبانِ . ١٤ – مقصرِ . ١٥ – حكيمِ . ١٦ – رسومُ . ١٧ – القُفالِ . ١٨ – الخصامِ . ١٩ – طربا . ٢٠ – الأبوابِ .

---

١ – الديوان ط الخالدي صفحة ١٥١ .

٢ – الديوان صفحة ٤٨ . وقد جاء في صدر الصفحة الاولى قوله : (املاه نظراً وانتخاباً عبد الله بن هشام) ولد ابن هشام سنة ٧٠٨ هـ وتوفي سنة ٧٦١ هـ .



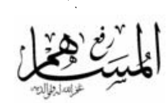
وقد أراد الخالدي بهذا ان ينقل شرح الطوسي نقلاً أميناً ، فلم يغير فيه شيئاً . وهذه القصائد هي أوثق ما وصل من شعر لبيد لأنها بشرح الطوسي والطوسي يروي عن مشايخه وبخاصة عن أبي عبد الله ابن الاعرابي الذي كان يجالسه ويأخذ عنه[1] . والطوسي يسند روايته ويذكر آراء من نقل عنهم ، فقد ذكر في هذا الشرح ابن الأعرابي أكثر من مائة وخمسين مرة، وذكر أبا عمرو الشيباني أكثر من خمسين مرة ، وهما شيخا الطوسي الكوفيان ، وقد جمع الى هذه الرواية رواية البصريين ، فنقل عن الاصمعي في ستين موضعاً كما روى عن أبي عبيدة فذكره في عشرين موضعاً ، وهكذا نجد ان هذا الشعر على درجة كبيرة من التوثيق ولم يقف الطوسي في روايته عند أعـــلام الرواية الكوفية والبصرية ، بل تعدى ذلك بأن صار يروي شعر لبيد عن رجل من بني عامر بن صعصعة قوم لبيد . فأورد روايات عن ابن الاعرابي وهذا يروي عن عامري هو ابن أبي ليلى الجعدي ، او أبو ليلى الجعدي ، وبنو جعدة — بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة — أعمام لبيد ، ولا أدري هل أبو ليلى هذا أو ابنه هو النابغة الجعدي أم غيره ، فقد كان النابغة الجعدي يكنى بأبي ليلى وهو معاصر للبيد وبقي بعده ، وقد كان قوياً في زمن علي بن أبي طالب ووقف بجانبه في حروبه ضد معاوية[2] وان كنت أميل الى أن أبا ليلى أو ابن أبي ليلى هذا ، أحد الرواة الثقاة الذين روى عنهم ابن الاعرابي وهذا مـــا تشعر به الروايات الآتية : جاء في شرح الطوسي بعد البيت :

إِحدى بني جعفرٍ بأَرضهم   لم تُمسِ مني نَوْبا ولا قُرُبا

---

١ – الفهرست صفحة ١٠٦ ونزهة الالباء صفحة ١٢٥ – ١٢٦ .

٢ – كان الجعدي مع علي بن ابي طالب في حرب صفين وكان يسوق دابته وينشد في مديح علي وتفضيله ، الأغاني ٥/٣٠ – ٣١ .



قوله : « قال أبو الحسن [الطوسي] قال أبو عبد الله [ابن الاعرابي] :

اخبرني رجل من بني جعدة : النوب ان يكون بينك وبينه ثلاثة أيام ، والقرب يوم وليلة ، وهذا عندي القول »[1] . وذكره في موضع ثان في قوله :

وقيسُ رهطُ آلِ أَبي أُنَيْمٍ   فإنْ قايستَ فانظر ما تَفِيْدُ

« قال أبو الحسن : وحكى أبو عبد الله عن ابن أبي ليلى الجعدي : وقيّس رهط آل »[2] بتشديد ياء قيس ، جعلها فعلاً نصب رهط آل . وفي قوله :

أطعَتمُ   أمرَه   فتبعتموهُ   ويأتي الغيُّ منقطِعَ العِقالِ

« قال أبو الحسن ، وروى أبو عبد الله عن الجعدي : فبات الغي منقطـع العقال أي لا يحبسه عن الغي شيء فهو سريع فيه »[3] .

ففي كل هذه الروايات يروي الطوسي عن ابن الاعرابي عن الجعدي ، وهو أعرف الناس بلغة قومه بني عامر . ومن كل ذلك يتبين أيضاً ان هـذا الشعر المروي أوثق ما لدينا من شعر لبيد ، فيمكن الاطمئنان اليه والاعتماد عليه ، وعلى ما جاء فيه من شرح ولغة وغريب . وبذلك كان لطبعة الخالدي المبكرة أثر بالغ في حفظ شعر لبيد وتوجيه الانظار اليه ، فعني به المستشرقون بعده .

---

١ - الديوان صفحة ٢٥ ط احسان .

٢ - الديوان صفحة ٤٠ .

٣ - الديوان صفحة ٩٤ .



٢ – طبعة هوبر :

ثم تناول الدكتور انطون هوبر ديوان لبيد فعمل على اتمام ما بدأه الخالدي فنشر قطعة من شعر لبيد[١] على أساس نسخة فينا سنة ١٨٨٧ م بدأها برقم ٢١، وكانت قصائد الخالدي قد انتهت الى قصيدة ٢٠ ، وقد نشر هوبر تسع عشرة قصيدة ومقطوعة مرتبة قوافيها على حروف الهجاء ، تبدأ بحرف الراء حيث القطعة التي أولها :

تمنى ابنتايَ أن يعيشَ أبوهما وهل أنا إلَّا من ربيعةَ أو مُضَرْ

وتنتهي بحرف اللام حيث القصيدة الطويلة التي أولها :

إنَّ تقوى ربنا خيرُ نَفَلْ وبإذنِ اللهِ ريثي وعَجَلْ

فأضاف بذلك الى شعر لبيد مائتين وثلاثة وعشرين بيتاً ، بين هــذه الأبيات قطعتان مما ينسب للبيد فهما لا تصحان له ، القطعة الاولى رقم ٢٢ وهي أربعة أبيات أولها :

المــرء يــدعو للسّلا م وطولُ عَيْشٍ قد يَضُرُّهْ

والثانية الارجوزة رقم ٣٥ وهي ثمانية أشطر والتي أولها :

ربيعُ لا يَسُقْكَ نحوي سائِقُ فتُطْلَب الإذحــالُ والحقائقُ

---

١ – ليدن سنة ١٨٩١ م .

وقد علق هوبر على كل قصيدة ، وقابـــل بين الروايات وثبت الكلمات المصحفة ، أو المروية بروايات أخرى . ثم ترجم هذه القصائد الى الالمانية ترجمة حرفية بيتاً بيتاً [1] وأرفق تعليقات أخرى مختصرة على القصائـــد التي نشرها الخالدي [2] وصدر كل ذلك بترجمة موجزة لحياة لبيد بلغته الالمانية وأصدر هذه الطبعة — كما مر — سنة ١٨٨٧ م وهذه الطبعة لم تشتهر كثيراً لأن الطبعـــة الأخرى التي اعتنى بها بروكلمان وفيها اضافات كثيرة لها ، قد غطت على هذه المطبوعة .

ثم عثر هوبر على نسخة خطية في شتراسبورج فقابل هذه النسخة مع نسخة فينا السابقة فأضاف للديوان اضافات جديدة هي ست عشرة قصيدة وقطعـــة تبدأ برقم ٤٠ — وكان وقف سابقاً عند رقم ٣٩ — حيث القصيدة الطويلة التي أولها .

كُبَيْشَةُ حلَّتْ بعدَ عهدِكَ عاقِلاً وكانت لهُ خَبْلاً على النَّأْيِ خابِلا

وتنتهي برقم ٥٥ حيث القطعة التي أولها [3] :

غَشِيتُ ديارَ الحيِّ بالسَّبُعانِ كما البَدْرُ فالعينانِ تَبْتَدِرانِ

وقد علق على القصائد وترجمها الى الالمانية وكان ينوي طبع الديوان بشكله الأخير ، الا انه توفي — كما توفي الخالدي قبله — دون ان يحقق رغبته . فأكمل بروكلمان بعدئذ عمل هوبر وحققه .

---

١ — الديوان ط هوبر صفحة ١٥ — ٣٠ من القسم الالماني .

٢ — الديوان ط هوبر صفحة ١١ — ١٣ .

٣ — الديوان ط بروكلمان صفحة ١٧ — ٤٧ ، صفحة ٣٢٧ ط احسان عباس .



٣ - طبعة بروكلمان :

ثم تناول الديوان الدكتور كارل بروكلمان فأنجز ما أعده هوبر ، حيث وجد في تركته ديوان لبيد وتعليقات عليه ، مع ترجمة للقصائد ولحياة لبيد ، وكان هوبر قد هيأ ديوان لبيد للطبع بعد أن عثر على نسخة كاملة من ديوان لبيد ، هي مخطوطة شتراسبورج ، وقد وصف بروكلمان في مقدمته [١] هذه النسخة فظهر انها تشبه نسخة مكة السالف ذكرها ، بل هي نسخة منها ، وقد عرفنا له نسخة أخرى في دار الكتب المصرية رقم ٥٤٧ أدب ، وقد قال بروكلمان انها تبدأ بقوله في الورقة الأولى :

« ومن مختار مراثيه في أربد أخيه » ويريد بها القصيدة التي أولها :

طَرِبَ الفؤادُ وليتَهُ لم يطرَبِ   وعناهُ ذِكرى خُلَّةٍ لم تَصْقَبِ

وبعدها في الورقة الثانية يبدأ الديوان بالبسملة ، ثم القصيدة التي أولها :

أرى النفسَ لَجَّتْ في رجاءٍ مُكَذَّبِ
وقد جَرَّبَتْ لو تقتدي بالمُجَرَّبِ

وقد أبقى بروكلمان عمل هوبر كما هو لم يغير في ترتيب القصائد ، لأن هوبر رتبها حسب الترتيب الهجائي للقوافي ، ولم يتعرض بروكلمان ولا هوبر قبله للمعلقة ، مع انها موجودة في النسخة التي اعتمد عليها ، ولعله رأى انها طبعت غير مرة مع المعلقات فاستغنى عن ذكرها .

---

١ — انظر المقدمة الالمانية للديوان صفحة ٣ ط سنة ١٨٩١ حيث يقول ان المخطوطة كتبت في ربيع الاول سنة ١٢٩٤ هـ .



وكان بروكلمان قد أفاد من الجهد الذي بذله الدكتور توربكة [1] حيث بدأ بجمع مادة عن لبيد ولكنه توفي قبل أن يحقق عمله . وعمل توربكة هذا أقدم من عمل هوبر . وقد عمل بروكلمان ذيلاً للديوان ، جمع فيه قطعاً وأبياتاً مفردة استخرجها من الكتب ، ويبلغ هذا الذيل أو الملحق مائة وأربعين بيتاً في الشعر وشطراً في الرجز . ولكن الكثير من شعر هذا الملحق لا يصح للبيد ، فهو اما شعر منسوب اليه كما نسب لغيره ، أو موضوع ، أو أبيات وقطع هي في الأصل ضمن قصائد في ديوانه . فالبيت رقم ٣ من الملحق لا يصح للبيد ، وكذلك الأبيات رقم ١٠ مما ينسب اليه ، والرجز رقم ١١ والابيات رقم ١٣ ، أما رقم ١٦ فبيتان لابنته ترد فيهما على أبيات للوليد بن عقبة [2] ، والأبيات رقم ١٨ مما ينسب لأبي نواس [3] ، والبيتان رقم ٢٠ من الشعر المتأخر المصنوع ، والأبيات رقم ٢٦ مما ينسب اليه أيضاً وكذلك البيت رقم ٢٨ ، والبيت رقم ٣٥ ليس من شعره ، أما البيت رقم ٣٦ فهو مما يروى لقردة بن نفاثة السلولي [4] ، والأبيات رقم ٣٧ تنسب لجرير [5] ولا يصح له البيت رقم ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٣ ، والابيات ٤٤ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٢ .

ومن هذا يتضح ان كثيراً من هذا الشعر الذي ألحقه بروكلمان بديوان لبيد هو مما ينسب اليه ولا يصح له ، ولا أحسب ان الدكتور بروكلمان كان غافلاً عن هذه الناحية ، فقد أشار للقطعة رقم ٣٧ مثلاً انها تنسب لجرير ، ولكنه

---

١ — بروكلمان ، مقدمة ديوان لبيد صفحة ٤ بالالمانية ط سنة ١٨٩١ م .

٢ — حماسة ابن الشجري صفحة ١٠٦ .

٣ — المحاسن والاضداد صفحة ١٢٠ .

٤ — الأغاني ١٤/٥٤ .

٥ — التاج (نفع) .



خلط من ناحية ثانية بين شعره الصحيح ، والشعر الذي ينسب اليه ، ولم ينبه الى كثير من هذا المنسوب [1] .

وكان هوبر قد ترجم القصائد التي أعدها للطبع الى الالمانية ، فنهج بروكلمان نهجه فترجم القصائد العشرين التي نشرها الخالدي من شرح الطوسي [2] وقدم لكل ذلك بمقدمة قصيرة ، ونشر الديوان بشكله الاخير سنة ١٨٩١ م [3] وبذلك يكون قد جمع كل ما وجده من شعر لبيد في الكتب ، وقد كمل الديوان بجزئيه الاول والثاني ولم تغب عن الديوان الا المعلقة .

٤ – طبعة احسان عباس :

ثم رأى الدكتور احسان عباس ان ديوان لبيد بحاجة الى عناية جديدة ، فتناوله بالتحقيق جملة واحدة وأخرجه بجزء واحد ، وقد أفاد من جهود سابقيه : الخالدي وهوبر وبروكلمان .

وذكر احسان انه قابل الديوان على النسخة ٦ ش التي بدار الكتب المصرية ثم النسخة ٢٢٦٢ المحفوظة بدار الكتب في جوروم بتركية ، وهي مجموعة تحوي عدة دواوين من ضمنها ديوان لبيد يقع في اثنتين وثلاثين ورقة ، وهذه النسخة كما يقول « تشبه الى حد كبير نسخة ٦ ش المحفوظة بدار الكتب المصرية ، تشبهها في ترتيبها وما فيها من نقص » [4] وبمقابلة قصائد نسخة تركية

---

١ – انظر الملحق صفحة ٤٧ – ٥٨ ط بروكلمان سنة ١٨٩١ م .

٢ – الديوان ، القسم الالماني ٥ – ٤٢ .

٣ – انظر تاريخ الادب العربي ، بروكلمان صفحة ١٤٧ .

٤ – مقدمة الديوان صفحة ٤١ ط احسان .



التي ذكر احسان أرقامها وترتيبها ، بقصائد نسخة دار الكتب المصريــة ، يتضح انها نسخة منها لا تفرق عنها الا بخطها النسخي الجميل وعدد ورقاتها ، والا فهي هي في ترتيب القصائد وعددها وعدد أبياتها .

وقد أبقى احسان شرح الطوسي كما هو لم يضف اليه شيئاً ، وشرح القصائد الباقية التي لم ترد مشروحة ، وغير ترتيب القصائد وجعــل الديوان في ستة أقسام :

١ ــ ما شرحه الطوسي الا مراثي أربد ، وفي هــذا القسم ست عشرة قصيــدة ، أربع قصائد بائية ، وقصيدتان داليتان ، وثلاث قصائد رائية ، وواحدة عينية ، وأخرى لامية ، وأربع قصائد ميمية ، وواحدة نونية .

٢ ــ مراثي أربد مما شرحه الطوسي ومما لم يشرحه وهي احــدى عشرة مرثية ، أربع مراث من شرح الطوسي القصائد رقم ١٧ ، ١٨ ، ٢٤ ، ٢٧ ، وبها يكمل شرح الطوسى وهو عشرون قصيدة ، وما دون ذلك من الشعر هو مما لم يرد فيه شرح ، فشرحه احسان على ما سيجيء .

٣ ــ بقية القصائد التي لم يشرحها الطوسي ، وهي أربع وعشرون قصيدة ومقطوعة وهذا القسم أكبر أجزاء الديوان ، وقد رتب القصائد فيه وفــق الترتيب الابجدي لحرف القافية ، وأكثر القصائد هنا هي اللامية والميمية وهي قصائد طوال ، وقد جاءت بينها المعلقة التي لم ترد في الطبعات السابقة .

٤ ــ الاراجيز ، وهي تسع تضاف اليها واحدة تقدمت في رثاء أربد هي القصيدة عشرون ، ويلاحظ ان الشرح في الاراجيز قليل ويكاد ينعدم في بعضها كما في الارجوزة رقم ٥٧ ، ولعل سبب ذلك ان الرجز عند لبيد سهل الألفاظ قريب المأخذ ، وان بعض الأراجيز مجهولة المناسبة كما في الأرجوزة المشار اليها.



وبهذا القسم الرابع يكون الديوان في حقيقته قد انتهى ، حيث استوفيت جميع القصائد ولم يبق غير أبيات مفردة .

٥ ـ الأبيات المتفرقة ، ومجموعها ثلاثة وثلاثون بيتاً يضاف اليها شطر واحد ، وليس كل هذه الأبيات مما يصح للبيد فبعضها منسوب مثل البيت رقم ٧٢ والبيتين رقم ٨٤ . وأكثر هذه الأبيات المتفرقة خالية من الشرح والتعليق .

٦ ـ الأشعار المنسوبة للبيد ، وهي أبيات ومقطعات تنسب للبيد كما تنسب لغيره وهي اثنتان وثلاثون بين قطعة وبيت مفرد ، وقد ورد أكثرها في الملحق الذي أضافه بروكلمان ، وأضاف اليها احسان أبياتاً وجدها في الكتب ، أرى ضرورة حصرها هنا لمعرفة عمل كل من الرجلين ، واضافات احسان هي :

١ ـ البيتان رقم ١٠ وهما لكثير عزة [1] :

تسمعُ الرعدَ في المُخيلَةِ منها كهديرِ القُرومِ في الأشوالِ
وترى البرقَ عارِضاً مُستطيرا مَرَحَ البُلْقِ جلنَ في الاجلالِ

٢ ـ البيت رقم ١٢ وهو لمجهول :

قومٌ هواهم وما نهواهُ مختلفٌ بيني وبينَهُم الاحقادُ والدِّمَنُ

---

١ ـ انظر الاشعار المنسوبة للبيد في الديوان صفحة ٣٥٥ ـ ٣٦٦ ط احسان وفيها ذكر المصادر التي تلسبها . والبيتان في ديوان كثير ١٤٩/١ ط الجزائر سنة ١٩٢٨ .

٣ – الشطر رقم ١٣ من شعر الشماخ [١] :

واخلفَ في ربوعٍ عن ربوعِ

٤ – الاشطر التي تنسب لرؤبة رقم ١٤ .

يا أيُّها السائِلُ عن نُحاسِي قَصَّرَ مقياسُك عن مقياسي

... ... عني ولما يبلغوا أشطاسي

٥ – البيت رقم ٢١ المنسوب للبعيث أيضاً :

مدَحْنا لها رَوْقَ الشبابِ فعارضتْ جنابَ الصبا في كاتم السرِ أعجما

٦ – والبيت رقم ٢٢ لذي الرمة :

وعبد يغوثٍ تحجلُ الطيرُ حولَه وقد ثَلَّ عرشيهِ الحُسامُ المذَكَّرُ

٧ – البيتان رقم ٢٥ :

لا تفرَحنَّ فكلُ والٍ يُعزلُ وكما عُزِلتَ فعن قريب تقتلُ

وكذا الزمانُ بما يسرُّكَ تارةً وبما يسوءك تارةً يتنقَّلُ

٨ – القطعة المنسوبة لعامر بن الطفيل رقم ٢٦ :

---

١ – ديوان الشماخ بن ضرار الغطفاني صفحة ٥٨ ، ط الشنقيطي ، والبيت هو :

تصيبهم وتخطئني المنايا وأخلف في ربوع عن ربوع

أَتَوْنا بشهرانِ العريضة كلِّها وأكلبِهاميلادِبكر بن وائلِ..الخ

٩ — البيت رقم ٢٧ :

كأنَّ بلادَ اللهِ وهي عريضةٌ على الخائفِ المطلوبِ كَفَّةُ حابلِ

١٠ — البيت رقم ٣١ :

ألم تنتقشْها ابنَ قيسِ بن مالكِ وأنت صفيٌّ نفسِه وسجيرُها

١١ — بيت ابن مقبل رقم ٣٢ :

يا دارَ سلمى خلاء لا أكلِّفُها الا المرانة حتى تعرف الدينا

هذه الأبيات التي تنسب الى لبيد كما تنسب الى غيره ، أضافها المحقق الى الأبيات التي وجدها بروكلمان ، وجعلها كلها ضمن الشعر المنسوب . ولا شك أن رصد الشعر المنسوب ومعرفته فيه فائدة كبيرة، اذ به يتنقى الشعر الصحيح مما يضاف اليه . ولن تكون هذه الابيات آخر ما نسب الى لبيد وتنازعها غير شاعر ، فهناك أبيات أخرى لم يحوها الديوان .

هذا هو الديوان بشكله الأخير عند احسان عباس ، وقد جعله أقساماً في تبويب مبتكر ، ولا يعيب هذا التبويب الا انه لم يقم على أسس صالحة فيما أحسب فقد وزع شرح الطوسي الى قسمين : قسم خلا من مراثي أربد ، وقسم تضمن مراثي أربد ، وكان الأولى أن يجعل شرح الطوسي كلاً غير موزع أو مجزأ . ثم جعل شعر لبيد من غير شرح الطوسي أقساماً : مراثي أربد بجانب ، والقصائد الأخرى بجانب ثان ، والأراجيز بجانب ثالث ، والمفرقات بجانب رابع ، وبذلك تشتتت القصائد ، وتكررت حروف القوافي في كل قسم . فهو

لم يتبع التقسيم المعهود في الدواوين حيث الترتيب الهجائي للقافية ، وجمع بذلك كل شعر لبيد في هذا النظام سواء ما شرحه الطوسي أم ما لم يشرحه ، وسواء أكان ذلك قصيداً أم رجزاً ، رثاء أم وصفاً ، ولم يقسم الشعر الى قسمين : شرح الطوسي ، ثم شرحه هو للقصائد الأخرى وهذا التقسيم الأخير لو أخذ به لكان الأوفق – فيما أرى – والأقرب الى طبيعة الديوان .

شرح احسان للديوان :

وبلغ ديوان لبيد في طبعة احسان وحسب ترتيبه احدى وستين قصيدة وقطعه غير الأبيات المتفرقة ، فاذا وضعنا شرح الطوسي جانباً ، يتبقى من الديوان احدى وأربعون قصيدة وقطعة وقد جاءت أربع قطع منها غفلاً من الشرح والتعليق ، فيكون على هذا ما شرحه احسان سبعاً وثلاثين قصيدة وقطعة ، على خلاف في سعة الشرح ودقته من قصيدة لأخرى ، فمنها التي شرحت شرحاً جيداً وافياً ، حيث أسعفته بذلك الروايات والكتب ، ومنها التي تضمنت الاشارات السريعة الموجزة لبعض المفردات ، فجاء شرحها مقتضباً ، وذلك اما لوضوح القصيدة ، أو لعدم توفر الروايات التي تتحدث عن تلك الاشعار .

وقد اتبع المحقق في شرح شعر لبيد طريقة مثلى ، بينها في قوله :

« وكانت خطتي أن أرجع الى ما قاله الأئمة ، أو ما نقل من شروح قديمة وسيجد القارىء انني – مثلاً – انقل عن ابن قتيبة في المعاني الكبير ، واستخرج الشروح التي تضمنتها خزانة البغدادي ، وانني مزجت في المعلقة بين شرحي التبريزي والمرزوقي [1] على نحو موجز ، ولم أحاول ان أتولى الشرح بنفسي الا

---

١ – لعله يريد شرح الزوزني وقد جاءت كلماته وشروحه في المعلقة ، وليس هناك شرح للمرزوقي على المعلقات ، وان جاءت احدى النسخ التي اعتمد عليها لايل في طبعته لشرح التبريزي مكتوب على أولها خطأ (من شرح المعلقات للمرزوقي) واذا كان المقصود شرح الحماسة للمرزوقي فان ابياتاً معدودات من المعلقة وردت فيه من غير شرح . انظر مقدمة لايل :

Lyall : Comentery on Ten Ancient Arabic Poems.



حيث فقدت العون من المصادر »[1] وهي خطة مثلى حقاً ، اذ بها استطاع أن يقدم شرحاً قريباً من شرح القدماء ، وقد اطلعنا بذلك على جوانب من شرح الطوسي المفقود ، كما وصل الى المتأخرين ونقله صاحب الخزانة ، وبنظرة مستقصية فاحصة في شرح احسان نجده قد أفاد من شروح الرواة والأدباء على هذا النحو :

١ – لقد جاءت أكثر القصائد الطوال مشروحة في الخزانة مثل القصيدة السادسة والعشرين ، والتاسعة والعشرين ، والسادسة والثلاثين . وصاحب الخزانة يروي عن الطوسي شرحاً مفصلاً[2] والطوسي يروي عن الأصمعي وعن أبي عبيدة وعن أبي عمرو الشيباني[3] .

٢ – وثمة روايات أخرى عن الطوسي جاءت من طرق أخرى غير طريق الخزانة ، نجد من ذلك مثلاً في المعلقة في غير موضع[4] .

٣ – وكان أكثر من شرح شعر لبيد ابن قتيبة في المعاني الكبير ، وقد أفاد المحقق من هذه الشروح الوافية في قصائد كثيرة[5] .

٤ – وقد نقل عن عدد من اعلام الرواية ، والكثير منهم متقدم مثل الأصمعي[6] وأبي عبيدة[7] وابن هشام[8] ، كما نقل عن آخرين ممن بعدهم مثل ابن

---

١ – المقدمة لديوان لبيد صفحة ٣٩ – ٤٠ .

٢ – انظر الديوان في الصفحات : ١٧٤ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨١ ، ١٨٣ ، ١٨٤ ، ٢١٥ ، ٢١٩ ، ٢٢٢ ، ٢٥٥ ، ٢٥٧ ، ٢٤٠ .

٣ – الديوان صفحة ٢٢٠ .

٤ – الديوان صفحة ٣٠٣ ، ٣٠٥ ، ٣١٠ ، ٣١٣ ، ٣٢١ .

٥ – انظر مثلاً القصائد رقم ٢٦ ، ٢٩ ، ٣٢ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٤٢ ، ٤٨ ، ٥٥ .

٦ – الديوان صفحة ٢٦٥ ، ٢٧٥ ، ٢٩٨ ، ٣٠١ ، ٣٠٤ ، ٣١١ .

٧ – الديوان صفحة ٢٧٥ ، ٣٢٠ .

٨ – الديوان صفحة ١٦٣ .



السكيت[1] ، وابن السيد البطليوسي[2] ، وأبي حاتم السجستاني[3] ، والتبريزي في غير المعلقة[4] ، وأبي ذر الخشني[5] .

٥ — ونقل في الشروح اللغوية عن نحاة ولغويين ، مثـــل الكسائي[6] ، والزمخشري[7] ، وابن سيدة[8] ، والثعالبي[9] ، وابن فارس[10] ، وابن دريد[11] هذا فضلاً عن أصحاب المعاجم الذين ينقلون بدورهم عن جمهرة من الرواة .

ومن كل هذا يتبين أن الشعر الذي بين أيدينا جـــاء مشروحاً في أكثره بروايات الرواة الاعلام ، والأدباء والنحاة واللغويين الثقات ، فضلاً عن شرح الطوسي ، وهذا ما يجعل شعر لبيد على درجة كبيرة من الاصالة ، فهو جدير لأجل ذلك بأن يوثق به ويطمأن اليه ، فله مكانته الرفيعة بين الدواوين الجاهلية الموثقة بالروايات الصحيحة ، وقد سدت تلك الروايات والشروح ثغرة كبيرة خلفها ضياع جزء كبير من شرح الطوسي ، الذي اشار الخالدي الى انه كان

---

١ — الديوان صفحة ١٩٦ ، ٢٥٨ ، ٣٠٢ ، ٣١٦ .

٢ — الديوان صفحة ١٨٢ ، ١٩١ ، ١٩٢ ، ١٩٤ — ١٩٦ .

٣ — الديوان صفحة ٢٨٧ ، ١٩٢ .

٤ — الديوان صفحة ١٦٧ ، ٢٨٧ .

٥ — الديوان صفحة ١٦٣ ، ١٦٤ .

٦ — الديوان صفحة ١٩٣ .

٧ — الديوان صفحة ٢٣٣ ، ٣١٦ .

٨ — الديوان صفحة ١٧٥ ، ١٨٥ ، ١٩٣ ، ٢١٨ ، ٢٤٦ ، ٢٩٠ ، ٢٩٥ .

٩ — الديوان صفحة ٢٧٤ .

١٠ — الديوان صفحة ٢٧٤ .

١١ — الديوان صفحة ٣٠٧ .



مطموساً عديم النفع لا تمكن قراءته [1] . وهنا تظهر أهمية التخريج لشعر لبيد ، وبخاصة أن أكثر شعره جاء من نسخ حديثة غير موثوق بها فالأساس في توثيق شعر لبيد يعتمد على الكتب التي حفظته ، ومنزلة هذه الكتب من القدم .

وديوان لبيد من جهة ثانية يحتل الصدارة بين دواوين الشعر الجاهلي فهو ثروة لغوية عزيزة لما فيه من لغة وغريب ، وما جمع من فصيح لغة نجد ، ولذلك فقد أقبل عليه اللغويون والنحاة والأدباء ، يتدارسونه ويشرحونه ، وقلما يخلو كتاب من كتب اللغة الا تجد فيه طائفة كبيرة من شعر لبيد ، أما المعاجم : فقد أفادت منه فائدة كبيرة بحيث يكون شعر لبيد في شواهدها أكثر من شواهد أي ديوان جاهلي آخر ، ولعل سبب ذلك لا يعود الى الغريب والنادر في شعر لبيد وحسب ، بل يعود ايضاً الى ضخامة ديوانه وكثرة شعره ، فهو أكثر من شعر أمرىء القيس عددا وأكثر من شعر زهير والنابغة ، ولولا كثرة ما ينسب لحسان بن ثابت لجاوز شعر لبيد شعر حسان ، ولم يبلغ ديوان جاهلي ما بلغه ديوان الأعشى مع كثرة الفاسد المصنوع فيه فلو نخل شعر حسان والأعشى لما جاوزا شعر لبيد ، وتتضح مكانة ديوان لبيد نسبة الى دواوين فحول شعراء الجاهلية من هذا الاحصاء التقريبي :

الشاعر	عدد الأبيات	
١ ـــ الأعشى ميمون بن قيس	٢٣٠٢	مع ما ينسب اليه .
٢ ـــ حسان بن ثابت	١٧٨٦	« « « «
٣ ـــ لبيد بن ربيعة	١٢٠٠	من غير الشعر المنسوب اليه
٤ ـــ أمرؤ القيس	٩٦٧	مع ما ينسب اليه .
٥ ـــ زهير بن أبي سلمى	٩١٩	« « « «
٦ ـــ النابغة الذبياني	٧٣٦	« « « «
٧ ـــ طرفة بن العبد	٦٦٢	مع ما ينسب اليه وهو كثير.

---

١ ـ الديوان ط الخالدي صفحة ١٤٧ .



وبعد : فهذا ديوان لبيد ، وهذه قصة العناية به تولاها منذ القديم ثقات الرواة وجلة الأدباء ، رووا شعره ، وتدارسوه وشرحوه ، وفصلوا في مسائله ، وأكثروا من الاستشهاد به ، وتولاها المحدثون من بعد ، من العرب والمستعربين فأولوه عناية كبيرة وخدموه خدمة جليلة ، جديرة منا — نحن الدارسين المتعلمين — بكل تقدير وثناء .

ترى هل يعني هذا ان ديوان لبيد لا يستحق عناية جديدة ؟ ان طبيعة الدراسة العلمية لا تقر ذلك فليس هناك ديوان لشاعر قديم أو حديث يستغني عن عناية جديدة تضيف اليه وتكمل ما فيه من نقص وتسد ما قد يوجد فيه من ثغرات ، وبخاصة ان ديوان لبيد في كثرته مخرج من الكتب ، وان هذا التخريج ناقص بحاجة الى استكمال ، وان النسخ الخطية في كثرتها حديثة ومجهولة الأصل ، فقد نهتدي الى بعض تلك الأصول والى مصادر خطية جديدة توثقه وتزيد في قيمته وتضيف اليه ما فقد منه ، وما هذه الأبيات المتفرقة المفردة الا دليل على الضائع واشارة الى المفقود فهي بقايا قصائد سقطت ، ولا ييأس الدارس من العثور في المستقبل على أصول مخطوطة ، فان مما يبث الأمل في النفوس ان كثيراً من المكتبات الخاصة التي كانت منسية مهملة بدأت في الظهور والتي كانت مقفلة بدأ أصحابها من الوارثين يفتحون أبوابها وبدأ النور يتسرب الى مجاهل لم تكن معروفة في زوايا التكايا والمساجد ، وفي أقبية المدن القديمة المتأخرة في الشرق العربي الاسلامي .

توثيق شعره :

وهذا الشعر الذي بأيدينا من ديوان لبيد . هل يصح الاطمئنان الى صحته جملة ؟ وقد رأينا فيه شعراً منسوباً اليه محمولاً عليه . فأمره أمر الشعر الجاهلي أو الاسلامي لا يصح أن يقبل على أنه صحيح لا ريب فيه ، كما لا يصح أن يرفض على أنه باطل لا نفع به وانما يؤخذ بالتنقية والتنقيح والفحص والتحميص ، فمنه



الصحيح الذي لا غبار عليه وقد وثقه الرواة ، وشهد بصحته الناقلون الثقات ، ومنه الفاسد المصنوع أو المنسوب الى تلك الفترة ، وقد رفضه النقاد ونبهوا عليه ولنلق نظرة سريعة في رأي النقاد بهذا الشعر الجاهلي والاسلامي ، ومنه شعر لبيد ونعرف الامَ انتهوا اليه ، وما هو منهجنا في تناول الشعر ، وما نصيب شعر لبيد من الشك أو الثقة :

لقد كان ابن سلام الجمحي (المتوفي ٢٣١ هـ) أول من بحث قضية الانتحال بحثاً منظماً مستفيضاً في كتابه طبقات الشعراء ، وعزا أسباب الوضع الى عاملين أساسين : العصبية القبلية ، والرواة الوضاعين .

وقد رأى ان بعض القبائل كانت تتزيد في أشعارها ، وتنحل شعراءها شعراً لم يقولوه ، فاوضح ذلك في قوله : « لما راجعت العرب رواية الشعر وذكر أيامها ومآثرها ، استقل بعض العشائر شعر شعرائهم ، وما ذهب من ذكر وقائعهم وكان قوم قلت وقائعهم وأشعارهم ، وأرادوا أن يلحقوا بمن له الوقائع والاشعار ، فقالوا على ألسن شعرائهم ، ثم كانت الرواة بعد فزادوا في الاشعار »[1] . وقد بين ما أضافه القرشيون في شعر شعرائهم فطولوا قصيدة لأبي طالب في مدح رسول الله ﷺ[2] ، وذكر ما حمل على حسان بن ثابت[3] ، وقد لاحظ أن بعض أبناء الشعراء الاعراب كانوا يفدون الى المدن ويستنشدهم الرواة شعر آبائهم فينشدونهم ، فاذا نفد ما لديهم زادوا في الاشعار ، كما فعل داود بن متمم بن نويرة، حيث استنشده أبو عبيدة ، وانه « لما نفد شعر أبيه جعل يزيد في الأشعار ويضعها ، واذا كلام دون كلام متمم، واذا هو يحتذي على كلامه

---

١ – طبقات الشعراء صفحة ٣٩ – ٤٠ .

٢ – طبقات الشعراء صفحة ٢٠٤ .

٣ – نفس المصدر صفحة ١٧٩ ، ٢٠٤ – ٢٠٥ .

فيذكر المواضع التي ذكرها متمم والوقائع التي شهدها »[1] ، ولم يخف بطبيعة الحال هذا الشعر المصنوع على الرواة الناقدين ، فكانوا يرفضونه .

وقد نبه ابن سلام على الرواة الكذابين ، كحماد الراوية ورفض مروياته وبين فساد روايته وحذر منه[2] وعين ابن سلام صنفاً آخر من الرواة ، كانوا يحملون الشعر الزائف هم رواة الاخبار والسير ، وأشار الى ابن اسحق راوي السيرة النبوية فقال : « ولسنا نعد ما يروي ابن اسحق له[3] ، ولا لغيره شعراً ، ولأن لا يكون لهم شعر ، أحسن من أن يكون ذاك لهم »[4] .

ولم يكن ابن سلام وحده الذي نبه الى فساد الشعر الذي يحمله ابن اسحق وتناوله بالنقد والتجريح ، بل هناك آخرون ، أخذوا على عاتقهم مهمة تحرير الشعر مما شابه من الزائف المصنوع ، مثل ابن هشام صاحب السيرة النبوية (توفي ٢١٨ هجرية) ، الذي عمـــل على تعقب ابن اسحق فنقد الشعر وبين الفاسد الموضوع ، وأسقط الشعر الفاسد وأوضح نقـــد العلماء له ، وذكر الروايات الصحيحة وهكذا ... وقد أقر ابن اسحق بذلك واعتذر بأنه لا علم له بالشعر ، يحمل منه الجيد والرديء فقال : « لا علم لي بالشعر أوتي به فأحمله »[5] ولم يرض ابن سلام بذلك عذراً فرد عليه بقوله : « ولم يكن له ذلك عذراً فكتب في السيرة أشعار الرجال الذين لم يقولوا شعراً قط وأشعار النساء فضلاً عن الرجال ثم جاوز ذلك الى عاد وثمود فكتب لهم أشعاراً كثيرة وليس بشعر ، انما هو

---

١ – المصدر السابق صفحة ٤٠ .

٢ – المصدر السابق صفحة ٢٣ .

٣ – أي لأبي سفيان بن الحارث في سياق الحديث عنه .

٤ – طبقات الشعراء صفحة ٢٠٦ .

٥ – طبقات الشعراء صفحة ٩ .



كلام مؤلف معقود بقواف ، أفلا يرجع الى نفسه فيقول : من حمل هذا الشعر ومن أداه منذ آلاف السنين والله تبارك وتعالى يقول : (فقطِعَ دابرُ القومِ الذين ظلموا) أي لا بقية لهم ... فلو كان الشعر مثل ما وضع لابن اسحق ، ومثل ما رواه الصحفيون ما كانت اليه حاجة ولا فيه دليل على علم»[1] .

ونقد ابن النديم ابن اسحق كذلك ، فقال : « ويقال كان يعمل له الاشعار ويؤتى بها، ويسأل أن يدخلها في كتابه السيرة فيفعل فضمن كتابه من الاشعار ما صار به فضيحة عند رواة الشعر »[2] .

ولم يكن نقد الرواة ، وتجريح الوضاعين ، والتنبيه على الشعر المنحول قد بدأ بابن سلام وابن هشام وكان مقصوراً عليهما ، بل سبقهم الى ذلك المفضل الضبي (توفي ١٦٨ أو ١٧٨ هـ) الذى نقد حماداً ، وبين أكاذيبه[3] وكذلك فعل الأصمعي (توفي ٢١٦ هـ) حين نقـــد خلفا الأحمر[4] ، وتابعهم بعد ذلك أبو الفرج الأصفهاني في رفضه روايات ابن الكلبي عن دريد بن الصمة وبعض أشعاره ، فقد تنبه الى انها مكذوبة ملفقة من قبل ابن الكلبي نفسه[5] .

هؤلاء العلماء الاثبات ، حين جرحوا الرواة وكذبوا الوضاعين وبينوا الشعر الفاسد المصنوع ، وثقوا من ناحية ثانية الشعر الصحيح وعدلوا الرواة الثقات ، وشهدوا لهم بالدقة والامانة والعلم .

---

١ - المصدر السابق .

٢ - الفهرست صفحة ٣٦ .

٣ - الأغاني ٨٩/٦ ، معجم الادباء ٢٦٥/١٠ .

٤ - مراتب النحويين ، ابو الطيب اللغوي ص ٤٧ مخطوط دار الكتب المصرية .

٥ - الأغاني ١٩/٩ ط ساسي .



ففي الشعر الجاهلي ، والشعر الاسلامي ، شعر منتحل مصنوع ، ولم يكن النقاد القدامى غافلين عنه ، فقد نقدوه ومحصوه وبينوا صحيحه من فاسده ولكن ذلك الشعر المصنوع لم يكن من الكثرة بحيث يضطرب الدارسون في معرفته ، أو يتخذون ذلك القليل الفاسد ، وسيلة لاتهام الشعر الجاهلي عامة ، فان من التجاوز على الحق والخروج على أصول البحث العلمي الأصيل ، ان نغلو في تقدير المنحول ونبالغ فيه معتمدين على مفترضات لم تثبت ولم تصح تاريخياً . ومن الخطأ الفاحش أيضاً ، أن تؤخذ فكرة الانتحال مركباً ذلولاً ، لدفع كل ما يغمض على الدرس ويلتبس مع النظرة العجلى ومع القصد الفاسد الخبيث ، فان في ذلك ضلالاً كبيراً .

واذا كان ابن سلام قد فتح للنقاد طريقاً يؤدي الى تصحيح الخطأ ، ورد المنحول ، ومعرفة الحق من الباطل ، فانه كذلك حذر الباحثين ونبههم الى ان : « ما اتفقوا [اي العلماء] عليه ، فليس لأحد أن يخرج منه »[1] وفي منهجه هذا وضع حداً لفوضى الشك . وليس لأحد ان يرضى لنفسه الشك في شعر معتمداً على رواية مفردة شاذة من الروايات ، فقد ترد روايات أخرى توثقه وتصححه ، فان لم يقم دليل واضح ، وحجة بينة على بطلان ذلك الشعر فليس له أن يرجح الشك اذا كان اليقين يلوح في روايات أخرى تثبته وتوثقه . فكثيراً ما تغرب روايات ، وتخفى عن علم الرواة أنفسهم ، ومن الطريف في ذلك أن تعقد المحاجة في هذه النقطة ، بين راويين كبيرين هما : خلاد بن يزيد الباهلي وخلف بن حيان الأحمر ، فيقال ان خلاداً قال لخلف : « بأي شيء ترد هذه الأشعار التي تروي ، قال له ، هل فيها ما تعلم أنت أنه مصنوع لا خير فيه ، قال نعم ، قال : أفتعلم في الناس من هو أعلم بالشعر منك ، قال نعم ، قال : فلا تنكر أن يعلموا من ذلك أكثر مما تعلمه أنت »[2] .

---

١ – طبقات الشعراء ص ٥ – ٦ .

٢ – طبقات الشعراء ص ٨ .



وقد أثيرت قضية الانتحال في العصر الحديث ، وتناولهـــا المستشرقون والعرب ومن هؤلاء المعتدل المنصف ، ومنهم المشتط المسرف المتحامل ، وقامت مناقشات وكتبت ردود ، حتى استقرت القضية أخيراً عند ثقات الباحثين ، على ما أقرها النقاد الأقدمون [1] .

ومنهجي في تناول الشعر الذي ادرسه ، يقوم على أخذ ملاحظات النقاد السابقين الثقات والافادة منها ، اذ لا يمكن الركون الى شعر نبه على بطلانه الأقدمون ، وحام الشك حوله . ولا أثق كذلك برواية أولئـــك المتهمين الكذابين الذين عرفوابوضعهموتزيدهم كحماد وخلف ومن لف لفهما ، وضمان كل بحث أمين ، أن يعتمد على تمحيص الأخبار والأشعار ، وتنقيحها وتحقيقها ، ويجدر بالباحث قبل ان يفيد من الشعر ويبني عليه احكاماً معينة ، ان يعرضه على الحدث التاريخي ، فاذا استجاب له قبله والا رفضه واستبعده ، ولا يجوز ان يبني عليه حكماً او يستنبط نتيجة . وان يقارن شعر الشاعر بما ثبت وصح من شعره ، فاذا وافقه كان منه والا اعرض عنه ، وعليه ألا يزعم اليقين القاطع لما يتوصل اليه من نتائج وأحكام ، فأين اليقين القاطع في مثل هذه المباحث التي تقوم دلائلها على مناقشة الاخبار واستنطاق الروايات والنصوص .

وبعد فما نصيب شعر لبيد من هذا كله، هل تعرض لانتحال وكذب وتلفيق أو جاء سالماً مبرأ من الوضع والتزيد ؟ ان كل الدلائل تشير الى ان شعر لبيد كان بمنجى مما تعرض له شعر غيره ، فلم يحمل عليه ما حمل على شعر الجاهليين أو المخضرمين ولذلك لم يشكك فيه من بحثوا في موضوع الانتحال من القدامى

---

١ – انظر في ذلك دراسة الدكتور الحوفي لقضية الانتحال في الحياة العربية ص ٢٠ – ٥٤ والدكتور شوقي ضيف في العصر الجاهلي ص ١٦٣ – ١٧٥ والدكتور ناصر الـــدين الاسد في مصادر الشعر الجاهلي ص ٢٨٧ – ٤٢٨ .



والمحدثين . ومع ذلك فقد سقطت أبيات حملت عليه في عهد متأخر ، وهي واضحة الصنعة .

واذا رحنا نبحث في الأسباب التي ترجح سلامة شعر لبيد فلا بد أن نقف على جملة من الحقائق .

١ ــ ان لبيداً من فحول شعراء الجاهلية ، وقد أدرك الاسلام وعاش فيه زمناً غير قليل حتى أدرك أول العصر الأموي ، ومعنى هذا انه أدرك عصر ازدهار الرواية وجمع الشعر وتدوينه ، وهو لذلك أصغر شعراء المعلقات عمراً ، فلم يستطع الوضاعون أن يحملوا عليه ، لأن الجيل الاول الذي عاش في الكوفة وشهد لبيداً وسمع شعره عاصر الرواة وشهد مجالسهم ــ فلو انهم كذبوا على لبيد لاستدرك هذا الجيل وأبناؤه من بعده على الرواة أكاذيبهم .

٢ ــ ثم ان لبيداً لم يشتهر بأماديح أو أهاج ، ولذلك لم تجد الحزازات القبلية سبيلاً الى شعره .

٣ ــ لقد أدرك لبيد الاسلام وهو شيخ كبير ، وانصرف الى أعمال الخير والبر والتقى ، ولذلك فلم ينشط مع الشعراء الذين خاضوا في الفتنة زمن عثمان ، أو الخلاف بين علي ومعاوية ، ولم تؤهله سنّه لأن يكون مع المقاتلين في الحروب الاسلامية في الجمل وصفين . واذا كنا نجد في كتاب (وقعة صفين) لنصر بن مزاحم ، شعراً كثيراً لشعراء هذه الفترة ، فليس للبيد ذكر فيه ، لأنه كان بمعزل عن تلك الاحداث مع العلم ان كثيراً من شعر هذه الوقعة موضوع ملفق صنعته الأهواء المذهبية والحزبية .

٤ ــ وقد نظر الناس الى لبيد نظرة فيها تقدير وتوقير ، لأنه صحابي جليل ، له في نفوس المسلمين منزلة كبيرة ــ لصحبته وزهده وكرمه ــ ولذلك فقد لقي شعره عناية الرواة واحتفالهم . وقد يقال ان حسان بن ثابت صحابي وشاعر



رسول الله ﷺ ، ومع ذلك فقد حمل عليه شعر كثير لم يحمل على غيره ، وقد عرف القدماء ذلك ونبهوا عليه [1] ، وهذا حق ، ولكن بين الصحابيين فرقاً كبيراً ، فحسان شاعر مديح وهجاء في الجاهلية ، وهو أبرز شعراء المسلمين الذين وقفوا يذبون عن اعراض المؤمنين ويعارضون شعراء قريش في أول الدعوة وله شعر كثير في المعارك الاسلامية في بدر ، وأحد ، والخندق ، والفتح ، وحنين . وكان هجاؤه شديداً على قريش في عهد كفرها ، وهو أبرز وأقوى شعراء الانصار في المدينة ، وقد تصدى له شعراء قريش يهاجونه ويناقضونه وقد بقيت بعض الأحقاد حتى بعد اسلام شعراء قريش [2] . فكل ظروف الشاعر الانصاري تعرض شعره لأن يحمل عليه . ولم يكن شعر لبيد كذلك ، فلا غرابة ان يسلم شعر لبيد من العوادي التي تعرض لها شعر حسان .

٥ – كان شعر لبيد مادة لشواهد النحاة ، واللغويين ، لما فيه من البداوة والغريب ، وقد أفادوا منه ، ومن ثم فقد اعتنوا به . وان أوائل النحاة عاشوا في أواسط القرن الثاني ، فاذا افترضنا أن النحل قد دخل شعر لبيد فلا بد أن يعرفه هؤلاء اللغويون والنحاة ، اذ ليس بينهم وبين لبيد غير قرن واحد ، ولا يمكن أن يخفى الشعر المنحول على واضعي النحو وجامعي اللغة ، وهم أفرس الناس ببيت شعر ، واذا عرفوه ، فليس لهم ان يسكتوا عنه والا ينبهوا عليه . واذا وقع النحل في شعر لبيد فلا بد أن يكون وقوعه في عصر متاخر ، وذلك الذي كان حقاً .

فاذا نظرنا في الشعر المحمول على لبيد ورجعنا الى مصادره ، نجدها متأخرة

---

١ – قال ابن سلام ص ١٧٩ : « كثير الشعر جيده ، وقد حمل عليه ما لم يحمل على احد لما تعاضهت قريش واستبت ، وضعوا عليه اشعاراً كثيرة لا تنقى » .

٢ – من ذلك قصته مع عبدالله بن الزبعري وضرار بن الخطاب حين رفع امرهما – بعد ان اسمعاه مما قيل قبل اسلامهما – الى عمر بن الخطاب ، الأغاني ١٤٠ – ١٤١ .



وقلما ترد في كتب المتقدمين التي ترقى الى القرن الثاني ، بل هي كثيراً مـــا تتأخر عن القرن الثالث . وعلى سبيل المثال نسوق هذين البيتين :

الكلبُ والشاعرُ في منزلٍ فليت أني لم أكن شاعرا
هل هـــو إلا باسطٌ كفَّهُ يستطعمُ الواردَ والصادرا

فان هذا الأسلوب لا يقوله الا ضعاف شعراء العصر العباسي المتأخر ، وان المصادر التي روت هذا الشعر تعود الى القرن السادس والسابع ، فقد جاء الشعر في كتاب الراغب الأصفهاني[1] (توفي ٥٠٢ هـ) وكتاب أحمد بن عبد المؤمن الشريشي[2] (توفي ٦٢٠ هـ) .

ولدينا ضربان من الشعر الذي حمل على لبيد : الاول شعر نسب اليه سواء أكان قائل هذا الشعر معروفاً أم مجهولاً . والشعر المنسوب الى الشعراء كثير وقلما يخلو ديوان شاعر جاهلي من هذا الشعر الذي ينسب اليه كما ينسب لغيره .

أما الضرب الثاني فهو الشعر المصنوع الذي حمله المتأخرون على لبيد وأول ما يلاحظ في هذا الشعر المصنوع المحمول على لبيد أن فيه خصيصتين : الأولى في أسلوبه الذي لا يوافق أسلوب لبيد ولا أسلوب العصر الجاهلي او الاسلامي المتقدم مما يدل على ان صانعيه كانوا ضعيفي الشاعرية ومن شعراء الفترة المتأخرة.

والثانية : ان كثيراً مما أضيف اليه نبه على صنعته النقاد الذين نقـــلوا هذا الشعر . ويتضح هذان الامران في الأبيات التي رواها أبو الفرج الاصفهاني في هجاء الربيع بن زياد ــ ثم قال : « ويقال انها مصنوعة »[3] والأبيات تبدأ بقوله :

---

١ ــ محاضرات الادباء ١/٣٧ .
٢ ــ شرح مقامات الحريري ١/٢٤٦ .
٣ ــ الأغاني ١٤/٩٣ والديوان ص ٣٥٦ .



ربيعُ لا يسُقْكَ نحوي سائقُ فَتُطْلَب الإدحالُ والحقائقُ

ومن الشعر المصنوع الذي لا يوافق أسلوبه ولا أسلوب عصره مـــا ذكره الجاحظ [1] :

لا تفرَحنَّ فكلُّ والٍ يُعزلُ وكما عُزِلتَ فعن قريبٍ تُقتَلُ

وكذا الزمانُ بما يسرُّكَ تارةً وبمـــا يسوءك تارةً يتنقَّلُ

ولعله لأحد الشعراء العباسيين ونسبه الجاحظ خطأ للبيد . وشك الأزهري في نسبة هذا البيت :

اسق هذا وذا وذاك وعلق لا تسم الشراب الا عليقا

فقال : « وانشد لبعض الشعراء – وأظن انه لبيد – وانشاده مصنوع » [2]

ومما حمل على لبيد ، ما قيل في عمره :

باتَتْ تشكّى إليَّ النفسُ مجهِشةً وقد حملتُك سَبْعاً بعد سبعين

فإن تعيشي ثلاثاً تبلُغي أملاً وفي الثـــلاثِ وفاءٌ للثمانين

وقد نبه ابن سلام على صناعتها بقوله : « ولا اختلاف في أن هذا مصنوع

---

١ – المحاسن والاضداد ص ٤٢ والديوان ص ٣٦٤ .

٢ – لسان العرب (علق) .

تكثر به الأحاديث ويستعان به على السهر عند الملوك ، والملوك لا تستقصي»[1] ، وكذلك يقال في الأشعار التي تتحدث عن عمره حين بلغ تسعين سنة [2] أو حين بلغ مائة وعشراً :

أليس في مائةٍ قد عاشَها رجلٌ   وفي تَكامُلِ عَشْرٍ بعدها عُمُرُ

وكذلك نسب اليه قوله :

ما عاتَبَ الحُرُّ الكريمُ كنفسِه   والمرءُ يُصلِحُه الجليسُ الصالِحُ

فهو ما نسب الى الجعدي والى زهير أيضاً . فكل هذه الاشعار مصنوعة محمولة عليه . أما قول ابن قتيبة في بيت لبيد :

وكلُّ امرئٍ يوماً سَيَعْلَمُ سعيَهُ   إذا كُشِّفَتْ عند الإلهِ المحاصِلُ

« وهذا البيت الأخير يدل على انه قيل في الاسلام ، وهو شبيه بقول الله تبارك وتعالى : (وحصل ما في الصدور) ، أو كان لبيد قبل اسلامه يؤمن بالبعث والحساب ولعل البيت منحول » [3] ، ففيه نظر . اولاً : اذا كان البيت إسلامياً فليس لابن قتيبة أن يعجب ، لأن للبيد شعراً كثيراً قاله في الاسلام على

---

١ – طبقات الشعراء ص ٥٠ وعنه نقل السيوطي ، المزهر ٢/٣٣٣ – ٣٣٤ ط جاد المولى وآخرين .

٢ – الاغاني ١٥/٣٧٦ وذلك في قوله الذي ينسب لزهير ايضاً :

كأني وقد جاوزتُ تسعين حجةً   خلعتُ بها عن منكبيَّ ردائيا

٣ – الشعر والشعراء ص ١٥٣ .

خلاف ما هو شائع من ان لبيداً هجر الشعر حين أسلم ولم يقل غير بيت واحد مختلف فيه .

وثانياً : ان هذا البيت من قصيدة قالها قبل الاسلام في رثاء النعمان بن المنذر. وان لبيداً في جاهليته كان على قسط كبير من الايمان بالبعث والحساب وله في هذا شعر غير قليل ، وشأن لبيد في هذا الايمان شأن كثير من شعراء الجاهلية كزهير بن أبي سلمى وأمية بن أبي الصلت وعلاف بن شهاب التميمي وغيرهم [1] . ولذلك فان احتمال ان يكون هذا البيت منحولاً غير صحيح .

ونخرج من ذلك كله الى ان شعر لبيد في كثرته وصل سليماً مبرأ من الوضع والنحل والتزيد ، لما بينا من ادراك لبيد عهداً متقدماً من العصر الأموي عصر الرواة والناقلين . ولا يضير شعر لبيد أن ينسب اليه شعر غيره من الشعراء الجاهليين او الاسلاميين، فان كثيراً من الشعر القديم متنازع عليه وينسبه الرواة لغير شاعر ولم تكن هذه النسبة متأتية من وضع او انتحال بل هي نتيجة لوهم الرواة والناقلين وترددهم في نسبة الشعر لهذا الشاعر او ذاك ، وذلك لما بين الشعراء من شبه في الفن والأسلوب [2] .

أما ما حمل على لبيد من شعر — لا يدخل في خطأ النسبة — فأبيات ظاهرة الكلفة ، صنعها القصاص للسمر ولتستكثر بها الأحاديث في المجالس ، وقد تلاقفتها العامة على انها أشعار صحيحة ، ودونتها الكتب المتأخرة التي لا تستوثق من مروياتها وتحمل الشعر الفاسد على انه زينة وحلية للنوادر والقصص .

وان هذه الأشعار المصنوعة التي نسبت الى لبيد إن هي الا أبيات قليلة معدودة لا تخفى على من أوتي نعمة البصر بالشعر والعلم به ، فأمرها هين ميسور لا يلتبس عند الفحص والتحقيق .

---

١ – انظر في ايمان الجاهليين بالبعث والحساب وفي توحيدهم ، الحياة العربية ص ٤٠٢ – ٤٢٠ ، وص ٤١٥ – ٤١٧ .

٢ – انظر الديوان ، الاشعار المنسوبة الى لبيد ص ٣٥٥ – ٣٦٦ .



الفصل الثاني

الوصف

فنون شعره :

تتضح في شعر لبيد جملة فنون ، منها الذي جوّده وظهر فيه متميزاً على غيره ، وله فيه شعر كثير ، كالوصف والرثاء والفخر ، ومنها الذي لم يبلغ فيه مبلغ غيره من الشعراء الجاهليين ، كالغزل والهجاء والمدح . وقد طرق لبيد أكثر موضوعات الشعر الجاهلي الذائعة فكثر عنده الوصف والفخر ، واختص أخاه أربد بأكثر رثائه ، وعني بمطالع قصائده في وصف الديار والاطلال وذكر النساء ، على انه كان يذكر النساء بأسلوب تقليدي لا عاطفة فيه ولا أثر للحب الصادق المشبوب ، وله نظرات في الحياة والموت والزمان وأفاعيل الأيام ، وحكم صائبة ومواعظ نافعة ، ولم يخلُ شعره من الهجاء المؤثر ، والعتاب اللين الرقيق ولكنه قليل ، وهو في جملته متحفظ عفيف لا فحش فيه ولا اقذاع . وهناك موضوعات أخرى تعرض لها بأبيات أو مقاطع ، كذكر الخمر ومجالسها ولعب الميسر ، ثم مديح انصرف أكثره لقومه، وتستطيع أن تتلمسه في فخره .

على ان أبرز الفنون التي جلّى فيها لبيد هو الوصف ، ويستطيع القارىء لشعره أن يقف على اهتمامه بالوصف ، لأنه رصد الجزء الأكبر من شعره لهذا الفن ، فقد وصف الطبيعة ممثلة في حيوانها — وللحيوان في نفس لبيد شأن أي شأن — وفي رياضها ونباتها ، وديارها وأطلالها وفي أمطارها وسحبها وبرقها

ونورها وظلامها ، وفي كل صغيرة وكبيرة فما تكاد عينه تقع على مشهد من مشاهد الصحراء ، إلا رسم له صورة أنيقة ذات حسن وبهاء .

وتيسيراً لدراسة هذا الفن الأصيل في شعر لبيد، أقسم الموضوع الى شعبتين: الأولى — أوصافه للحيوان ، والثانية — أوصافه للطبيعة من غير الحيوان .

١

وصف الحيوان :

للحيوان في شعر لبيد مكان وسيع ، فقد وقف عليه كثيراً من شعره ، تحدث فيه عن صفاته الجسمية والنفسية ، وعاداته وطبائعه وصور نوازعه وأحاسيسه ، وحكى عنه قصة تخيلها ومغامرة توهمها . ولبيد لا يمر بالحيوان مرّاً عابراً ، بل يقف عنده وقفات طويلة يدقق في أوصافه ويفتنّ في عرض الصور الجميلة الزاهية عن حياة الحيوان وهو الى ذلك يشارك الحيوان همومه ويحس بآلامه ويطرب لفرحته . وكأن لبيداً انما يتحدث عن خوالج نفسه هو، فتتجلى شخصية البدوي ونزعاته — من عناد وكبرياء وصبر على الشدائد وقوة احتمال للمكاره وقلق وسرعة وحركة — ممثلة في شخصية الحيوان ونزعاته النفسية وحركاته وهواجسه .

وقد تحدث لبيد عن حيوانات كثيرة مما ألف في البادية ، كالناقة والثور والبقرة ، والحمار وأتانه ، والفرس ، والنعام ، والظباء ، والوعول ، والكلاب ، والضفادع ، والذئاب ، والغربان ، وما الى ذلك . فرسم لكل حيوان صورة تغاير صورة الحيوان الآخر ، وحاك لذلك قصصاً يختلف بعضها ويتشابه بعضها الآخر ، وأحاول هنا أن أتبين كيف رسم لبيد صورة لكل من هذه الحيوانات .



١ – الناقة :

للناقة مكانة أثيرة في شعر لبيد ، فقد تحدث عنها في خمس عشرة قصيدة ، فوصفها مبيناً قوتها وضخامة جسمها وشدته كعقر الهاجري ، ثم وصف هزالها ونحولها بعد أن قطعت الفيافي وجابت الفلوات في حر الهواجر وقر الشتاء ، وعين أصلها ولونها وصفاتها وشبهها بالبقرة والثور والحمار والاتان والظليم ، كما شبهها بالبناء الشامخ وبالسفينة وبالسيف والدلو والسحابة ، وفي كل تشبيه من هذه التشبيهات يصور حالاً من أحوالها وصفة من صفاتها . لقد عني لبيد بذكر حال الناقة ولذلك أكثر من تشبيهها بالحيوانات الأخرى ، وأفاض في وصف تلك الحيوانات وسرد لها قصصاً ليقول بعد ذلك ، ان حال ناقته كحال تلك الحيوانات . أما صفات الناقة فلم يهملها وان لم تبلغ من عنايته المبلغ الذي تحدث فيه عن أحوالها ، ولذلك نجد في القصيدة بيتين أو ثلاثة في صفات الناقة وخلقها وقوتها ، ثم عشرات الأبيات في صفة أحوالها التي يلتمسها في قصص الحيوان ، وخير مثال على ذلك المعلقة فقد ذكر صفات الناقة في ثلاثة أبيات ، ثم تحدث عن أحوالها في قصة الحمار وأتانه في أحد عشر بيتاً ، وشبهها بالبقرة التي افترس السبع ولدها في ثمانية عشر بيتاً . ومع كل ذلك ، فقد رسم لبيد صورة لناقته واضحة كل الوضوح ، فهي ضخمة عالية متينة تقتحم في سيرها الارض اقتحاماً وتضرب الحجارة والحصى ضرباً فتتطاير وهي متوقدة عند الهاجرة من تحت أرجلها لا تبالي بوقدها وصلابتها [١] :

بجَسْرَةٍ تَنْجُلُ الظُّران ناجية اذا توقَّدَ في الديمومة الظُّرَرُ

---

١ – الديوان ص ٦٧ . جسرة : ناقة ضخمة او طويلة على الارض أو جسورة على السير . تنجل : ترمي وتقذف . الظران والظرر : الحجارة أو كسر الحجارة . الديمومة : الارض الواسعة أو الملساء المستوية .



وهي قوية شديدة ذات نشاط وخفة ، تنزو بالردافي اذا هم ترادفوا عليها ، وهي ضامرة نحيلة قد ذهب بلحمها كثرة الحل والترحال ، ومع ذلك فهو يرى في عظامها الصلبة الناتئـــة وجسمها الصلب الضامر ، قصراً منيفاً كعقر الهاجري[1] :

صرمتُ حبالَها وصددتُ عنها بناجية تَجِلُّ عن الكَلَالِ

عُذَافرةٌ تقمص بالرَّدافيْ تخوَّنها نزولي وارتحـــالي

كعقر الهاجريِّ إذا ابتناه بأشباهٍ حُذِينَ على مِثالِ

وقد أكد هذه الصفة في قصيدة أخرى فذكر ضخامتها وقوتها فهي عيرانة كالعقر ذي البنيان[2] :

فصددْتُ عن أطلالهن بجَسْرةٍ عَيْرانةٍ كالعقر ذي البُنْيانِ

وصفات الضخامة والامتلاء والشدة تلاحظ حين تعد هذه الناقة للرحلات الطويلة والاسفار النائية ، فهي سمينة ذات شحم قبل الرحلة ، أما بعدها فهي نضو هزيلة ، خفيفة اللحم ناتئة العظام ، قد ضمر ظهرها وسنامها ، وتقطعت

---

١ – الديوان ص ٧٥ – ٧٦ . حبالها : مواصلتها . تجل : تعظم عنه . عذافرة : ضخمة شديدة . تقمص : تنزويه . الردافي : راكبها الذي يرتدف خلف الراكب . تخونها : تنقصها وذهب بلحمها . العقـــر : القصر . هاجري : بناء منسوب الى هجر . أشباه : اللبن والآجر . المثال : قالب اللبن .

٢ – ديوانه ص ١٤٠ . عيرانة : كالعير في نشاطها .

سيورها من شدة الجهد وكثرة المسير ، وهي الى هذا سريعة مرحة لها هباب في الزمام ، كسحابة خفيفة لا ماء فيها تدفعها ريح الجنوب [1] :

بطليحِ أسفارٍ تركن بقيةً منها فأحنقَ صُلبُها وسَنامُها
واذا تغالى لحمُها وتحسَّرتْ وتقطعت بعد الكَلالِ خِدامُها
فلها هَبابٌ في الزمام كأنها صَهباءُ خفَّ مع الجَنوب جَهامُها

ويرسم لبيد صورة دقيقة لأسفار ناقته وهي تجد في قطع المفاوز ، وتنساب في الفيافي الواسعة ، والطرق العريضة المجهولة ، وما فيها من أكام ونجاد يضل فيها السائرون ، فهي في هذه الصحواء قد أرهقها السفر وأضناها الترحال ، ولقيت ضروباً من المخاطر والمشاق والعطش قد تهتدي الى ماء قديم بعد به العهد ، لم يقترب منه أحد منذ زمن بعيد ، فهو آجن قد تغير طعمه ، وتبدل مذاقه ، فكأنه خل عتيق خالطته التوابل ، فتستقي من هذا الماء على كره منها . ثم يقف الشاعر يتأمل جسم ناقته بعد طول الرحيل ، فاذا هو ضامر قد براه الرحل ، فبدا صلبها مهزولاً كأنه الواح ممدودة ، وهي مع هزالها قوية محكمة الخلق صلبة العود [2] :

---

١ - الديوان ص ٣٠٣ - ٣٠٤ . طليح اسفار : معيية من كثرة السفر . أحنق : ضمر . تغالى : ذهب وارتفع . تحسرت : سقط وبرها . خدامها : سيورها التي تشد في ارساغها . هباب : نشاط . الجهام : سحاب لا مطر فيه .

٢ - ديوانه ص ٢٣٣ - ٢٣٤ . الوهم : الطريق الواسع . النحيز : الطريق بعينه يشبه بشقائق النساج . تبارى زمامها : من سرعة السير والنشاط . والنقائل ج نقيلة : وهي رقاع الخف . منيفاً : عالياً . السحل : الثوب الابيض . يعروري النجاد : يرتفع فوقها. الغوائل: ج غائلة المضلة لبعدها وانبهامها . سافت : شربت . سلبت بها : دخلت بها تلك البيوت على غرة . هجراً : في الهاجرة . النعاج : بقر الوحش . قائلا : في القيلولة . الحرف : الناقة الضامرة . الشظية : القطعة من الشيء ، أي انها هزلت فلم يبق منها الا بقية . الولية : البرذعة او ما تحتها من غطاء . الجديل : الجدول وهو هنا جسمها المحكم الخلق . عاودت جنانها : عادت اليها حيويتها . والجنان : القلب . الأفاكل : ج أفكل وهي الرعدة .



فكلفتُها وَهْمـاً كأن نحيزهُ ... شقائقُ نسَّاج يَـومُّ المناهلا

فعدَّيتُها فيـه تبارى زِمامَها ... تنازع أطرافَ الإكام النَّقائِلا

مُنيفاً كسحل الهاجري تضمُّه ... إكامٌ ويعروري النِّجادَ الغوائلا

فسافت قـديماً عهدُه بأنيسه ... كما خالط الخَلُّ العتيقُ التوابلا

سلبت بها هَجْراً بيوتَ نِعاجِهِ ... ورُعتُ قطاهُ في المبيت وقائلا

بحَرْفٍ براها الرَّحلُ الا شظية ... ترى صُلْبَها تحت الوليَّةِ ناحلا

على أنَّ ألواحاً تُرَى في جديلها ... إذا عاودَتْ تَجنانَها والأفاكلا

ولبيد يوفر للصورة التي يريد رسمها كل أسبابها ، فقد وصف ناقته بالنشاط والقوة والضمور و كثرة الأسفار ، وذكر الطريق وشبهه بسحـل الهاجري وشقائق النساج ، وبين المواطن المهجورة والماء الآجن ، وأكد هذه المعاني في قصيدة أخرى فقال : ان هذه الناقة لفرط نشاطها تقطع المفاوز في الهاجرة ، وتقتحم الاكام فتروع النعاج والظباء وهي آمنة في بيوتها ، ثم زاد فذكر ألواناً جديدة من بسالة الناقة على شاكلة قوله [1] :

---

١ – الديوان ص ١٧٥ – ١٧٦ . الجسرة : الناقـة الضخمة الطويلة . الحرج : التي لا تركب ولا يضربها الفحل ليكون أسمن لها . الفتل : يريد هنا الاندماج في مرفقي الناقة وتباعد عن الجنب . الكانس : الظبي في كناسه وهو بيته . لم يوأر بها : لم يشعر بها . شعبة الساق : ساق الشجرة وشعبتها . الظل عقل : أعتدل . تصك : تضرب . المرو : ج مروة حجارة بيضاء براقة . النكيب : الحافر أو المنسم الذي اصابته الحجارة . معر : ساقط ناصل . الاصل : باطن المنسم من البعير . أجرت : أسرعت . الغرز : مثل الركاب للفرس . أبل : اكتفى بالرطب عن الماء .

قد تجاوزتُ وتحتي جُسرةٌ حرجٌ في مرفقيها كالفَتَلْ

تسلب الكانسَ لم يُوأرْ بها شُعبةَ الساق إذا الظِلُّ عَقَلْ

وتصُكُّ المَرْوَ لما هجَّرتْ بنكيب مُعِرٍ دامي الأَظَلْ

واذا حركت غَرْزِي أَجْمَرَتْ أو قَرا بي عدوُ جَوْنٍ قد أَبَلْ

فهي — كما أرادها — ناقة ضخمة طويلة أعدت للأسفار ، فمنعت لذلك من الركوب ومن ضرب الفحول ، تفجأ الظباء في كناسها عند الهاجرة ، فلا تشعر بها ، فتكشف في سيرها الجاد الشديد أغصان الشجر فينتحي ظلها عن الظباء الآمنات . وهذه الصورة التي تمثل الناقة تفزع الحيوان في مكامنه ، تتكرر في شعر الشاعر ، فهو يؤكدها في قوله من قصيدة أخرى [1] :

وخَرْقٍ قد قطعتُ بيَعْمُلَاتٍ مملَّاتِ المناسم واللحومِ

كساهن الهواجر كلَّ يوم رجيعاً بالمَغابن كالعَصيمِ

اذا هَجَدَ القطا أفزعن منه أوامنَ في معرَّسه الجُثومِ

ويريد لبيد بهذه الصور أن يبين صفات ناقته وقوة خلقها ، وصبرها على مكابدة الصعاب ، وقطعها وعر الطريق وهي في كل حال نشيطة مرحة لا يصدها حر الهواجر ولفح السموم . وهو لا يكتفي بهذه الصفات المعنوية ولا

---

١ — الديوان ص ١٠١ . خرق : الارض الواسعة تنخرق فيها الريح . يعملات : دائبات كثيرات الحركة . مملات : أملت من السفر . المنسم : خف البعير . الرجيع : العرق . المغابن: الآباط وأصول الفخذين . العصيم : القطران . المعرس : الموضع .

تلك الصفات الجسمية ، بل يضيف لذلك أوصافاً أخرى فيبين نسبها ، ولونها وسنها ، وطبيعة طعامها ، وعملها في غير أوقات الرحلة والسفر ، فيقول [1] :

بكرت به جُرَشِيَّةٌ مَقْطُورةٌ تروي المحاجرُ بازل عُلْكُومُ
دهماء قد دَجنتْ وأحنق صُلْبُها وأحال فيها الرَّضحُ والتصريمُ

ثم هي بعد ذلك حرة كريمة عقيم ، وعقمها من أسباب قوتها وشدة بنائها :

لولا تُسليك اللبـانَةُ حرَّةٌ حَرَجٌ كأحناء الغَبيـط عقيمُ

ولا يقف لبيد عند الوصف المجرد المباشر ، بل يذهب الى أبعد من ذلك فيحقق صفات ناقته في أشياء أخرى ، فيصور ضمور ناقته مع شدة احتمالها بغمد السيف فهو مع رقته شديد الاحتمال أيضاً [2] :

أُجُـدِ المرافق حرةٍ عَيرانةٍ حَرَجٍ كجفن السيف غيرِ سئوم

---

١ – الديوان ص ١٢١ – ١٢٢ . جرشية : ناقـة منسوبة الى جرش أرض باليمن . مقطورة : مطلية بالقطران . المحاجر : الاماكن التي اجتمع فيها الماء أو البساتين . بازل : قد انتهى سنها . علكوم : ضخمة كثيرة اللحم . دجنت : اعتادت ، والداجن : المعتاد . أحنق : ضمر . أحـال : اسكبان . الرضح : النوى المدقوق . التصريم : ألا تحلب فذلك أسمن لها . تسليك : تذهب بهمك . حرة : كريمة . حرج : ضامرة . الغبيط: مركب من مراكب النساء . واحناؤه : نواحيه وجوانبه . عقيم : لا تلد .

٢ – الديوان ص ١١٥ . أجد المرافق : شديدة المرافق . عيرانة : تشبه العير . حرج : ضامرة .




ويحقق ضخامتها وقوتها وأحكام جسمها في تشبيهها بالسفينة العظيمة التي أحكم بناؤها [1] :

كسفينة الهندي طابق دَرْءَها بسقائفٍ مشبوحةٍ ودِهانِ
فالتام طائِقُها القديم فأصبحت ما إنْ يقوِّم درْءَها رِدفانِ

ويشبهها بسندان الحداد وقوة صلابته [2] :

ومَرْتٍ كظهر التُرس قفرٍ قطعتُه وتحتي خنوفٌ كالعَلاةِ عقيمُ

وهي في خفتها ونشاطها كالسحابة الحمراء الخالية من المـــاء تدفعها رياح الجنوب [3] :

فلها هَباب في الزمام كأنها صَهْباءُ خَفَّ مع الجَنوب جَهامُها

هذه ناقة لبيد وصفها في شعره وصفاً مباشراً تارة ، وتمثيلاً لصفاتها عن طريق التشبيه تارة أخرى ، وقد أدرك لبيد بغيته في تمثيـــل صفات الناقة وأحوالها ونفسيتها حين شبهها بالحيوانات الأخرى ، فأظهر عواطفها من الخوف والفزع والحب والكره والجرأة وشدة الاحتمال في قصص الحيوان : في البقرة

---

١ – الديوان ص ١٤٢ . طابق : أحكم عملها . الدرء : كل ما كان فيه من فرجة أو عيب أصلحه . السقائف : الخشب المشقوق . مشبوحة : مشقوقة أو عريضة .

٢ – الديوان ص ٩٥ . المرت : الارض التي لا نبات فيها شبهها بظهر الترس . الخنوف : التي ترفع رأسها وتميله في أحد شقيها . العلاة : السندان التي يضرب عليها الحداد .

٣ – الديوان ص ٣٠٤ . صهباء : سحابة شقراء أو بيضاء يخالطها حمرة . الجهام : السحاب الذي لا مطر فيه ، أي لنشاطها وخفتها تشبه هذه السحابة التي تدفعها ريح الجنوب .



المفجوعة بولدها التي تحبه ، الخائفة في ليلتها المظلمة ذات البرد والبرق والمطر ، والتمس القوة والنشاط والسرعة في حمار الوحش وأتانه ، وفي الظليم وفي الثور ، ولكل من هذه الحيوانات قصة طريفة ، وما ساق لبيد تلك القصص التي أفاض في سردها الا ليستجلي منها حال ناقته ، ويستخلص صفاتها من خلال تلك الاقاصيص ، التي سنتعرف على طرف منها .

٢ - البقرة والثور :

أكثر ما يرد ذكر البقرة الوحشية أو الثور الوحشي في سياق قصة من القصص ، يستطرد اليها لبيد حين يتحدث عن ناقته ، فيشبهها بهذه البقرة أو ذاك الثور ، وهو حين يشبه الناقة بحيوان آخر ، لا يمر بالمشبه به مرّاً سريعاً ، بل يقف عنده يتأمله ويصفه ويسرد قصة من قصصه ، أو حادثة من حوادثه وكأنه ينسى الناقة وينصرف الى هذا الحيوان يفصل القول فيه حتى اذا شعر انه قد فرغ من وصف هذا الحيوان ، عاد الى سياقه الأول في ذكر الناقة .

ذكر لبيد البقرة والثور في سبع من قصائده ، وفي كل من هذه القصائد السبع يروي قصة حزينة ، فيها قلق وخوف ومطر وظلام ، ثم معركة ودماء وتكاد تكون هذه القصص متشابهة ، غير ان المدقق في هذا الشعر الذي يصور قصة البقرة ونضال الثور ، يجد في كل قصة طعماً ومذاقاً ولوناً يختلف عما في القصيدة الأخرى ، وقد قرأت في المعلقة — وهي قصيدة أشهر من أن يمثل لها — محنة البقرة التي راحت ترعى مع صواحبها ، وغفلت عن ولدها ، وهي تتبع الفحل الذي يتقدم القطيع ، فافترست السباع صغيرها على غرة منها ، فأضلته وهي لا تدري ما حل به ، فانطلقت تجول بين الاكام ، وتفتش في الانجاد عن هذا الصغير الذي صرعته الذئاب ولم تترك منه غير مزق معفرة بالتراب ، وتقضي البقرة ليلتها المروعة تلك خائفة مفزوعة وسط الظلام وقد لاذت بأصل شجرة ، والأمطار تنهمر على متنها الأبيض ، ويتمثل لبيد الدرة التي انفرطت من عقد



فهي تضطرب وتتلألأ في صورة البقرة وسط الظلام وهي تلتمع بجلدها الناصع المبتل بماء المطر، فلما أسفر الصبح عاودت البقرة بحثها عن ولدها وظلت كذلك سبع ليال كاملة حتى يئست وجف ضرعها واستبد بها الخوف والجزع، ثم تبدأ صراعاً مع الصياد الذي رماها بسهامه فأخطأته فأرسل عليها كلاباً مدربة سريعة كالسهام شرسة كالأسود، فتدور معركة حامية تسفر عن انتصار البقرة التي تصرع كلبة وتضرج أخرى بدمائها. هذه القصة المشهورة في المعلقة نجدها مكرورة في غير قصيدة مع خلاف بسيط، خلاف في الفن والتفاصيل وليس في الحبكة القصصية، على غرار ما نلاحظ في هذه القصيدة، فبعد حديثه عن الناقة يقول [1]:

كأنها بعد ما أفنيتُ جُبلتها ... خَنْساءُ مسبوعة قد فاتها بَقَرُ

تنجو نَجاءَ ظليمِ الجَوِّ أفزعه ... ريحُ الشَّمالِ وشَفَّانٌ لها دِرَرُ

باتت الى دفِّ أرطاة تُحَفِّره ... في نفسها من حبيبٍ فاقدٍ ذِكَرُ

إذا اطمأنتْ قليلاً بعد ما حَفُرت ... لا تطمئن الى أرطائها الحُفَرُ

تبني بيوتاً على قفرٍ يهدمُها ... جَعْدُ الثرى مُصْعَبٌ في دَفِّهِ زَوَرُ

ليلَتها كلَّها حتى إذا انحسرت ... عنها النجومُ وكاد الصبح ينسفرُ

---

١ – الديوان ص ٦٧ – ٦٩. جبلتها: خلقها الذي جبلت عليه. خنساء: قصيرة الأنف. مسبوعة: أكل السبع ولدها. تنجو: تمر كمر الظليم. الشفان: الريح الباردة. دف ارطاه: جانب أرطاة، والارطاة: شجرة لها عروق بيض. جعد الثرى: رمل فيه ندوة. مصعب: صعب. في دفه زور: في جنبه ميل. حسرت: غابت. ينسفر: ينكشف ويضيء. آية: علامة. شثن البنان: غليظ الأصابع قصيرها. اكلب جسر: ماضية على كل شيء. روع: فزع وخوف. بهر: تتابع النفس من شدة العدو. ظلال الروع: ما أظلها من الفزع. اعتكرت: رجعت.

غدت على عَجَلٍ والنفس خائفةٌ   وآيةٌ من غُدُوٌّ الخائف البُكَرُ
لاقت أخا قَنَصٍ يسعى بأكلُبه   شُثْنَ البنان لديه أكلبٌ جُسُرُ
ولّت فأدركها أولى سوابقهـا   فأقبلت ما بها رَوْعٌ ولا بَهَرُ
فقاتلت في ظِـلال الروع واعتكرت
ان المحامي بعـدَ الروع يعتكرُ

فالقصة هنا هي القصة هناك ، بقرة أكلت السباع ولدها فهي حزينة عليه تبحث عنه ، وقد فاتها القطيع ، فاذا أظلها الليل لاذت بأرطاة ، والرمـال الندية تحت أرجلها تنهار فلا تثبت أقدامها في مواضعها ، وباتت ليلتها في هذا العناء والخوف ، حتى اذا انكشف الصباح انطلقت مبكرة على عجل خائفة مذعورة ، فلقيت ما تخشاه ، صياداً وكلابه وراحت تعدو لعلها تنجـو ، فأدركتها الكلاب فقاتلت بجرأة رغم فزعها فكان لها النصر .

واذا كان في قصة البقرة في المعلقة تفصيل وجوانب لم يكررها هنا ، فانه في هذه القصة يحرص على حركة البقرة ، حركتها وهي تعدو كأنها ظليم فجأته ريح الشمال الباردة المطرة ، وحركتها وهي تعالج بأرجلها الرمال الندية ، تحفر فيها لتجد موضعاً مستقراً لقدمها ، فتنهار الرمال وتتهدم الحفر ، وفي كل هذه الأحوال يصور لبيد البقرة خائفة مفزوعة حذرة تخاف الصياد وتخشى ان يباغتها فيرميها على غرة منها ، ففي المعلقة تتسمع صوت الانسان [1] :

وتوجست رِزَّ الأنيس فراعَها   عن ظهر غَيْبٍ والأنيسُ سُقامُها

---

[1] ـ الديوان ص ٣١١ . الرز : الصوت الخفي .



وهنا تبكر في الغدو خوفاً منه[1] :

غَدَت على عَجَلٍ والنفسُ خائفة وآيةٌ من غدو الخائف البُكَرُ

وفي قصيدة ثالثة تبحث عن ابنها وقد استبد بها الخوف والفزع[2] :

فابتغـــه بالرملتين ثلاثا كلَّ يوم في صدرها بَلْبالُ

وكأني بلبيد حين يصور مخاوف البقرة وقلقها وحيرتها ، انما يصور مخاوف امرأة ثكلى ، ويعيرها كل عواطف الأم الثكلى : حزنها وقلقها وخوفها وقد هيأ لهذا الجو النفسي جوّاً طبيعياً يشعر بالخوف والحزن والقلق ، فالبقرة دائمـــاً حزينة حيرى ، تبحث عن ولدها في يأس شديد ، وهي وسط ظلام دامس في ليلة غطى الظلام كل شيء وحجبت السحب ضياء النجوم ، ويزيد هذا الجـــو المرعب قسوة تلك الليلة ، حيث تهطل الأمطار ، وتشتد ريح الشمال الباردة القاسية ، والى كل ذلك يصبّحها الصياد بكلابه الغضف الكواسر .

وقد فطن لبيد الى مواطن الفجيعة التي يثير فيها الحزن ويهول المصيبة ، حين يذكر بقايا صغيرها من مزق معفرة بالتراب ، وأوصال متناثرة من جلده وأعضائه ، وبقع من دمه التي صبغت الأرض هنا وهناك ، نرى ذلك واضحاً في قوله[3] :

ثم لاقتْ بصـــيرةً بعدَ يأسٍ وإهـــاباً في بعضـــه أوصالُ

---

١ – الديوان ص ٦٩ .

٢ – الديوان صفحة ٢٧٠ . البلبال : الهم ووسواس الصدر .

٣ – الديوان صفحة ٢٧٠ .

أو قوله [١] :

لمعفَّرٍ قَهْـــدٍ تنازع شِلْوَهُ غُبْسٌ كواسبُ لا يُمَنُّ طعامُها

ويلاحظ ان لبيداً في وصفه للبقرة يعنى بحالتهـــا النفسية ، وعواطفها وحركاتها أكثر مما يعنى بوصف جسمها وأعضائها . ولا شك ان لبيداً لم ينفرد بهذه الخصلة في وصفه لعواطف البقرة وذكر قصتها الحزينة المؤلمة ، فقد شاركه في ذلك الأعشى اذ ساق قصة البقرة المسبوعة وصراعها مع كلاب الصيد الكاسرة فالأعشى يصف في احدى قصائده محاولة الوحش المتربص بالبقرة وافـــتراس فصيلها حين واتته الفرصة ، ثم يصور حال البقرة التي كانت راتعة مع القطيع ، فلما امتلأ ضرعها باللبن طلبت فصيلها لترضعه فعز الطلب ، اذ لم تجد منه غير مزق وبقايا وعظام ودم سائح مسفوك ، وباتت ليلتها ثكلى حزينة ، حتى اذ ذر قرن الشمس صبحها صائد من بني نبهان ، كأنه ذئب أغـــبر صحب كلاباً ضارية في أعناقها سيور ، فاذا عدت هذه الكلاب فهي سهام منطلقة ، يقول الأعشى في حال هذه البقرة [٢] :

---

١ – الديوان صفحة ٣٠٨ . قهد : أبيض . غبس : ذئاب ذات لون أغبر . لا يمن : لا ينقص .

٢ – ديوان الاعشى صفحة ١٠٥ – ١٠٧ ط محمد حسين . وانظر كذلك اساليب الصناعة في شعر الخمر والناقة بين الاعشى والجاهليين للدكتور محمد حسين ص ٦٥ وما بعدها . الشيطان : واديان : النجاد ج نجد : المرتفع من الارض . الذرع : والد البقرة . ضابىء : لازق . مفتحص : متخذ افحوصاً ، والافحوص : الجحر الذي يأوي اليه . خشع : نحل . حانت : من الحين وهو الهلاك والمحنة . حد النهار : منتهاه أي طوال النهار . فيقة : لبن مجتمع في الضرع بين حلبتين . شق النفس : ولدهـــا لانه قطعة منها . لو رضعا : ليته رضعا . عجلا : سكن الجيم لضرورة الوزن . المعهد : الموضع الذي عهدته فيه . اقطاع : جمع جمع، المفرد قطعة والجمع قطع . المسك : الجلد . سافت : شمت . اندفع : ما جرى شيئاً بعد شيء من دمه . دعته الداهية : اصابته . ذر : طلع . ذأل : اسرع ومشىء في خفة والذؤال هنا الصائد . المتع ج متمة : أي الطمام . القد : السير من الجلد . الزمع ج زممة : وهو شيء زائد وراء الظلف .

كأنها بعد ما أفضى النِّجادُ بها بالشَّيْطَين مُهاةٌ تبتغي ذَرَعا

أهوى لها ضابىء في الأرض مفتحِص

لِلَّحم قِدْماً خفى الشخص قد خَشَعا

فظل يخدَعُها عن نفس واحدِها في أرض فَيْء بفعلٍ مثله خَدَعا

حانت ليفجَعَها بابن وتُطعمُه لحماً فقد أطعمت لحماً وقد فَجَعا

فظل يأكلُ منها وهي راتِعَةٌ حَدَّ النهار تُراعي ثِيرَةً رُتعا

حتى اذا فِيقَةٌ في ضَرْعها اجتمعت جاءت لترضعَ شِقَّ النفس لو رَضعا

عَجْلَى الى المعهد الادنى ففاجأها أَقطاعُ مَسْكٍ وسافت من دَمٍ دُفَعا

فانصرفت فاقِداً ثكلى على حَزَنٍ كُلٌّ دهاها وكلٌّ عندها اجتمعا

وذاك أنْ غفلتْ عنه وما شعرت أن المنيةَ يوماً أرسلت سَبُعا

حتى اذا ذَرَّ قَرْنُ الشمس صَبَّحها ذُؤالُ نَبْهانَ يبغي صَحْبَه المُتَعا

بأكلبٍ كسراع النَّبْلِ ضاريةٍ ترى من القِدِّ في أعناقها قِطَعا

فتلكك لم تَترِك من خلفها شَبَها الا الدوابرَ والاظلافَ والزَّمَعا

والفرق بين لبيد والاعشى في هذه القصة واضح ظاهر ، فلبيد أكثر اجادة في تصوير أحزان البقرة وفي رسم الجو المناسب لعواطفها وآلامها ، في الليل الداجي والمطر المنهمر ، والريح الباردة الشديدة ، وأكثر دقة في رسم التفاصيل التي لا بد منها لاستكمال الصورة ، وقد حقق لبيد ذلك في لجوء البقرة الى الارطاة ولونها في الظلام ، ثم عناية لبيد في المعركة الضارية بين البقرة وكلاب الصيد ثم النتيجة الهامة في انتصار البقرة وسلامتها بعد ان صرعت كلبتين من

كلاب عدوها وقد خلت قصيدة الأعشى من هذه الجوانب ، وكان همه متجهاً الى تربص الحيوان المفترس وما منى به نفسه ، أكثر من عنايته بتصوير نفسية البقرة ، وأحزانها ولعل لحسن اختيار لبيد قافيته الموسيقية أثراً في اتقان فنه على حين وقع الأعشى في قافية العين المطلقة فجعلته مقيداً بلازمة فيها ضجيج أكثر مما فيها من موسيقى موحية مصورة . ولم أجد في الشعراء الجاهليين من اجاد تصوير عواطف البقرة والتعبير عن نفسيتها الحزينة كما اجاد لبيد ولا ابدع ابداعه ، مع أنهم قد تناولوا قصة البقرة بشكل قريب مما عند لبيد في معلقته أو في غيرها من قصائده ، وقريب من قصيدة الأعشى في هذه القصة قصيدة زهير بن أبي سلمى فقد وصفها كذلك في قصيدته التي أولها [1] :

غَشيتُ الديارَ بالبَقيع فَثَهْمَدِ ... دوارسَ قد أقوين من أمّ معبدِ

اما الثور الوحشي فقد أظهر فيه لبيد معاني القوة والنشاط والسرعة وشدة القتال ، وقد شاء ان يبرز فيه هذه الصفات ليستعيرها بعدئذ لناقته التي تشبه الثور في هذه الخصال ، وقد جاء وصف الثور في شعر لبيد في ثلاث قصائد ، وصف حاله ولم يتطرق الى وصف جسمه وحسن شياته ، وقد الح على تكرار قصة الثور نفسها في هذه القصائد الثلاث ، وفيها جميعاً نجد الثور — حين يشبه به ناقته — قد انفرد عن القطيع أو ضل عنه ، فادركته الرياح الباردة والأمطار الشديدة فالتجأ — كما التجأت البقرة — الى أصل أرطأة يمتنع بها من البرد والمطر ، ويقضي ليلته تلك تحت أغصانها التي تتقاطر منها المياه على ظهره فيحرك قرنيه الكبيرين حذر الخطر وتوقعاً للمصائب ، فهو يخاف حركة الأغصان كما يخاف وقع الماء ومر الرياح ، حتى اذا أدركه الصباح ، سارعت اليه كلاب الصيد تسعى برفقة الصياد ، وتقوم معركة ضارية حين تهاجمه الكلاب

---

١ — ديوان زهير صفحة ٢١٩ . البقيع وثهمد : مكانان . اقوى واقفر : ذهب منه اهله .



فيشك بروقة صفاحها شكاً عنيفاً ، وكان روقة حينئذ مخرز يخصف جلداً ، حتى اذا صرعها انطلق يعدو مختالاً بقوته مزهواً بنشوة النصر ، يشق خمائل الدهناء شقاً ، كأنه – وهو أبيض ناصع الجلد – سيف صقيل يسطع تحت الضياء ، وفي ذلك يقول لبيد[1] .

كأخنسَ ناشطٍ جادت عليه	ببُرقَةَ واحفٍ احدى الليالي
أَضَلَّ صِوارَهُ وتضَيَّفَتْهُ	نَطوفٌ أمرُها بيد الشَمالِ
فبات كأنه قاضي نُذورٍ	يلوذ بغَرْقَدٍ خَضِلٍ وضالِ
اذا وكف الغضونَ على قَراه	أدار الروقَ حالاً بعد حالِ
جُنوحَ الهالكيِّ على يديهِ	مُكِبّاً يجتلي نُقَبَ النِّصالِ
فباكرهُ مع الإشراق غُضْفٌ	ضواريها تَخُبُّ مع الرجالِ
فجال ولم يَجُلْ جبناً ولكن	تعرض ذي الحفيظة للقتالِ

١ – ديوان لبيد صفحة ٧٦ – ٧٩ . الاخنس : الثور . والخنس ، قصر الأنف . ناشط : يخرج من بلد لآخر . واحف : مكان . البرقة : الموضع يخلط ترابه او رمله حصى . تضيفته : نزلت به سحابة تنطف بالماء أي تقطر . الصوار : قطيع بقر الوحش . قاضي نذور : أي بات مكباً كأنه يصلي صلاة يقضي بها نذراً . غرقد : شجر . خضل : أخضر ندي . الضال : سدر البر . وكف : قطر . قراه : ظهره. الروق : القرن. جنوح الهالكي : ميل الصيقل وانكبابه. النقب : الصدأ واحدها نقبة . غضف : كلاب آذانها الى وراء أو مسترخية الآذان . تخب : تعدو خبباً . الحفيظة : ما يحافظ عليه وهو هاهنا الغضب . ملحم : كلب يطعم اللحم او الثابت في القتال . الفرائص : ما حاذى المرفق من الجنب واحدها فريصة . طحال : اسم كلب . يشك: يطعن . شزراً : جانباً . السراد : السير الذي يخصف به ، والمسرد : المخرز . النقال : الرقاع واحدها نقيلة . الروق : القرن .

فغادر مُلْحَما وعدلنَ عنه وقد خَضَبَ الفرائضَ من طِحالِ
يَشُكُّ صِفاحَها بالروق شَزْراً كما خرج السِّرادَ من النِّقالِ

وان الشاعر في تصويره لأحوال هذا الحيوان ، يوفر لصورته كل أسباب الجمال والاتقان ، فيفطن الى جزئيات صغيرة وحالات يلمح اليها فتضفي على الصورة جمالاً ويكون لها في الذهن دلالة رائعة ، فحين يلوذ الثـــور بأصل الشجرة ، يتخيل لبيد في وقفة الثورة هذه الصيقل المكب على عمله يجلو ما على السيف من صدأ ، وليس مرد هذه الصورة وجمالها الى التشبيه ، بل الى الحال التي استوحاها من وقوف الثور ذلك الموقف الذي فيه حذر وقلق وتربص ، ثم ان ذراعيه تغوصان في الرمال ، فتراه دائم الحركة ، ما يكاد يسل ذراعاً من بين الرمال حتى تغوص الثانية فيه ، فهو يعالج دائماً هذا الرمل الذي لا يتماسك ولا يستقر على حال ، ومن هنا جاء في خيال لبيد صورة الصيقل المكب على سيف يجلوه :

جنوحَ الهالكيِّ على يديه مُكِبّاً يجتلي نُقَبَ النِّصالِ

وتتضح الحركة في هذه القصيدة حركة الثور في القتال وحركة الثور قبل القتال وبعده ، فالثور يفر حين تهاجمه الكلاب ، ولكنه ليس فرار الجبان ، بل تراجع الفارس الذي يتأهب للدفاع والهجوم ، يسرع بهجوم مباغت حين تواتيه الفرصة فاذا تمكن من عدوه ، شك بروقة صفاحها ، فاذا هي صريعة ردية ، ومن هنا جاء احتراس لبيد في قوله :

فجالَ ولم يَجُلْ جُبناً ولكن تَعَرُّضَ ذي الحفيظة للقِتال

ثم لا يترك لبيد هذا الثور بعد المعركة ، الا صور فيه نشوة الفارس القادر ،

وزهو المنتصر ، فنراه بعد ان انكشفت عنه الغمة ينطلق انطلاق فرس الرهان مولياً وجهه نحو فلج ، يمر بين خمائل الدهناء أو يخترق تلك الخمائل ، ونرى هذا الثور الأبيض الناصح وهو في منطلقه ذاك يقطع النجاد الغلاظ كأنه سيف لماع صقيل ، وقد استطاع لبيد ان يقدم كل تلك الصور والمشاهد في هذه الأبيات القليلة [1] .

وولّى تحسرُ الغَمَراتُ عنه   كما مَرَّ المراهنُ ذو الجِلَالِ
وولى عامداً لطيات فَلْجٍ   يراوح بين صَونٍ وابتذالِ
تَشُقُّ خمائِلَ الدهنا يداهُ   كما لَعِبَ المقامرُ بالفِيالِ
وأصبح يقتري الحَومانَ فردا   كنصل السيف حودث بالصِقالِ

وقد نظر لبيد في قوله :

تشق خمائل الدهنا يداه   كما لَعِبَ المقامر بالفِيالِ

الى بيت طرفة في معلقته [2] :

يشق حباب الماء حيزومها بها   كما قَسَمَ التربَ المفايلُ باليدِ

---

١ — الديوان صفحة ٧٩ — ٨٠ . وقد كرر لبيد هـذه الصورة في وصف الحمار ايضاً في قوله : (الديوان صفحة ٢٤٨) .

وولى كنصل السيف يبرق متنه   على كل أجريّا يشق الخمائلا

٢ — شرح المعلقات العشر ، التبريزي صفحة ٣١ ط لايل (كلكتا ١٨٩٤) م . حباب الماء : معظمه او فقاعاته التي تعلوه . حيزومها : صدرها . المفايل : لاعب الفيال وهي لعبة يجمعون تراباً ويخبئون فيه خبئاً .

وبيت لبيد — وان تأخر — أجود من بيت طرفة واقرب الى طبيعة تلك اللعبة التي يقسم فيها المفايل الرمال باليد، والثور هنا يشق بيديه خمائل الدهناء .

وقد تحدث لبيد عن مغامرة الثور ، وحكى قصته في قصيدتين أخريين وفي كل مغامرة يخرج الثور منتصراً وقد ضرج الكلاب بالدم فتركها صريعة معفرة بالتراب ، وفي كل قصيدة يفتن لبيد في رسم صورة حية للمعركة تختلف في فنها عن غيرها ، وان اتفقت في احداثها ، ويتجلى الفرق واضحاً حين نتأمل هاتين الصورتين من صور المعارك ، يقول في الاولى[1] :

حتى أُشِبَّ له ضِراء مُكَلِّبٍ	يسعى بهن أقبُّ كالسِّرْحانِ
فحمى مقاتِلَهُ وذاد برَوْقِهِ	حَمْيَ المحارب عورةَ الصُّحْبانِ
شُزْرا على نبضِ القلوب ومُقْدِما	فكأنما يختلُّها بسِنانِ
حتى انجلت عنه عَمايةُ نَفْرِهِ	فكأن صرعاها ظروفُ دِنانِ

وانظر هذه الصورة الرائعة المتحركة في (شزرا على نبض القلوب) وكيف أدت الى الصورة بعدها ، صورة الكلاب الصريعة المضرجة بدمائها ، فكأنها ظروف دنان ، ولكنها دنان مملؤة بالدماء . أما في المعركة الثانية فنراه يقول[2] :

---

١ — الديوان صفحة ١٤٥ — ١٤٦ . أشب : رفع له واتيح له . ضراء : كلاب . مكلب: صاحب الكلاب الذي يصيد بها . أقب : ضامر البطن أي الصائد. روقة : قرنه . نبض القلوب: تحركها . يختلها : يطعنها ويشكها . عماية نفره : ما ألبسه من الفزع الذي عمى عليه أمره . ظروف دنان : أرعيتها .

٢ — الديوان صفحة ٢٤٠ — ٢٤١ . عوابس : صفة للكلاب . كالنشاب : في اندفاعها واصابتها الهدف . الهاديات : أوائل الوحش . نوافل : مغانم . لم يعكم : لم يرجع . الغضف : المسترخية الآذان . الشميل : الفتائل . الجمائل : ما جعل للكلاب من رزقهن . يعرد : يترك القصد وينهزم . فكل : نكص وجبن . يسرن : من سار يسور ، يثبن . اللبات : الصدور أو المنحر ، موضع القلادة من الصدر . مزحف : معترك . القد : القطع والجرح .



عوابسَ كما للنشاب تدمي نحورُها | يَرَيْنَ دماء الهاديات نوافِلَا
فجال ولم يَعْكِمِ لغُضْفٍ كأنها | دِقاقُ الشعيل يبتدِرْنَ الجَعائِلا
لصائدها في الصيد حق وطعمةٌ | ويخشى العَذابَ ان يُعَرِّدَ ناكلا
قتالَ كَمِيٍّ غاب انصارُ ظهرِهِ | ولاقى الوجوهَ المنكرات البواسلا
يَسُرْنَ الى عوراته فكأنما | لِلَبَّاتِها يُنْحِي سِناناً وعاملا
فغادرها صرعى لدى كلِّ مَزْحَفٍ | ترى القَدَّ في اعناقهن قوافلا

واذا لاحظنا عناية لبيد بنشاط الثور وحركته وقوته في المعركة السابقة ، فانه هنا يصرف همه الى العناية بالكلاب ، فيصورها وهي ضامرة كالفتائل ، متأهبة للانقضاض عليه ووجوهها عابسة منكرة صارمة التقاطيع ، ويصورها وهي صريعة في كل معترك وقد بدت الجروح في أعناقها ، فهو [illegible] معني باظهار آثار فتك الثور ومظاهر قوته .

وقصة الثور هذه — كما جاءت عند لبيد — تناولها الشعراء الجاهليون من معاصريه أو من سابقيه ، تناولها الأعشى في قصيدته التي يقول فيها [1] :

كأني ورحلي والفِتانِ ونُمْرُقي | على ظهر طاوٍ أسفعِ الخد أخْثَما

---

[1] — ديوان الاعشى ص ٢٩٥ . الفتان : غشاء للرحل من الجلد . النمرق : وسادة صغيرة يتكأ عليها ، او بساط يفرش فوق الرحل . اسفع : اسود يضرب الى الحمرة . اخثم : أنف غليظ عريض .

وتناولها النابغة في قصيدته [1] :

يا دارَ ميَّةَ بالعلياء فالسَّنَدِ   أقوتْ وطال عليها سالفُ الأمَدِ

وتناولها زهير أيضاً حين يقول [2] :

فبات معتصما من قُرِّها لَثِقاً   رَشُّ السحابُ عليه الماء فاطَّرَقا

ليلتَهُ كلَّها حتى اذا حَسَرتْ   عنه النجوم أضاء الصبحُ فانطلقا

وقد تناولها غير هؤلاء ممن سبقوا لبيداً كأمرىء القيس في قصيدته [3] :

أماوي هل لي عندكم من معرس   أم الصرم تختارين بالوصل نيأس

وتناولها كذلك أوس بن حجر والمتلمس وغيرهم .

واذا قارنا بين ثور لبيد وثور الشعراء الآخرين ، نجد في غير غلو ، أن لبيداً قد وفق في رسم نفسية الثور وأحواله وفزعه وقوته ، وصور المعركة وتابع

---

١ – العقد الثمين ص ٦ ط الوارد، لندن ١٨٧٠ وخمسة دواوين العرب ص ١٧ ط بيروت. العليـــاء : مكان مرتفع من الارض . السند : سند الوادي من الجبل وهو ارتفاعه . اقوت : خلت من اهلها .

٢ – ديوان زهير ص ٤٦ . معتصم : مستمسك بشيء مستتر به . القر : البرد . لثقاً : مبتلا . اطرق : ركب بعض شعره بعضاً ، اطرق الليل : اذا ركبت بعض ظلمته بعضاً .

٣ – ديوان امرىء القيس ص ١٠٠ ط السندوبي . المعرس : مـــكان المبيت والنزول . الصرم : الهجر والقطيعة .

الثور بعد انتصاره ، فلبيد قد تميز بين اقرانه بالدقة في رسم الحوادث وتصوير الجو العام للمعركة ، مع تفصيل وشمول لم يبلغه غيره ممن عاصره أو سبقه .

٣ – الحمار والأتان :

ومثلما ساق قصصاً شائقاً للثور والبقرة ، وصور أحاسيسها وعواطفها وما مرت عليها من محن ، ساق للحمار وأتانه قصصاً شائقاً في شعره ، فقد ذكر لهما ثماني قصص ، تكاد كل واحدة تشبه الأخرى في اطارها العام ، وتختلف عنها في التعبير الفني وفي تفاصيل القصة وفي الجو النفسي الذي يعنى به كل عناية. ويتخذ لبيد من تشبيه ناقته بهذه الحيوانات وسيلة للحديث عنها ، والاستطراد في متابعة أوصافها كما فعل مع البقرة والثور ، وما دامت عناية لبيد منصرفة الى التصوير الداخلي للحيوان ، تصوير العواطف والنزعات والحركات ، فان القصة خير وسيلة لتحقيق بغيته .

والقصة التقليدية للحمار وأتانه هي – كما مرت في المعلقة – أن يناضل الحمار الحمر الأخرى ليتفرد بالأتان فيدفعها أمامه ويخلو بها بعيداً ، والأتان تعاسره حيناً وتستجيب له في حين آخر تطيعه تارة وتتمرد عليه أخرى ، فيقضيان أشهر الشتاء راتعين يجتزئان بالرطب عن الماء ، حتى اذا أقبلت شهور الصيف ، انطلق بها يريد الماء ، فراحت الأتان تعدو وهو يتبعها يعدو على جانب منها تارة ، ويرتقي النجاد والربايا يرقب الطريق تارة أخرى ، وهما في هذا العدو يثيران غباراً كأنه غلالة رقيقة يتجاذبانها ، أو دخان نار العرفج الساطعة أسنامها حتى اذا بلغا الماء شربا منه ، وخاضا فيه . ويفتن لبيد في كل قصة بوجوه من القول ، محاولاً في ذلك أن يخفي معالم الصنعة وأثر التكرار . وهو في قصيدة أخرى يشبه ناقته ببعير مسدم محجوم ثم يشبهها بهذا الحمار الذي يستطرد في ذكر حاله وسرد قصته ، فيقول :

أو مِسْحَلٍ سَنِقٍ عِضادةَ سَمْحَجٍ ... بسَراتِها نَدَبٌ له وكُلُومُ
جَوْنٌ بصارةَ أقفرت لمرادهِ ... وخَلالهُ السُّوبان فالبُرْعُومُ

وتصيَّفا بعدَ الربيع وأحنَقــا وعلاهما موقودُهُ المسمومُ[1]

من كل أبطحَ يَخْفيانِ غميرَهُ أو يرتعان فَبارِضٌ وجميمُ

حتى إذا انجرد النسيلُ كأنه زَغَبٌ يطير وكُرْسُفٌ مجلومُ

ظلت تخالِجُهُ وظَــلَّ يحوطُها طَوراً ويربأُ فوقَهـا ويحومُ

يوفي ويرتقب النِّجــادَ كأنهُ ذو إربَةٍ كلَّ المــرام يرومُ

فهو حمار أسود اللون عند جبل صارة ، قد شبع حتى بشم ، يصطحب أتاناً طويلة ضخمة ، على ظهرها آثار خدوش وجروح من عضه إياها ، وقد رعى بها أيام الصيف حتى أضمرتها السموم ، وهما يرعيان في بطون الأودية ويحفران بحوافرهما بحثاً عن الماء وقد انجرد ما عليهما من وبر ، كأنه ريش ليّن قصير يتطاير في الهواء ، أو قطن مقطوع ، ويحوم الحمار حول أتانه يرتقي الروابي يرقب لها الطريق فكأنه (ذواربة كل المرام يروم) حتى اذا أضر بهما العطش دفع أتانه أمامه ، وانطلقا يقطعان الفلوات البعيدة ، حتى أدركا عيناً

---

١ – الديوان ص ١٢٥ – ١٢٧ . المسحل : الفحل من الحمر ، وسحيله : صوته . سنق : بشم . عضادة سمحج : عضده الى جانب عضد الاتان الطويلة الظهر . سراتها : أعلى ظهرهـا . ندب : خدوش آثار . كلوم : جراح . جون : حمار أسود . صارة : جبل . مراده : موضعه الذي يرود في الرعي . السؤبان : واد في ديار بني تميم وفيه يوم السؤبان بين تميم وعامر . البرعوم: موضع في ديار بني اسد . احنقا : ضمرا . موقوده المسموم : شدة حر السموم . الابطح : بطن الوادي يخلطه حصى . يخفيان : يظهران . بارض : حين طلع . جميم : كثير . الغمير : الماء تحت التراب والرمال وهي الاحساء . انجرد : سقط . النسيل : الوبر . زغب : ريش لين قصار . كسرسف : قطن . مجلوم : مقطوع بالجلم وهو المقراض . تخالجه : تميل عنه جانباً . يربأ فوقها: يعلو رابية . يوفي : يشرف . ذو إربة : ذو حاجة . المرام : المطلب .

غزيرة المياه ، كثرت على حوافها الأشجار ، وتنبعث من بينها أصوات ضعيفة للضفادع ، فخاض وسط الماء حتى غطى صدره ودفع أنثاه وسط العين تعوم [1].

حتى تهجَّرَ في الرواح وهاجه طلَبَ المعقبِ حقَّـــه المظلومُ

فتضَيَّفا ماءً بدخـــل ساكناً يستَنُّ فوقَ سراتِه العلجومُ

غَلَـــلاً تضمنه ظـــلال يراعَةٍ غرقى ضفادعـــه لهن نَئيمُ

فمضى وضاحى الماء فوقَ لَبانِه ورمى بها عرض السرىّ يعومُ

وللحمار علامات وصفات عند لبيد — كما هي عند الجاهليين — فهو عراقي كريه الوجه يسوق أتناً سمينة [2] :

أذلـــك أم عراقيٌّ شَتِيمٌ أرنٌّ على نَحائِصَ كالمقالي

وهو أسود اللون رشف من المناهل حتى ارتوى [3] :

---

١ — الديوان ص ١٢٨ — ١٣٠ . المعقب : صاحب المال . الدحل : غار يكون في أصل الجبل فيه ماء يضيق من أعلاه ويتسع من آخره . سراته : ظهره . العلجوم : الموج ، والعلجوم ايضـــاً : الضفدع . الغلل : الماء الجاري وهو الذي يجري بين الشجر . نئيم : صوت ضعيف . ضاحي الماء : اعلاه . لبانه : صدره . عرض السرى : وسط النهر .

٢ — الديوان ص ٨١ . أذلك : إشارة الى الثور. أم عراقي: يريد الحمار الذي يأتي العراق. شتيم : كريه الوجه . كأنه كل من يراه يشتمه . ارن: صاح ورن . نحائص : اتن واحدتها نحوص التي حالت ولم تحمل. المقالي : واحدتها مقلاء وهو عود القلة ، وهي العصي التي تكون بايدي الصبيان يلعبون بها والقلة التي اسفل وهي الصغيرة .

٣ — الديوان ص ١١٧ . جون : حمار في لونه سواد . تربع : من الربيع . الخـــلى : الحشيش . ليس بالمظلوم : لم يطرد عن اتنه فيستولي عليها غيره . وسمية : سحابة مطرت في أول الربيع فوسمت الارض . او وسميه : أي وسمى الحمار .



جَوْنٍ تربَّعَ في خُلى وسَمِيُّه رَشْف المناهل ليس بالمظلوم

وقد شبع حتى بشم كثير العض لأتانه [1] :

أو مِسْحَلٍ سَنِقٍ عِضادةَ سَمْحَجٍ بسَراتها نَـدَبٌ له وكـلومُ

وهو ضخم غليظ سريع اذا سار لا يكبو ولا يتعثر ، يدفع أمامه الأتن السمينة [2] :

كأنَّ قتُودي فوق جَأْبٍ مُطَرَّدٍ يُفِزُّ نَحُوصاً بالبراعم حـائلا

وقد يكون في حقبه بياض [3] :

أو مُلْمِعٌ وسقَتْ لاحقبَ لاحَهُ طردُ الفحول وضربُها وكِدامُها

وهو كثير الشحيج جريء ضامر البطن سريع العدو ، يميل على أحد شقيه اذا عدا [4] :

---

١ – الديوان ص ١٢٥ . المسحل : الفحل من الحمـر . سحيله : صوته . سنق : بشم . سمحج : أتان طويلة الظهر . سراتها : ظهرها . كلوم : جروح .

٢ – الديوان ص ٢٣٥ . الجأب : الحمار الغليظ . مطرد : متتابع في سيره لا يكبو . يفز نحوصاً : يثير أتناً سمينة . حوائل : لم تحمل .

٣ – الديوان ص ٣٠٤ . ملمع : أتان استبان حملها . وسقف : حملت . الاحقب : حمار في موضع الحقب منه بياض . لاحه : غيره . كدامها : عضها .

٤ – الديوان ص ١٨٩ . شحاج : كثير التصويت . مدل : جريء . لاحق : ضامر . زمل : عدا مائلا .

فهــو شُحَّاجٌ مُدِلٌ سَنِقٌ   لاحقُ البطن اذا يعدو زمل

وهو الى كل هذه الصفات فحل منسوب الى (اخدر) معروف بالعتــق والجودة [1] :

وشتيمٌ جون يطارد حُولاً   اخدريٌّ مُسَحَّجٌ سَلْعالُ

ويستعير لبيد لحماره صفات الانسان العاقل المفكر الذي يتروى في أموره ويقلب الرأي على وجوهه [2] :

يقلّبُ أطرافَ الأمور تخالُه   بأحناء ساقٍ آخرَ الليل ماثلا

ويمنحه من الانسان لهوه وطربه وغوايته ، فاذا نهق فهو سكير أخــذت الخمرة منه كل مأخذ [3] :

يُطَرِّبُ آناء النهار كأنَّهُ   غَوِيٌّ سقاهُ في التِّجارِ نديمُ
أُميلتْ عليه قَرْقَفٌ بابليةٌ   لها بعدَ كأس في العظام هميمُ

---

١ - الديوان ص ٢٦٩ . حولاً : أتن لم تحمل . اخدري : منسوب الى فحل اسمه اخدر . مسحج : معضض . صلصال : شديد الصوت .

٢ - الديوان ص ٢٣٧ . ساق : جبل لبني أسد بين النباج والنقرة .

٣ - الديوان ص ٩٦ - ٩٧ . يطرب : يردد النهــاق . أميلت : اديمت . هميم : دبيب خفي . قرقف : خمر . بابلية : منسوبة الى بابل أي عتيقة .

ويلح على هذه الصورة الأخيرة ، فيكررها في قصيدة أخرى فيقول [1] :

كأنَّ سحيلَهُ شكوى رئيسٍ يُحاذر من سَرَايا واغتيالِ
تَبَكَّى شارب أُسرت عليه عتيقُ البابلية في القِلالِ
تذكَّرَ شجوَهُ وتقاذفتـــه مشعشعَةٌ بمغروض زُلَالِ

ويتأنق لبيد في رسم صورة الغبار الذي تثيره الأتن وهي تعدو ، فتارة هو غبار ساطع كأنه سرادق تحركه الريح فهو بين ميل واعتدال :

رفعنَ سُرادِقا في يوم ريح يُصفِّق بين مَيْلٍ واعتدال

وتارة هو غبار أسود — وان شئت أبيض فالجون لها — يشبه الضباب :

فهيجها بعد الخلاج فسامحت وأنشأَ جوناً كالضبابة جائلا

وتارة أخرى ، هو غبار ممتد كأنه دخان نار مشبوبة الضرام ، خلط حطبها بنبات العرفج الطري ، وقد هبت على النار ريح الشمال [2] :

---

١ — الديوان ص ٨٤ — ٨٥ . سحيله: أي صوت الحمار . امرت عليه : دامت عليه ليلتها ثم اصبح وهي جاهدة له . القلال : جرار الخمر . تقاذفته : اصابته كأس بعد كأس . مشعشعة : ممزوجة . مغروض : طري قريب عهد . بالسحاب رفمن سرادقاً : أي رفعت الاتن غباراً كأنه سرادق . يصفق : يميل أي تصفقه الريح كأنه قسطاط .

٢ — الديوان ص ٣٠٦ . سبطاً : غبـــاراً ممتداً . الضرام : الحطب الدقيق . مشمولة : اصابتها الشمال .

فتنازعا سَبِطا يَطيرُ ظلالُه   كدخان مُشْعَلَةٍ يُشَبُّ ضِرَامُها

مشمولة غُلِثَتْ بنابت عرفج   كدخان نار ساطعٍ أسنامُها

ولبيد في أوصافه دقيق متأنق كأنه يرسم لوحة فيعنى بكل جوانبها ، فقد عني بالحمار وبين أوصافه الحسية ، وعني بسيرته فبين خصاله وحالته النفسية ، فهو حريص على أتانه حذر يرقب الطريق كثير العراك ، مسحج مكدم كثير النهيق كأنه غوي طرب شريب .

وصورة الحمار في شعر لبيد نجدها عند أقرانه الجاهليين ، مثل : الأعشى ، والنابغة ، وأمرىء القيس ، وزهير ، على أن أقرب هذه الصور الى شعر لبيد ، تلك التي نجدها في قصيدة أمرىء القيس[1] :

أَمِنْ ذِكْرِ سلمى اذ نأتكَ تنوصُ   فتقصُرُ عنها خَطْوَةً وتبوصُ

وفي شعر زهير وصف للحمار يكاد ان يكون نقلاً موجزاً لصورة الحمار عند لبيد ، وذلك حين يشبه ناقته بحمار الوحش قال[2] :

اذلك أم أقبُّ البطن جَأْبٌ   عليه من عقيقَتِهِ عِفاءُ

وهذا الانتقال بالاشارة نفسها (أذلك أم) في وصف الحمار عند لبيد في قوله :

---

١ – ديوان امرىء القيس ص ١٠٤ والعقد الثمين ص ١٣٦ . تنوص : تذهب . متباعداً . تبوص : تعجل .

٢ – ديوان زهير ص ٦٥ . وفي رواية : أذلك أم شتيم الوجه جأب ...

أذلك أم عراقيٌّ شتيمٌ أرَنٌّ على نحائصَ كالمقالي

ويقول زهير بعد ذلك[1] :

تربع صارةً حتى إذا ما فَنَيْ الدُّحلانُ عنه والإضاءُ

وهذا المكان نفسه يذكره لبيد في سياق حديثه عن الحمار[2] :

جون بصارة اقفرت لمراده وخلا له السوُّبانُ فالبرعومُ

ويقول زهير[3] :

تربَّعَ بالقَنان وكلِ فَجٌّ طَباهُ الرَّعيُ منه والخَلاءُ

فأوردها حياض صُنَيْبِعاتٍ فألفاهُنَّ ليس بهن ماءُ

---

١ – ديوان زهير ص ٦٥ . تربع : أقام الربيع . صارة : موضع وقيل جبل . فنى : يريد فني (بالملاء) وهي لغة طيء . الدحلان : الواحد دحل، وهي البئر الجيدة الموضع من الكلأ. الاضاء : الغدران الواحدة اضاءة .

٢ – ديوان لبيد ص ١٢٦ .

٣ – ديوان زهير ص ٦٥ – ٧٠ . القنان : جبل لبني أسد . طباه : أي دعاه ما فيه من الرعي . الخلاء : خلاؤه من الناس . فج : طريق وهو كل متسع . الرعي : الكلأ . والرعي : المصدر . صنيبعات : أرض . فشج بها : علا بالاتن . الاماعز : الامكنة الغليظة الكثيرة الحصى. أسلمهـــا : خذلها أي انقطع . الرشاء : الحبل . ليس لحاقه ... : اي لا يلحق في السرعة مثل الحمار ولا ينجو مثل الأتان . يؤود : أرض . دعاء : شبه صوت الحمار بانسان يدعو صاحبه .

فشجَّ بها الاماعزَ وهي تَهْوِي هُوِيَّ الدَّلو أسلمها الرِشاءُ
فليس لَحَاقُه كلحاق إلْفٍ ولا كنجائِها منه نَجاءُ

وهكذا يمضي زهير في وصف سرعة الحمار وأتانه ، حتى يستوقفنا بيت يشبه فيه سحيل الحمار بصوت انسان يدعو صاحبه :

كأن سحيله في كل فجر على أَحساءِ يَمْؤُدٍ دُعاءُ

وقد مر بنا بيتان في شعر لبيد فيهما تشبيه سحيله بغناء انسان غوى قد سكر . ويتضح في هذا التوافق الكبير بين زهير ولبيد ، ومن الصعب أن نقطع أيهما نقل عن الآخر ، فقد يكون هذا التوافق عن غير قصد او تأثر ، وهذه الصور وغيرها شائعة في الشعر الجاهلي ، وكلاهما مسبوق بأمرىء القيس الذي كان مجلياً في هذا الميدان .

ولكن الذي لا شك فيه ، هو أن صورة الحمار عند لبيد أكثر دقة وتفصيلاً وبراعة منها عند زهير ، فلبيد قد وقف وقفات فنية ، فصور ببراعة عواطف الحمار وأتانه ، وتفكير الحمار وعزيمته وقوة مضائه ، ومخالفة الأتان ومعاسرتها له ، ودقق في رسم صورة الغبار المتنازع بينهما وشبهه بالسرادق وبالضباب وبالنار الموقدة ، وتأمل كذلك في وصف الماء وعوم الأتان ، وتنبه للضفادع وحكى صوتها الضعيف . وهكذا نجد لبيداً مجلياً في أوصافه مفتناً في رسم صوره .

٤ – الفرس :

لم تحظ فرس لبيد بالعناية التي حظيت بها بقية الوحوش ، فليس لفرسه قصة مثل القصص الذي صاغه حول البقرة والثور والحمار والأتان ، ولعل مرجع



ذلك الى أنه ساق قصصها وحكى مغامراتها لأنها تشبه ناقته تلك في صفاتها وعاداتها وما لقيت من مصائب ومحن، أما فرسه فلم تكن له قصة لأنه لم يتخذه مثلاً لناقته ، ولم يستعر من صفاته شيئاً لخصال ناقته ولذلك كان لبيد في وصف فرسه عجلاً غير مطيل ، صرف همه لوصف جسمه ونشاطه وفرط سرعته ، وكان لا بد أن يقترن وصف الفرس بذكر فروسية لبيد وحسن بلائه في القتال، أو حين يحمي قومه ويكون ربيئة لهم . وفرس لبيد متميز بصفات ، فهو ضخم متين كجذع الهاجري ، طويل العنق شديد العظام ، ذو نشاط ومرح ، ينجو به من المخاوف ، ويقطع عليه المفاوز ، فاذا البعيد قريب ، وهو كريم من عتاق الخيل قد لصق عذاره على خده الأسيل الذي قل لحمه . وصدره مرتفع ليس به دنن أو تطامن ، فاذا دفعه وأرخى من زمامه ، عدا فاشتد في العدو كأنه نسر هيجته ريح الجنوب ، وانظر في هذه القطعة كيف جمع لفرسه معاني النشاط والسرعة والحسن ، في عبارة أنيقة رشيقة ، فبعد حديثه عن الروض يقول [1] :

بسَرتُ نداه لم تَسَرَّبْ وحوشُه   بغَرْبٍ كجذع الهاجري المُشَذَّبِ
بمطَّرِدٍ جَلْسٍ علته طريقةٌ   لسمك عظام عرضت لم تُنَصَّبِ

---

١ – الديوان ص ١٢ – ١٦ . بسرت نداه : كنت أول من أتاه ، ونداه نباته . تسرب: تخرج ترعى . الغرب : هنا الفرس وهو حد كل شيء . المشذب : المقشور عنه ليفه . مطرد : فرس يهتز اذا مشى لنشاطه ومرحه . جلس : مشرف غليظ . عرضت لم تنصب : يقول : هي مفروشة عوج والفرش في الرجل اي لم تسو في ارتفاع وذلك اشد لقوائم الفرس . البراح : المستوي في الارض او الفضاء . نفضته : نظرت هل أرى فيه أحداً اخافه . اللبان : الصدر . المنحوض : القليل اللحم . معروق الغرارين : الجانبين . صلب : صلب شديد او حجارة المسان. الثغر : الطريق في الجبل. الكافر : الليل وكل ما غطى شيئاً فقد كفره . تجافيت عنه : ارتفعت عن السرج قليلاً . عجلان ملهب : اخذ في العدو الشديد كأنه يضطرم من شدة العدو . رضاك: يعطيك من التقريب رضاك . مار : عرق . عطفه : جانبه . يدأب : يلج في عدوه . هوى غداف : يهوي هوي غداف والغداف طائر اسود عظيم ، الغراب او النسر . هيجته جنوبه : اعانته على طيرانه ريح الجنوب . اذراء : جوانب وهو ما استترت به من الريح .

إذا ما نأى مني بَراحُ نفضته ... وان يدنُ مني الغيبُ ألجم فأركبِ
رفيع اللّبان مطمئناً عِذارُه ... على خدٍّ منحوض الغرارين صُلّبِ
فلما تغشى كلَّ ثغرٍ ظلامُه ... وألقت يداً في كافر مُسْيَ مغربِ
تجافيت عنه واتقاني عِنانُه ... بشدٍّ من التقريب عجلانَ مُلْهَبِ
رضاكَ فان تضرب اذا مار عِطْفُه ... يزِدْكَ وان تقنع بذلك يَذْأَبِ
هَوِيَ غُدافِ هيَّجتهُ جَنُوبُه ... حثيثٍ الى أذراءِ طَلْحٍ وتَنْضُبِ

ويتحدث لبيد عن بطولته وقوة قلبه ، حين خرج يزهو على ظهر فرسه وهو كامل العدة للقاء العدو ، ينظر الى فرسه نظرة تدقيق وتأمل فيصفه وصفاً دقيقاً في حسن شياته وأعضائه ، فهو قصير الأرساغ — وقصرها محمود — من جياد الخيل ، وهو شديد الأسر ، موثق الخلق ، مرتفع الكتفين ، مدمج الكفل ، طويل الظهر ، خفيف نشيط سريع الحركة أجش الصوت ، تعود الصهيل عند مشارف الأحياء حين يعود من غزوة أو يفرغ من غارة ، واذا ما حمي وتصبب العرق من جسمه ، انساب على متنه الأملس كما ينساب الماء على الصخرة الناعمة الملساء . ولبيد معجب شديد الاعجاب بسرعته وفرط نشاطه ، حتى انه يشبهه في هذه الحال بالشاهين القوي حين ينطلق مسرعاً في غير ضعف ولا عجز يقول [1] :

---

١ — الديوان ص ١٨٦ — ١٨٨ . غير طويل المحتبل : غير طويل الارساغ ، والمحتبل : موضع الحبل من رسغه . ساهم الوجه : اي محمول على كريهة الجري . الحارك : فروع الكتفين ، الكاهل . الغبيط : قتب الهودج ، اي كأن ظهره غبيط . محبوك الكفل : عجزه مدمج فيه استواء مع ارتفاع . اليعبوب : الفرس الطويل السريع او الكثير الجري . أجش الصوت : يمدح الفرس بأن يكون في صوته جشة . الزج : السنان هنا ، والزج : النعام البعيد الخطو . المنتخل : المنتقى اي رأس هذا الفرس مع رأس الزج يباريه بخده الاسيل . النحض : اللبن الخالص لا ماء فيه . الصفا : الصخرة الملساء . الوشل : الماء القليل يتحلب من جبل او صخرة . السوذانق : الشاهين او الصقر . اجدلي : نسبة الى الاجدل وهو الصقر . الوكل : الضعيف البليد العاجز .

ولقـــد أغدو ومـــا يعدمني　　صاحبٌ غيرُ طويـل المُحتَبَلْ

ساهمُ الوجـــه شديدٌ أسرُهُ　　مُغْبَطُ الحاركِ محبوكُ الكَفَلْ

بأجشِّ الصـــوت يَعْبُوبٍ اذا　　طَرَقَ الحَيَّ من الغزوِ صهلْ

يـــطرد الزُّجَّ يبـــاري ظِلَّه　　بأسيـــل كالسنان المنتخـــلْ

وعلاه زَبَـــدُ المَحْضِ كما　　زَلَّ عن ظهر الصفا ماءُ الوَشَلْ

وكأني ملجـــم سُوذانِقـــاً　　أجدلياً ، كَرُّه غيرُ وَكَلْ

وعلى مثل هذا الجواد يقضي نهاره ، أو يترصد لعدوه ، أو يغير ويغزو ، ولا شك أن لبيداً قد أفاد من خبرات الشعراء السابقين في تصوير سرعة الفرس، وقوة شده ، فهو في قوله :

يطرد الزجَّ يباري ظله　　بأسيلٍ كالسِّنانِ المنتخل

قد أفاد من قول امرىء القيس [1] :

يباري شَباةَ الرمح خَدٌّ مذلَّقٌ　　كصفحِ السنان الصُّلَّبي النَّحيضِ

---

١ — ديوان امرىء القيس ص ١٠٩ والعقـــد الثمين ص ١٣٨ . شباة الرمح : طرفه . مذلق : محدد . كصفح السنان : كحجر المسن . النحيض : المرقق .

ومما يدخل هذا المدخل قول لبيد في كتيبة فيها خيول كالحمام تباري الرماح عند العشى [1] :

ومشعلةٍ رَهْواً كأن جيادَها حَمامٌ تبارى بالعشيِّ سوافلا

وأبرز ما يلاحظ في وصف لبيد للخيل عنايته بحركتها وسرعتها ونشاطها، ولذلك شبهها بالصقر – كما مر – وبالنعام، وبالحمامة، في قوله [2] :

رفَّعتُها طَرَدَ النعام وشَلَّهُ حتى اذا سَخِنَتْ وخف عظامُها

قلقت رِحالتُها وأسبل نحرُها وأبتل من زَبَدِ الحميم حِزامُها

ترقىْ وتطعن في العِنان وتنتحي وِرْدَ الحمامة إذ أجدَّ حَمامُها

ويصفها قوية نشيطة في كل أحوالها حين يخرج بها أو حين يعود بها بعد جهد وعناء، فاذا ما اراحوها ووضعوا عنها الالباد، ظلت على حماسها وهبابها ذاك، لا يكاد يضبطها ضابط الا بالأعنة والمساحل [3] .

---

١ – الديوان ص ٢٥٢ . مشعلة : صفة لكتيبة بمعنى كثيرة العدد منتشرة . السوافل : جمع سافلة وهي نقيض العالية في الرمح . رهوا : سهلة السير .

٢ – الديوان ص ٣١٦ – ٣١٧ . رفعتها : طردتها وحثثتها . طرد النعام : عدو النعام . الشل : السوق . سخنت : حميت . خف عظامها : اسرعت . الرحالة : سرج من جلد الشاء وربما كان من لبود . اسبل نحرها : سال منه العرق . الحميم : العرق . ترقى : ترفع رأسها . تنتحي : تقصد . الحمامة : القطاة . أجد حمامها : جد في الطيران الى المورد .

٣ – الديوان ص ٢٥٩ – ٢٦٠ . نضحت اعطافها وكواهلها : اي بالعرق، يريد اراحوها بعد التعب . الدره : العوج في القناة والعصا . المساحل : ج مسحل ، وهي الحديدة التي تجعل في فم الفرس ليخضع .



اذا وضعــوا ألبادَها عن متونها
وقد نَضَحت أعطافُها والكواهلُ

يلاقون منها فرطَ حَدٍّ وجرأةٍ
اذا لم تقَــوَّم درأُهنَّ المساحِلُ

واذا كان وصف لبيد للفرس سريعاً في أبيات ذوات عدد ، فانه وفاه حقه فذكر أوصافه الجسمية ، وصور حالته ، وبين طباعه ، وعين مزاياه ، فكأنك حين تقرأ شعره في الفرس ترى صورة جميلة فيها حياة وحركة ولها هباب في الزمام ، ونشاط حين تعدو أو تسير .

٥ – حيوانات أخرى :

ولبيد مولع بذكر ضروب من الحيوان ، منه ما يقف عنده فيطيل الوقوف ويصفه فيجيد وصفه ، ويتوهم له قصة فيقصها ، أو حادثة فيرويها . ومنه ما يرد ذكره في سياق تشبيه أو تمثيل فيذكره في أبيات قلائل . ومن هـــذه الحيوانات التي تعرض لذكرها من غير تفصيل : الظبي والنعامة والوعل وكلب الصيد والصقر والأسد والضفدع والذئب والحمامة والغراب . وكل هـــذه الحيوانات مما تحفل بها بيئته ، وللبيد فيها بصر ، وله علم بطباعها وغرائزها وأشكالها .

وقد ظهر حب لبيد للحيوان — سواء في ذلك الأليف أم المتوحش — من كثرة ما أفرد له من شعر ، وما أعاره من خصال الانسان وعواطفه . وكما استعار لبيد لناقته صفات الثور والبقرة ، وصفات الحمارّ والأتان

فروى لكل ذلك قصصاً ، فانه استعار لناقته أيضاً صفات النعـــام واستطرد ليحكي قصة الظليم والنعامة ، فقال بعد حديثه عن الثور[1] :

أفذاك أم صَعْلٌ كأن عِفاءَهُ ... أوزاع ألقــاء على أغصان
يَلقى سقيط عِفائِه متقاصراً ... للشد عاقدَ مَنْكِبٍ وجِران
صُعْلٌ كسافلة القَناةِ وظيفُه ... وكأن جؤجوءَه صفيحُ كِرانِ
كَلِفٌ بعارية الوظيف شِمِلَّةٍ ... يمشي خلال الشَّرْيِ في خِيْطانِ
ظلت تُتَبَّعُ من نِهاءِ صَعائِدٍ ... بين السليل ومدفع السُّلَّانِ
سَبَداً من التَنَوَّمِ يَخبِطُه النَّدى ... ونوادرا من حنظل الخُطْبانِ
حتى اذا أفِدَ العَشِيَّ تروَّحا ... لمبيت ربعي النِتاج هِجانِ
طالت أقامته وغيَّرَ عهدَه ... رِهَمُ الربيع ببُرقة الكَبَوانِ

---

١ – الديوان ص ١٤٧ – ١٤٩ . افذاك : اي الثور . صعل : النعام دقيق العنق صغير الرأس . عفاءه : ريشه . أوزاع : قطع . القاء : ما القي من شيء فهو ألقاء ، اي ريشه كأنها خرق على اغصان . سقيط : ما سقط من ريشه . متقاصراً : مجتمعاً ، اذا اراد ان يعدو اجتمع. عاقد منكب : اذا تقبض فقد عقد منكبه . الجران : باطن الحلق اي حلقومه ومريئه . كسافلة القناة وظيفه : اي طويل الساقين وسافلة القناة : فوق الزج من الرمح . جؤجؤه : صدره . الصفيح : الخشب المشقوق . الكران : البربط او العود . كلف : محب لأنثاه . شملة : سريعة . الشرى : شجر الحنظل . خيطان : ج خيط وهو الجماعة من النعام وغير النعام . نهاء : واحدها نهى وهو موضع مطمئن له حاجز ينتهي اليه السيل . صعائد : موضع . السليل : واد . التنوم : شجر . يخبطه الندى : يصيبه المطر . نوادر : ما سقط من الحنظل . الخطبان : صفرة الحنظل وخضرته ، وكل شيء فيه طرائق صفرة وخضرة وبياض فهو خطب . أفد العشي : عجل عليهما. تروحا لمبيت ربعي النتاج: اي عاد الظليم والنعامة الى بيضهما. هجان : ابيض . الرهم : الامطار الصيفية . البرقة : رمل يخلطه حصباء . الكبوان : واد .

فهذا الظليم صغير الرأس دقيق العنق كأن ريشه خلقان بالية القيت على اغصان ، ساقه هزيلة دقيقة تشبه الرمح ، وصدره مثل أخشاب العود ، وقد بدا كذلك حين تهيأ للهروب ، فجمع نفسه وقبض جسمه وهو كلف بأنثاه ذات الساق العارية ، وهي خفيفة سريعة عند العدو ، وراح واياها ينتظمان مع جماعة النعام ، يتبعان الثمر ، وقد سارا من أرض (صعائد) هابطين في وادي (السليل) حتى انتهيا الى مجرى (السلان) يطلبان شجر التنوم الندي والحنظل المتساقط ذا اللون الاخضر الذي خالطته صفرة ، وكان ذلك دأبهما اذ أدركهما العشي ، فرجعا الى بيضهما الذي وضعاه منذ الربيع فتغير عهده لما اصابه من مطر الربيع ، وما قام حوله من نبات في برقة (الكبوان) من أرض بني عامر .

ويصور لبيد حنان الأمومة في الظبية حين يشبه حبيبته بها ، فهي ظبية ولود ، أدماء اللون ، ترتاد مسايل المياه ، قد أنامت طلاها الغضيض الطرف اللين الاظلاف ، الذي قد اشتد لحمه ، أنامته في موضع بذات السليم ، وهي منه عن كثب ترقبه وترعاه خوفاً عليه من وحوش الصحاري وعوادي الأيام[1] :

لياليَ تحت الخِدر ثِنْيَ مصيفةٍ — من الأدْمِ ترتاد الشُّروجَ القوابلا

أنامتْ غضيضَ الطرف رَخْصاً ظلوفُه — بذات السُّلَيم من دحيضةَ جادلا

مدى العين منها أن يُراعَ بنجوةٍ — كقَدْرِ النجيث ما يَبُذُّ المناضلا

---

١ — الديوان ص ٣٤٥ — ٢٤٦ . ثني: ظبية ولدت بطنين. مصيفة: ولدت بعدما كبرت . الشروج : مسايل الماء واحدها شرج . القوابل : ما قابلك من الوادي . غضيض الطرف : فاتر. ذات السليم : موضع . دحيضة : بلد . جادل : حين اشتد لحمه . مدى العين منها : بقدر ما تنظر اليه . ان يراع: لئلا يراع. النجيث: الغرض الذي يعمل من نجيث الارض وهو ما استخرج منها من التراب اي فولدها منها كما كان الغرض من الرامي . ما يبذ المناضلا : ما يفوت الرامي ان يبلغه .

ويصف لبيد مشهداً فيه الظباء والنعام والبقر وقد نتجت حديثاً وصغارها تتجمع حولها أو تسير قطعاناً وتمرح بين نبات الايهقان وقد أينع على جانبي الوادي[1] :

فعلا فروعُ الأَيْهَقان وأطفلت بالجهلتين ظباؤها ونعامها
والعين ساكنة على أطلائها عوذا تأجَّلُ بالفضاءِ بِهامُها

فهذا مشهد تظهر فيه روعة التصوير وبراعة الفن وهو حافل بالحياة والحركة واللون ، حين نزل المطر وأينع النبت ، وهذا المنظر يذكرنا بمنظر للحيوان عند زهير[2] :

ديار لها بالرقمتين كأنها مراجعُ وشم في نواشر معصمِ
بها العِينُ والارام يمشين خِلْفَةً واطلاؤها ينهضنَ من كل مجثم

وللبيد مشهد آخر شبيه بهذا حيث وصف ديار حبيبته التي اقفرت وصارت مرتعاً للوحش من الحيوان[3] :

---

١ – الديوان ص ٢٩٨ – ٢٩٩ . الايهقان : جرجير البر . الجهلتان : جانبا الوادي . العين : البقر سميت بذلك لكبر عيونها . اطلاؤها : اولادها ، واحدها طلا . عوذا : حديثات النتاج . تأجل : تسير اجلا أي قطعاناً . البهام : اولاد الضأن وهنا اراد البقر الوحشي .

٢ – ديوان زهير ص ٥ . الرقمتان : احداهما قرب المدينة والاخرى قرب البصرة . مراجع وشم : ترديده ليثبت . النواشر : عصب الذراع واحدها ناشرة . الآرام : الظباء البيض .

٣ – الديوان ص ١٣٩ – ١٤٠ . الحنظلية : امرأة . آياتها : علاماتها . كنهبل : شجر عظام . الغلان : اودية الشجر واحدها غال . الخيط : جماعة النعام . الاحدان : جمعه والواحد مفرده ، اي متفرقة . الخاذلات : الظباء والبقر اذا تبعت صواحبها وتركت اولادها . الجاذر : اولاد البقر ج جؤذر . حانية : عاطفة على أولادها .



للحنظلية أصبحت آياتُها يبرقن تحت كَنَهْبُل الغُلّانِ
خلدت ولم يخلد بها من حَلَّها وتبدلت خَيْطاً من الأحْدانِ
والخاذلات مع الجاذر خلفة والأدم حانية مع الغزلان

ولعل فيما تقدم من وصف لبيد للحيوان غناء ، فقد ظهر بوضوح كلف لبيد بالحيوان ، وتفننه في تحبير الصور الرائعة ، والمشاهد الجميلة التي صورها بدقة وأناقة وامعان . ولننظر بعد هذا في وصف لبيد للطبيعة الصامتة .

٢

وصف الطبيعة من غير الحيوان :

قد تبدو أوصاف لبيد في الحيوان وفي الطبيعة منفصلة — وهذا ما يقتضيه التبويب المنهجي — ولكنها في حقيقتها غير ذلك ، فهي متصلة مترابطة ، بل متداخلة في أكثر الأحايين ، واذا نظرنا في معلقة لبيد وفي قصائده الطوال نجد الموضوعات تتتابع مترابطة ، فحديثه عن الديار وأقفارها ، يفضي الى وصف الأمطار والسحب وأنواعها وألوانها ، وتكون من هـــذه السحب والأمطار والسيول الجارفة والأرض الندية التي تنبت العشب وينجم فيها الزرع فتسكنها البهائم ، وتطمئن اليها ثم تضع صغارها هنالك ويتجدد لذلك منظر الحيوان في حركته ونقلته ، فاذا أمعن في النظر في هـــذه الديار ، شبهها بالكتابة التي انطمست معالمها ، ويرى في هذه الرسوم شبهاً بما يراه في الوشم ودارات الواشمة وذر نؤورها ، وهكذا تتكون لدى لبيد لوحة زاهية ، كل جزء فيها مكمل لجزء آخر ، وكلما أجال النظر فيها وجـــد معالم جديدة تستحق الوصف والتشبيه وهكذا .

وقد رسم لبيد للطبيعة لوحات كثيرة ، يجد المتأمل فيها : المطر والسحاب والسيول والنبات والرياض والنخيل ، وظلام الليل ونجوم السماء ، وبرد الشتاء وحر الهاجرة، ويلمح السراب والبرق، ويعرف الطرق وعيون المياه والاحواض والدلاء ... واذا وصف لبيد روضة من الرياض ، فلا يقف عند هذه الروضة وحدها ، بل لا بد أن يتحدث عن المطر والندى ولون النبات الزاهي حين تنشر عليه الشمس ضياءها فيبدو زاهياً متألقاً . ويهيء لبيد هذا المنظر عادة تمهيداً للحديث عن فرسه الذي قطع هذا الروض ورعاه قبل أن ترعاه البهائم والوحوش ، على شاكلة ما يقول [1] :

وغيثٍ بدَكْداكٍ يزين وهادَهُ نباتٌ كوشي العبقري المخلب
أربّتْ عليه كلُّ وطفاء جونةٍ هتوفٍ متى ينزف لها الوبل تسكب
بذي بهجة كُنَّ المقانبُ صوبَهُ وزينه أطرافُ نبتٍ مُشَرَّب
جلاه طلوع الشمس لما هبطته وأشرفت من قَضْفانه فوق مَرْقَب
بَسَرْتُ نداه لم تَسَرَّب وحوشُهُ بِغَرْب كجذع الهاجري المُشَذَّب

---

١ – الديوان ص ١١ – ١٢ . غيث : نبت ، والغيث مطر وسحاب ايضاً . الدكداك : ما ارتفع واستوى من الارض . وهاده : الارض المطمئنة واحدها وهدة . العبقرى : نسبة الى ارض عبقر . مخلب : مخطط بألوان الصبغ . أربت : اقامت . الوطفاء : السحابة القريبة من الارض . جونة : سوداء . هتوف : فيها صوت من الرعد . ينزف لها الوبل : يذهب ، اي تأتي بمطر بعد مطر . البهجة : الزهر والحسن ، اي بمطر ذي بهجة اي ذي نبات حسن . المقانب : جماعات الخيل الواحد مقنب والمقنب : ثلاثون فارساً والسرية اربعون . مشرب : اي اشرب ألواناً من الزهر . جلاه : حسنه طلوع الشمس . القضفان : جبال صغار . المرقب : اعلى الجبل او مكان الترقب . بسرت : كنت اول من أتاه . الغرب : هنا الفرس .

ولبيد مولع بذكر السحاب والمطر ، معجب بالبرق ، ينظر اليه ويتأمل فيه ، فرب ليلة بات متكئاً على مرفقيه يرقب فيها البرق يلمع في السماء ما يكاد يخبو حتى يضيء ، ويندفع أمامه سحاب كثيف ثقيل ، فاذا لمع البرق تجلى ضياؤه على هذه السحب ، فكأنها — حينئذ — ملاحف بيض منشورة . ويتسمع الى هزيم الرعد فيخال قطعاناً من الأغنام ، أخذ الرئيس مرباعه منها فافترقت الأمهات عن صغارها فما تنفك في ثغاء وصياح ، حتى اذا نزل المطر وساح في الأرض فصار سيولاً تفزع من هوله الوعول فتنحط من شعاف الجبال ، وتخرج النعاج من مواطنها قطعاناً يدفعها السيل ويخيفها المطر ، ويلتفت لبيد الى هذه النعاج والوعول وقد بللها المطر ، ويرى متونها وقد جلاها الماء كأنها لؤلؤ جديد جلاه غلمان الصاغة ، وهذا المطر الكثيف قد تجمع وصار سيولاً متدافعة ملأت الاودية فالتقى بذلك سيل (البدي) وسيل (الكلاب) ، فأي الموجين ظهر دفع سيل الوادي الآخر ، ويرى لبيد سهل الركاء وقد ملأه الماء حتى أفعم ، فتحضر في ذهنه صورة ساق من سقاة العجم يملأ جابيــــة كبيرة ويفطن لبيد لجوانب أخرى فالنبات والغثاء قد طفا على وجه هذا السيل الطامي ، والامطار ما زالت هاطلة ورياح الشمال تدفع السحب الثقيلة ، فيرجو لذلك أن تهطل في أرض الحجاز ، وتمتليء بالماء أوديتها ، وتنبت في قرى حبيبته أحرار البقول ويانع الزهر ، لترعاه أسماء ويرعاه قومها ذوي المجد والحسب وانظر في هذه القطعة من قصيدة لبيد كيف بدأها متأملاً في السماء وكيف أنهاها رياضاً ناضرة ترعاها أسماء حبيبته :

يا هل ترى البرق بِتُّ أرقبُهُ   يزجي حَبِيّاً اذا خبا ثَقَبا

قعدت وحدي له وقال أبو   ليلى : متى يَغْتَمِن فقد دأبا

كأن فيه لما ارتفقت له   رَيْطاً ومرباعَ غانم لَجَبا

فجاد رَهْواً الى مداخل فالصُّخْـ   ـرَة أمست نعاجه عُصَبا

فَحدَّرَ العُصْمَ من عَمايةَ للسهـ ل وقَضَّى بصاحةَ الأَرَبا

فالماء يجـــلو متونهن كما يجلو التلاميذ لؤلؤاً قشِبا

لاقى البديُّ الكلاب فاعتلجا مَوْج أتِيَّيْهما لمن غَلَبــــا

فدعدعا سُرَّةَ الركاء كما دعدع ساقي الأعاجم الغَرَبا

فكل واد هَدَّتْ حوالِبُه يقذف خُضْرَ الدَّباء فالخُشُبا

مالت به نحــوَها الجَنوبُ معاً ثم ازدهـــته الشَّمالُ فانقلبا [١]

فقلت صابَ الأعراض رَيِّقُهُ يسقي بلاداً قد أمحلت حِقَبا

لِتَرْعَ من نبتـــه أَسِيمُ إذا أنبت حُرَّ البَقْـــول والعُشُبا

وفي قصيدة ثانية يعيد لبيد الصورة العامة نفسها ، يبدؤها بالبرق والمطر والسيل وينهيها بنبات يرعاه قومه وترعاه حبيبته ، ولكن الصورة هذه وان شابهت أختها تلك في موضوعها ، فهي تختلف عنها اختلافاً كبيراً في الصياغة والتفاصيل والألوان ، فمثله في هذا مثل رسام فنان بارع ، يرسم لوحتـــين في موضوع واحد ويجعل لكل لوحة جمالها وروعتها وألوانها وجوها وأثرها فيمن يراها . فانظر الى الصورة الاولى ثم ضع إزاءها الصورة الثانية فستجد براعة

---

١ - الديوان ص ٢٩ - ٣٣ . يزجى : يسوق . الحبى : السحاب . المرتفع : المتقدم . ثقب : اضاء . متى يفتمن فقد دأبا : متى يسكن فقد دأب فأكثر . ريط : ملابس او ملاحف . المرباع : ربع الغنيمة يجعل لصاحب الجيش. اللجب : الصوت او الجيش الكثير . رهو : ساكن: مداخل والصحرة : موضعان . العصم : الاوعال سميت بذلك لبياض في ايادبها . صاحة : جبل . التلاميذ : غلمان الصاغة (فارسي) . البدى والكلاب : واديان . اعتلجا : التقى طرفاهما . الأتي : الموج . دعدع : ملأ . الركاء : موضع . وسرته : معظمه . الغرب : القدح . حوالبه : الأودية التي تأخذ منه . الدباء : القرع . الأعراض : اودية بارض الحجاز . ريقه : اول مطره . احرار البقول : ما لان منه ولم تكن له مرارة .

لبيد وسحره في كل صورة ، بل في كل بيت ، من غير تكرار للفن ، وان كرر الموضوع ، واليك اللوحة الثانية [1] :

أصاحِ ترى بريقاً هَبَّ وَهناً | كمصباح الشعيلة في الذُّبالِ
أرِقتُ له وأنجدَ بعد هَدْءٍ | وأصحابي على شُعَبِ الرحالِ
يضيء ربابُهُ في المُزْنِ حُبْشاً | قياماً بالحِراب وبالإلالِ
كأن مصَفَّحاتٍ في ذُراهُ | وأنواحاً عليهن المآلي
فأفرع في الرِّباب يقود بُلْقاً | مجوَّفةً تَذُبُّ عن السِخالِ
وأصبح راسياً برُضام دَهْرٍ | وسال به الخمائلَ في الرمال
على الأعراض أيمنُ جانبيه | وأيسَرُه على كُورَى أُثال
وأردف مُزْنُه الملحين وَبْلاً | سريعاً صوبُه سَرِبُ العزالي
فبات السيل يركب جانبيه | من البَقَّار كالعَمِدِ الثِّقال

---

١ – الديوان ص ٨٨ – ٩٣ . هب : لمع وأضاء . وهناً : بعد ساعة من الليل . أنجد : ارتفع وأخذ البرق الى ناحية نجد . شعب الرحال : عيدانها . الرباب : السحاب الذي تراه كأنه متدل كأنه اعناق النعام . الألال : الحراب واحدها ألة . المصفحات : الابل التي قد صفحت عن اولادها اي عزلت عنها . الانواح : النساء ينحن . المآلي : الخرق التي تكون مع المرأة تحركها تندب بها . وقيل المصفحات . السيوف . افرع : هبط وسال . الرباب : ها هنا موضع ارض بين ديار بني عامر والحارث بن كعب . مجوفة : جوفت ببياض في جنوبها وبطونها . رضام : حجارة عظام . صاحة : جبل . رمك : سود . الاعراض : الأرضين . كوري : جانبي . اثال : اسم جبل . الملحين : موضع . العزالي : مخارج الماء من السحاب واحدها عزلاء . البقار : جبل وقيل واد . العمد : الذي يشتكي سنامه . الشث : شجرة من شجر السراة . الوبأ : المرض . سمي : هنا ترخيم اسماء وليس كما قال الشارح : سماء .

وَحطٌّ وحوشَ صاحةَ من ذراها   كأن وعولَها رُمْكُ الجمال[1]

أقول وصوبُه مني بعيد   يحطُّ الشَّثَّ من قلل الجبال

سقى قومي بني مَجْدٍ وأسقى   نُمَيْراً والقبائلَ من هِلال

رَعَوْهُ مربعـــا وتصيَّفوهُ   بلا وَباٍ سُمَيَّ ولا وَبالِ

فلبيد لا يصور البرق وحده ، وانما يوفر لصورته كل أسباب الكمال فهو يحدد الزمن ، بعد هدء من الليل حين نام اصحابه على شعب رحالهم فهم على هذا في قافلة راحلة ، وهو ينظر في جوف الليل وقد سهر لهذا البرق ، وصوبه نحو نجد ، ولبيد وصحبه فيما يبدو في تهامة من أرض الحجاز ، ويرسم لبيد صورة دقيقة رائعة حين يضيء البرق فيسطع ضوءه على صفحة السحاب الاسود الكثيف المتدلي ، وكأن الرائي يرى أحباشاً محاربين شديدي السواد شهروا حراباً بيضاء ساطعة ، ويستعير لبيد للرعد من الابل رغاءها حين تعزل عن صغارها وتمنع منها ، فتحن اليها هادرة مرزمة ، ويستعير من النساء النائحات نواحهن وندبهن وهن يحركن خرقاً سود يندبن بها ، وقد لاحظ في ذلك لون قطع السحب السود حين تتحرك في كبد السماء ، ولا يترك لبيد هـــذه الصورة دون أن يحققها ويستكمل جوانبها ، فقد هطلت الامطار في موضع من ديار بني عامر من هذه السحب المتدلية التي يسطع فيها البرق فتبدو كأنها خيل فيها لونان : أسود وأبيض ، البياض في بطون الخيل وصفاحها وهي ترمح عن صغارها ، وتجمعت الامطار فاذا هي سيول في أرض شاسعة تمتد من جبل (دهر) حتى (أثال) وانحدر السيل فتدفق نحو (الملحَيَن) فغطى جانبيه ، وقد ذعرت الوحوش في جبل (صاحة) فأنحطت هاربة مخافة أن يجرفها هذا السيل كما جرف اشجار

---

١ – جاء هذا البيت في الديوان بعد قوله : واصبح راسياً ... وموضعه المناسب هنا كما جاء في احدى النسخ الخطية .

الشث من أعلى الجبال ، ولبيد يعيد عن هذه الديار ، وهو على بعده يدعو لقومه بني مجد — وفيهم أسماء — ان يرعوا نبت السماء ربيعاً وصيفاً هانئين منعمين مبرأين من كل داء أو وباء .

ولا تخفى في هذه اللوحة ، عناية لبيد بالألوان والحركة وحسن الاستعارة وجمال التشبيه وبخاصة في الأبيات الثلاثة (الثالث والرابع والخامس) . وهذا يدل على سعة خيال لبيد وخصب قريحته ، ورهافة حسه وبراعته في التعبير عن المعاني الدقيقة .

وقد شاهد لبيد في بيئته جملة مناظر فوصفها وصفاً دقيقاً ، منها الحوض فيه ماء قديم طال عليه الأمد ، وبعد عهده بالساكنين ، فتغير لونه وتبدل طعمه ، وطفا عليه الطحلب ، فاذا جاء ليستقي أو يسقي ناقته هرق الماء من الدلو في الحوض القديم المتثلم الذي عبثت به الرياح والامطار ، فاذا بلّه المـاء سمع له نشيشاً في ضواحيه [1] :

فوردنا قبـلَ فُرَّاط القَطا ... إنَّ من وردي تغليسَ النَّهَلْ

طامي العَرْمَضِ لا عهـدَ له ... بأنيسٍ بعد حول قد كَمَلْ

فهرقنـا لهـما في داثر ... لضواحيـه نَشِيشٌ بالبَلَلْ

راسخ الدِّمْنِ عـلى أعضادِهِ ... ثلمتهُ كلُّ ريـح وسَبَلْ

---

١ — الديوان ص ١٨٣ — ١٨٤ . فراط القطا : اوائلها ، ج فارط اي سابق الى الماء . ان من وردي : من عادتي. التغليس : السير بغلس وهو ظلمة آخر الليل . النهل : الشربة الاولى. العرمض : الطحلب او الخضرة على الماء يصف غديراً مهجوراً . الداثر : الدارس اي حوض دارس . نش الغدير : يبس ماؤه ونضب . اعضاده : جوانبه . السبل : المطر المسبل .

وانظر في قوله (لضواحيه نشيش بالبلل) كيف فطن الى هذا الصوت فمثله ، فكأنك تشهد الحوض وتسمع صوت الماء فيه . ولا يقف لبيد عند الصوت فحسب ، بل يصف لون الماء وما طفا عليه ، ويذهب أبعد من ذلك فيبين طعم الماء فقد غدا حامضاً كالخل العتيق الذي خالط التوابل[1] :

فسافت قديماً عهده بأنيسه　　كما خالط الخل العتيق التوابلا

وفي شعر لبيد صور كثيرة لموضوعات يطول حصرها ، وكلها مستمد من بيئته . ولعل لكثرة أسفاره التي ذكرها في شعره أثراً في كثرة موصوفاته ، وهو في أكثر ما وصف كان بارعاً ماهراً ، يلم بالصورة ويدقق فيها ويهيىء لها أسباب الجودة والكمال .

وأحاول أن أنظر في أوصاف لبيد نظرة استخلص منها خصائص هذا الفن الذي برع فيه ، وكان أبرز فنونه وأكثرها روعة واشراقاً فيما أحسب .

---

١ – الديوان ص ٢٣٣ . سافت : شربت . قديماً عهده : اي ماء لم يطرقه احد منذ عهد وشبه طعمه بطعم الخل العتيق اذا وضعت فيه التوابل ، اي فاسد لقدمه .

٣

خصائص الوصف في شعر لبيد

لقد تقدمت الاشارة الى بعض خصائص وصف لبيد ، ويحسن هنا أن أجمل ما تفرق منها . وأول ما يلاحظ في ذلك أن لبيداً يلم بالصورة إلماماً تاماً ، فهو يستوعبها ، ويستحضر دقائقها ، ويحصر أطرافها ويستقصي جوانبها، فهو دقيق في تعبيره متمكن من فنه صناع ماهر، يظهر في شعره أثر الروية والتمهل وإجالة النظر ، وفن لبيد في هذا بسيط جميل من غير ضعف ولا تعقيد ، ولا شك أن البساطة في أوصافه مظهر من مظاهر بيئته فحياته بسيطة واضحة بساطة الصحراء ووضوح الشمس ، لم تعقدها الحضارة ولم يفسدها الترف ، والبساطة هذه لا تناقض إجالة النظر وصقل الفكرة وشحذ الذهن ، فهذه وسائل يتحسن بها الفن ويزداد جودة . ولعل مما يرتبط بالبساطة هذه صدق التعبير عن المشاعر والأحاسيس ، فهو حين يصور عواطف الحيوان ومشاعره انما يصف الحاضر المشاهد من خلال عواطفه وأحاسيسه هو ، من غير تلفيق أو مبالغة ولا اسراف أو غلو .

ومما يرتبط بالبساطة أيضاً ، الايجاز ، فصور لبيد وقصصه موجزة لا تطويل فيها ، وبخاصة حين يصف الطبيعة الصامتة ، فقد يكتفي ببيت أو اثنين في وصف موضوع معين ، كما فعل في وصفه للسراب والنجوم والغروب والحوض والطريق .

وأوصاف لبيد لوحات كاملة يوفر لها كل أسباب الصور الدالة الموحية المؤثرة فيها الجو الملائم من المكان والزمان واللون والحركة وحتى الصوت في بعض الأحايين ، وقد مر في نماذجه الكثير من هذه العناصر وبخاصة اللون والحركة ،



فهو كلف بها ، كثير التأكيد عليها ، يلقانا ذلك في وصفه للحيوان ، في لون بشرته ولون قوائمه والتماعه وسط الظلام ، وحركته حين يمرح وحين يعدو في ذهابه بعيداً يقضي شهور الشتاء وفي عودته ساعياً نحو الماء ، في هربه من الصياد وكلابه وفي مقاتلته لهذه الكلاب ، ولم تكن الحركة واللون في وصف الحيوان فحسب ، بل نجدها في وصف البرق والسحاب والسيل والروض ، وحسبك ان تنظر في هذه الأبيات لترى مقدار كلف لبيد بهذه الألوان والحركات [1] :

يُضيءُ ربابُه في المُزْنِ حُبْشا ... قيامـــاً بالحِـــراب وبالإلالِ

كأن مصفَّحـــاتٍ في ذُراهُ ... وأنواحـــاً عليهن المـــآلي

فأفرغَ في الرُّباب يقود بُلْقاً ... مجوَّفةً تذب عن السِّخالِ

ويعنى لبيد في أوصافه بوصف الحال أكثر من عنايته بوصف الهيئة ، فهو حين يصف الحيوان يصور مرحه ونشاطه وسرعته ، خوفه ووساوسه وحذره وجرأته واقدامه وشدة بطشه ، ولهذا وضحت في شعره ثلاثة أمور متلازمة : القصة والتشبيه والاستطراد .

ويظهر الفرق واضحاً بين لبيد في عنايته بالحال وبين طرفة في عنايته بالهيئة في وصف الناقة ، فقد وصف طرفة ناقته وصفاً حسياً ، رسم جسمها بـــدقة وتفصيل ، وأشار الى كل عضو من أعضائها وكل عرق من عروقها ، أما لبيد فقد وصف خلق ناقته ونشاطها وهبابها وعواطفها وعاداتها ، ناقة طرفة صـــورة مجسمة صامتة من غير حياة ، وناقة لبيد حياة وحركة وطباع . على ان لبيد لم يهمل في أوصافه هيئة الحيوان وبيان أعضائه وتصوير جسمه وحسن شياته

---

[1] – الديوان ص ٨٩ – ٩٠ . ربابـــه : سحابه المتدلي . والرباب : موضع . المآلي : الخرق . الابلق : الأبيض والأسود .



ولكن الصفة الغالبة البارزة في أوصافه هي وصف الخصال المعنوية والأحوال النفسية ، وهذه ظاهرة عزيزة في الشعر الجاهلي تميز بها لبيد مع قلة قليلة من شعراء الجاهلية .

ويتضح في وصف لبيد للحيوان الناحية الانسانية فهو أولاً يحب الحيوان ويحنو عليه فينجيه من عوادي الزمان وغدر الصياد وكلابه ، وهو ثانياً يضفي على الحيوان من صفات الإنسان وعواطفه ، ويفسر سلوك الحيوان كما يفسر سلوكه هو ، وغير بعيد أن يكون ذكره لحياة الثور ومحنته ومخاوفه ، تعبيراً عن محنة البدوي في الصحراء ومخاوفه ، حين يغشاه الليل بظلامه وصمته ، فيلوذ بأرطاة وهو يرتجف من قسوة ريح الشمال وشدة المطر ، ويتوجس حركة الحيوان وغدر وحوش الفلاة وزواحف الارض ، بل ان تصوير نفسية الحيوان تعبير عن نفسية الشاعر وعواطفه وأمانيه ، ولعله يجد في قصة الحيوان تنفيساً عن خلجات صدره ، ولأمر ما كان الثور – أو البقرة أو الحمار – منتصراً حين يصطرع مع الكلاب فيصرعها او حين يعارك الحمار الحمر الأخرى ليفوز بأتانه فيحظى بها ويصطفيها لنفسه .

ومما يلاحظ في وصف الحيوان أيضاً الميل الى ابراز الضخامة الجسمية والعظمة والقوة ، أكثر من ميله الى ابراز محاسن الجسم وجمال أعضائه ، فالناقة عالية ضخمة طويلة الجسم متينة البناء ، والفرس طويل مرتفع الكفل مستوي الظهر بارز الكتفين طويل العنق ، والحمار جأب شتيم الوجه ، وهكذ فالضخامة والطول والقوة وشدة الجسم ومتانته ، هي الصفات البارزة في وصف الحيوان .

وآخر ما يلاحظ في خصائص وصفه ، ان بعض صوره مكررة ، وقد مر ذلك في وصف السحاب والمطر والسيل ، وفي وصف الحمار وأتانه ، ولا شك



ان مرجع هذا الى البيئة التي تتكرر فيها المشاهد وتتشابه فيها الصور . وقد استطاع لبيد ببراعة واتقان أن يجعل لكل مشهد لوناً وأثراً في النفس يختلف عن المشهد الآخر ، وان كان شبيهه في اطاره العام .

ومهما يكن من شيء فان الوصف عند لبيد ، فن بلغ به مبلغاً كبيراً من الحسن والجودة ، ولذلـــك استغرق الوصف جزءاً كبيراً من شعره وعالج موضوعات كثيرة واسعة ، فلم يكن ضيق الأفق محدود النظر متتصراً على موصوف بعينه ، بل كانت الطبيعة الرحبة الواسعة ميدانه الواسع الفسيح .

الفخر

عرف لبيد في حياته الجاهلية أنه صاحب فخر ، فخر بنفسه وفخر بقومه ، وهذا أمر طبيعي فقد كانت له مكانة كبيرة في قومه ، وله بلاء عظيم في الدفاع عنهم والذب عن أعراضهم ، فهو ممثلهم في المجالس وناصرهم اذا افتخر الناس ، وقد مرّ في حياة القبيلة ان بني عامر من القبائل الكبرى التي لها شأنها ومكانتها ، ولها أيامها الكثيرة وحروبها المتوالية ، فهي قبيلة حربية ما تكاد تفرغ من معركة الا تهيىء نفسها لمعركة أخرى ، وتاريخ العامريين في حقيقته هو تاريخ البطولة والفروسية في نجد ، فقد نبغ في هذه القبيلة جمهرة كبيرة من الفرسان الأبطال والفتيان المقاتلين . وكان لأسرة لبيد نصيب كبير من هؤلاء الفرسان ذوي البأس الشديد والبلاء العظيم وقد انتهت اليهم زعامة عامر كلها ، وبين هؤلاء الزعماء الفرسان أعمام لبيد وأبناء أعمامه .

أما لبيد فقد كان نفسه فارساً من فرسان قومه ، وقد جمع الى هذه الفروسية شاعرية فذة ، فهو أبرز شعراء بني عامر ، وأكبرهم مكانة ، وأعلاهم منزلة ، ولهذا فقد كان لا بد للبيد أن ينبري للدفاع عن قومه والاشادة بمفاخرهم وتسجيل مآثرهم ونشر مكارمهم ، فجاء شعره سجلاً حافلاً بمآثر القبيلة ومفاخرها كما جاء شعره مرآة صافية تعكس حياته وسيرته وحسن بلائه ، ولذلك ظهر في شعره ضربان من الفخر : فخر بنفسه ، وفخر بقومه ، ولننظر في كل من هذين الضربين .

١

فخره بنفسه :

لقد كان لبيد سيداً شريفاً كريماً فارساً عالي المكانة جليل القدر ، وكان يشعر بهذه المكانة ويعرف لنفسه هذا القدر ، وان شعوره هذا جعله كثير



التغني بمفاخر ومآثر ، منها التي ورثها عن آبائه ، ومنها التي كانت صنع يديه ، فراح لذلك يردد في شعره نغمة الفخر والزهو والخيلاء ، وقد ساعد على ازدهار الفخر في شعره أنه كان عزيز النفس أبيّ الطبع لم ينصرف الى مدح أحد من الملوك او السادة القروم او الكرام الأجواد ، لأنه هو نفسه كان سيداً من قروم قومه وكريماً من كرام الجاهلية ، فراح يذيع بين الناس كريم فعاله ، ويتغنى بمحامده ومكرماته ...

وقد كانت خصال الخير والشرف في لبيد كثيرة متعددة لم تقتصر على خصلة دون سواها فراح لذلك يتحدث عنها جميعاً ، وحفلت قصائده بضروب من الفخر ، فقد فخر بالشجاعة والكرم — ومن دواعي الكرم حضور مجالس الخمرة ولعب الميسر — وفخر بالمروءة والإباء والوفاء والنجدة وقوة العصبية ومنعة الجانب وكرم المحتد وما الى ذلك ، وقد يتغنى بهذه الصفات وغيرها في القصيدة الواحدة ، وبخاصة في القصائد الطوال ، وقد يكتفي بذكر بعضها في قصائده القصار . ويبدو ان لبيداً قد جعل قصائده الطوال — وان حفلت بشتى الموضوعات — ملاحم لمفاخره ومفاخر قبيلته ، وأناشيد يتغنى فيها بأمجاده . واذا نظرنا في هذه القصائد الطوال القصيدة الثانية والتاسعة والسادسة والعشرين والثامنة والأربعين ، نجده يتناول موضوعاً ما ، وسرعان ما ينتقل الى الفخر بمناسبة سيتطرد بها ، والاستطراد اداة طيعة في شعر لبيد لطرق موضوعات كثيرة ، وقد يذكر موضوعاً ثم يستطرد لغيره ثم يعود اليه تارة أخرى ، وهذا ما حدث كثيراً بالنسبة للفخر ، ولننظر على سبيل المثال في القصيدة الثانية كي نتبين كيف حقق لبيد هذه الاغراض التي تقدمت وكيف احتال ببراعة انتقاله واستطراده ليعقد الكلام اكثر من مرة على الفخر ...

يستهل لبيد قصيدته — وقوامها ثمانية وأربعون بيتاً — بمطلع فيه حكمة يذكر نفسه اللجوج وأمانيها بطول البقاء ، وان الموت يكذب هذه الأماني ، وانه في هذا العمر الطويل قد زار الملوك وحضر مجالسهم وحظي لديهم بمكانة



عالية ومنزلة رفيعة ، فاذا فارقهم ، فقد ظل حبل الود موصولاً رغم البعاد ولبيد يعتز بهذه الصلة ، فيقول [1] :

أرى النفسَ لجّتْ في رجاء مكذّبِ
وقد جربت لو تقتدي بالمجرّبِ

وكائن رأيت من ملوك وسُوقةٍ
وصاحبت من وَفْدٍ كرام وموكب

وسانيتُ من ذي بهجة ورقيتُهُ
عليه السموطُ عابسٍ متغَضّبِ

وفارقته والود بيني وبينه
بحسن الثناء من وراء المغيّبِ

ولا شك انه قد اتخذ الحكمة سبيلاً للحديث عن مجالس الملوك ومكانته فيها، وهذا ضرب من الفخر بعلو القدر وكرم المنزلة ، وهو كثير الفخر بمجالس الملوك ، له فيها مواقف مشهودة نصر فيها قومه ، وأفحم خصومه ...

وفي سياق حديثه عن الزمن الطويل الذي قضاه وذكرياته عن الماضي وكثرة أيامه ومشاهده فيه يذكر أهله الذين طواهم الموت وفيهم أبوه وعمه وابن عمه ، وهو هنا حزين يستطيل عمره ويستكثر أيامه ، وقد صار لا يعجب متى

---

١ — الديوان ص ٣ — ٤ . سانيت : رفقت به ولاطفته ، المساناة : الملاطفة والمخادعة . ذي بهجة : ذي جمال . رقيته : رفقت به . السموط : هنا التاج الذي فيه الجوهر .

أدركه الموت وحضرته المنية ، فهو يقر انه ليس من الخالدين ، ليس جبلاً من هذه الجبال او هضبة من تلك الهضبات ، وقد قضى في عمره الطويل أوطاراً كثيرة وذاق مسرات الحياة ...

ثم يمضي لبيد مع ذكرياته فيفخر بأيامه الأولى ، يوم كان شاباً قوياً مترفاً يحضر مجالس الخمر فيسقي ندمانه ، ويشرب الخمرة الجيدة المعتقة ، وتتيح له ذكرياته ان يفخر بهذه المجالس على انها من مآثر الشباب وأسباب البذل والكرم ثم يصف نفسه ويبين خصاله وحلو شمائله التي يتمدح بها كرام الندمان الموسرين المترفين الفارغين للهو والمسرة والطرب حتى اذا ما شعر انه وفى مجلس الخمر وندمانها حقه من الوصف انتقل الى بيان مكارم مفعاله ومظاهر مروءته ، فقد أطلق الأسرى من أسرهم وفك عنهم الأغلال والقيود ، وقد سرى في فحمة الليل ، فاذا ظل السراة فهو حاديهم بكواكب السماء ، عارف بمنازلها ، ومواقعها خبير بالاسفار ، يجيب المستغيث وينجد المظلوم ، ويبطش بعدوه بطش عزيز مقتدر ، فيسقي عدوه كأس المنون [1] :

وعانٍ فككت الكَبْلَ عنه وسُدْفَةٍ
سريتُ وأصحابي هديتُ بكوكبِ

سريت بهم حتى تغيَّب نجمُهم
وقال النَّعُوس نوَّر الصبحُ فاذهبِ

ودعوةِ مرهوب أجبت وطعنةٍ
رفعت بها أصواتَ نَوْحٍ مُسَلَّبِ

---

[1] - الديوان ص ٩ - ١٠ . العاني : الأسير . الكبل : الغل . السدفة : ظلمة الليل . مسلب : لبسن السواد .

ثم ينتقل الى وصف روض ندي العشب يانع الزهر ، بكر اليه على صهوة جواده ، فيتحدث عن الروض وعن الجواد معاً، ويمعن في وصف الجواد ويدقق في بيان محاسنه ، وقوته وفرط نشاطه وسرعة جريه ، ولبيد حين يصف جواده انما يفخر بفروسيته هو ، ثم ينتقل الى الفخر بمكرمة أخرى هي الكرم ، فاذا هبت ريح الشمال ونزل البرد وأجدب الناس تراه يجيل القداح وينحر الجزور ويخفف عن الناس شدة البرد والجوع بإطعامهم من لحوم هذه الجزور ، وانظر الى براعة لبيد في التعبير عن قسوة هذه الأيام وشدة بردها بكلمات تحمل معنى الثلج في قوله [١] :

ويوم هــوادى أمره لشَماله ... يُهتّكُ أخطال الطِّراف المطَنَّبِ

يُنيخ المخاضَ البُركَ والشمس حيةٌ ... إذ ذُكّيت نيرانُها لم تَلَهَّبِ

ذعرت قِلاصُ الثلج تحت ظِلاله ... بمثنَى الأيادي والمَنيحِ المُعقَّبِ

ثم يذكر ناقته ويصف سيرها والطريق الذي قطعته في الهواجر ، حتى ينتهي الى وصف مجلس من مجالس الملوك وقف فيه للجدال والخصام — ولعلها احدى مجالس النعمان التي كانت تعقد في الصحراء — فيذكر خصومه بانهم سادة اشراف بيض الوجوه منعمين مترفين ، جاد لهم في ذلك المجلس وفاخرهم حتى فخر عليهم ، ثم راح يبين أسلوبه في الجدال واخلاقه بين النـــاس حين يقوم

---

١ — الديوان ص ١٦ — ١٧ . اخطال : حبال . الطراف : البيت من أدم . المطنب : شديد الاطناب وهي الحبال . المخاض : الحوامل . قلاص الثلج : السحاب او الفتاء من الابل التي تنحر عند نزول الثلج . مثنى الأيادي : اي يدخل في قمار آخر ، يثنى القمار . المنيح : القدح لا حظ له . المعقب : القدح مشدود بعقب علامة له .

الخصام ، فما هو بجائر ولا متعنت ، بل هو ادنى الى اليسر والمساهلة ، منه الى العسر والتضييق ، ولكن ان أريد على الشر والمكروه فلا بد أن يركبه [1] :

وخصم قيام بالعراء كأنهم ... قُروم غيارى كلّ أزهرَ مُصْعَبِ

علا المسكَ والديباجَ فوق نحورهم ... فَراشُ المسيح كالجُمان المثَقَّبِ

نشين صِحاحَ البيد كلَّ عشية ... بعوج السراء عند باب مُحَجَّبِ

شهدت فلم تنجح كواذبُ قولهم ... لديَّ ولم أحفل ثَنا كلِّ مِشْغَبِ

واصدرتهم شتىء كأن قِسِيَّهم ... قرونُ صِوار ساقط متلغِّبِ

فإن يسهلوا فالسَّهْلُ حظي وطرقتي ... وان يحزنوا أركبْ بهم كلَّ مركبِ

وأول ما يلاحظ على هذه القصيدة أن لبيداً كان يفخر بصفات متعددة ، فلم يقتصر على خصلة من الخصال ، ويلاحظ أيضاً ان فخره لم يكن مندرجاً في سياق واحد او مجتمعاً في أبيات متصلة ، فقد حاول الشاعر ان ينوع في معالجة موضوعاته ، فيبعد قليلاً عن الفخر مشغولاً بالوصف أو الحكمة أو الرثاء ثم يعود الى الفخر مرة ثانية بمناسبة يصطنعها تتيح له ان يطرق الموضوع مراراً دون ان يكون ثقيلاً مستكرهاً ، وبهذا استطاع ان يضمن قصيدته فخراً بمكانته الكبيرة في مجالس الملوك ، وحديثاً فيه زهو وخيلاء حين يعقد مجلس

---

[1] — الديوان ص ١٩ – ٢٠ . القروم : الفحول . ازهر : ابيض . مصعب : فحل لم يمسه حبل . المسيح : العرق . عوج السراء : القسي . ثنا : ما كان من خير او شر . اصدرتهم : رددتهم . صوار : بقر . متلغب : الذي ادرك عند اعيائه . طرقتي : حالي .



الشراب ويبذل فيها ويسقي ندمانه جيد الخمر ، يوم كان شابـــاً غوياً مترفاً يتقلب في النعيم ، ويذكر اطرافاً من بطولته ومروءته ، فهو يطلق الأسرى ، ويركب الاخطار والاسفار ، عليم بمتاهات الصحراء خبير بمنازل النجوم ، وهو امرؤ ذو نجدة يغيث المستغيث ويجيب دعوة الداعي اذا دعاه ، وينصر الخائف المظلوم ويبطش بأعدائه وينكل بخصومه ، وهو الى كل ذلك كريم يتخرق في كرمه ، يطعم حين يجدب الناس ، وينحر حين يشتد البرد ويعز المال ويقل الطعام ، وهو يلعب الميسر لانـــه من علائم الكرم ودواعي الاريحية ، ويقوم في المجالس ناصراً قومه ، ومناظراً خصومه مبارياً الشعراء حتى يظهر عليهم ، وهو سمح عند السماحة شديد وقت الشدة . هذه الخصال وغيرها عرف لبيد كيف ينثرها في انحاء قصيدته وقد اجاد الحديث عنها والتغني بها في قصائد أخرى موجزاً مرة ومفصلاً مرات وأبرز الخصال التي افتخر بها والح عليها ثلاث : كرمه ، وفروسيته ، وبلاؤه في مجالس الملوك . فلننظر كيف صور كلاً من هذه الخصال :

١ - الكرم :

من أسباب براعة لبيد وتمكنه من فنه ومعرفته باسرار صنعته أنه يحتال لموضوعه بمقدمات فلا يقحمه اقحاماً بل يمهد له ببراعة ، فحين يتحدث عن الكرم يصطنع له وسيلة كلوم زوجه وعتابها له على انفاقه وتبذير ماله ، أو حديثه عن الدهر الذي لا يبقي ولا يذر ، أو يعتذر عن قلة ما يملك بتحمله حقوق الضعفاء أو غير ذلك من المناسبات . ومن هنا جاء حديثه عن الكرم متصلاً بصفات وخصال أخرى . وتراه حين يفخر بكرمه وكثرة بذله يلتمس لذلك الاسباب والاعذار : فالمرء لا يخلد ولا يسلم من حتفه ، فلا بد ان ينفق ماله ليكسب الحمد وحسن الاحدوثة ، وهو بهذا المال يقي العرض ويحفظ

الشرف ، وهو اذ يفعل ذلك انما يقتدي بآباء صالحين ، فهو كريم ومن أسرة عريقة في الكرم ولذلك يقول [1] :

أعاذلَ قومي فاعذُلي الآنَ أو ذرْي ... فلست وان أقصرتِ عني بِمُقْصِرِ

أعاذلَ لا والله ما من سلامةٍ ... ولو اشفقت نفس الشحيح المثمِّرِ

أقِي العِرضَ بالمال التِلاد وأشتري ... به الحمدَ إن الطالبَ الحمد مشتري

وكم مشترٍ من ماله حسنَ صيته ... لأيَّامه في كل مبدىً ومحضر

أباهي به الأكفاءَ في كل موطن ... وأقضي فروضَ الصالحين وأقتَري

ومن تلك الوسائل التي يصطنعها لبيد للحديث عن كرمه وانفاقة لوم زوجته وضيقها بكرمه واسرافه ، وهو ضيّق بهذا اللوم ساخط عليها يوعدها ويهددها بالفراق ان هي عادت الى سيرتها تلك ، فما ذهب بماله الا تلك الجفان المترعة التي يسيل الدسم من جوانبها واعطاءوه من هم أهل للعطاء من اتباعه الفقراء الذين ساء حالهم [2] .

دعي اللوم أو بيِني كَشِقّ صديعِ ... فقد لُمْتِ قبلَ اليوم غيرَ مطيعِ

---

١ — الديوان ص ٤٦ — ٤٧ . التلاد : المال الموروث . اقترى : أقرى الضيف .

٢ — الديوان ص ٧٠ — ٧١ . صديع : ثوب مشقوق بنصفين ، اي فارقينا كما فارق احد نصفي هذا الثوب الآخر . اذا صدرت : يعني الابل . قارص : ابن اخذ الطعم وقرص اللسان . النقيع : الحليب المبرد . غاله : ذهب به . جفنة : قصعة ، اي اذا حان ورد الناس الجفنة سالت بدموع من الدسم . الخلة : الحاجة . المولى : ابن العم . خلقي وخشوعي : يريد الاستكانة وسوء الحال .



وان كنتِ تهوينَ الفراق ففارقي لأمرِ شَتاتٍ أو لأمر جميعِ

فلو أنني ثَمَّرتُ مالي ونَسْلَهُ وأمسكت إمساكا كبخلِ منيعِ

رضيت بادنى عيشنا وحمدِتنا إذا صدرت عن قارصٍ ونقيع

ولكنَّ مالي غالَهُ كلُّ جَفْنَةٍ إذا حان وِرْدٌ أسبلت بدموعِ

واعطائيَ المولى على حين فَقْرِهِ إذا قال أبصر خَلَّتي وخُشوعي

وشعر لبيد في كرمه ، يوافق الاخبار التي رويت عنه ، وكلها تجمع على أنه كان يطعم ما هبت الصبا ، وكانت له جفنتان يملؤهما بالطعام فيطعم فقراء قومه في الجاهلية ، ويخرج بهما الى المسجد في الاسلام ، فهو اذن — حين يتحدث عن كرمه ، انما يعبر عن واقع مشهود وحقائق معروفة . وفي حديث لبيد عن الكرم تتضح الجوانب الانسانية من عطف على الفقراء ، ورعاية لحق الجار ، وبخاصة النساء الأرامل ، فهو يخصهن بلحم ابله السمينة سواء سألنـــه أم لم يسألنه ، وانظر في هذه الأبيات كيف يعنى بجارته [1] :

ولقد تَحْمَدُ لمـــا فارقت جارتي والحمد من خير خَوَلْ

وغلامٍ أرسلته أُمُّـــه بألوكٍ فبذلنا مـــا سَألْ

---

١ — الديوان ص ١٧٧ . الخول : العطية . الالوك : الرسالة . اشتوى : اكل اللحم مشوياً. ليلة ريح : اي ليلة برد من ايام الشتاء . اجتمل : اتخذ الجميل وهو الشحم المذاب . عارضة : الناقة التي اصابها كسر او عرض فنحرت . الهضوم : الفتى الذي يهتضم ماله يقتطع منه ويكسر . والنزل : المعروف والخير .

أو نهته فأتاه رزقُــه فاشتوى ليلةَ ريحٍ واجْتَمَلْ
من شِواءٍ ليس من عارضةٍ بيدَيْ كلٌّ هضوم ذي نَزَلْ

فهو محسن الى جارته يرعاها ويبرها ، فاذا فارقته كان لسانها يلهج بحمده والثناء عليه ، وجارة أخرى اذا ضاق بها العيش وساءت أيامها فهي لا تسأل أحداً غيره ، فترسل غلامها اليه بحاجتها فيبذل له ما يريد ، وسواء جاء غلامها أم تغيب ، فان رزقها يأتيها فتطعم جيد الطعام في أيام الشتاء القاسية .

ويلاحظ أن كرم لبيد مقرون بالبرد وريح الشتاء ، وذلك ادعى للفخر لان الناس في قحط وجدب ، وهم شديدو الحرص على أموالهم ، ففي الشتاء يعم البؤس ويكثر العوز والجوع لقلة النبات وشح الارض ، وازدياد الحاجة الى الطعام والدفء ، ولهذا تغنى شعراء الجاهلية بكرمهم حين تهب الشمال وينزل البرد وتقسو الحياة . وتغنى لبيد بكرمه في هذه الازمان ، فرب فقير ذليل مدفّع سدت بوجهه الأبواب ، آواه وأطعمه وأحسن اليه وأنزله في كنفه ورعايته ، حتى انقضت شهور الشتاء فودعه بالحمد والثناء[1] :

ومدَفَّع طرق النُّبوحَ فلم يجد مأوى ولم يكُ للمضيف سَوامُ
آويته حتى تَكفَّتَ حامداً وأهل بعد جُماديين حَرامُ
وصباً غداةَ إقامةٍ وزَّعتها بجِفان شِيزَى فوقهن سَنامُ

---

١ — الديوان ص ٢٨٩ — ٢٩٠ . المدفع : الضيف الذي يتدافعه الحي لسوء حال الناس ، او الفقير الذليل . النبوح : الحي او جماعة الناس . تكفت : آب وانقلب الى اهله . جماديين : يريد بها شدة البرد والريح . وحرام : اي شهر حرام وهو رجب — وهو من الاشهر الحرم وهي ذو القعدة وذو الحجة ومحرم ورجب — كانوا يعظمونه ولا يستحلون القتال فيه . وزعتها : فرقتها اي باطعام الناس ودفع أثرها عنهم . الشيزي : خشب اسود تتخذ منه القصاع والجفان .

وتراه في البيت الأخير يشير الى سنته التي آلى ان يتبعها في اطعام الناس ما هبت الصبا ..

وفخر لبيد بلعب الميسر في وقت البرد والجدب ، والميسر سبيله الى الانفاق والبذل واطعام الجائعين ، فكم من جزور نحرها حين لعب بالقداح فاطعم واشبع ، وقد شهر بذلك حتى صار بيته مأوى الجياع وملجأ الفقراء ، فهذه النساء المجهدات قد لاذت بأطناب خيمته كأنهن بلايا عليهن خلقان بالية [1] .

وَجزورِ أيسارٍ دعوتُ لحتفها ... بمغالــقٍ متشابه أجسامُها

ادعو بهن لعاقرٍ أو مطفلٍ ... بُذِلت لجيران الجميع لِحامُها

فالضيف والجار الجنيب كأنما ... هَبَطا تَبالةَ مخصِباً أهضامُها

تأوي الى الاطناب كلُّ رذِيَّةٍ ... مثل البلية قالصٌ أهدامُها

٢ — فروسيته :

ويفخر لبيد بأنه فارس جريء شجاع ، يقتحم الغمرات ويخوض الحروب وهو أهل للعظائم يقف دونها ويهرع اليها ، دفعاً للضيم وحفاظاً على الشرف وحماية لأحساب كريمة عريقة وهو أمرؤ ذو نجدة ما أن يسمع دعوة داع حتى يهب

---

١ — الديوان ص ٣١٨ — ٣١٩ . الايسار : المضاربون بالقداح . المغالق : القداح ، لانه يغلق بها الرهن . تبالة : واد مخصب باليمن . الاهضام : ج هضم وهي بطون الأودية ذات النخيل والفواكه . الرذية : المهزولة ، يريد امرأة . البلية : الناقة التي تشد عند قبر صاحبها حتى تموت . قالص اهدامها : مرتفعة خلقانها ، اي تأوى الى خيمته الفقيرات اللواتي يشبهن البلية في هزالها .

لنصرته ، يرد عنه المصائب ويفرج عنه المحن ويحسم الأمور بضربة سيف أو طعنة رمح ، وقد صور دابه ذاك في هذه الأبيات[١] :

وعظيمةٍ دافعتها فتحولت عني فلم أدنس وَصَحَّ أديمي
في يوم هيجا فاصطليت بحرِّها أو في غداة تحافظ وخصوم
ومُبَلِّغ يوم الصراخ مُنَدَّدٍ بعنان دامية الفُروج كليم
فَرَّجت كربتَه بضربة فَيْصَلٍ أو ذات فَرْغٍ بالدماء رَذُومِ

وهو حين يفخر بخوضه غمرات الحروب أو اجابته المستنجد المفزوع، نراه يعنى ببيان قوته وشدة بطشه بطعنة فيها الردى ، كما يلاحظ في البيت الاخير ، أو البيت الذي مر وفيه يقول[٢] :

ودعوةِ مرهوبٍ أجبت وطعنةٍ رفعتُ بها أصواتَ نَوْحٍ مُسَلَّبِ

وقد وفق في التعبير بالكناية عن موت خصمه بهذه النائحات المتسلبات اللواتي يندبن ويصرخن . ويلاحظ هنا أن لبيداً لا يطيل في وصف المعارك ولا يفصل في ذكر القتال ، بل يجمل ذلك في أبيات لها دلالة وفيها غناء .

---

١ – الديوان ص ١١٠ – ١١١ . لم ادنس : لم اتعلق منها بما يشينني . صح اديمي : لم أعب . مندد : مطول بصوته اي مبلغ الحي بهذه الفرس . كليم : جريح . الفروج : ما بين القوائم . فيصل : سيف . فرغ : طعنة واسعة ، والفرغ : مصب الماء من الدلو . رذوم : سائلة قاطرة .

٢ – الديوان ص ١٠ . نوح : نساء ينحن . مسلب : لبسن السواد ، اي اجاب دعوة خائف ، بأن دفع عنه بطعن رجل فقتله فناح عليه اهله .



واذ افتخر لبيد بحسن بلائه وانتصافه من خصمه ، فغالباً ما يقرن ذلك بنصرته لمن يستنصر به من مواليه الضعفاء ، وقد مر قبل قليل بيتان في ذلك وفي بيت آخر يؤكد هذه الظاهرة فيقول [1] :

وخصمٍ قد أقمت الدّرْءَ منه بلا نَزِقِ الخصام ولا سَؤُومِ

ومولى قد دفعت الضيم عنه وقد أمسى بمنزله المَضيمِ

وفي هذا دلالة واضحة على ان لبيداً انما ينظر الى الفروسية على انها ضرب من المروءة: نصرة للمظلوم وإجابة للمستنجد الضعيف وحماية للخائف المرهوب، فهو يقاتل لا حباً في القتال ، بل دفعاً للظلم والعدوان ، وتلك نزعة انسانية توجبها شيم الفرسان ومروءة الرجال . ولعل من أوضح الأدلة على إنسانية لبيد في فروسيته ، انه خاصم عمه أبا براء — وهو أقرب الناس الى قلبه وأجلهم عند نفسه — بجار استجار به فنقض أبو براء جوار لبيد واعتدى على ذلك الجار ، فغضب لبيد وقامت الجفوة بينه وبين عمه ، وكان من أثر ذلك ان قال قصيدته التي أولها [2] :

من كان مني جاهلاً او مُغَمَّرا فما كان بِدْعاً في بلائيَ عامرُ

يعاتب فيها عمه ويعدد له مفاخره وأفضاله لديه ، وفيها يذكر جاره أبا مالك فيقول :

---

١ — الديوان ص ١٠٠ — ١٠١ . الدرء : الميل والاعوجاج . نزق : حديد خفيف . سؤوم : ملول معي . المضيم : المركوب بالظلم .

٢ — الديوان ص ٢١٥ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ . رعت ابا مالك : افزعته . زف : اسرع في مشيه .



وما يَكُ من شيء فقد رُعْتَ روعةً

أبا مالكٍ تبيضّ منها الغدائر

فلو كان مولايَ امرءاً ذا حفيظة

اذاً زف راعي البَهْمِ والبهمُ نافر

ومن مفاخر لبيد في فروسيته انه يحمي قومه ويكون في موضع المضنة والخوف ، يرقب لهم عند ثغور الأعداء وهو بكامل عدته متأهباً للنزال ، حتى اذا أجنه الظلام نزل من مرقبه الى السهل ، وامتطى جواده القوي السريع [1] :

ولقد حميت الحيَّ تحمل شِكَّتي ... فُرطٌ وشاحي إذ غدوت لجامها

فعلوت مرتقباً على ذي هَبْوَةٍ ... حَرِجٍ الى أعلامهن قَتامُها

حتى إذا ألقت يداً في كافر ... وأجنَّ عورات الثغور ظلامها

أسهلت وانتصبت كجِذعٍ منيفة ... جرداء يحصر دونها جُرّامُها

ويتناول هذا المعنى في قصيدة أخرى ، ذاكراً حسن بلائه في موقعة

---

١ — الديوان ص ٣١٥ — ٣١٦ . الشكة : السلاح . فرط : فرس سريع . وشاحي لجامها : اي يضع لجامها على عاتقه ليكون في متناول يده ، او قيل : كانوا ينزعون لجم الخيل اذا رجعوا من الغزو ويلقونها على مناكبهم . الهبوة : الغبار . القت : الشمس ، وجعل لها يداً . كافر : ليل ساتر . عورات الثغور : مواضع المخافة منها . يحصر : يكل . جرامها : قطاعها .

يسميها ، وهو على رأس حامية من قومه بني جعفر يحميهم ويربأ لهم ويرقب عدوهم ، بجنان ثابت وقلب قوي ، يقول [1] :

ولقــد يعــلم صحبي كلُّهم بِعَدانِ السيف صبري ونقلْ
رابــط الجأش عــلى فرجهم أعطف الجَوْنَ بمربوع مِتَلْ

وبعد أن يستطرد الى وصف فرسه الجون يعود الى سياقه الاول في الفخر [2].

فتــدلَّيْتُ عليه قافِــلاً وعلى الأرض غَيايَاتِ الطَّفَل
وتأَيَّيْتُ عليــه ثانيــاً يتقيني بتَليــلٍ ذي خُصَل
لم أقِل إلا عليه أو عــلى مَرْقَبٍ يفرع أطرافَ الجبل
ومعي حامية من جَعفَرٍ كُلَّ يومٍ تبتلي ما في الخِلَل

٣ – بلاؤه في مجالس الملوك :

لقد مرّ في حياة لبيد انه كان كثير الوفادة على المــلوك ، يحضر مجالسهم ويحظى عندهم بمكانة رفيعة ، كان يحضر مجالس النعمان التي يقيمها في البادية ، كما كان يزور ملوك اليمن الأحباش ، وقد ذكر في شعره زيارته لخُمَيّر الذي كتب

---

١ – الديوان ص ١٨٦ . عدان : موضع عل سيف البحر . النقل : مراجعة الكلام في صخب . مربوع : رمح ليس بالطويل ولا بالقصير . المتل : الشديد .

٢ – ١٨٩ – ١٩٠ . الغياية : ظل الشمس وكل شيء أظل الانسان . الطفل : حين تدنو الشمس للغروب . تأييت : انصرفت متئداً . التليل : العنق . لم اقل : لم اقض القائلة وهو نصف النهار . يفرع اطراف الجبل : يتجاوزها طولاً . الحامية : الجماعة تحمي نفسها . تبتلى : تختبر . الخلل : جفون السيوف .

له كتاباً يعطى به وأهدى اليه غلاماً حبشياً ، وقد فخر لبيد بهذه المكرمة حين قال [1] :

ولقد دخلت على خُمَيَّرَ بيته متنكراً في ملكه كالأغلبِ
فأجازني منه بطِرْسٍ ناطق وبكل أطلسَ جوْبُه في المَنْكِبِ

والظاهر ان زيارته هذه للملك اليمني الحبشي زيارة واحدة ، أما إشاراته الكثيرة الى مجالس الملوك فانه يعني بها مجالس النعمان ، وقد ذكرها في مناسبات كثيرة ، لعل أولها وفادته مع أعمامه حين كان صغيراً ، وقد هاجى في تلك الوفادة الربيع بن زياد – الذي كان يغض من شأن قومه ويصد عنهم وجه الملك – فأفحمه وأخزاه ، وقد صار – أثر ذلك – مقرباً الى الملك ، أثيراً عنده ، فعلا شأنه ونبه ذكره ، وفخر بهذا النصر غير مرة ، قال يصف حال الربيع وما لقيه منه [2] :

وسقت ربيعاً بالفناء كأنه قريع هجانٍ يبتغي من يخاطر
فأفحمتُه حتى استكانَ كأنه قريحُ سُلالٍ يَكْتَفُ المشيَ فاترُ

---

١ – الديوان ص ١٥٥ . خمير : ملك من ملوك الحبش أتاه فكلمه في فداء قوم فأجازه وأحسن اليه . الاغلب : الغليظ العنق . الطرس : كتاب كتبه له لان يعطى . الاطلس : الحبشي . الجوب : الترس .

٢ – الديوان ص ٢١٧ – ٢١٨ . قريع هجان : الفحل من الابل يختار للفحلة . يخاطر : يراهن ، وخطر البعير اذا حرك ذنبه فرفعه وحطه عند السير يفعل ذلك عند الشبع والسمن . قريح سلال : جريح بداء السلال . يكتف : يمشي رويداً .



وأشار كذلك الى هذه الغلبة حين كان يعدد مفاخره فقال [1] :

كخصم بني بدرٍ غداة لقيتهم ومن قبلُ قد قوَّمت دَرْءَ ربيعِ

ثم توالت زياراته لمجلس النعمان وكان يفد اليه مع وجوه قومه ، وفي هذه المجالس كانت القبائل تتبارى في الفخر ، فيقوم جدال شديد بين الخطباء والشعراء ، كل يذب عن قومه ويشيد بمفاخر قبيلته ، وكان لبيد لسان قومه ، يذود عنهم ويدفع عن اعراضهم ، ويباهي بقوتهم ويفاخر بعزهم ، في نوادي الناس ومجالس الاشراف ، وليس أشرف ولا أعظم من مجالس النعمان التي تكتظ فيها الوفود ، وتقصدها القبائل من كل حدب وصوب ، ويحضرها أرداف الملوك وسادة القبائل ، ويتصدر أولئك جميعاً النعمان بن المنذر بعظمة ملكه وأبهة سلطانه ، ومن حوله وبين يديه حراسه وخدمه وجنده . ولهذه المجالس هيبة ورهبة ووقار ، وهنا يمتحن الشعراء والخطباء ، فمن استحسن شعره واستجيد كلامه وظهر على خصمه فقد نال عزاً ما بعده من عز ، ومن تلجلج وتعثر أو أغلق على لسانه وأحصر فقد عيب وأفحم وباء بخزي عظيم ، فتذيع هزيمته ويتوارى خزيان خجلاً . ومن هنا جاء فخر الشعراء بهذه المجالس وكان لبيد أبرز هؤلاء المفتخرين ، لأنه أصلبهم في هذا الميدان عوداً وأثبتهم جناناً ، وأحلاهم لساناً ، فكثر فخره بهذه المجالس وجاوز الفخر الى الزهو والخيلاء ، وانظر في هذه الأبيات كيف يزهو ويدل بحسن بلائه وقوة بيانه [2] :

---

١ – الديوان ص ٧١ . الدرء : الميل والاعوجاج .

٢ – الديوان ص ٢٩٠ – ٢٩١ . المقامة : الجماعة يجتمعون في مجلس . غلب الرقاب : غلاظها ، الحصير الملك . ضارستهم : جربتهم . الشريس : الشرس . العسر الخلق : الشديد الخلاف .



ومقامة غُلْبِ الرقاب كأنهم ... جِنٌّ لدى طَرف الحصير قيامُ
دافعت خُطَّتَها وكنت ولِيَّها ... إذ عِيٌّ فصلَ جوابها الحُكَّامُ
ضارستُهم حتى يلين شريسُهم ... عني وعندي للجموح لجامُ
وبكل ذلك قد سعَيتُ الى العُلى ... والمرء يُحْمَدُ سعيُه ويُلامُ

فهو يفخر بظهوره على خصومه وقهره اشداءهم وقد مثل قوته وشدة مراسه في قوله (ضارستهم) وبين قوة حجته وثباته وجرأته في هذه المجالس التي يذعر منها الرجال ، يعيا فيها الفصحاء في قوله :

دافعتُ خطتَّها وكنت وليَّها ... اذ عيٌّ فصلَ جوابها الحكَّامُ

وأكد هذه الجرأة في قوله من قصيدة أخرى [1] :

ما إنْ أهابُ إذا السُرادق غَمَّهُ ... قرع القِسيّ وأرعِشَ الرعديد

وقد نبه ذكر لبيد في هذه المجالس ، وتمرس في الجدل والمناظرة حتى صار قومه يستنصرونه فينصرهم ، وينبري يدفع عنهم خصومهم بحجج قوية شديدة ، كأنها نبال صائبة تصمي الخصوم ، وتدمي الاعداء [2] :

---

١ – الديوان ص ٣٧ . السرادق غمه : كثر عليه . قرع القسي : يصيب بعضها بعضاً . الرعديد : الجبان .

٢ – الديوان ص ١٩٣ – ١٩٥ . فأثور أفاق فالدحل : موضعان . وهنا يشير الى يوم الافاقة . النبل الدول : التي تتداول . الرشق : ان ترمى سهام كثيرة دفعة واحدة . العصل : المعوجة . ويروى بالمقثمل : الكذب . رقيات : سهام منسوبة الى الرقم وهو موضع دون المدينة . عليها ناهض : أي ريش فرخ نسر حين نهض . الاروق : الطويل الاسنان . الايـل : الذي لزقت اسنانه باللثة او القصير الاسنان .



ومقامٍ ضيّقٍ فرّجتُه بمقامي ولساني وجَدَلْ
لو يقوم الفيل أو فيّالُه زَلّ عن مثل مقامي وزَحَلْ
ولدى النعمان مِنّي موطنٌ بين فاثور أفاقٍ فالدَّحَلْ
اذ دعتني عامر أنصرُها فالتقي الأسُنُ كالنَبلِ الدُوَلْ
فرميت القوم رِشْقاً صائبا ليس بالعُصْلِ ولا بالمُقْتَعِلْ
رقياتٌ عليها ناهضٌ تُكْلِحُ الأروقَ منهم والأيَلْ...

فهو يفخر انه قام في هذا المجلس فأجلى الغمة ، ووقف موقفاً يحصر دونه أشد الناس قوة ، واستعار لتلك القوة الفيل وصاحب الفيل ، وهذا مما أخذ عليه ، ظناً منه ان للفيال قوة مثل قوة الفيل ، وقد عين المجلس ، وسن النعمان وحدد مكانه ، وبين حاجة قبيلته اليه فقد دعته فأجاب دعوتها فنصرها كما نصرها في يوم الغبيط اذ دعته ، فقال [1] :

وحميت قومي إذْ دعتني عامرٌ وتقدَّمتْ يوم الغَبيطِ وفودُ

ثم راح يشبه قوة حجته ووضوح بيانه بالسهام المعلمة الصائبة ، وعني عناية خاصة بوصف جلال هذا الموقف ووقار الملك ووصف الوصفاء والسقاة ثم نظر الى خصومه بعد أن دحرهم فراحوا مخذولين يمشون على استحياء ، تتعثر اقدامهم كأنهم ابل السقي اذ تسير في الأوحال .

---

١ - الديوان ص ٣٧ . يوم الغبيط : يوم لبني عامر .

ولم ينس لبيد في معلقته وهو يسجل مفاخره ومكارمه ان يشير الى احدى مناظراته في مجلس النعمان ، وما كان له فيها من نصر وبلاء فقال [1] :

وكثـــيرةٍ غرباؤها مجهــولةٍ ... تُرجَى نوافلُهـــا ويُخشى ذامها

غَلبٌ تَشَذَّرُ بالذُّحولِ كأنها ... جِنُّ البَدِيِّ رواسياً أقدامها

أنكرتُ باطلَها وبُؤْتُ بحقها ... عندي ولم يفخر عليَّ كِرامُها

وبعد ، فان مفاخر لبيد كثيرة لم يقتصر على كرمه وشجاعته وظهوره على مناوئيه في مجالس الملوك فحسب ، بل ان في حياته خصالاً حميدة أخرى باهى بها وافتخر بذكرها من مثل مروءته وعزة نفسه وصبره على المكاره وحلمه وتعقله وحسن آدابه ، وحسبي ما مر من شعر يترجم عن طبيعة فخره فلا أزيد عليه .

٢

فخره بقومه :

كان لبيد خير شاعر بر قومـــــه ، فهو يحبهم ويؤثرهم ويحسن اليهم ويشيد بمآثرهم ويسجل مكرماتهم ويفخر بأيامهم وأحسابهم . وقـــد سجل في شعره فضائل قومه ، فافتخر بأهله الأدنين ممثلين بأبيه وأخيه وأعمامه ، وافتخر ببني جعفر قبيلته وأشاد بكريم فعالها وفروسية رجالها ، كما افتخر بعامر قبيلتـــه الكبرى وخصها بأجود الثناء .

---

١ - الديوان ص ٣١٧ - ٣١٨ . تشذر : تهدد وتتوعد . الذحول : الاحقاد . البدي : واد لبني عامر . بؤت : اعترفت .

وكما ظهر ميل لبيد الى الايجاز حين فخر بنفسه ، ظهر هذا الميل في فخره بقومه . ولعل أطول القصائد التي أفاض فيها بذكر محامد قومه وفصل في تعداد سجاياهم هي القصيدة الخامسة والثلاثون في ديوانه والتي أولها [1] :

كُبَيْشَةُ حَلَّتْ بعد عهدك عاقِلا   وكانت له خَبْلاً على النَّأْيِ خابلا

وهي من قصائده الطوال الجياد ، وقد خصص جزءها الأخير للفخر بقومه ، فبعد أن فخر بنفسه وذكر طرفاً من شمائلها ، ذكر قبيلته الكبرى بني عامر على انها خير الأحياء طراً رغم تقول الأعداء وانتقاص الحاسدين ، فهم حلماء واسعة صدورهم ، لا يزدهيهم جهل الجاهلين ، وهم كرام يوقدون نيرانهم للأضياف ويطعمون الناس ويلعبون الميسر اذا شتا الناس ، فتراهم يصيحون بالقداح اذا هم ضربوا بها ، وترى لهم جفاناً عظيمة واسعة مترعة بالطعام يدفعون بها عن الناس شدة البرد والجوع ، وهم أهل لذة وطرب اذا حل بأرضهم تاجر سبوا زقه فشربوا واسقوا غيرهم ، فاذا لامتهم النساء على بذلهم وتخرقهم في العطاء صدوا عنهن وبالغوا في جودهم ، وكذلك كان دأبهم منذ القدم [2] :

بنو عامر من خير حَيٍّ علمتهم   ولو نطقَ الأعداءُ زوراً وباطلا

لهم مجلس لا يحصرون عن النَّدى   ولا يزدهيهم جهلُ من كان جاهلا

---

١ — الديوان ص ٢٣٢ .

٢ — الديوان ص ٢٤٩ — ٢٥٠ . لا يحصرون : لا تضيق صدورهم. يزدهيهم : يستخفهم. بيض : رجال بيض يوقدون ويطعمون . مراة العشاء : وقت الضيف . المسابل : القداح . يزجرونها : يصيحون بها . الصيام الحوافل : القدور الممتلئة . الصراد : السحاب البارد الذي لا ماء فيه اي ترد جفانهم الشمال بالاطعام . الافائل : الفصلان التي لا تحتمل البرد . ألذة : يأخذون لذتهم . مخاريق : يتخرقون في العطاء . التجار : باعة الخمر . الواغل : الطفيلي .

وبيضٌ على النيران في كل شَتْوَةٍ	سَراةَ العِشاء يزجرون المسابلا

وأعطَوا حقوقاً ضُمِّنوها ورِاثَةً	عِظامَ الجِفان والصيام الحوافلا

توزَّعُ صُرّادَ الشَّمالِ جفانُهم	إذا أصبحت نجدٌ تسوق الأفائلا

كِرامٌ إذا نابَ التِّجــــار ألِذَّةٌ	مخاريق لا يرجون للخمر واغِلا

إذا شَرِبوا صَدُّوا العواذِلَ عنهم	وكانوا قديماً يُسكِتونَ العواذِلا

فلبيد يفخر بقومه ويعتز بهم لأنهم حلماء راجحو العقول ، كرام ينفقون عند القحط وأزمان الشتاء حين يعز المال ويشح الخير ، وهم ذوو خمر وميسر ، وتلك مكارم كان أهل الجاهلية يتمدحون بها .

وينتقل لبيد الى مفخرة أخرى ، فيذكر بلاء قومه ، وأياديهم على العرب ثم يقدم بين يدي فخره شهادة القبائل في مكارم قبيلته فيقول [١] :

فلا تسألينا واسألي عن بلائنا	إياداً وكلباً من مَعَدٍّ ووائلا

وقيساً ومن لَفَّتْ تميم ومَذْحِجاً	وكِندةَ إذ وافت عليك المنازلا

لأحسابِنا فيهم بـــلاءٌ ونعمةٌ	ولم يَكُ ساعينا عن المجد غافلا

أولئك قومي إنْ تلاقِ سَراتَهم	تَجِدْهُم يَؤُمّونَ العُلا والفواضلا

---

١ – الديوان ص ٢٥١ . سراة القوم : اشرافهم .

ولن تنتهي جوانب الفضل والمجد في قومه ، فمنهم ليوث الحرب ، ومنهم من يدفع بماله بؤس غيره ، ومنهم من يركب المخاطر ويقطع الفلوات ، ومنهم الخطباء المفوهون الذين اذا التقى الناس فعندهم فصل الخطاب ومنهم من يفك العاني ويطلق الأسير حباً في الخير لا طمعاً في المال . وقومه بعد ذلك رجال حرب وقتال فلهم كتيبة ضخمة العدة كثيرة العدد ، كأن الجياد فيها لفرط نشاطها حمام تباري سوافل الرماح ، وفرسانها أقوياء أشداء ذوو بأس شديد عليهم الدروع . وهم مع هذه القوة والشدة ذوو قلوب رحيمة تؤدي حق الجار وتعرف قدر الضعيف وهم يسعون الى الخير ويبنون الصالحات في كل حين وتلك سنة قديمة ورثوها عن آبائهم ، ورسمها أولهم لآخرهم .

ويشير لبيد بعد ذلك الى خصومهم وحسادهم الذين دأبهم ان يزعزعوا بنيانهم المنيف ومجدهم العريق ، فتقصر عن ذلك الهمم ، وان قومه قد صوبوا لهؤلاء الأعداء في ميادين الحروب فأوقعوا بهم الهزائم وعلوا عليهم بالسيوف في كل غارة ، ثم ينهي لبيد هذا الفخر بأبيات فيها اعتزاز بقومه وفخر بنسبته اليهم ، وزهو بفعالهم التي لا تضاهيها فعال ، فيقول [1] :

ولن يعدموا في الحرب لَيْثاً مجرّباً   وذا نَزَلٍ عند الرزية باذلا

وأبيضَ يجتابُ الخُروقَ على الوَجى   خطيباً إذا التَفَّ المجامعُ فاضلا

---

١ — الديوان ص ٢٥١ — ٢٥٣ . ذو نزل : كثير الفضل والعطاء والبركة . يجتاب : يجوب . الخروق : ج خرق ، الفلاة الواسعة . العاني : الاسير . السوام : المساومة . جاذل : فرح . مشعلة : اي كتيبة كثيرة العدد منتشرة . السوافل : سوافل الرماح نقيض عاليتها . المعابل : ج معبلة ، نصل طويل عريض . المحامل : حمائل السيف . النجيع : الدم . سنة : عرف وطريقة . عادية : قديمة . نياف : عال مرتفع . المناقل : ج منقل او منقلة وهي الثنية اي هم طلاعو الثنايا .

وعانٍ فككناه بغير سِوامِهِ فأصبح يمشي في المحَلَّةِ جاذلا
ومُشْعِلَةٍ رَهواً كأن جيادَها حَمامٌ تُبارِي بالعشيِّ سوائلا
لهم فخمةٌ فيهـا الحديدُ كثيفةٌ ترى البيضَ في أعناقهم والمَعابلا
ضربنا سَراةَ القوم حتى توجهوا سِراعاً وقد بَلَّ النجيعُ المحامِلا
نُوَدِّي العظيمَ للجوار ونبتني فِعالاً وقد نُنْكي العَدوَّ المُساجِلا
لنا سُنَّةٌ عاديَّة نقتـدي بها وسنَّتْ لأخرانا وفاءً ونائلا

. . .

أولئك قومي إن سألتَ بخيمهم وقد يُخْبَر الأنباءَ من كان جاهلا

وتأمل في هذا البيت الأخير كيف يشير اليهم باعتزاز وفخر بعد أن قدم حشداً كثيراً من صفاتهم ، وهذا الاعتزاز بقومه أسلوب جرى عليه لبيد فهو يكثر من استعماله معبراً بذلك عن حبه العميق لقومه ، وقريب من هذا قوله في قصيدة أخرى [1] :

قومي أولئك إن سألتِ بخيمِهم ولكل قوم في النوائب خِيمُ

فهو هنا لم يغير في صدر البيت شيئاً ، ونراه يؤكد نغمة الاعتزاز هـذه في قوله [2] :

قومي بنو عامرٍ وان نطق الا أعـداءُ فيهم مناطقاً كذبا

---

١ – الديوان ص ١٣٦ . الخيم : الخلق والطبيعة .

٢ – الديوان ص ٣٣ .

أو يقول [1] :

هُمُ قومي وقد أنكرتُ منهم ... شمائلَ بُدلوهـــا من شِمالي

أو بنسبهم الى مجد بنت تيم بن غالب زوج ربيعة بن عامر بن صعصعة ويدعو لهم بالسقيا فيقول :

سقى قومي بني مَجْـــدٍ وأسقى ... نُمَيْراً والقبائل من هِلال

ولبيد حين يفخر بقومه ويذكر مفاخرهم يوفق بين اعتزازه بهم ومديحه لهم ولذلك نراه يطنب في تعداد مآثرهم ويفتنّ في صياغة مكارمهم بأسلوب فيـــه اشادة وثناء، وقد رأينا في القصيدة السابقة حرصه على تعداد فضائلهم وتسجيل كل مكرمة من مكارمهم ، ونرى ذلك أيضاً في المعلقـــة حيث خصص الجزء الأخير منها لإداء حق قومه عليه فراح يعدد مكرماتهم ويسجل فضائلهم حيث جمع لهم المكارم من أطرافها من كرم ورئاسة وسماحة ومجد قديم ، وحلم وأمانة وسمو للمعالي ، ونصر للمجاور وحفاظ على العشيرة ، وقد نثر هذه الصفات في ثنايا شعره ، يذكرها لمناسبة أو غير مناسبة كأنه في ذلك يؤدي ديناً لهم عليه .

واذا كان أكثر ما تقدم من شعره في قومه منصرفاً الى فضائلهم ومحامدهم ، فان هناك شعراً غيره خاصاً بوقائعهم وحروبهم وأيامهم التي أحرزوا فيهـــا النصر المبين، وهو في ذلك الشعر يعنى بتسمية الأعداء، وتعيين المواضع ووصف

---

١ – الديوان ص ٩٤ .

القتال ، قوة الجيش وبلاء المحاربين ، وكأنه في ذلك مؤرخ يحرص على تسجيل الوقائع والأيام ، وهو لذلك يقول [1] :

إني امرؤٌ منعت أرومَةُ عامرٍ ضيمي وقد جَنَفَتْ عليَّ خصومُ

جهدوا العداوة كلَّها فأصدَّها عني مناكبُ عزُّها معلومُ

منها حُوَيٌّ والذُّهاب وقبلَهُ يوم بِبُرْقَةِ رَحْرَحانَ كريمُ

وغداة قاع القُرنتَين أتَيْنَهم رَهْواً يلوح خِلالَها التسويمُ

بكتائبٍ تردي تعوَّدَ كبشُها نطحَ الكباشِ كأنهن نجومُ

نمضي بها حتى تُصيبَ عدوَّنا وتُرَدَّ منها غانمٌ وكليمُ

وكتيبة الأحلاف قد لاقيتهم حيث استفاض دكادِكٌ وقصيمُ

وعشيةَ الحومانِ أسلم جندَهُ قيسٌ وأيقن أنه مهزومُ

ولقد بلَتْ يومَ النُّخَيل وقبلَه مُرّانُ من أيامنا وحَريمُ

منا حُماةُ الشِّعْب يوم تواكلت أسدٌ وذبيان الصَّفا وتميمُ

فارتُثَّ كلماهم عشيةَ هَزْمِهم حَيٌّ بمنعرج المَسيلِ مقيمُ

---

١ – الديوان ص ١٣٢ – ١٣٦ . الارومة : الاصل . جنفت : جارت . مناكب : جماعات . حوى والذهاب ورحرحان : مواضع كانت فيها لهم أيام القرنتين موضع . رهواً : متتابعاً . التسويم : العلامات . الاحلاف : أسـد وغطفان وبعض طيء وبعض نبهان وضبة وعكل . الدكادك : رمال متواضعة ليست مرتفعة . قصيم : رمل خفيف . ارتث : حمل وبه رمق . كلماهم : جرحاهم . حي بمنعرج المسيل مقيم : اراد الضباع التي اكلت القتلى ، منعرج المسيل منعطف السيل .

ويفخر لبيد بانتصار قومه يوم فيف الريح وما أنزلوه بأعدائهم من قتل وتنكيل وكذلك يعين الموقعة ويبين جوانب من مشاهد القتال ويسمي الأعداء الذين نازلوهم ، فبعد أن يشيد بكتيبة قومه وما لها من قوة وضخامة يقول في وقعة فيف الريح [1] :

قدَّموا إذ قال : قيسٌ قدِّموا واحفظوا المجدَ بأطراف الأَسَلْ

بين إرقاص وعَدْوٍ صادق ثم إقدام اذا النِّكْسُ نَكَلْ

فَصَلَقْنا في مُرادٍ صلقةً وصُداءٍ ألحقتهم بالثِّلَلْ

ليلةَ العُرْقُوب لما غامَرَتْ جعفرٌ تُدعَى ورهطُ ابنِ شكَلْ

ثم أنعمنا على سَيِّدِهم بعدما أطلع نَجْدا وأَبَلْ

وحين يؤكد لبيد قوة قومه وبراعتهم في الحرب وشدتهم على الأعداء ، فانه لا يجاوز الحقيقة الا بقدر ما تقتضيه الصياغة الأدبية ، فقد كان لبني عامر جيش منظم ، أعدوه للقتال ، وصد الأعداء ، لما عرفنا من صلاتهم الحربية الدائمة بجيرانهم من عبس وذبيان وأسد وتميم وبني الحارث ، ولبيد يشير الى هذا الجيش المنظم المهيأ للحرب في كل حين فيقول [2] :

---

١ – الديوان ص ١٩٢ – ١٩٣ . قيس : قيس عيلان. الارقاص : حمل الابل على الخبب. النكس : الرجل الضعيف . الصلقة : الصياح . الثلل : الهلاك . ليلة العرقوب : يوم من أيامهم ، والعرقوب : من ديار خثعم قاتلوا فيه بني كلاب . شكل : من بني حريش . سيدهم : يريد الحصين بن مزيد .

٢ – الديوان ص ١٣٧ . المقانب : الكتائب ، واحدها مقنب . المنسر : ما بين الثلاثين والاربعين . سهوم : ضمور او شحوب من غير مرض .



واذا تواكلت المقانب لم يَزَلْ بالثغر منـــا مِنْسَرٌ وعظيمُ
نسمو به ونَغُلُّ حدَّ عدونا حتى نؤوب وفي الوجوه سُهُومُ

ووصف قوة هذا الجيش وجرأته في قوله [1] :

لنا مِنْسَرٌ صعب المقادة فاتك شجاع اذا ما آنَسَ السِرْبَ الجَما
نُغير به طَوراً وطوراً نضمه الى كل محبوكٍ من السَّروِ أيْهما

فلهم منسر وهو قطعة من الجيش فيها الفرسان تكون أمام الجيش الكبير يغيرون به حيناً ويضمونه الى الجيش الكبير حيناً آخر ، ويلاحظ أنه شبه جيشهم لضخامته وكثرة عدده بجبل السرو من جبال اليمن . وفي موضع آخر من شعره يصف كتائب قومه فيقول [2] :

بكتائب تُردِي تعَوَّدَ كَبْشُها نطحَ الكِباش كأنهن نجومُ
نمضي بها حتى تُصيبَ عدونا وتردُّ منها غانم وكليمُ

وذكر ما في هذه الكتائب من دروع سابغة وحديد كثير ، فقال :

فتى يَنقَعْ صراخ صادق يُحْلِبوه ذاتَ جَرْسٍ وزَجَل [3]

---

١ – الديوان ص ٢٨٤ . المنسر : جماعة الخيل ، والقطعة من الجيش . محبوك : مندمج مجتمع . السرو : جبل باليمن شبه به الجيش . الأيهم : الاعمى .

٢ – الديوان ص ١٣٣ – ١٣٤ . تردي : تمشي وتعدو. كبشها: كبيرها. كليم : جريح .

٣ – الديوان ص ١٩١ – ١٩٢ . النقع : ارتفاع الاصوات . يحلبوه : يمدوه بجلائب الخيل . ذفراء : فيها رائحة . ترتي : تشد . الترك: البيض . القردماني : أي عمل وبقي فارسي. الجنثي : السيف . الحرباء : المسمار .

فخمةً ذفراء تُرْتى بالعُرَى قُرْدُمانيّاً وتَرْكاً كالبَصَلْ

أحكم الجِنْثِيُّ من عوراتها كلَّ حِرْباءٍ اذا أُكْرِهَ صَل

٣

ذلك فخر لبيد بقومه بني عامر واشادته بوقائعهم وثناؤه على فعالهم وقد كان في بعض الاحايين يخص قومه الأدنين بني جعفر بهذا الثناء والفخر، ويظهر هذا الفخر خاصة حين يقوم الخلاف بين بني جعفر وبين فرع آخر من بني عامر، كالذي حدث بين الجعفريين وبين بني أبي بكر ابن كلاب، حيث سالت بين الحيين دماء وتحاكموا الى جواب فقضى باجلاء الجعفريين عن أرضهم. وقد جاء فخر لبيد ببني جعفر على ضربين: اشادة بهم، ودفاع عنهم. فنجد في الضرب الاول اشادة ومديحاً وثناء على أهله ومالهم من قوة وعزة وكثرة في العدد، ومفاخر موروثة وأحساب قديمة، فهو يباهي بكل ذلك ويفخر على شاكلة قوله[١]:

ولقد أراني تارةً من جعفر في مثلِ غيث الوابل المتحلّبِ

من كل كهل كالسنان وسيّدٍ صَعْبِ المقادة كالفَنِيق المُصْعَبِ

من مَعْشَرٍ سَنّت لهم آباؤهم والعِزُّ قد يأتي بغير تطلّبِ

---

١ – الديوان ص ١٥٧ . في مثل غيث الوابل : في مثل المطر المنهمر كثرة عدد . الفنيق : الفحل الذي لا يركب لكرامته على أهله . المصعب : الفحل ايضاً .

أو أن يصف احدى وقائعه الحربية مع حامية من بني جعفر متأهبة للقتال تفحص سيوفها كل يوم استعداداً للقاء الأعداء [1] :

ومعي حاميةٌ من جعفرٍ كلَّ يوم تَبْتَلي ما في الخِلَلْ

وهو منحاز الى قومه هؤلاء معتز بهم ، يدخرهم للنوائب لا يبعد عنهم فهم أقرب الأحياء اليه وأحبهم لديه ، وهم يحبونه وينصرونه ، قال حين خاطب عمه أبا براء [2] :

فلا تبغِيَنّي إن أخذت وَسِيقةً من الأرض إلا حيث تُبغَى الجَعافِرُ
أولئك أدنى لي ولاءً ونصرُهم قريب إذا ما صدَّ عني المعاشِرُ

أما الضرب الثاني من فخر لبيد ببني جعفر ، فهو دفاع عنهم ضد خصومهم وتمثيل لوجهة نظرهم واظهار مكانتهم في القبيلة العامرية ، ويظهر في هذا المجال حرص لبيد على وحدة العامريين جميعاً ودعوته للوئام بينهم ودفع الشر عنهم ، فحين حمي الشر بين بني جعفر وبني أبي بكر بن كلاب ، ونزلوا على حكم جواب بنفي الجعفريين ، ذهب لبيد مغاضباً يوعد خصومه بغارة شديدة فيها فتيان بني جعفر الموصوفين بالشجاعة والاقدام كأنهم أسود الغاب [3] :

---

١ - الديوان ص ١٩٠ . الحامية : الجماعة يحمون أنفسهم . تبتلي : تختبر . الخلل : جفون السيوف .

٢ - الديوان ص ٢٢٣ - ٢٢٤ . الوسيقة : قطعة من الابل .

٣ - الديوان ص ٢١ - ٢٢ . الضجوع: واد أو رحبة لبني أبي بكر بن كلاب. النعم: الابل. أسراب: متسربة يتبع بعضها بعضاً. الطمرة: المشرفة من الخيل او السريعة . هراوة الاعزاب: فرس لعبد القيس كان يستعيرها العزب ليتصيد عليها . ضبينة : قبيلة . الاجباب : الآبار واحدها جب .



لا تسقِني بيديك إن لم ألتمسْ نَعَمَ الضُّجوع بغارةٍ أسرَابِ

تَهدِي أوائلَهنَّ كلُّ طِمِرَّةٍ جرداء مثلِ هراوة الأعزابِ

. . .

يحملن فتيان الوغى من جعفر شُعْثاً كأنهم أسودُ الغابِ

ثم ينكر على بني كلاب قضاءهم بنفي قومه ، ويأنف ان تترك ديارهم لبني ضبينة فينزلوها بعدهم :

أبني كلابٍ كيف تُنفَى جعفرٌ وبنو ضُبَيْنَةَ حاضرو الأَجبابِ

وبين مكانتهم وفضلهم على الناس ، فيقول :

قومٌ لهم عرفت مَعَدٌّ فضلَها والحقُ يعرفه ذوو الألباب

ويفاوض لبيد عن قومه فيدعو بني أبي بكر الى الوفاق والوئام ، ويذكرهم بواجب الحفاظ على وحدة بني عامر ويحثهم على اتباع خير السبل ، أما هم فقد أثروا تقديم الذي هو خير بعد ترو وتفكير وتعقل[١] :

فلما رأينا أنْ تُرِكنا لأمرنا أتينا التي كانت أحقّ وأكرما

وقلنا انتظار وانتِيارٌ وقوةٌ وجُرثومة عاديّة لن تَهدَّما

---

١ - الديوان ص ٢٨٠ . جرثومة : أصل . عادية : قديمة .

ويعرض عليهم الصلح وقبول الدية حقناً للدماء وحفظاً للاواصر والصلات وهو لا يدعو الى ركوب الحرب بل يؤثر السلم ويحض عليه ، فاذا أبى خصومهم ولم يك من الحرب بد ركبوها فما هم بالخور الضعاف ، فلهم ذوة وعدد ، ولهم وقائع مشهورة ، وفرسان سادة ذوو بأس شديد ، وعزم وأباء . وهو في سياق مفاوضته بني أبي بكر يستعرض لهم قـــوة قومه الجعفريين ويعدد مفاخرهم فيقول [1] :

فإن تذكروا حُسْنَ الفُروض فإننا ... أَبَأْنا بأنواح القُرَيْطَيْنِ مأتما

وأما تعدوا الصالحات فأنني ... أقول بها حتى أَمَلَّ وأسأما

وان لم يكن الا القتال فإننا ... نقاتل من بين العَروض وخَثْعَما

أبى خسفنا أن لا تزال رواتُنا ... وأفراسنا يتبعن غَوْجا محرَّما

يَنُبْنَ عدوا أو رَواجعَ منهم ... بواني مجداً أو كواسبَ مغنما

ويمضي لبيد على هذا المنوال يفخر بقومه بني جعفر ويشيد بمآثرهم وحسن فعالهم وعلى أي حال فان لبيداً لم يترك مأثرة من المآثر أو مفخرة من المفاخر الا ذكرها لقومه ، سواء في ذلك قومه الأدنون بنو جعفر ، أم قبيلته الكبرى

---

١ – الديوان ص ٢٨٢ – ٢٨٣ . الفروض : العطيات والهبات . أبأنا : استوفينا حقنا وأخذناه . الأنواح : النائحات . القريطين : تصغير القرطين ، موضع قبل تثليث . بين العروض وخثعما : اي نقاتل من يسكن بين مكة واليمن . الرواة : ج راو وهو الرجل الذي يقوم على الخيل . الغوج : اللين الأعطاف من الخيل . المحرم : الصعب . ينبن : ينزلن بالعدو وكأنهن النوائب .

عامر بن صعصعة واحياناً يفخر بقيس كلها حين يقول مشيراً الى دعوة الداعي بلقاء قيس للقتال [1] :

قَدّموا إذ قال قيس قدموا واحفظوا المجدَ بأطراف الأسل

٤

واذا رحنا بعد هذا نتلمس خصائص الفخر في شعر لبيد فماذا نجد ؟ ان السمة العامة في فخر لبيد القصد ومجانبة الغلو والاسراف ، ومع ان فخر بعض الجاهليين يميل الى المبالغة والتهويل ، فان لبيداً قد شاء لشعره ان يبرأ من هذه النزعات ، فهو حين يفخر انما يعبر عن خصال معروفة في قبيلتـــه وفي نفسه وتدعمها الحقيقـــة التاريخية ، واذا كانت الصياغة الشعرية لموضوعات الفخر تكسبها لوناً من التهويل والمبالغة ، فان هذه المبالغة لم تبلغ حد الشطط ، وجل المفاخر التي ذكرها لبيد كان لها أصل من الحقيقة ، فقد فخر بكرمه وكرم قبيلته ، والناظر في حياة لبيد وحياة قبيلته يجده كريماً مسرفاً في الكرم، وقد وصفته الاخبار بصورة أضخم مما وصف نفسه ، وكذلك كان قومه قد شهروا بالكرم وعرفوا بكثير العطاء ، وما يقال في الكرم يقال في المفاخر الأخرى الخلقية أو الحربية .

ولا بد لهذا الاعتدال والقصد من تعليل ، ولعلي أميل الى تعليلين كلاهما يلتقي عند الآخر : الأول ان لبيداً كان من أسرة لها الصدارة في القبيلة ، ومن قبيلة لها مكانتها الكبرى بين العرب ، وكان هو ذا منزلة مرموقة ومكانة علية ، فكان محترماً موقراً لدى قومه ولدى العرب أيضاً ، سواء في ذلك المـــلوك أم

---

١ – الديوان ص ١٩٢ .

السوقة ، ولذلك فقد كان عليه ان يتزن ويتعقل في فخره ، كما اتزن في حياته وتعقل في سيرته . والتعليل الثاني أن لبيداً قد جُبِلَ على التعقل والرزانة والروية ، فلم يكن غراً خفيفاً طائشاً وآية ذلك انه ينصف خصومه حتى في ميادين الفخر . حين فخر – في معلقته بمقامه في مجلس النعمان كان يقول :

أنكرت باطلَها وبؤتُ بحقها   عندي ولم يفخر عليَّ كرامُها

فان انكاره الباطل لم يمنعه من الاقرار بالحق والاعتراف به وانصاف غيره ، هذا اذا أقررنا ان (بؤت) هنا بمعنى (اعترفت) وهو أحد معانيها المقبولة .

ثم انه كان في فخر لبيد الجانب الانساني سواء حين يفخر بكرمه أم حين يفخر بفروسيته ، ففي كرمه يميل الى اطعام الفقراء والمعوزين والأرامل واليتامى . ويفتنّ في تصوير صورة الأرملة المجهدة في ثيابها القصيرة التي أبلاها الدهر وقد لجأت الى طنب خيمته فشبهها بتلك الحال ببلية عقرت عند قبر سيدها ، ويتضح في إيوائه المساكين والغرباء في أزمان القحط والبرد ، فكرم لبيد كان منصرفاً الى الفقراء والضعاف وبخاصة النساء ، وتبرز هنا العواطف النبيلة في هذا الدافع حيث الرحمة والرفق والعطف والحنان .

أما في فروسية لبيد فالناحية الانسانية تظهر في مقاتلته نصرة لضعيف ، أو نجدة لخائف ، أو انصافاً لمظلوم ، أو إطلاقاً لأسير ، فالفروسية لديه مروءة وشهامة وليس فيها رغبة في القتال أو شهوة لسفك الدماء من ذلك نراه ميالاً الى السلم مؤثراً للصلح والوئام بين المتخاصمين .

ومما يلاحظ في فخره بقومه ، انه لا يقتصر على المباهاة بقوتهم وسلطانهم بل كان فخره إشادة بمناقبهم وثناء عليهم ، فهو في هذا مديح ينصرف الى القبيلة عامة ولا يخص أشخاصاً بأعيانهم . واذا كان شعر لبيد قد خلا – أو كاد – من



المديح بمفهومه العام ، فانه أفاد من الفخر فضمنه أماديح في قومه ، وما الفخر في حقيقته الا ضرب من المديح الخالص الذي مبعثه الاعتداد بالنفس أو القبيلة والاعتزاز بهما والثناء عليهما .

ومن خصائص فخر لبيد أنه فخر متنوع لا يقف عند خصلة بعينها ، بل يشمل كل الخصال الرفيعة التي يتمثلها في نفسه أو في قبيلته ، وقد استطاع أن يرسم من مجموعة تلك الخصال والفضائل التي تمدح بها ، صورة للفارس العربي الكامل الذي تجمعت فيه كل المثل والمآثر الجاهلية ، من فروسية وشجاعة وقوة ونجدة واغاثة ملهوف وفك أسير ونصرة مظلوم ، وكرم وبذل وعطاء ونحر للجزور وانفاق في الخمر والميسر ، وحلم ووقار وخبرة في الصحراء وليلها، وامانة ووفاء وعدل وانصاف للآخرين وما الى ذلك من معاني المروءة والشهامة وهذه كلها فضائل نفسية كان الشاعر الجاهلي يتمدح بها ويسعى الى تحقيقها .

أما قصائد الفخر في ديوان لبيد ، فهي كثيرة ، وتمتاز بالجزالة والقوة والجودة ، وأكثر قصائد الفخر هذه طويلة جميلة رائعة ، تتعدد فيها الفنون ويأتي الفخر حين يأتي بعد تمهيد مناسب وفي آخر القصيدة ، والقارىء لهذا الشعر يحس ان لبيداً قد وفر لقصيدته أسباب الجودة والعناية وجعلها تنتهي الى الفخر وكأنه غاية ينتهى اليها ، ويستقر عندها .

وفي الفخر عادة ، يجد الشاعر متنفساً يتحدث فيه عن نفسه وعن أهله ، مسجلاً أخلاقه ومثله ، وان ألذ الأحاديث وأطيبها لدى الشاعر — وغير الشاعر — حديثه عن نفسه ، وبخاصة الجوانب الرفيعة الخيرة في شخصيته ، ومن هنا جاء التجويد في هذا الفن والبراعة في أدائه، ومن هنا أيضاً كان الفخر مقبولاً لدى الشاعر والقارىء على السواء لأنه يرضي الأول ويعبر عن طموح الثاني ونوازع نفسه .

الرثـــاء

١

اذا عد شعراء الرثاء في الجاهلية كان لبيد بينهم ، إن لم يكن في طليعتهم . واذا كانت الخنساء أشهر شواعر الرثاء الجاهليات ، فان لبيداً كان أشهر شعراء الرثاء في الجاهلية أيضاً ، ومثلما بكت الخنساء أخاها صخراً بكاء مراً حزيناً وذاع اسم صخر بها ، بكى لبيد أخاه أربد بكاء مراً حزيناً وذاع اسم أربد ببكاء لبيد وصار المتأخرون حين يبكون أخوتهم أو ذويهم ، يتأسون ببكاء لبيد أو بكاء الخنسا ، نجد ذلك في قول الحسين بن عبد الله البغدادي في رثاء أخيه أحمد بن عبد الله [١] :

غايةُ الحزن والسرور القضاءُ ... ما لِحَيٍّ من بعد مَيتٍ بَقاءُ

لا لبيدٌ بأربدٍ ما حزنا ... وسلَتْ صخرا الفتَى الخنساءُ

ونجد الشاعر الصنوبري في بكائه يتشبه بلبيد حين بكى أربد ، قال [٢] :

سأرثيكَ ما حنَّتْ حمامة أيكةٍ ... كأني لبيداً أو كأنك أربدُ

وكذلك يقول ابن مقبل [٣] :

---

١ — ياقوت ، معجم البلدان ٤/٤٥ .

٢ — شرح المضنون به على غير أهله ص ٥١٠ .

٣ — ديوان ابن مقبل ص ٦٤ ، تحقيق عزت حسن ط دمشق ١٣٨١ / ١٩٦٢ .

وإنّا وإياكم وموعدُ بيننا كمثلِ لبيد يومَ زايلَ أربدا

فشهرة لبيد في مراثيه لا تقل عن شهرة الخنساء في مراثيها ، ولا أظن أن الخنساء تفوق لبيداً في حرارة الرثاء وشدة الحزن وكثرة التفجع الا بقدر . واذا كان ثمة فرق بين الخنساء ولبيد ، فهو الفرق بين جزع المرأة وتجلد الرجل[1]، وذلك هو الذي ميز الخنساء فذكرها الناس ببكائها ، فهي امرأة نواحة نادبة ضعيفة تبكي في أخيها العطف والحنان والرحمة والرجولة . أما لبيد فقد كان يتحسر على فقد أخيه فيذكر فيه البطولة والجود والنجدة ، ويرى فيه الرجل القدوة والفارس البطل .

وقد عرف الدكتور طه حسين للبيد منزلته الكبيرة في هذا الفن وتصويره البارع للحزن فذهب الى تقديمه على الخنساء فقال : « ولست أدرى كيف يمكن أن تقدم الخنساء عليه في رثائها ، وهو عندي أبرع منها في تصوير الحزن وصب اليأس في القلوب صباً من غير ضعف ولا وهن »[2] ولست أزعم أن لبيداً أفضل رثاء من الخنساء ، ولكن أقول ان لبيداً لا يقل عنها ، ولكل منهما جانب برع فيه ، وميزة امتاز بها ، فلبيد حين بكى أخاه صور مشاعر الرجل الحزين الذي نزلت به المصيبة فآلمته ، ولكنها لم تستطع أن تهده فييأس أو يجزع بل تجلد تجلد الرجال وصبر صبر العقلاء ، ولذلك فحزنه حزن حكيم يتأسى بمصائب الأقدمين من السادة والملوك والعظماء . أما الخنساء فكانت في مراثيها امرأة وقد صورت عواطف المرأة في حزنها وجزعها ويأسها وقلة حيلتها .

---

١ – يرى الدكتور احمد الحوفي ان النساء (اكثر من الرجال ذكراً للوعة وأكثر حديثاً عن البكاء والدموع والفجيعة لأن ضعفهن وأنوثتهن ، وسرعة انفعالهن كل أولئك يتجلى في تصويرهن للترح بالحديث عن البكاء) المرأة في الشعر الجاهلي ص ٤٨٩ .

٢ – حديث الاربعاء ٥١/١ .

٢

لقد شغل الرثاء جزءاً كبيراً من ديوان لبيد ، وكل مراثيه في أهله وعشيرته خلا واحدة في رثاء النعمان بن المنذر. فقد رثي أباه وأخاه واعمامه وابناء اعمامه ورجالاً من قبيلته .

على أن أكثر قصائد الرثاء وأجودها وأصدقها عاطفة هي قصائده في رثاء أخيه لأمه أربد بن قيس . وقد مر بنا أن أربد كان أخاه الأكبر [١] ، وكان بطلاً شديداً وفارساً من فرسان قومه . وكريماً من أجوادهم ، وكان يحب لبيداً ويعطف عليه ولبيد يحبه ويجله ، وقد فقد لبيد أباه وهو صبي صغير ، فصار في رعاية أخيه ورعاية عمه أبي براء ، ومن هنا كان اعجاب لبيد بأربد وتعلقه به ، كما أعجب بأبي براء وتعلق به . وكان مقتل أربد بعد وفادتـــه مع عامر بن الطفيل على رسول الله ﷺ في قصة مر ذكرها فأصيب عامر بالغدة فقتلته ، وأصيب اربد بالصاعقة فأحرقته ويذهب فريق من المفسرين الى أن الآية الكريمة « ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء » قد نزلت في أربد . ولبيد يؤكد قتلة أربد بالصاعقة في شعره وذلك حيث يقول [٢] :

أخشى على اربدَ الحتوف ولا   أرهب نَوْءَ السِّماك والأسَدِ
فَجَّعَني الرعد والصواعِق بالـ   فارس يومَ الكريهة النَّجُدِ

وأشار الى مصرعه أيضاً في قوله [٣] :

---

١ — انظر فصل (امرة لبيد) ص ١٠٨ .

٢ — الديوان ص ١٥٨ . الحتوف : الآجــال . النجد : الشديد . وانظر تفسير الطبري ص ١١٣ — ١١٤ .

٣ — الديوان ص ١٦٧ .

فأن يَكُ نَوْءٌ من سحاب أصابه   فقد كان يعلو في اللقاء ويظفر

وحين فقد لبيد أخاه حزن حزناً شديداً ، وشعر أنه فقد فيه المعين والحامي والناصر ، وبكاه بكاء صادقاً يدل على مدى حب لبيد وتعلقه به ، فظهرت اللوعة وقوة الفجيعة في هذا الشعر الباكي الذي يقول فيه [1] :

فهل نُبِّئْتَ عن أخوين داما   على الأيام إلا ابنَي شَمامِ

والا الفرقدين وآلَ نعشٍ   خوالدَ ما تحدَّثُ بانهدامِ

وكنتِ أمامنا ولنا نِظاما   وكان الجَزْع يُحفظ بالنظامِ

وليس الناس بعدك في نَقيرٍ   ولا هم غيرُ أصداءٍ وهامِ

وانظر في البيت الأخير كيف يستهين بالناس فلا يرى فيهم خيراً بعد أربد فقد مضى ومضى معه الخيرون الطيبون الذين كانت الحياة بهم زاهية والعيش معهم طيباً محموداً . وقد أعاد هذا المعنى في قصيدة أخرى حين جعل الناس بعد أخيه لا خير فيهم ولا يرجى خيرهم فهم كجلد البعير الأجرب ، وقد اعجب الناس بهذا المعنى من بعده فصاروا يقولونه ويتمثلون به حين يتحسرون على السلف الطيب ويذمون الخلف السيىء [2] .

---

١ – الديوان ص ٢٠٨ – ٢٠٩ . شمام : جبل بالعالية له رأسان يسميان ابني شمام . نظامنا : نتمسك بك . النظام : الخيط . الجزع : الخرز. نقير : ليسوا في شيء . اصداء وهام: طائر يخرج من رأس الميت على ما كانوا يعتقدون .

٢ – الديوان ص ١٥٣ – ١٥٤ . اللبانة : بقية الحاجة . الخلف : البدل والنسل . ويقال الخلَف : الصالح . والخلْف : السيىء . المخانة : الخيانة . يتأكلون : يأكل بعضهم بعضاً . يشغب : يجور عن القصد . المغالة : الغيبة والوقوع في الشيء . أعضب : منفرد ، المكسور أحد قرنيه .

قَضٌّ اللبانةَ لا أبالك واذهبِ   والحق بأسرتك الكرام الغُيَّبِ
ذهب الذين يُعاش في أكنافهم   وبقيتُ في خَلْفٍ كجلد الأجربِ
يتأكلون مَغالةً وخيانةً   ويُعاب قائلُهم وان لم يَشْغَبِ
يا أربدَ الخيرِ الكريمَ جدودُه   خَلَّيتني أمشي بقَرْنٍ أعضبِ

لقد بكى لبيد أربد في احدى عشرة مرثية فيما وصل الينا من شعره ، بين قصيدة طويلة ومقطوعة قصيرة وارجوزة واحدة . بكاه بكاء حاراً فيه لوعة وتفجع وحزن شديد وقد استطاع لبيد أن يصور عظم المصيبة في فقد أخيه ، فقال يندبه ويذكر مفاخره وفضائله ويذم الدهر الذي ابتلاه بهذا البلاء العظيم[1] :

يا مَيَّ قومي في المآتم واندبي   فتى كان ممن يبتني المجدَ أروعا
وقولي ألا لا يُبعدِ الله أربدا   وهدِّي به صدعَ الفؤاد المُفَجَّعا
عميدُ أناس قد أتى الدهرُ دونَه   وخَطُّوا له يوماً من الأرض مضجعا
لعَمرُ أبيك الخيرِ يا ابنةَ أربدٍ   لقد شَفَّني حزن أصاب فأوجعا
فراقُ أخٍ كان الحبيبَ ففاتني   وولى به ريبُ المنون فأسرعا
فعينيَّ إذ أودي الفراق بأربدٍ   فلا تجمُدا أن تستهلا فتدمعا
فتىً عارف للحق لا يُنكر القِرَى   ترى رفدَه للضيف ملآن مترعا
لحا اللهُ هذا الدهرَ إني رأيتُه   بصيراً بما ساء ابنَ آدمَ مولعا

---

١ — الديوان ص ١٧٣ . الأروع : الجميل الذي يروعك بحسنه . شفني : احزنني وأهزلني . أودي : ذهب به . القرى : اطعام الضيف . رفده : عطاؤه . مترع : ملآن .

ولبيد في رثائه كثير النظر الى أفاعيل الزمان وغدر الأيام ، كثير التفكر بمصير الماضين من ملوك وعظماء يجد في ذكرهم العبرة والعزاء على مصيبته ، وهو في هذا يتناول قضية الموت والفناء ومشكلة الانسان وضعفه أمام قدره المحتوم ، وبهذا يضفي لبيد الحزن على عوالم كثيرة .

وأكثر ما يؤكد لبيد في رثائه على خصال أربد وتعداد فضائله ، فهو يبكي فيه القوة والشجاعة والكرم والنجدة والحلم والعفو والوفاء ، وكل معاني المروءة التي يتمثلها في الفارس العربي .

وخصال اربد كثيرة أطنب في ذكرها لبيد ، وبخاصة الكرم فقد أبدع في عرض مكارم أخيه وجوده ، فلم يكتف بان يقول [١] :

فتى كان أما كلَّ شيءٍ سألتهُ فيُعطي وأما كلَّ ذنب فيغفِرُ

بل راح يعرض صوراً من كرمه ، فان أبله مال مشاع للفقراء ، يأتيها المعوز المحتاج يطلب خيرها فيجاب طلبه ، واذا أقحط الناس فانها تنحر للآكلين ولبنها موقوف على اليتامى والبائسين ، أما قدر أربد فمملوءة بلحوم هذه الابل ، يحمدها الآكلون وتبذل للطالبين . وجارة أربد لها حق في طعامه بل خير طعامه ، وخير الطعام السنام ، فان أقامت عنده فمكرمة حصان ، وان ظعنت عنه فقد ودعته بالحمد والثناء ، وهكذا يسترسل لبيد في ذكر مكارم أربد وتفصيل فضائله التي ليس لها من حدود . اقرأ ذلك في قصيدته التي أولها [٢] :

ألا ذهب المحافظ والمحامي ومانع ضيمنا يومَ الخِصام

---

١ – الديوان ص ١٦٧ .

٢ – الديوان ص ٢٠١ .



وانظر كذلك تصويره لأخلاق أربد ، وسيرته في الناس حين تقوم الحرب أو حين يعم السلم فهو فارس شديد وحليم عادل ، شديد من غير ظلم وحليم من غير ضعف [1] :

أن يشغبــوا لا يُبالِ شغبَهُم   أو يقصدوا في الحُكُومِ يقتصدِ
حــلوٌ كريم وفي حــلاوته   مُرٌّ لطيف الأحشاء والكَبِدِ

وأكد هذا المعنى في قوله :

اذا اقتصدوا فمقتَصِدٌ أريبٌ   وإن جاروا سواء الحق جارا

ولبيد مولع بهذه المقابلات والموازنات التي يكررها في قوله [2] :

مُمْقِرٌ مرٌّ عــلى أعدائه   وعلى الأدنَيْنِ حلو كالعسل

ولم يغادر لبيد مكرمة من المكرمات أو فضيلة من الفضائل من غير أن يعزوها لأخيه وينسبها اليه ، فقد مثله في هذه المراثي بصورة الرجل الكامل الذي تجمعت فيه كل خصال البطولة والفتوة والمروءة .

ويستطيع الدارس لشعر لبيد أن يميز ضربين من المراثي : ضرب قاله عند هلاك أربد ، حين كانت المصيبة في أولها والنفوس جزعة متحمسة ، وشعر هذا الضرب فيه بكاء واستبكاء ولوعة وجزع . وفي مثــل هذه الحال لا يستطيع الشاعر أن يرثي بقصائد طويلة ، بل بمقطوعات قصار ، خالية من الصنعة ،

---

١ – الديوان ص ١٦١ . يشغبوا : يجوروا .

٢ – الديوان ص ١٩٧ .

منحصرة في الموضوع ذاته ومن غير استطراد أو خروج الى أفكار أخرى ، انما هي عواطف مكبوتة وحسرات حرى ينفثها الشاعر كيفما أوتي له . وكذلك نجد شعر هذا الضرب من مراثي لبيد ، مقطوعات فيها بكاء ولا شيء غير البكاء ويمكن التمثيل لذلك بالقصائد التاسعة عشرة والحادية والعشرين ، والثالثة والعشرين ، والخامسة والعشرين .

أما الضرب الثاني من مراثيه فقد نظمها بعد حين ، بعد أن هدأ واستقرت نفسه وملك أنفاسه ، ثم راح يستذكر المصيبة ويحن الى أخيه فنظم قصائد طويلة فيها مسحة حزينة وأفكار ناضجة تدل على أفق واسع وعقلية متروية ، فقد نظر الى الزمان والموت ومصير الانسان ، واتعظ بمصائر السابقين وتعزى عن فقد أخيه بأن الموت غاية كل حي ، وليس في هذه القصائد بكاء ولوعة ولا جزع أو يأس بل نجد فيها حكمة واعتباراً وتأملاً . وفيها أيضاً يذكر فضائل أربد ويصور أخلاقه وصفاته وأيامه وحروبه وجوده ووفاءه بكثير من الحمد والثناء . ونستطيع أن نمثل لهذا الضرب بالقصائد الرابعة والعشرين والسادسة والعشرين والسابعة والعشرين . ويجد القارىء في هذه القصائد استطراداً لموضوعات بعيدة عن الرثاء وبخاصة في القصيدة السادسة والعشرين ، وطولاً غير معهود ، فقد بلغت هذه القصيدة خمسة وثمانين بيتاً .

ومهما يكن من شيء فان قصائده في رثاء أربد هي أجود مراثيه وأكثرها عاطفة ، ففيها بكاء حار ولوعة وفجيعة ومشاعر انسانية ونظرات في الحياة والموت وعبرة من الماضين ، وقد أدى كل ذلك بأسلوب هادىء حزين فيه جلال الموت ورهبته .

٣

أما رثاء لبيد لأهله وعشيرته فيمكن تصنيفه الى قسمين :

الأول : شعر يبكي فيه مجموعة من أقربائه ، كأبيه وأعمامه وأبناء أعمامه



ورجال من قبيلته يرد ذكرهم عادة في مجال الذكرى ، فيعدهم واحداً بعد الآخر ويذكر شيئاً من مناقبهم أو سبب وفاتهم ، وقد يستطرد لذكر أقوام آخرين بادوا يلتمس بذكرهم الصبر والعزاء . وقصائد هذا القسم في الغالب طويلة كالقصيدة الثانية والثامنة والتاسعة والاربعين ، وتلحق بهما القصيدة الأولى .

والقسم الثاني من هذا الرثاء مقصور على أفراد بأعيانهم مثل : عمه أبي براء الذي رثاه بأرجوزتين ، وقطعة في رثاء عمه الطفيل بن مالك وأخرى في عوف ابن الأحوص وفي عروة الرحال وحبان بن عتبة . وباستثناء رثائه لأبي براء فان المراثي الباقية قطع قصيرة .

ولننظر في قصائد القسم الاول ونقف عند القصيدة الثامنة ، أجود قصائد هذا القسم وأطولها وأكثرها شمولاً في ذكر الذاهبين من أهله ، استهل القصيدة في عتاب امرأة تلومه على الانفاق وبذل المال، فهو يتغزل في مطلع قصيدة رثاء، وهذا أمر ينكره النقاد حتى انهم قالوا : « ان المتعارف عند أهل اللغة انه ليس للعرب في الجاهلية مرثية أولها تشبيب ، الا قصيدة دريد بن الصمة [1] :

أرثَّ جديدُ الحبل من أم معبدِ بعافيةٍ وأخلفت كلَّ موعدِ »

وقد اعتذر ابن رشيق لدريد بأنه تغزل بعد قتل أخيه بسنة ، وحين أخذ بثأره وأدرك طلبته . ولكن الحق ليس كما قال ابن رشيق ، فهذه قصيدة لبيد بدأها بالغزل ، وقد سبقه المرقش أيضاً في قصيدته [2] :

---

١ – ابن رشيق ، العمدة ٢/١٢١ – ١٢٢ ط السعادة ١٩٠٧ .

٢ – المفضليات ص ٤٨٥ ط لايل . المرقش الاكبر هو عوف بن سعد أو عمرو بن سعد عم المرقش الأصغر .



هل بالديارِ أنْ تُجيبَ صممْ   لو كان رَسْمٌ ناطقاً كَلَّمْ

فقد استهلها بالغزل ، ثم انتقل الى الرثاء ثم مدح الغساسنة وفخر بقومه وهجا أعداءه . وكذلك فعل النابغة في رثائه النعمان بن الحارث الغساني [1] :

دعاكَ الهوى واستجهلتك المنازل   وكيف تصابى المرء والشيب شامل

أما لبيد فقد بدأ قصيدته بقوله [2] :

أعاذلَ قومي فاعذلي الآنَ أو ذَري   فلستُ وإنْ أقصرتِ عني بمُقْصِرِ

ثم يتخلص الى الرثاء بعد خمسة أبيات فيقول :

فإمّا تُريني اليومَ عندكِ سالماً   فلستُ بأحيا من كلاب وجعفرِ

ولا من أبي جَزْءٍ وجاري حَمُومَةٍ   قتيليهما والشارب المتقَطِّرِ

ولا الأحوصَينِ في ليالٍ تتابعا   ولا صاحبِ البرّاض غير المغَمَّرِ

فهو ليس أطول عمراً من كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة ، ولا من ابنه جعفر ، ويمضي يذكر رجالاً من أبناء قبيلته ، فأبو جزء هو خالد بن كلاب ، وجاراه هما مالك بن جعفر ومعاوية بن مالك ، ويريد بالشارب المتقطر معاوية

---

١ — العقد الثمين في دواوين الشعراء الستة الجاهليين . ولیام ، الوارد ص ٢٣ .

٢ — الديوان ص ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٨ . المغمر : الجاهل غير المجرب .

ابن مالك الذي أتى مع أبيه ملكاً من ملوك الحبشة فسقاه شراباً حتى سكر ، فسقط من فوق بيت فمات ، فخشي أن يرسل الملك مالكاً فقتله خنقاً ، ولذلك قال قتيليهما ، والأحوصان هما : الأحوص بن جعفر بن ربيعة بن كلاب وابنه عمرو بن الأحوص الذي قتلته تميم يوم المَرُوت وصاحب البراض عروة بن جعفر الذي قتله البراض الكناني وبسببه قامت حرب الفجار ، وبعد أن أحصى هذه المجموعة من أهله وأشار الى مقتلهم ، ذكر أباه ربيعة وأشار الى كرمه فجعله ربيع المقترين ، وبين مقتله في يوم ذي علق فقد قتله بنو أسد وذكر قيس بن جزء والد أخيه أربد وعين سبب مقتله ، حيث هرأ البرد جسمه فمات [1] :

ولا من ربيع المُقْتِرينَ رُزِئْتُه ... بذي عَلَقٍ فاقْنَى حياءَكِ واصبري
وقيس بن جَزْءٍ يومَ نادى صِحابَهُ ... فعاجوا عليه من سَواهِم ضُمَّرِ
طوته المنايا فوق جَرْداءَ شطْبَةٍ ... تدفُّ دفيفَ الرائح المتمطرِ
فبات وأسرى القوم آخرَ ليلهم ... وما كان وقافاً بدار معَصَّرِ

ثم يرثي عمه أبا براء عامر بن مالك ويصفه بالجود والكرم اذا أقحط الناس وأجدبوا ، وكذلك عمه عبيدة بن مالك ، وسلمى بن مالك الذي يجيب الناس ويهب الى نصرتهم ، ويذكر طفيل بن مالك وابنه سهيل بن طفيل ويشير الى موضع قبريهما ، فعلى هؤلاء جميعاً يكثر البكاء ، وتذرف الدموع ، وتدمي النساء خدودهن لطماً ونواحاً [2] :

---

١ – الديوان ص ٤٨ – ٤٩ . ذو علق : جبل في ديار بني أسد. سواهم ضمر : خيل لوحها السفر وغيرها . معصر : حرز أو منجاة وملجأ .

٢ – الديوان ص ٥٠ – ٥٢ . الفورة بفتح الفاء وضمه: موضع في ديار بني عامر. الحراب: عامر بن مالك . الطارق : الذي يأتي ليلا . لم تستر : من شدة الجوع والجدب . الجنينة : اسم روضة . صؤر : موضع في ديار بني تميم . الطراف : البيت من أدم . مجور : مقوض . عوان : نصف . القر : الهودج . مخدر : مستر بالثياب فصير خدراً .

وبالفورة الحرَّابُ ذو الفضل عامرٌ فنِعمَ ضياء الطارق المتنوّرِ
ونعمَ مُناخ الجـــار حَلَّ ببيته إذا ما الكَعاب أصبحت لم تستّرِ
ومن كان أهلَ الجود والحزم الندى عُبيدةُ والحامي لدى كل مُحْجَرِ
وسلمى وسلمى أهلُ جُودٍ ونائل متى يَدْعُ مولاه الى النصر يُنْصَرِ
وبيتُ طفيل بالجُنَيْنَـــةِ ثاوياً وبيتُ سُهَيْلٍ قد علمتِ بصَوْءَرِ
فلم أرَ يوماً كان أكثر باكياً وحسناء قامت عن طِراف مجوَّرِ
تَبُلُّ خموشَ الوجه كلُّ كريمةٍ عَوانٍ وبِكر تحت قَرٍّ مُخَدَّرِ

ويمضي لبيد يستذكر قتلى قومه أو من مات منهم فيذكر صاحب ملحوب عمرو بن خالد بن جعفر ويبكي صاحب الرداع عوف بن الأحوص ، ويقال بل هو حبان بن عتبة بن مالك قتله بنو هزان من عنزة وقبره باليمامة [1] ، وكذلك يذكر ابن عمه كنانة بن عبيدة بن مالك ويدعو لهم جميعاً بالحمد والسقيا وان ينبت الريحان عند قبورهم ، فيقول [2] :

وصاحبُ ملحوب فُجِعْنا بيومه وعندَ الرِّداع بيتُ آخر كوثَرِ
أولئك فابكي لا أبالكِ واندُبي أبا حازمٍ في كل يوم مذكَّرِ
فشيَّعَهُمْ حَمْدٌ وزانت قبورَهم سَرارةُ ريحانٍ بقاع مُنَوَّرِ

---

١ – هكذا ذكره البكري في معجمه ١٠٣١/٣ .

٢ – الديوان ص ٥٢ – ٥٣ . صاحب ملحوب : عمرو بن خالد . وملحوب : فرس . كوثر : كثير المال . سرارة : وسط الروضة . منور : كثير الزهر .

وانظر في هذا البيت الاخير ، كيف صور قبورهم وسط رياض تحفها أزاهير الريحان وهي صورة حضرية ، فقد كان الجاهليون يدعون لموتاهم بالسقيا ، فزاد لبيد هذه الصورة ليضفي التكريم اللائق بمن يرثيهم ، فيشيعهم حمد ، وتزين قبورهم الأزهار وتحيط بهم الرياض .

وبعد ان استوفى ذكر ذوي قرباه ، وتحسر على فقدهم وبكى لبعدهم ، راح يلتمس العبرة من ملوك الحيرة الذين مضوا وعفى على ذكرهم الزمان ، فقد كانوا ذوي ملك وسلطان ، وكانت الدنيا مقبلة عليهم والحياة زاهية بهم ، فقلب الدهر لهم ظهر المجن فاذا هم خبر بعد عين . ولبيد يجد العزاء والسلوان على مصيبته بأهله ، حين يذكر هؤلاء العظام ، فيقول [1] :

وشُمطَ بني ماء السماء ومُردَهم ... فهل بعدهم من خالد أو معَمَّرِ
ومن فادَ من اخوانهم وبنيهم ... كهول وشُبَّان كجنةِ عبقرِ
مَضَوا سَلَفاً قصدَ السبيل عليهم ... بهن من السُّلافِ ليس بحَيْدَرِ
فكائن رأيتُ من بهاء ومنظر ... ومَفْتَحَ قيدٍ للأسير المكَفَّرِ
وكائن رأيت من ملوك وسُوقَةٍ ... وراحلة شُدَّت برحل مُحَبَّرِ

ثم يتفكر في مصير أقوام أخرين من ذوي القوة والسلطان فيذكر ملوك همدان أرباب ناعط وملوك كندة ، مثل الحارث بن عمرو الكندي ، وأبيه حجر والدعمرو وامرىء القيس ، ورب معد حذيفة بن بدر ، وملك دومة

---

١ – الديوان ص ٥٤ . فاد : مات . عبقر : موضع كثير الجن . السلاف : السلف . حيدر : ذميم حقير (كذا ذكره الطوسي) . والحيدر : القصير أيضاً . المكفر في الحديد : الملبس حديداً . محبر : حسن .

الجندل ، وصاحب المشقر بالبحرين . وكما ذكر الملوك فقد ذكر الحكماء أيضاً مثل قس بن ساعدة ولقمان صاحب النسور ، ويقرر بعد ذلك كله أن الانسان ضعيف لا حول له ولا قوة ، سيبيده الدهر كما أباد من قبله مـــن أولئك الذين ذكرهم ، وأمم أقدم منهم كعاد وحمير ، ثم يقول ان هؤلاء الناس يسعون الى الهلاك متتابعين فهم بين غاد ورائح ، ونهايتهم موت محتوم ، كأنهم لم يمكثوا في الحياة غير أشهر معدودات . وقد أجمل نظرته هذه في بيت أخير هو :

هل النفسُ إلا متعةٌ مستعارة تُعارُ فتأتي ربَّها فَرْطَ أشهر

وأول ما يلاحظ في هذه القصيدة ، ان لبيداً كان في سياق ذكرى ، ذكرى أهله الذين يحبهم فبادوا وأفناهم الزمان ، فهو لذلك يذكرهم واحداً تلو الآخر ، من غير أن يقف عند أحدهم وقفة طويلة ، ومن ثم فهو يتعزى عن فقدهم بالذين بادوا قبلهم من ملوك وعظماء كانوا ذوي بأس شديد وسلطان عظيم ، كما بادت أمم أخرى سبقتهم لم يبق منها غير الذكر . واذ الأمر كذلك ، واذ كانت الذكرى هي التي ساقت هذه القصيدة ، فقد كان من الطبيعي ان تأتي هادئة خالية من البكاء الحار ليس فيها دموع غزيرة ولا أنفاس حرى تستشعر هـــول المصيبة أو شدة الفجيعة ، فان المصاب قديم ، وقد أثارت الذكرى هـــذه المشاعر والحسرات .

ومما يلاحظ في هذه القصيدة أيضاً ، انها قيلت في زمن متأخر بعد أن مضى أهله ومات عمه أبو براء ، وهذا يعني انها قيلت في الاسلام ، والمسحة الاسلامية فيها ظاهرة في هذا القصد والاعتدال ومجانبة الغلو والرضا بقضاء الله وقدره وفي سعي لبيد للعمل الصالح الذي تمثل في طلبه الفلاح حيث يقول [1] :

---

١ – الديوان ص ٥٧ . الفلاح : البقاء والعمل الصالح .

نحُـــلُّ بلاداً كلُّها حُلَّ قبلَنا ... ونرجو الفلاحَ بعد عادٍ وحِمْيَرِ

وتمثل كذلك في عودة النفوس الى بارئها [1] :

هل النفس الا متعة مستعارة ... تعار فنأتي ربها فرطَ أشهرِ

وللبيد قصيدة أخرى يرثي فيها أهله ويبين فضلهم ، هي القصيدة الأولى ذكر فيها أعمامه وأسف على ذهابهم وتعزى عن فقدهم بإيمانه ألا حيّ ينجو من العطب [2] :

فهوّنَ ما ألقى وإنْ كنت مثبِتاً ... يقيني بأن لا حيَّ ينجو من العَطَبْ

وكذلك أشار اليهم في القصيدة الثانية ، أما القصيدة التاسعة والأربعون فقد قالها عند احتضاره ، حين كان يوصي ابن أخيه كيف يؤدي حقه اذا هو ودع الحياة ثم تذكر أعمامه بني أم البنين ، وأباه ربيع المقترين ، والأحوص ، فبكاهم متحسراً على فقدهم حيث سبقوه الى الموت ، وكان ضنيناً بصحبتهم محباً لرفقتهم قال [3] :

أبنيَّ هل أحسستَ أعمامي بني أم البنينا

وأبي الذي كان الأرامل في الشتاء له قطينا

---

١ — المصدر السابق . فرط اشهر : أراد بعد أشهر .

٢ — الديوان ص ٢ . العطب : الموت والهلاك .

٣ — الديوان ص ٣٢٢ — ٣٢٣ . أبو شريح : الاحوص . وشريح : ابنه احد من ساد من بني جعفر وهو قاتل لقيط بن زرارة يوم جبلة . المصالت: ج مصلت ، الماضي في الامور . بغاة: طالبون يبحثون عنهم . ضنيناً : حريصاً .



وأبو شُريحٍ والمحامي في المضيق اذا لقينا

الفتية البيض المصالِتُ أشبَعوا حزماً ولينا

مـــا ان رأيتُ ولا سمعت بمثلهم في العالمينا

فلئِنْ بعثت لهم بُغاةً مـــا البُغاةُ بواجدينا

فمكثت بعدَهم وكنت بطول صحبتهم ضَنينا

أما قصائده الأخرى التي أفردها لرثاء أشخاص بأعيانهم ، فأهم ذلك رثاؤه لعمه أبي براء عامر بن مالك ، فقد رثاه بأرجوزتين ، أولاهما قبيل انتحار عمه وبطلب منه ، فقد سأله قائلاً : « يا لبيد ، ان حدث بعمك حدث مـــا كنت قائلاً ، فان قومك يزعمون ان عقلي قد ذهب ، والموت خير من عزوب العقل »[١] ، فقال لبيد :

يا عامرَ بنَ مالكٍ يا عَمّا   أهلكت عَمّاً وأعشتَ عَمّا ... الخ

وهذه الارجوزة ليس فيها من حرارة الرثاء بقدر ما فيها من مديح وتغني ببطولة أبي براء أما أرجوزته الثانية ففيها بكاء حار صادق ، وهي أقرب الى نواح النائحات منها الى بكاء الرجال ، ولذلك فقد اتخذ من الرجز وسيلة لهذا النواح فأجراه على هذا النسق [٢] .

---

١ – انظر الديوان ص ٣٤٥ . العم : الجمع الكثير .

٢ – الديوان ص ٣٣٢ . تجوب : تقد جيب القميص. مدره الشياح : يدفع الخطر والقتال. السلب : ثياب سود . الامساح : ثياب من شعر .





قوما تجوبانِ مع الأنواحِ وأبِّنـــا ملاعبَ الرماحِ
أبا بَرَاءِ مِدْرَهَ الشِياح في مأتم مهجر الرواحِ
يخمِشْنَ حُرَّ أوجه صِحاح في السُّلُب السودِ وفي الأمساحِ

فهو هنا ينقل صورة المأتم ، وبكاء الباكيات وهن في السلب السود يخمشن الوجوه . ثم يذكر بعد ذلك ما يذكر للميت من أعمال جليلة وفضائل كريمة .

ووقف لبيد يبكي عوف بن الأحوص ، يبكي فيه البطولة والمكارم ، في نداء يحمل أشجان لبيد وحسرات قلبه على هذا النحو[١] :

قومي اذا نام الخَــلِيُّ فأبِّني عـــوفَ الفواضلْ
عوفَ الفوارس والمجـــا لسِ والصواهل والذوابِلْ
يا عوفَ أحلمَ كلِّ ذي حِلْمٍ وأقـــولَ كلِّ قائِلْ
يا عوفَ كنتَ إمامَنا وبقيةَ النَفَرِ الأوائِـــلْ

وغير خاف هذا الحب الذي يحمله لبيد بين جنبيه لأهله ، والوفاء الذي يكنه لهم ، والبر الذي يحبوهم به ، فهو حريص على رثائهم وذكرهم وتعداد من مات منهم ذاكراً لهم فضائل ومكرمات، مبيناً سبب موتهم ومواضع أجداثهم متحسراً على فراقهم ذارفاً دموعه حزناً عليهم وشوقاً اليهم .

ومع كل ذلك فان هذه المراثي بجملتها لا ترقى الى مراثيه في اربد . ففي تلك حزن شديد وألم ممض كان يصور في بكاء اربد هول المصيبة وشدة الفجيعة

١ – الديوان ص ٢٣١ .

التي تهز القلوب ، أما هنا فسحة هادئة من الحزن عليها وقار السنين ونظرات في الحياة وفي مصائب الماضين حيث يتعزى بذكر اجادهم الغابرة ويتعظ بمصائرهم بعد ذاك العز والسلطان .

٤

هذه مراثيه في قومه اما ما قاله في غيرهم فقصيدة طويلة في رثاء النعمان بن المنذر استهلها بنظرات في الحياة ومصير الناس وحتمية الموت وعجز الانسان وضعف حيلته ، وقد تجلت في هذه القصيدة نفحة دينية وايمان بالله وحده الذي ترجع المصائر اليه واقرار بالبعث والحساب ، وتراه ينهج نهج شعراء الاحناف فيقول [1] :

الا تسألانِ المرء ماذا يحاولُ ... أنحبٌ فيُقضَى أم ضلال وباطلُ

. . .

أرى الناس لا يدرون ما قدرُ أمرِهم ... بلى : كلُّ ذي لُبٍّ الى الله واسلُ

الا كلُّ شيءٍ ما خلا اللهَ باطل ... وكل نعيم لا مَحالةَ زائلُ

وكل أناسٍ سوف تدخل بينَهم ... دُوَيهيةٌ تصفَرُّ منها الاناملُ

وكل أمرىءٍ يوماً سيعلَمُ سعيَهُ ... اذا كُشِّفَتْ عند الإله المحاصلُ

وما يزال يتحدث عن الموت والفراق وسعي الانسان ومصير السابقين ،

---

[1] — الديوان ص ٢٥٤ ، ٢٥٦ — ٢٥٧ . النحب : هنا النذر وهو ما ينذره الانسان على نفسه ويوجب عليها فعله . الواسل : الطالب والراغب . دويهية : هنا الداهية العظيمة . تصفر منها الانامل : كناية عن الموت . الحصائل : الحسنات والسيئات .

حتى يعطف على النعمان ، فيبكي فيه العظمة والسلطان والقوة والامرة على القبائل ، ويذكر أيامه الهانئة السعيدة حين كان يلهو ، ويشرب ويغزو ويوقع بأعدائه ، ويصف مواكبه العظيمة ولطائمه وما تحمل من حمول ودروع وثياب وعطور ، ويعرج على كتائب النعمان فيصف ضخامتها و كثرة جندها وما فيها من سلاح وعدد وحديد فهي ضخمة كثيرة بحيث تضيق بهذه الكتائب وبالابل وحمولها البطاح الواسعة والفيافي الشاسعة ، وكأن لبيداً في هذا يريد ان يظهر قوة النعمان وسعة سلطانه وعظيم ملكه ، ليهول المصيبة التي حلت بهلاكه وضياع هذا الملك العظيم ، فيبكيه بقوله [1] :

لِيَبْكِ على النعمان شَرْبٌ وقَيْنَةٌ ... ومختبطات كالسَّعالي أراملُ

له المُلْكُ في ضاحي مَعَدٍّ وأسلمت ... اليه العِبادُ كلُّها ما يحاولُ

إذا مَسَّ أسآرُ الطيور صفت له ... مُشَعْشَعَةٌ مما تعتقُ بابلُ

ويمضي على هذا المنوال في ذكر النعمان وعظمة فعاله وسعة سلطانه وكثرة جنده حتى ينتهي الى ذكر مصير هذا السلطان العظيم وما آل اليه من خراب وفناء ، بحيث عاد ذكرى من الذكريات وأثراً عفّى عليه الزمان [2] :

فبادوا فما أمسى من الأرض منهمُ ... لعمرُكَ الا أن يُخَبَّرَ سائلُ

---

١ – الديوان ص ٢٥٧ – ٢٥٨ . الشرب: جماعة الشاربين . المختبطات : الفرق السائلات المعروف . الارامل : المحاويج الجياح من ارمل القوم اذا نفد زادهم . ضاحي معد : ظاهرها . العباد : القبائل المشهورة بهذا الامم . أسآر : ج سؤر بقايا من الصيد .

٢ – الديوان ص ٢٦٥ – ٢٦٦ . الشرع : موضع . سحاً : متتابعاً . القنابل : جماعة الخيل .



كأنْ لم يكن بالشِّرْع منهم طلائع ... فلم ترْعَ سَحًّا في الربيع القنابلُ

وبالرَّسِّ أوصال كأنَّ زُهاءها ... ذِوَى الضَّمْرِ لما زال عنها القبائلُ

ولا شك أن لبيداً ينظر الى هذا المصير بحزن وأسف ونفس متألمة وهو حين يذكر النعمان ويأسف لضياع ملكه ، انما يذكر عهداً من شبابه هو ، وأياماً له زاهية في مجالس هذا الملك نال فيها المكانة الرفيعة والحظوة الكبيرة وأبلى فيها البلاء العظيم .

وأهم ما يميز هذه القصيدة الطابع الديني الواضح الذي ينم عن ايمان لبيد بالله تعالى وتوحيده ، واستعداده الكامل للاسلام ، ثم تأكيده على العبرة في موت هذا العظيم وزوال النعم :

« وأي نعيمٍ خلْتَه لا يزايل »

« وكل نعيمٍ لا محالة زائل »

ولهذه القصيدة تاريخ بالغ الأهمية فقد أنشدت في مكة أنشدها لبيد في مجلس قريش أول الاسلام، ولعلك تذكر قصة الصحابي الجليل عثمان بن مظعون وما أصاب عينه في سبيل الله حين اعترض على لبيد بان نعيم الجنـــة لا يزول وكذّبه في الشطر الثاني من هذا البيت .

ألا كلُّ شيءٍ ما خلا اللهَ باطلُ ... وكل نعيم لا محالةَ زائل

وقد أعجب هذا البيت رسول الله ﷺ فقال « اصدق كلمة قالها الشاعر





كلمة لبيد »[1] وذكر البيت أو شطراً منه . ولولا هذه الاحداث التي لا يتطرق الشك اليها ، لذهب بي الظن الى أنها من قصائده الاسلامية .

ولهذه القصيدة أخت عند النابغة الذبياني ، والشبه بين القصيدتين عجيب يدعو الى الدهشة ، فكلتاهما من الطويل وقافية اللام والضمة حركة الروي ، وكلتاهما في رثاء ملك عظيم من ملوك العرب ، فاذا كان لبيد قد بكى بقصيدته النعمان بن المنذر ملك الحيرة ، فان النابغة قد رثى بقصيدته النعمان بن الحارث الغساني ملك الشام . ولست أرى بأساً أن ألم الماماً سريعاً بقصيدة النابغة لتصح مقارنتها بقصيدة لبيد . فقد استهلها النابغة بمطلع غزلي أنكر فيه على نفسه العودة الى غواية الشباب بعد ان ملأ الشيب رأسه ، ثم وقف على ديار حبيبته وسألها بعد غياب طويل[2] :

دعاكَ الهوى واستجهلتك المنازلُ ... وكيفَ تصابى المرءِ والشيبُ شاملُ
وقفتُ بربع الدار قد غيَّرَ البِلَى ... معارِفَها والسارياتُ الهواطلُ
أسائل عن سُعْدَى وقد مَرَّ بعدَنا ... على عَرَصاتِ الدار سبعٌ كواملُ

ثم مضى النابغة يتحدث عن أسفاره وناقته ، وشبهها بالحمار وأتنه ، حتى ذكر النعمان وبكاه ، ولكنه ليس كبكاء لبيد الذي استخلص العبرة من موت الملك وذكر له أيامه وفضائله ومجده وفاءً وحباً ، فان النابغة كان يبكي في صاحبه الخير المفقود والعطاء الذي زال ، فهو ولي نعمته وصاحب تلاده[3] :

---

١ – صحيح مسلم ٤/١٧٦٨ .

٢ – العقد الثمين ص ٢٣ – ٢٤ وخمسة دواوين العرب ص ٥٦ – ٦٠ . التصابي: الرجوع الى عهد الصبا . الربع : المنزل . الساريات : السحب تأتي ليلاً .

٣ – المصدر السابق . التلاد : المال القديم . الشكة : السلاح . الحباء : الهبة والعطية . العيس : الإبل البيض . هجان المهى : بيضها . تحدى: تساق. الرحائل: ج رحالة وهي السرج .



وإنَّ تِلادِي إنْ ذكرتُ وشِكَّتي　　　ومُهْرِي وما ضَمَّت إليَّ الأناملُ

حِباؤكَ والعِيسُ العِتاق كأنها　　　هِجانَ المَهى تُحدَى عليها الرحائلُ

فالنابغة يبكيه لانه فقد فيه سيداً كريماً ، وعظيماً له عليه أياد بيض ، وهو يتمنى أن تدوم حياة هذا الملك لان حياة النابغة ونعيمها رهن بحياة هذا الرجل وانظر هذا المعنى في البيت الأخير من هذه الأبيات :

فلا تبعُدَن إنَّ المنيةَ موعدٌ　　　وكل أمرىءٍ يوماً به الحالُ زائلُ

فما كان بين الخيرِ لو جاء سالماً　　　أبو حَجَرٍ إلا ليالٍ قلائلُ

فان تَحْيَ لا أُمْلِلْ حياتي وإنْ تمتْ

فما في حياتي بعدَ موتكَ طائلُ

والنابغة هنا رجل مدح أكثر منه رجـــل رثاء ، والفرق شاسع بين هذه القصيدة وقصيدة لبيد في المنهج والاسلوب وفي شخصية كل من الشاعرين ، فعلى حين يظهر لبيد حيال النعمان وفياً له معجباً به متحسراً على مصيره ، يبدو النابغة صنيعة من صنائع الملك الغساني يشكر عطاءه ويذكر أفضاله ويتمنى حياته ويرجو عودته لتدوم له النعمة ويستقيم له رغد العيش .

ومهما يكن من شيء فان مرثية لبيد في النعمان من المراثي الجيدة الرائعة التي صورت عظمة النعمان في ملكه وسعة سلطانه ، وقوة جنده ، كما صورت جلال الموت ، وجبروت الزمان ، حين يمحق الملوك ويبيد الناس وينفي الأمم ، فيعودوا في ذهن الذاكرين حلماً من الأحلام وذكرى من الذكريات .

٥

وبعد فما هي الخصائص المميزة لمراثي لبيد عامة ؟ لعل أول ما يلاحظ فيها النزعة الانسانية وسعة الأفق ، فلبيد وهو يرثي أشخاصاً بأعيانهم ، لا يحصر همه في هؤلاء الاشخاص أنفسهم ، وانما يتناول مشكلة الموت وبلاء الانسان فيه ، وحيرته ومخاوفه ، ويعالج النهاية الحتمية للناس ، وتربص المنايا بهم معالجة مستفيضة . ولذلك فان ذكر الموت وغوائله ومصائب الزمان يجره الى الحديث عن الماضين من ملوك وأمراء وحكماء وأمم بادت مبيناً قوتهم وسعة ملكهم وعظيم فعالهم ثم ما آل اليه أمرهم بعد ذلك من هلاك وفناء ، مستخلصاً من ذلك كله العبرة والموعظة ، متعزياً بهم على مصيبته في فقد أهله وأحبائه .

وحديث لبيد عن الموت فيه رهبة وخوف ، فهو يصور ضعف الانسان وعجزه وايمانه الشديد بالقدر واستسلامه لأمر الله ، ولعل هذا من آثار شيخوخته ، فان أكثر مراثيه قالها وهو شيخ كبير كان يشعر بقوة الزمان وثقل السنين ووطأة الأيام ، وكان طبيعياً أن يكثر كلامه عن الموت ومصير الناس ، وأن يقترن ذلك بذكرياته عن الماضين وما فعل بهم الزمان .

ومراثي لبيد في جملتها هادئة حزينة ، فيها حسرة وأسف أكثر مما فيها من لوعة مستعرة ويأس وجزع اللهم الا في مواطن قليلة من مراثيه في أربد ، ومراثي أربد وحدها التي يتضح فيها سعار القلب وقسوة الألم و كثرة الحسرات ، أما مراثيه الأخرى فهي أقرب الى الذكريات الحزينة ، ورثاؤه على العموم تعبير صادق عن مشاعره وترجمة أمينة لعواطفه وأحاسيسه ، صدرت منه على الطبع كما أملتها سجيته الصافية ونفسه السمحة الطيبة ، ولذلك فقد خلا هذا الشعر من الكلفة والصناعة التي قد تجدها في فخره وأوصافه .

والرثاء الجاهلي عامة ، تعبير أمين عن مشاعر النفس وتصوير صادق للعواطف



والمشاعر ، وهذا يستتبع أن يكون أسلوب الرثاء سهلاً رقيقاً واضحاً ، فعبارته جميلة وألفاظه قريبة مأنوسة لا عسر فيها ولا توحش .

وقد رثى لبيد بالقصيد كما رثى بالرجز ، ويغلب على مراثي الرجز النواح والندب وهذا ما يوافق طبيعة هذا اللون من الشعر .

وعلى كل حال فان لبيداً من شعراء الرثاء المشهورين البارزين ، وقد شهرت مراثيه في أربد حتى صارت مضرب الأمثال ، سمع بها الناس وعرفوها في عصره وفي العصور التي تلته ، فتمثلوا بها وأعجبوا بأسلوبها وصدق عاطفتها وجمال معانيها وسلاسة ألفاظها .

الحكمة

١

الحكمة الجاهلية دليل على رقي عقلية الشعراء وتفكيرهم وتأملهم في قضايا الناس وفي الحياة ، وهي ثمرة تجارب طويلة وفطنة ونظر ثاقب وبصيرة نافذة بالناس وأخلاقهم والماضين ومصيرهم ، وتأمل في سعي الانسان وغايته ونهايته ، ثم احساس دقيق بالحياة .

ولا أزعم ان الحكمة الجاهلية فلسفة ذات أصول أو تفكير منظم وفق علم مدروس ، بل هي الى الاحساس الذاتي والتأثر أقرب منها الى التفكير العلمي ، فهي نظرات وانطباعات وتأمل في الحياة والموت ، ومحاولات لسن نظم خلقية يتبعها الناس فيما يرضونه من خصال وسلوك ، أو ما ينكرونه من أفعال وعادات . ولذلك جاءت حكمتهم حقائق مجردة في متناول الفطرة السليمة تمليها التجربة والمشاهدة وفق مثلهم العليا السائدة في عصرهم . وكانت أفكارهم صدى لهذه التأملات والمشاهدات تصاغ في بيت شعر أو مثل أو عبارة أنيقة موجزة ، غزيرة المعنى ذات دلالات بعيدة تقع من النفس موقعها الأثير ، فيقبل عليها السامعون يروونها ويحفظونها وتغدو أمثالاً تجري على ألسنة الناس في شتى العصور فقد وجدوا لها في أنفسهم أصداء ، فكتب بذلك للحكمة الدوام والبقاء . وقد عرفت الجاهلية كثيراً من الحكماء ذاع صيتهم وعرفت حكمتهم ، مثل قس بن ساعدة ، ولقمان بن عاد ، ولقيم بن لقمان ، وعامر بن الظَّرب ، ومجاشع بن دارم ، وأكثم بن صيفي ، وربيعة بن حذار ، وهرم بن قطبة [1] .

---

١ – البيان والتبيين ، الجاحظ ١/٣٦٥ ط هارون .

وظهرت الحكمة في شعر شعراء الجاهلية ، ولعل أظهرهم لبيد ، وزهير بن أبي سلمى ، وطرفة بن العبد ، وعبيد بن الأبرص ، وعدي بن زيد ، وأمية بن أبي الصلت . وقد عد الجاحظ لبيداً في جملة الحكماء والخطباء والبلغاء والحكام الرؤساء [1] .

وكان طبيعياً ان تنشأ الحكمة عند لبيد ، وأن تكون له نظرات في الحياة وتأملات في الناس والاخلاق والزمان . وذلك لجملة أسباب ، منها ما يتصل بنفسه وجبلتها ومنها ما يعود الى بيئته ونشأته . فأخبار لبيد وشعره وسيرته تجمع كلها على انه كان رجلاً متروياً متعقلاً ، ذا رأي سديد ، ونزعة نحو الخير ، وحلم ومسالمة وقد نشأ في أسرة فيها كثير من الرؤساء الحكماء ، فكسب منهم الحلم والعقل الراجح والرأي السديد ، وأفاد من خبراتهم وتجاربهم . وقد شارك لبيد هؤلاء الرؤساء في حروبهم ومنازعاتهم ، ورافقهم منذ كان صغيراً في أسفارهم وفي وفاداتهم على الملوك . ثم واظب بعد على حضور مجالس الملوك تلك ، بحيث صار له فيها شأن كبير ، وتمرس في رحابها على مناضلة الخصوم ومنازعة الغرماء . يضاف الى ذلك كله عمر طويل ، طال حتى سئم منه ، فأفاد خبرة من تعاقب الاجيال وثقافة من قصص الماضين وأخبار الملوك وأنباء الأمم البائدة ، ومما يرتبط بهذا العمر انه شهد أجيالاً تمضي وأخرى تنشأ ، وفقد أهله وأحبابه وأصيب بأخيه الذي يحبه ويؤثره ، فكان من ذلك كله ان اتسمت حكمته بنظرة حزينة كئيبة ، يتأمل ويطيل التأمل في الموت وغدر الزمان الذي يقهر كل قوي .

هذه الأسباب وغيرها جعلت الحكمة في شعر لبيد تظهر ناضجة متميزة عن الحكمة في شعر الآخرين ، فقد جمع في شعره الحكمي كل الصفات التي ذكرها

---

١ - البيان والتبيين ، الجاحظ ٣٦٥/١ ط هارون .

غيره ، وزاد عليهم أن سما بها الى الله ، فاليه المرجع واليه يتوجه الناس وهو مصدر عزائهم ، وأفكار لبيد واسعة الآفاق فقد عالج قضايا كبرى تتصل بالانسان ومصيره على حين نجد حكمة زهير حكمة مادية حسية فيها وعظ وارشاد ، أما أمية بن أبي الصلت فيصور ويخبر ويقص قصصاً دينياً ، وعدي ابن زيد بكاء متشائم يائس ، وطرفة لاهٍ يعب من للذات ، ويهتبل الفرص ويعيش ليومه ، بل لساعته .

٢

وحكم لبيد منثورة في قصائد كثيرة ، تأتي في نغمة روحية صافية ، في سياق تسبيح الله وذكر الدين . وتأتي للعبرة والموعظة في سياق ذكر الماضين من الأمم والملوك ، وتأتي في ثوب حزين كئيب ، حين يرثي أخاه ويبكي موتاه ، وتأتي محملة بأثقال السنين فيها سأم وضجر في الحياة ، حين يتحدث عن الشيخوخة وتطاول العمر وهكذا تتوالى حكمه أبياتاً شاردة وأمثالاً يتمثل بها . أو قصائد طويلة النفس تزدحم فيها الآراء وتجارب السنين .

وللبيد من هذا الشعر الحكمي الذي يطول فيه النفس ، قصيدتان كلتاهما في الرثاء ، واحدة في رثاء أربد والثانية في رثاء النعمان . وليس من الغريب أن يرتبط الرثاء بالحكمة ، فالرثاء يدعو الى التفكير في الحياة والموت والزمان وتذكر الماضين الذاهبين ، فهو يسجل في هذا تجاربه وخبراته في حكم يسوقها وأمثال يضربها على شاكلة قوله [1] :

---

١ – الديوان ص ١٦٨ – ١٧٠ . المصانع : القصور او مصانع المياه بناء لجمع المـــاء . أكناف : جوانب . جار مضنة : يضن به ويحرص عليه . طريف : شيء استطرف واستحدث . التليد : ما ورث عن آبائه . غدوا : غدا . الشهاب : النار . يحور : يصير . مضمرات : ما اضمرته . معمرات : هي لك ما عمرت فاذا مت فلا شيء لك منها اي وديعة وعارية .

بلينا وما تبلى النجوم الطوالعُ وتبقى الجبال بعدنا والمصانعُ
وقد كنت في أكناف جار مَضَنَّةٍ ففارقني جارٌ بأربَدَ نافعُ
فلا جَزِع إن فرَّقَ الدهر بيننا وكل فتىً يوماً به الدهرُ فاجعُ
فلا أنا يأتيني طريفٌ بفرحةٍ ولا أنا مما أحدَثَ الدهرُ جازعُ
وما الناسُ الا كالديار وأهلِها بها يومَ حَلُّوها وغَدْواً بلاقِعُ
وما المرء الا كالشِهاب وضوئهِ يحور رَماداً بعد إذ هو ساطعُ
وما البِرُّ إلا مضمراتٌ من التُّقَى وما المالُ إلا مُعْمَرات ودائعُ
وما المالُ والأهلونَ الا وديعةٌ ولا بدَّ يوماً أن تُرَدَّ الودائِعُ

فهو ينظر الى نفسه والى الناس ، فكلهم أبنـــاء فناء صائرون الى بلى ، وتبقى حركة الزمان خالدة مستمرة ، فالنجوم طوالع والجبال والبيوت ثابتة ، ومن هؤلاء الذين أفناهم الدهر أخوه الذي يضن به ويحبه ، وهو مـــع ذلك لا ييأس ولا يجزع على فراق أخيه ما دامت هذه هي سنة الحياة ، لا يسلم من نوازل الدهر أحد ، فقد كتب على الناس العذاب ووقفت لهم المصائب في كل مرصد ، فصار مستهيناً بالدنيا ، لا يفرح بشيء من متاع الدنيا ، ولا يجزع ان ألمت به المصائب ونزلت عليه الكوارث . ويتأمل في الموت وفناء الناس فيرى حالهم كهذه الديار التي تراها عامرة آهلة ، وما هي الا أيام حتى لا تجد منها غير رسوم مقفرة وآثار بالية تتلاعب بها الرياح وتسفي عليها التراب والانسان في سرعة زواله وفنائه يشبه النار ما ان تراها ساطعة منيرة حتى تعـــود بعد لحظات رماداً كابياً لا خير فيه . والانسان في الحياة لا يملك شيئاً فما بيده من مال إن هو الا وديعة سرعان ما تسترد وهو نفسه وديعة سيعود يوماً الى بارئه ويمضي مع الناس حين يمضون زرافات الى وادي الفناء ، كأنهم ابل يزجرها

راعيها يسوق ما تفرق منهـــا ليضمه الى القطيـع السائر . وهو هنا يفتن في تعابيره ليؤكد حقيقة كبرى ، هي أن الموت نصيب كل حي ولا ينجو منه أحد . ثم ينظر نظرة أخرى الى الناس في حياتهم ، كيف يحيون وما نصيبهم من السعادة والشقاء ، وما مصيرهم اذا امتد بهم الزمان وأرخى لهم حبل العمر ، فيقول [1] :

وما الناسُ الا عاملان فعاملٌ ... يُتَبِّرُ ما يبني ، وآخرُ رافعُ

فمنهم سعيدٌ آخذٌ لنصيبهِ ... ومنهم شَقِيٌّ بالمعيشةِ قانعُ

أليس ورائي إن تراخت منيتي ... لزومُ العصا تُحنَى عليها الأصابعُ

أخبّرُ أخبارَ القرون ٱلتي مضت ... أدِبُّ كأني كلما قُمْتُ راكعُ

فأصبحت مثلَ السيف غيَّرَ جفْنَهُ ... تقادم عهد القَيْن والنصل قاطعُ

فلا تبعدَنْ إنَّ المنيةَ موعدٌ ... عليك فدانٍ للطلوع وطالعُ

فالناس عنده رجلان ، رجل يعمل ولا يكسب شيئاً وعمله خاسر كاسد ، وآخر موفق في عمله يكسب اذا عمل ويربح اذا تجر ، ومن الناس السعيد الذي نال نصيبه من رغد العيش ومتاع الدنيا ، وآخر شقي كتب عليه البؤس فرضي ببؤسه واستكان لنصيبه .

ثم هو بعد ذلك ينظر للحياة نظرة كئيبة عابسة ، فليس فيها وان طالت الا البؤس والشقاء ، فاذا ما أخطأه الموت وامتد به العمر داهمته شيخوخة ثقيلة

---

١ - الديوان ص ١٧٠ - ١٧١ . يتبر : يجعل أمره تتبيراً أي خاسراً . تراخت: أبطت وتباعدت . جفنه : غمده .

عملة . ثم يصور ثقل هذه الشيخوخة باحتياجه للعصا يستعين بها وانظر كيف صور الشيخوخة والعجز وثقل السنين في قوله :

أدبُّ كأني كلما قمتُ راكعُ

وهو يرى أن المنية موعد للمرء يلقاها وتلقاه ان عاجلاً أو آجلاً ، فالموت حتم لا مفر منه .

ويقول رأيه في الغيب وعلمه ، والغد وأحداثه ، وما يظنه الناس في زجر الطير وضرب الحصى ، فيبرىء عقله من هذه الظنون [1] :

لعمرُكَ ماتدري الضواربُ بالحصى ولا زاجراتُ الطيرِ ما اللهُ صانعُ
سلوهنَّ إن كذَّبتموني متى الفتَى يذوقُ المنايا أو متى الغيثُ واقعُ

وفي قصيدة ثانية ، يثير جوانب أخرى من موضوع الموت والحياة ، فهو ينظر لحياة الانسان على أنها سعي باطل ، وفناء يعم الجميع ، وان حاجات المرء متصلة لا تنتهي ما عاش ، يقول [2] :

ألا تسألانِ المرء ماذا يحاولُ أنحبٌ فيُقضَى أم ضَلَالٌ وباطِلُ
حبائـــلة مبثوثةٌ بسبيلهِ ويَفنَى إذا ما أخطأته الحَبائِلُ
اذا المرءُ أسرَى ليلةً ظن أنه قضَى عملاً والمرءُ ما عاشَ عاملُ

---

١ – الديوان ص ١٧٢ .

٢ – الديوان ص ٢٥٤ .

وتأمل في البيت الثاني كيف يصور الموت وهو مترصد بالانسان ، نشر في طريقه شراكه ، وبث حبائله ، فلا حيلة له ، واذا أخطأه الموت فلا مهرب من الفناء .

ويلتمس لبيد العبرة من الماضين ، فيبصّر الناس بما فعل الزمان بالسابقين ، ويدعوهم أن يعتبروا بأسلافهم الذين أخنى عليهم الدهر ، فلم ينجُ من قضائه أحد [1] :

فقولا له إنْ كان يَقْسِمُ أمرَهُ ... ألمّا يعِظْكَ الدهرُ أمُّكَ هابلُ

فتعلمَ أنْ لا أنت مدركُ ما مضى ... ولا أنت مما تحذرُ النفسُ وائلُ

فإن أنت لم تَصْدُقْكَ نفسُك فانتسبْ ... لعلك تهديك القرون الأوائلُ

فان لم تجد من دونِ عدنانَ باقياً ... ودونَ معدٍّ فلتزَعْكَ العواذلُ

ولبيد متجه في نفسه وأفكاره الى الله ، فهو مؤمن به ، مدرك أن كل شيء يؤول اليه وأن كل ما في الدنيا هالك الا وجهه ، وان كل نعيم في الحياة مصيره الزوال ، وان الناس يذلهم الموت ويفرق شملهم ، وكل امرىء صائر الى يوم حساب ، يوم تكشف أعمال الناس ، فيعلم كل منهم ما قدمت يداه ويعرف حقيقة مسعاه [2] :

---

١ – الديوان ص ٢٥٥ . هبلته أمه : ثكلته . وائل : ناج . وزعه : كفه .

٢ – الديوان ص ٢٥٦ – ٢٥٧ . واسل : راغب .

أرى الناسَ لا يدرون ما قَدْرُ أمرِهم
بلى : كلُّ ذي لُبٍّ الى الله واسلُ

ألا كلُّ شيءٍ ما خلا الله باطلُ
وكل نعيمٍ لا محـــالةَ زائـــلُ

وكلُّ أناسٍ سوف تدخل بينهم
دُوَيهيَّةٌ تصفرُّ منهـــا الأنامـــلُ

وكلُّ امرىءٍ يوماً سيَعلَمُ سعيَه
اذا كُشِّفَتْ عند الإله المحاصلُ

وتتميز في شعر لبيد عدة اتجاهات صبغت شعر الحكمة وطغت عليه :

١ – أولها اتجاه ديني واضح ، يشغل مطالع كثير من قصائده ، هذا الاتجاه الديني تمثل في تسبيحه لله تعالى وتوحيده ، وبيان قدرته وفضله ومرجع النفوس اليه ، وذلك في مثل قوله [١] :

انما يحفــظ التُّقى الأَبرارُ   والى الله يستقرُّ القَــرارُ
والى الله تُرْجعونَ وعنـــد   اللهِ وِرْدُ الأمور والإصرارُ
كلَّ شيءٍ أحصى كتاباً وعلماً   ولديه تجــلَّتِ الأَسرارُ

---

١ – الديوان ص ٤١ . تجلت : تكشفت .

ولا شك ان هذه معان اسلامية تعلمها في عهد اسلامه ، وله معان دينيـــة أخرى عرفها في عهد جاهليته مما كان شائعاً في عصره ، وبخاصة من الأحناف الموحدين الذين كانوا على ارث من دين أبيهم ابراهيم . وهذا الطابع الديني لم ينفرد به لبيد ، فقد ظهر في شعر غيره من الجاهليين ، مثل عبيد بن الابرص الذي يقول [1] :

من يسألِ الناسَ يحرموه　　　وسائـــلُ اللهِ لا يَخيبُ

وظهر في شعر زهير ، والأعشى ، وأمية بن أبي الصلت الذي انصرف الى الشعر الديني فغلب عليه وكان طابعه المميز ، هـــذا غير شعر شاعر النصارى عدي بن زيد .

٢ — والأمر الثاني كثرة حديثه عن الموت والفناء وتربص المنايا بالناس ، وانهم سائرون جماعات نحو الفناء يتتابعون ، وكل قوم مهما كثروا فان الموت يتخطفهم وسيغدون عما قريب قلة مبعثرة ، وقد مرت كثرة من هذه الأفكار في شعره ، ويتمثل مجمل رأيه في الموت ومصائب الناس في هذين البيتين [2] :

كلُّ بني حُرَّةٍ مصـــيرُهمُ　　　قلّ وإن أكثرت من العَددِ
ان يُغبِطوا يُهبَطوا وإن أَمِروا　　　يوماً يصيروا للهُلْكِ والنَّكَدِ

٣ — وهذه النظرة الوجلة الى الموت قد دعته ان يذكر الدهر ويضيق بغدره وبالزمان وأحداثه، وبالايام وما تخبئه للناس من شر وبؤس وشقاء . فهو ساخط على الزمان منكر لشره ، سيء الظن به ، يذمه على هذا النحو :

---

١ — ديوان عبيد بن الابرص ص ٤ .

٢ — الديوان ص ١٦٠ . قل: قليل. يهبطون: يموتون أو يذلون . النكد : الشؤم والعسر.

لحا اللهُ هذا الدهرَ إني رأيتُه ... بصيراً بما ساء ابنَ آدم مولَعا

٤ — ومما يتصل بالموت والدهر النظر في أفاعيل الزمان وما أصاب السابقين من نكر وهلاك وبلاء ، فاهتم لبيد بذكر الماضين من ملوك وعظماء وفرسان وأمم أبادها الدهر وأذلها الموت وعفّى على آثارها الزمان ، يتخذ من أولئك جميعاً العبرة والموعظة والعزاء على شاكلة قوله [١] :

وأفنى بناتُ الدهر أربابَ ناعطٍ ... بمستَمَعٍ دونَ السماء ومنظرِ
وبالحارث الحَرَّابِ فَجَّعن قومَه ... ولو هاجهم جاءوا بنصرٍ مُؤَزَّرِ
وأهلكنَ يوماً ربَّ كِندةَ وابنَه ... وربَّ مَعَدٍّ بين خَبْتٍ وعَرْعَرِ
وأعوصنَ بالدُّوْمي من رأس حِصْنِه ... وأنزلنَ بالأسباب ربَّ المشَقَّرِ
وأخلفن قُسّاً ليتني ولو أنني ... وأعيا على لقمانَ حكمُ التدبرِ
فان تسألينا فيمَ نحنُ فإنَّنا ... عصافيرُ من هذا الأنام المسحَّرِ
نَحُلُّ بلاداً كلُّها حل قبلَنا ... ونرجو الفلاحَ بعد عادٍ وحِمْيَرِ

---

١ — الديوان ص ٥٥ — ٥٧ . بنات الدهر : الايام والليالي . ارباب ناعط : من همدان . وناعط ، قصر لهم. الحارث الحراب : بن عمرو بن حجر الكندي وقيل رجل من غسان . مؤزر: شديد . رب كندة : ملكهم وهو حجر أبو امرىء القيس . رب معد : ملكهم حذيفة بن بدر . خبت : مستو من الارض . عرعر : بلد . اعوصن : انقلبن به . الدومي : ملك دومة الجندل . المشقر : حصن بالبحرين يقال كان به رجل من الفرس. قس: ابن ساعدة الأيادي . لقمان: صاحب النسور . حكم التدبر : ما يتمنى ويطلب . عصافير : صغار ضعاف . مسحر : معلل بالطعام والشراب . الفلاح : البقاء والعمل الصالح .

ولم يكتف لبيد بذكر هؤلاء بل ذكر ملوكاً وعظماء أخرين، مثل صبح العادي ملك الحبشة، وكيف تمت نهايته ولقي مصرعه، ولقمان ونسوره، وآل محرق، وتبع، وهرقل، وابرهة، والحارث بن عمرو بن حجر الكندي، وغيرهم [1] ويروي قصص هؤلاء وغيرهم ليتخذ الدليل بعد ذلك على عجز الانسان وضعفه وخضوعه لسنة الحياة، التي تقضي بهلاك كل حي وفناء كل قبيل.

٥ – وقد شاع في شعر الحكمة لديه سأم وضيق بطول عمره وامتداد أيامه وتذمر من الشيخوخة والهرم. فما دام الموت يترصد الناس والمنايا تتخطفهم فانه قد ملّ الحياة وسئم البقاء فيها، لأن امتداد العمر ليس وراءه الا شيخوخة فانية وجسم سقيم وضعف وعجز [2]:

أليس ورائي إنْ تراخت منيتي ... لزومُ العصا تُحنَى عليها الأصابعُ

ولماذا هذا العمر الطويل والنهاية واحدة هي الموت والفناء ان عاجلاً أو آجلا :

فلا تبعدَنْ إن المنيةَ موعدٌ ... عليكَ فدانٍ للطلوع وطالعُ

وقد عاش لبيد دهراً طويلاً مملاً حتى سئم من الحياة وطولها. فهو لذلك لا يحفل متى هلك وحسبه من أيامه ما مضى، فان طول العمر يورث السآمة والملل [3]:

---

١ – القصيدة رقم ٣٩ في الديوان.

٢ – الديوان ص ١٧٠ .

٣ – الديوان ص ١٩٧ . الحفل : المبالاة . يجلي : حسي .

فمتى أهلِكْ فلا أحفِلُهُ   بجلي الآنَ من العيش بَجَلْ
من حياة قـــد مَلِلنا طولَها   وجديرٌ طولُ عيشٍ أنْ يُمَلْ

هذه السمات البارزة التي غلبت على شعر الحكمة عند لبيد ، تراها واضحة جلية في قصائده ، يؤكدها ويكررها ، والملاحظ ان هذه السمات مترابطة متلازمة يكمل بعضها الآخر ، فالحديث عن الموت يستدعي ذكر الزمان وما يفعله بالناس من أفاعيل ، وهذا يجره الى ذكر الماضين الذين غدر بهم الزمان وداهمتهم مناياهم ، فما نجا منهم أحد مهما علا قدره أو كثر أعوانه وجنوده . ولذلك ليس لأحد أن يطمع بالنجاة ولا أن يطمع بالعمر الطويل ، فان وراءه الهرم والضعف والملل . ولبيد يتحدث عن هذه الأمور مجتمعة وأكثر ما تأتي في سياق الرثاء ، ولذلك فهي أفكار كئيبة حزينة .

٤

هذه أفكار لبيد في القضايا الكبرى ، أما آراؤه في سلوك الناس ونظراته في الاخلاق وعلاقاته بالآخرين ، فهي متأتية عن تلك الأفكار العامة التي مر ذكرها ، فما دام لبيد مؤمناً بأن الحياة صائرة الى زوال فعلى الانسان ألا يضن بما له ولا يبخل بشيء على الناس ، وخير ما يقدم المرء لنفسه هو الحمد والتقى والبر والصلاح وليس ينفع الانسان بعد الحياة مثل الذكر الحسن والثناء الجميل ، ولذلك يقول[1] :

رأيت التقى والحمدَ خيرَ تجارةٍ   رَباحاً إذا ما المرء أصبحَ ثاقِلا
وهل هو إلا ما ابتنَى في حياتهِ   إذا قذفوا فوقَ الضريح الجَنادِلا
وأثنَوا عليه بالذي كان عندَه   وعَضَّ عليه العائداتُ الأنامِلا

---

١ – الديوان ص ٢٤٦ – ٢٤٧ . ثاقلا : ميتاً .

وهو مؤمن بقضاء الله ، قانع بما قسم له وكتب عليه ، راض بذلك ويدعو الناس الى الرضا[1] :

فَاقْنَعْ بما قَسَمَ المليكُ فإنما قَسَمَ الخَلائِقَ بيننا عَلّامُها

وقد قدر لأناس أن يسعدوا في الحياة وكتب على آخرين الشقاء[2] :

فمنهم سعيدٌ آخِذٌ بنصيبهِ ومنهم شَقِيٌّ بالمعيشةِ قانِعُ

وان السعيد حقاً من كان مبرأ من العيوب ، بعيداً عن الدنايا :

ان البريءَ من الهَنَاتِ سعيدُ

وهو يرى أن سنة الحياة تهدم كل طريف وتبلي كل جديد :

والى بِلَىً ما يُرْجِعَنَّ جديدُ

وان الانسان عاجز ضعيف ليس له حـــول ولا طول ، وان الدهر قوي غلاب ، والأيام تمضي والانسان يضعف ويهزل ، والزمان قوي شديد .

وأراهُ يأتي مثلَ يومِ لقيتهُ لم ينصرمْ وضَعُفتُ وهو شديدُ

وهو يرى ان على الانسان أن يكون أميناً وفيـــاً يقابل الاحسان بمثله ، فاللبيب النبيه من يكافيء الناس بمثل ما كوفيء[3] :

فاذا جُوزِيتَ قَرْضاً فاجْزِهِ انما يجزي الفتى ليس الجَمَلْ

---

١ – الديوان ص ٣٢٠ . الخلائق : الطبائع .

٢ – الديوان ص ١٧٠ .

٣ – الديوان ص ١٧٩ .

وان يكون المرء ذا همة وعزيمة ، فاذا قرر أمراً فليمض فيه ينفذ قراره من غير تراخ أو كسل :

واذا رُمتَ رحيلا فارتَحِلْ   وأعصِ ما يأمر توصِيمُ الكَسَلْ

وان يكون الانسان قوي الارادة ماضي العزيمة ، لا يطاوع شهوات النفس فتقعد به دون آماله :

واكذِبِ النفسَ إذا حدّثتَها   إن صدقَ النفسِ يُزري بالأَمَلْ

وهو يعامل الناس بما هم أهل له ، فيصل من كان أهلاً للوصول ، ويكرم من هو أهل للكرم ، واذا عاشر الناس فلا يثقل عليهم ، فاذا أحسّ نبــوة أو وحشة فسرعان ما يبعد عنهم ، واذا كان صاحبه ضنيناً بخيلاً فلا يجاريه ببخله ، بل يبذل له من ماله ويغدق عليه من فضله [1] :

أجازي وأعطي ذا الدلال بحكمه   اذا كان أهلاً للكرامة واصلا

وأن آتهِ اصرف إذا خفت نبوَةً   وأحبس قَلوصَ الشحِّ إن كان باخِلا

٥

ولم يخل شعر لبيد من الأمثال ، فهو يضرب الأمثال أو يحكيها ، أو يصوغ حكماً تجري مجرى الأمثال .

---

١ – الديوان ص ٢٤٨ .

فمن الأمثال التي حكاها وصاغها في شعره قولهم : « أبقي من وَحْيٍ في حَجَر »[1] فقال :

كما ضَمِنَ الوحِيَّ سِلامُها

وفي أمثال العرب : « خَلِّ سبيلَ من وَهى سِقاؤه »[2] أخذه لبيد فقال :

فاقطعْ لُبانَةَ من تعرّضَ وصلُه ولَشَرُّ واصلِ خُلَّةٍ صَرّامُها

أما قوله :

وأكذبِ النفسَ اذا حدَّثتَها إن صِدْقَ النفسِ يُزري بالأَمَلْ

فقد عد من الأمثال السائرة[3] :

وقد حكى لبيد في شعره قولهم : « طال الأبـد على لُبَد »[4] وقولهم : « مخالب تنسر جلد الأعزل »[5] حين قال[6] :

ولقد جرى لُبَدٌ فأدركَ جريَهُ ريبُ الزمان وكان غيرَ مُثَقَّلِ
لما رأى لُبَدُ النسورَ تطايرت رفع القوادمَ كالفقير الأعزَلِ

---

١ — مجمع الامثال ١/١١٩ .

٢ — فصل المقال ، البكري ص ١٤٣ .

٣ — المستقصى في امثال العرب ، الزمخشري ١/٢٨٩ .

٤ — مجمع الامثال ١/٤٢٩ .

٥ — مجمع الامثال ٢/٣١٦ .

٦ — الديوان ص ٢٧٤ . الفقير : الذي كسرت فقراته . الاعزل : المائل الذنب توصف به الخيل وكذلك الطائر لا يقوى على الطيران .

ومن حكمه التي أضحت أمثالاً سائرة يصح التمثل بها قوله :

إنمــا يُجزَى الفتى ليس الجملْ

وقوله :

واعصِ ما يأمر توصيمُ الكسلْ

وقوله :

إنما ينجحُ أصحــابُ العملْ

وقوله :

إن المنــايا لا تطيش سِهامُها

وقوله :

إن البريء من الهَناتِ سعيدُ

وهكذا يمكن أن نحصي له أمثالاً كثيرة مأثورة ، أرسلها حكماً بارعة في عبارات أنيقة سهلة المأخذ ، طيبة الوقع ، حلوة السماع ، عليها مسحة حزينة .

٦

وبعد : فقد اتضحت لدينا خصائص شعر الحكمة عند لبيد حين اجملناها في نقاط خمس ، هي السمات البارزة في هذا الشعر ، وبقيت ثمة جوانب جزئية من هذه الخصائص والميزات ، منها أسلوب لبيد في شعر الحكمة فهو أسلوب واضح سهل يروق السمع ، ويرق ويعذب ويسلس ، لهذا نجده بعيــداً عن الخشونة والقوة والفخامة التي عرفت في شعر لبيد ، وبخاصة حين يفخر أو يصف وليس فيه تعقيد أو غلو بل هو بسيط واضح ، ينم عن نفسية سمحة لا يشوبها غموض ولا التواء .

وقد مرت بنا اشارة الى هذه المسحة من الحزن والعواطف التي يشيع فيها الألم والحسرة ، ولا شك أن هذا متأت من ارتباط الحكمة بالرثاء . فمراثيه لأخيه أربد تثير في نفسه عواطف حزينة وتأملات طابعها الكآبة والتشاؤم ، بسبب هذا الجو النفسي الحزين ، ولعل من آثار هذا أيضاً أن جاءت حكمة لبيد معبرة عن تجاربه الذاتية ، فحكمته ملتصقة بنفسه ، فهي تعبير عن ذاته وعواطفه وتجاربه التي عاناها وخبراته التي وعاها . ويتضح أثر عمره الطويل في هذه الخبرات والتجارب من كثرة حديثه عن نفسه وهو في هذا يختلف عن زهير ، فحكم زهير آراء عامة موجهة الى الناس باسلوب فيه وعظ وارشاد .

وأفق لبيد بعد ذلك واسع في شعر الحكمة ، فهو لا يقف عند صغائر الأمور بل يعالج قضايا كبرى تتصل بالنفس الانسانية في كل مكان وزمان ، وليس أكبر من قضية الموت والزمان وفراق الأهل وضعف الانسان وعجزه أمام سطوة الأقدار وجبروت الزمان ، ولجاجة النفس في البقاء والخلود وهموم الشيخوخة ، وما الى ذلك من قضايا لا تخص ناساً دون آخرين . فحكمة لبيد تدور في مجال واسع وعلى مستوى انساني عام ، وهذا ما يكسب أفكاره البقاء والخلود ، وهذه احدى صفات الأدب العالمي الجيد .

وفي حكمة لبيد نزعة روحانية سامية ، واتجاه ديني موحد ، وايمان بالله وحده ، واقرار بيوم البعث والحساب . وهذه النظرة السامية جعلت شعر لبيد مبرأ من الاعتقادات الخرافية التي كانت شائعة في عصره ، من الشرك وزجر الطير وضرب الحصى وما الى ذلك ، فهو ينكرها ويقر ان الغيب من علم الله وحده .

ومهما يكن من شيء فان لبيداً كان شاعراً حكيماً من شعراء الحكمة المقدمين ، الذين برعوا في هذا الفن ، فعد من رجاله وأحد أعلامه الذين رسموا خطوطه الأولى ، فكانت حكمهم قواعد صالحة اقتدى بها من جاء بعدهم في السلوك والأخلاق .

الغزل والديار

لم يفرغ لبيد للمرأة فيحبها ويغازلها ويبثها أشواقه ، لأن لبيداً كان من الشعراء الذين أخذوا أنفسهم بالجد ، وعرفوا بالمهابة والوقار ، ولذلك فقد قل في شعره الحديث عن النساء ، كما قل الطرب واللهو ، فهو لم يكن على شاكلة أمرىء القيس وطرفة والأعشى الذين انصرفوا الى اللهو والمجون والطرب ومغازلة النساء بل كان على شاكلة زهير والنابغة الذبياني .

والغزل في شعر لبيد غزل تقليدي شغل بعض مطالع قصائده ، وقد استطاع لبيد – مع ذلك – أن يجود من الناحية الفنية في هذا الغزل ، فورد في شعره ذكر عدد من النساء مثل أسماء وسلمى وخولة ونوار وكبيشة وهند . وفي أغلب الظن أنها أسماء لا وجود لها في حياته وحبه ، وانما استلطف منها جمال الاسم وموسيقاه ، ومناسبته للصياغة الشعرية .

ويرد ذكر المرأة في غزل لبيد في حالات ثلاث : استهلالاً للقصائد ، ووصفاً للظعائن ، وذكراً للمنازل والديار .

١

فقد يفتتح بعض قصائده ببيتين أو ثلاثة يتغزل فيها ، ثم يتخلص الى موضوع آخر كذكر الديار أو غير الديار ، وهو في هذه الأبيات التقليدية يستلهم المرأة ويشحذ بذكرها ذهنه ، أو يتذكر أيامها وعهدها على شاكلة قوله [١] :

طافت أُسماءُ بالرِحالِ فقد هيَّجَ مني خيالُها طَرَبا
إِحدى بني جعفرٍ بأَرضِهمِ لم تُمسِ مني نَوْباً ولا قُرُبا

١ – الديوان ص ٢٥ . النوب والقرب : بمعنى واحد .

أو أن يستهل قصائده بذكر امرأة تلومه على الانفاق ، وتعذله على الاسراف ، وغالباً ما تكون هذه اللائمة زوجه ، فيزجرها ويهددها بالفراق ، على نحو قوله [1] :

دَعِي اللومَ أو بيني كشِقّ صديع ... فقد لُمتِ قبلَ اليوم غيرَ مطيعِ
وان كنتِ تهوين الفراقَ ففارقي ... لأمر شَتاتٍ أو لأمر جميعِ

أو قوله في زجرها وتعنيفها [2] :

سَفَها عذلتِ وقلتِ غيرَ مليمِ ... وبكاكِ قِدْماً غيرُ جدٍّ حكيمِ
أمَّ الوليدِ ومن تكوني همَّه ... يُصبحْ وليس لشأنهِ بحليمِ
آتي السَدادَ فإن كرهتِ جنابَنا ... فتنقلي في عـامرٍ وتميمِ

وهذه اللهجة القاسية الموجعة ، وهذا التعالي على المرأة لم يكن مقصوراً على زوجه ، بل ربما خاطب بذلك بعض حبيباته مثل سلمى أو نوار التي يشعرها بإبائه واستعلائه ، وانه يصل من يستحق الوصل ويقطع وصال من لا يستحقه ، فيبين سلوكه مع المرأة في قوله [3] :

وكنت اذا الهموم تحضّرتني ... وضَنَّتْ خُلةٌ بعد الوصالِ
صَرَمتُ حِبالَها وصددتُ عنها ... بناجيةٍ تَجِلُّ عن الكَلالِ

---

١ – الديوان ص ٧٠ . كشق صديع : كثوب شق نصفين . شتات : تفرق .

٢ – الديوان ص ١٠٧ . جنابنا : جوارنا . السداد : الصواب .

٣ – الديوان ص ٧٥ . حبالها : مواصلتها . تجل عن الكلال : تعظم عنه . والكلال : الأعياء .

وانه يهجر الحبيبة ويترك مرابعها اذا استشعر بذلة أو ظلم ، وقد يبدؤها القطيعة قبل ان تبدأه هي على نحو قوله [1] :

أو لم تكن تدري نَوَارُ بأنني ... وصَّالُ عقد حبائلٍ جَذَّامُها

تَرَّاكُ أمكنةٍ إذا لم أرْضَها ... أو يعتلقْ بعضَ النفوسِ حِمامُها

فأين هذا من رقة المحبين وذلة العاشقين ذوي الشوق والصبابة والهوى ؟ وبين لبيد في أسلوبه هذا وبين زهير قرابة وثيقة ، وشبه واضح ، فكلا الرجلين وقور متزن ، وكلاهما لا يعير المرأة اهتماماً كبيراً ، وكلاهما متعال يصرم ودها ان صرمته ، فذاك زهير يقول [2] :

لقد طالبتُها ولكلِّ شيءٍ ... وان طالت لَجاجَتُه انتهاءُ

فصَرِّمْ حَبْلَها إذ صرَّمتْه ... وعادَكَ أن تلاقيها العَداءُ

على أن لبيداً لم يكن فظاً غليظاً في كل أحاديثه عن المرأة ، فقد كان يصطنع الرقة والحنان وشوق المحبين في بعض شعره ، فيوفق دون أن يفرط بشيء من مهابته أو وقاره ، ترى ذلك في قوله [3] :

---

١ – الديوان ص ٣١٣ . جـذام : قطاع ، اصل من يستحق الوصال وأقطع من يستحق القطيعة . يعتلق : يرتبط .

٢ – ديوان زهير ص ٦١ – ٦٢ . عادك : صرفك ، وعداك : أشغلك . صرم : قطع . العداء : هنا الشغل .

٣ – الديوان ص ٥٨ – ٦٢ . القطين : جماعة أهل الدار . بهجر : بهجيرة أو هاجرة ، نصف النهار . تذر : تقطع . النفور : الدابة تفر من صاحبها . والفرور : الظبي أو الحمار أو الشاة . اظعانهم : أجمالهم ، النساء تلي الابل. طلح : شجر . السلائل : موضع أو أودية . عشر: شجر . الحدوج : مراكب النساء . العروب : العاشقة لزوجها أو الحيية الخفرة . ريا الروادف : ضخمة العجيزة . يعشى : يكل البصر من حسنها . سيابـة : بلحة وهي البسر الاخضر الذي يسقط وقد نضج . انتجينا : من المناجاة . الصارم الذكر : السيف القاطع من حديد فولاذ .



راحَ القطينُ بهجْرٍ بعد ما ابتكروا   فما تواصلهُ سلمى وما تذرُ

منأى الفرور فما يأتي المُريدُ وما   يسلو الصدودُ إذا ما كان يقتدرُ

كأن أظعانَهم في الصبح غاديةً   طَلْحُ السلائل وسطَ الروض أو عُشَرُ

. . .

وفي الحُدُوج عَرُوبٌ غيرُ فاحشة   رَيَّا الروادف يَغشَى دونَها البَصَرُ

كأنَّ فاها اذا ما الليلُ ألبَسها   سَيَّابةٌ ما بها عيبٌ ولا أثَرُ

قالت غداةَ انتجينا عندَ جارتها   أنتَ الذي كنتَ لولا الشيبُ والكِبَرُ

فقلت ليس بياضُ الرأس من كِبَرٍ   لو تعلمين وعندَ العالِمِ الخَبَرُ

لو كان غيرِي سُلَيْمَى اليومَ غيَّرهُ   وقعُ الحوادث إلَّا الصارمُ الذَّكَرُ

ولبيد هنا فنان بارع يصور شوق المحب وتمنع حبيبته ، فهو أبداً بين يأس وطمع ، ثم رسم صورة سلمى حبيبته ، فأظهر فيها أبرز ما يحبه الرجل البدوي في المرأة ، امتلاء أردافها وضخامة عجيزتها ، وأراد أن يدقق في محاسنها وجمال وجهها ووضاءتها ، فما وجد خيراً من أن يجمع غاية ما فيها من جمال في قوله : (يعشى دونها البصر) فقد تحير بأية صورة يصورها ، تراكمت في ذهنه كثرة المحاسن والمفاتن فاختصر الطريق وبلغ غايته في أوجز عبارة ، ثم نظر في محاسنها الخلقية ، فهي امرأة محبة لزوجها ، مخلصة له ، عفيفة اللسان طيبة رائحة الفم ، ولكن لبيداً لا يرتضي بالتعبير البسيط والوصف القريب ، بل أراد أن يمثل لهذه الرائحة ، ويبين مذاقها فشبهها بالبسر الأخضر الناضج الذي تفوح رائحته فتشتهيه النفوس ، ولبيد بدوي والبدو يحبون البلح ، وخير البلح البسر أو الرطب ، وهو يستوحي معانيه من بيئته ويعبر عن ذات نفسه فيما تحبه وتشتهيه ،

ولبيد لا شك يحب الرطب ، ولا أدل على ذلك من انه سمى احـــدى ابنتيه (بُسْرَة) كما تقدم في سيرته .

ثم يجلـّي لبيد حين ينقل حديث صاحبته ويمثل مناجاتها اياه وهي معجبة به حين كان شاباً وسيماً ، آسفة عليه حين غدا وقد أضرَّ به الزمان وعـــلاه الشيب :

قالت غـــداةَ أنتجينا عند جارتها

أنتَ الذي كنتَ لولا الشيبُ والكِبَرُ

وهذا تمثيل رائع لحديث المرأة عن الرجل واعجابها به ، وتـــذكرها لأيام الشباب وانظر كيف حمل الألفاظ من المعاني أكثر مما فيها ، فجاء بها مبهمة (أنت الذي كنت) ولكنها عميقة الدلالة ، غزيرة المعنى ، مشحونة بايحاءات عاطفية مؤثرة ، وهذا ضرب من التشبيب لعل لبيداً أول من ابتدعه ، فالشعر الجاهلي لم يعهد في الغزل تشبيب المرأة بالرجل ، وانما فطن اليه — فيما بعد — عمر بن أبي ربيعة ، الذي شقق الكلام فيه ، وسرد أقاصيص النساء وأحاديثهن عن شبابه وجماله وسحره وملاحقتهن له .

ثم أنظر كيف أبدع لبيداً أيما ابداع حين هيأ لغزله هذا الجو العاطفي ، فجعل مناجاة حبيبته بعيداً عن الرقباء وفي غفلة من العيون ، فان جارتها قد دبرت هذا اللقاء ، وهيأت لهما موعداً مضروباً في زمان ومكان معينين ، فكانت النجوى (عند جارتها) .

ولا شك ان لبيداً في هذه القصيده فنان حاذق ، متمكن من أداته ، خبير بفنه ، يجيد الغزل لو أراد ، ففي أكبر الظن انه لو كان ذا ميل وهوى لأجاد في كل قصائده الغزلية ايما اجادة ، ولكنه رجل جبل على الجد فعزف عن اللهـــو



والنساء ، وقد اتخذ من الغزل وسيلة للحديث عن موضوعات يؤثرها ويريدها ، فساق لأجل ذلك هذه الحبكة الغرامية ليصل منها الى الشيب ، ثم يتكىء على هذه الكلمة حتى يتاح له الحديث عن همته البعيدة ، وخوضه غمرات الحروب ، وتجلده لمصائب الزمان وصبره على الأهوال ، التي ابيض لها شعر رأسه فشاب قبل أوانه .

وحديث لبيد عن الشيب في غزله ، أو حديث النساء عن شيبه ، يتكرر في شعره ، مما يدل على انه كان شيخاً حقاً ، وقد ملأ الشيب رأسه ، ففي قصيدة أخرى يذكر صاحبته كبيشة وبعدها عنه ، ويتذكر أيامها ويصف لقاءها وهي مطفل ترعى صغيرها كظبية حانية ترنو اليه ، ثم يحكي حديثها وعتابها حيث تذكره بعهد الصبا ، وتشير الى كبره وشيبه ، فتثير في نفسه الحزن والكآبة على ما فعلت به الايام [1] .

٢

ويذكر لبيد المرأة عند الرحيل حين تكون في الهودج ، فهي ناعمة مترفة تطل عليه من بين الستر أو الكلة ، فيودعها وداعاً فيه شوق وعاطفة يصف هودجها ويصفها هي في هودجها ، ويصف راحلتها وهي تندفع مبعدة عنه ، وهو يتابعها بعينه وبخياله ، ويصور القافلة حين تغرق في السراب ، تختفي حيناً وتظهر حيناً آخر ، هابطة في واد او ظاهرة على نجد ، انظر ذلك في قوله [2] :

---

١ – ديوان لبيد ص ٢٤٥ – ٢٤٦ .

٢ – الديوان ص ٣٠٠ . تكنسوا : دخلوا في الكناس اي الهودج هنا . المحفوف: الهودج. الزوج : النمط من الثياب . القرام : الغطاء . زجل : جماعات . توضح ووجرة : موضعان . حفزت : دفعت . الرضام : الحجارة الضخمة المنضدة .



شاقتك ظُعنُ الحيِّ حين تحملوا فتكنَّسوا قُطُنا تَصِرُّ خيامُها

من كلِّ محفوفٍ يُظِلُّ عِصيَّهُ زَوْجٌ عليه كِلَّةٌ وقِرامُها

زُجَلاً كأن نِعاجَ توضحُ فوقَها وظباء وجرةَ عُطَّفا آرامُها

حُفِزَتْ وزايلها السرابُ كأنها أجزاعُ بيشةَ أثلُها ورُضامُها

جمع لبيد في هذه الابيات الاربعة مشهداً كاملاً للرحيل والوداع ، فقد قوضت البيوت ولفت الخيام حتى ليسمع صرير عيدانها حين تشد على الرواحل أو تتحرك بها ، وانظر كيف وصف الهودج وبين أقسامه من العيدان والكلة وأنماط الثياب التي يغطى بها الهودج ، أو يرسل ستارة حوله ، وحين استكمل وصف الهودج نظر الى النسوة فيه وقد مددن أعناقهن ينظرن نظرة الوداع ، وقد رأى لبيد فيهن صورة الظباء ، ظباء وجرة المتحننات على أطفالها ، أو نعاج توضح حين ترنو لفطائمها ، وتأمل في هذا التشبيه المزدوج الذي برع في صياغته ، بحيث يوحي بكل المحاسن والمفاتن التي تراها في هذه الأمهات من البهائم وهن ينظرن نظرات حانية وقد صفت أعناقهن :

زُجلا كأن نِعاجَ توضح فَوقها وظباء وَجرَةَ عطَّفا آرامُها

ثم اذا سارت هذه الحمول وصارت بعيدة يواريها السراب فيحجبها عن نظرات لبيد التي تساير القافلة ، ويجدها تنكشف بين حين وآخر ، فيخالها من بعيد أشجار الأثل العالية عند منعطف وادي بيشة أو صخوراً ضخمة منضدة هناك .

ويودع مرة أخرى حبيباته ، ويشبب بهن ، ويصور لوعة الفراق في قصيدته التي أولها [1] :

طَلَلٌ لخوله بالرُّسَيْسِ قديمُ فَبعاقِلٍ فالأَنعَمَيْنِ رُسُومُ

وبعد أن يصف اطلال خولة وعبث الرياح بها ، يذكر رحيل أهلها وشوقه اليهم ويصف الظعائن ، ويرى في القافلة حين تبعد والسراب يحيط بها ، ما يراه الناظر من بعيد الى نخيل عالية مثمرة وسط نهر كبير، وتلوح بينها وهي زاهية ناضرة أشجار كأشجار الكروم ، وذلك على ما يقول :

أضحت معطلةً وأصبح أهلُها ظعنوا ولكنَّ الفؤادَ سقيمُ

فكأن ظُعْنَ الحيِّ لما أشرفتْ بالآلِ وارتفعت بهن حُزومُ

نخلٌ كوارعُ في خليجٍ مُحَلِّم حملت فمنها موقرٌ مكمومُ

سُحُقٌ يمتِّعها الصَّفا وسَرِيُّه عُمٌّ نواعمُ بينهن كُرومُ

وهذه الظعائن يغذذن السير جماعات تلو أخرى ، ويلقي لبيـــد نظرة على هذه النساء فيراهن جميلات مترفات بيض الوجوه ، لم تفســد الشمس بشرتهن الصافية وحديثهن لذيذ وصوتهن رخيم يشبهن في جمال عيونهن وامتلاء أجسامهن بقر الوحش الذي رتع في مرابع ورياض بعيدة آمنة. فلما بعدت الحمول واختفت

---

١ — الديوان ص ١١٨ ، ١٢٠ . الآل : السراب . حزوم : المرتفع من الارض ما غلظ منها . موقر : حامل . مكموم : مغطى بالكمامة . سحق : طوال . الصفا : نهر .

الظعائن ، بكى لبيد تأثراً لمشهد الفراق وانهمرت دموعه غزيرة سخية ، كأنها ماء يتصبب من دلو كبير متهرىء يسيل فيبلل جوانبه [1] :

زُجَلٌ ورفَّع في ظِلالِ حُدُوجِها   بيضُ الخدود حديثُهنَّ رخيمُ
بَقَرٌ مساكنُها مَسارِبُ عازبٍ   وارتبَّهنَّ شقائـــقٌ وصَريمُ
فصرفت قَصْراً والشُّئون كأنها   غَرْبٌ تَحُثُّ به القَلُوصُ هزيمُ

ويجيء غزل لبيد متصلاً بالمنازل والديار ، فمروره بالمنازل المقفرة ، ووقوفه على الدمن الخوالي يهيج في نفسه ذكرياته وأهل هذه الديار وأيامهم الحلوة ، أيام الصبا وذكريات الشباب ، وشعره في هذه الديار مصبوغ بعاطفة حزينة . تأمل في هذه القصيدة وانظر كيف استطاع لبيد أن يعبر عن عواطفه وأشواقه ، حين وقف على ديار سلمى فهيجت في نفسه ذكريات وأشجاناً [2] :

ألم تُلممْ على الدِّمَنِ الخوالي   لسلمى بالمـــذانبِ فالقُفالِ

---

١ — الديوان ص ١٢١ . زجل : فرق. رفع : هنا بمعنى حمل . مسارب : مراع . عازب: حشيش لم يوطأ . الشقائق : ج شقيقة ، أرض بين رملتين تنبت نباتاً . الصريم : الرمل المنفرد . ارتبهن : رباهن . قصراً : عشياً . الشئون : مجاري الدمع . الغرب : الدلو العظيم . القلوص : الناقة التي تستقي . هزيم : متشقق .

٢ — الديوان ص ٧٢ — ٧٥ . تلمم : تقف . المذانب والقفـــال : موضعان . النعاف : رؤوس الأودية . قو : موضع . صوأر : مكان . العرار : صوت ذكر النعام . والزمار : صوت الأنثى . العزف : صوت الجـــن ، أو حركة الريح على الرمال . الخيط : القطيع من النعام . خواضب ؛ صبغ الربيع اطراف ريشها. رئالها : فراخها . أرق الافال : فصلان رمادية اللون. أجد فيها : اتخذت أخبية جديدة . النوال : الصواب أو العطية . الغربان : الدلوان . سناة : سقاة. ناجية : ناقة مسرعة تنجو. السجال : الدلاء . خطمة : موضع . تحتم والخلال : موضعان.

فجنبي صَوأرٍ فنِعاف قَوٍّ خوالدَ ما تَحدَّثُ بالزوالِ
تحمل أهلُهـــا إلا عِراراً وعَزْفا بعد أحياءٍ حِلالِ
وخَيطاً من خواضبَ مؤلِفاتٍ كأن رِئالَهـــا أُرقُ الإفالِ
تحمَّل أهلُها وأجـــدَّ فيها نعاجُ الصيف أخبيةَ الظِّلالِ
وقفت بهن حتى قال صَحْبي جَزِعْتَ وليس ذلك بالنَّوالِ
كأنَّ دموعَـــه غَرْباً سُناةٍ يُحيلونَ السِّجالَ على السِّجالِ
تَمنّى أن تُـــلاقِي آلَ سلمى بِخُطْمَةَ والمُنى طُرقُ الضَّلالِ
وهل يشتاقُ مثلُكَ من ديارٍ دوارسَ بين تُختِمَ والخِلالِ
وكنتُ إذا الهمومُ تحضَّرتني وضنَّتْ خُلَّةٌ بعـــد الوصالِ
صَرَمتُ حِبالَها وصدَدْتُ عنها بناجيةٍ تَجِـــلُّ عن الكَلالِ

وقد حقق لبيد في هذه القصيدة جملة أمور : وقف على ديار سلمى وقد خلت واضحت دمناً دارسة وآثاراً مهجورة ، فحدد هذه الديار تحديداً دقيقاً ألحّ عليه في أول القصيدة ، وأكد عليه في آخرها . ووصف الديار وهي مقفرة غادرها أهلها حين حل الصيف ، مرتادين مساقط الغيث وعيون المياه ، فخلت الديار وأصبحت تتناوح بها الرياح وترتع بها وحوش البادية .

ثم أظهر لبيد حزنه وألمه على خلو المنازل ، حتى استبد به الجزع فصار ملوماً من أصحابه ، فامتلأت عيناه بالدموع وجرت على خديه غزيرة كما تجري مياه السقاة من الدلاء ، ثم أفاق من أحلامه وعاد الى رشده يلوم نفسه كيف غلبه اليأس واستبد به الجزع ، وقد كان شأنه التجلد والتصبر ، فاذا ما نزلت به الهموم أراح أثقال صدره حين يقوم الى ناقة قوية صلبة العود تجل عن الكلال.

وتتضح هنا – كما تتضح في كثير من شعره – عنايته بالديار والامعان في تحديدها وتسمية المواضع ونسبة بعضها الى بعض من واد أو جبل أو عين ماء أو سهل أو نجد وهذه الظاهرة عرفت عند زهير بن أبي سلمى أيضاً ، حيث يدقق في تحديد الأمكنة ويسمي المواضع التي يمر بها هو أو ينزل بها أحبابه حين يصف أسفارهم . كما عرفت عند فحول شعراء الجاهلية . ولكنها في شعر لبيد أكثر وضوحاً وأشد جلاء ، وهذه الظاهرة وتكرارها وتشابهها عند كثير من شعراء الجاهلية تستلفت الانظار وتستدعي الوقوف – ولو قليلاً – عندها . فلبيد في المعلقة يتتبع مواضع نوار ويبين منازلها ويعين اماكن حلولها أو مرورها فيقول [1] :

مُرِّيَّةٌ حلَّت بفَيْدَ وجاورتْ ... أهلَ الحجازِ فأينَ منكَ مرامُها
بمشارقِ الجبلينِ أو بمُحَجَّرٍ ... فتضمنتها فَرْدَةٌ فرُخامُها
فصوائِقٌ ان أيمنت فمظِنَّةٌ ... فيها وِحافُ القَهْرِ أو طِلْخامُها

ولا يكاد القارىء يمضي في قراءة هذه الأبيات في المعلقة حتى تفجأه هذه المواضع الكثيرة التي ينثرها لبيد في أبياته نثراً ، كأنه يستمتع بذكرها ويأنس بتسميتها فنجد من ذلك هذه الأماكن : الجهلتين ، توضح ، وجرة ، أجزاع بيشة ، أحزة الثلبوت ، جن البدي ، تبالة ... وهكذا .

ولا ندري على وجه التحديد أكان لبيد في معلقته خاصة يتابع في هذا اسلوب شعراء المعلقات في تحديد المواضع أم كانت هذه ظاهرة عامة في الشعر

---

١ – الديوان ص ٣٠١ – ٣٠٢ . مرية : من بني مرة بن عوف بن سعد بن ذبيان . فيد : فلاة واسعة بين أسد وطيء . مشارق الجبلين : أي أجأ وسلمى . محجر : موضع في ديار بني ابي بكر بن كلاب . فردة : ماء من مياه نجد لبني جرم .

الجاهلي ؟ أكبر الظن أن هذا أسلوب عام في المطولات من القصائد ، فنحن نجدها واضحة في المعلقات وهي قصائد طوال جياد – أكثر من غيرها . ففي معلقة عنترة – وهو أكثر شعراء المعلقات ذكراً للديار ومواضعها ، وان لم يبلغ مبلغ لبيد الذي يفصل حين يذكرها ويتأنق بتحديدها – تكثر المواضع وتتبين المنازل وبخاصة منازل عبلة حيث يقول[1] :

يا دارَ عبلةَ بالجِواءِ تكلَّمي   وعِمي صباحاً دارَ عبلةَ وأسلمي

ويبين ديار عبلة وديار أهله :

وتَحُلُّ عبلةَ بالجِواءِ وأهلُنا   بالحزْنِ فالصَّمَّانِ فالمتَثَلَّمِ

ويقول كذلك :

كيف المَزارُ وقد تربَّع أهلُها   بعُنيزَتَيْنِ وأهلُنا بالغَيْلَمِ

ويذكر عنترة في معلقته مواضع أخرى من غير تعيين لها بذكر غيرها كذي العشيرة وماء الدحرضين وماء الرداع وغيرها .

ويعني الحارث بن حلزة بكثرة ذكر المواضع ولكنه لا يحدد جهاتها مثل لبيد فهو يقول في ديار أسماء[2] :

---

١ – شرح المعلقات العشر ، التبريزي ص ٩٠ ط لايل ، كلكتا ١٨٩٤ م . الجواء : بلد. الصمان والمتثلم : موضعان . عنيزتان والغيلم : مواضع .

٢ – المصدر السابق ص ١٢٥ – ١٢٦ . شماء : هضبة . البرقة : رابية فيها رمل وطين او طين وحجارة . المحياة : أرض الصفاح ، هضاب مجتمعة . ذو فتاق : جبل . عاذب : واد . الوفاء : أرض . رياض القطا : موضع . الابلاء : اسم بئر .

بعدَ عهدٍ لنا بِبُرقةِ شَمَّا ء فأدنى ديارِها الخَلْصاءُ
فالمُحَيَّاةُ فالصِّفاحُ فأعـــلَى ذِي فِتاقٍ فَعاذِبٌ فالوَفاءُ
فرياضُ القَطا فأوديةُ الشُّرْ بُبِ فالشُّعْبَتانِ فالأَبْـــلَاءُ

وعلى هذا النسق يذكر مواضع أخرى في قوله [١] :

إنْ نبشتم ما بينَ مِلْحَةَ فالصَّا قبِ فيه الأمواتُ والأَحياءُ

وهكذا يمضي مسمياً المواضع التي يحبها مثل : البحرين والحساء وبرقاء والعلياء والعوصاء وتهلان وذي المجاز . يبث هذه الأماكن بثاً في تضاعيف قصيدته .

ولم يتخلف عن هؤلاء أمرؤ القيس في هذا الضرب من العنـــاية بالمواضع وتكرار ذكرها ، فقال [٢] :

قِفا نبكِ من ذكرى حبيب ومنزلِ بِسِقْطِ اللِّوى بينَ الدَّخولِ فحوملِ
فتوضحَ فالمِقراةِ لم يعفُ رسمها لما نسجتها من جُنوبٍ وشَمْألِ

---

١ — شرح المعلقات ص ١٣١ . ملحة : مكان . الصاقب : جبل . ان نبشتم : اي ان أثرتم ما بيننا من أحقاد .

٢ — شرح المعلقات ص ١ — ٢ . السقط : ما تساقط من الرمل . اللوى : مستدق الرمل حين يفضي الى الجدد . الدخول وحومل : موضعان . توضح والمقراة : موضعان .

وظهرت أقل وضوحاً عند زهير حيث يقول [1] :

أمن أمّ أوفى دِمْنَةٌ لم تَكلَّمِ بحومانةِ الدرّاجِ فالمتثلَّمِ
ديارٌ لها بالرقمتينِ كأنها مراجِعُ وشمٍ في نواشرِ مِعْصَمِ

وعمرو بن كلثوم يتذكر أيامه التي شرب فيها ، ومواضع شربه ببعلبك ودمشق وقاصرين [2] :

وكأسٍ قد شَرِبتُ ببعلبَكٍّ وأخرى في دِمشقَ وقاصرِينا

أما طرفة فقد اكتفى بان يعين اطلال خولة ببرقة ثهمد [3] :

لخولَة أطلالٌ ببُرْقَة ثَهْمَدِ تلوحُ كباقي الوشمِ في ظاهرِ اليدِ

وهكذا نجد لبيداً شابه شعراء المعلقات في عنايته بتعيين المواضع وبيان حدودها ودقته في رسم جهاتها . وتميز بينهم بأمعانه في ذكر الديار وتحديدها .

واذا تركنا ذكر المواضع والديار الى تشبيه هذه الديار بالكتابة — وفي هذا من الدلالة الواضحة على معرفة لبيد بالقراءة والكتابة كما عرفها كثير من شعراء

---

١ — المصدر السابق ص ٥٣ . الحومانة : المكان الغليظ وقيل القطعة من الرمل . الدارج والمتثلم : موضعان بالعالية . الرقمتان : موضعان احداهما قرب المدينة والاخرى قرب البصرة كما قال الاصمعي . النواشر : عروق ظاهر الذراع .

٢ — هذا البيت ساقـــط من معلقته بشرح التبريزي وهو عند الزوزني صفحة ١٢١ ط السعادة .

٣ — شرح المعلقات ، التبريزي صفحة ٣٠ . ثهمد : موضع .

الجاهليين – أو النقش أو رسم الواشمة ، نجد لبيداً يذكر في معلقته ثلاث صور من هذه التشبيهات . قال في الصورة الاولى[1] :

فَمَدافِعُ الرَّيَّانِ عُرِّيَ رَسمها خَلَقاً كما ضَمِنَ الوُحِيَّ سِلامُها

وأحسن من هذه الصورة قوله الذي اقترن بسجدة الفرزدق اعجاباً وفتنة :

وجلا السيولُ عن الطُلولِ كأنَّها زُبُرٌ تُجِدُّ مُتونَها أقلامُها

أما صورة الواشمة فقوله :

أو رَجْعُ واشمةٍ أُسِفَّ نَؤُورُها كِفَفاً تَعَرَّضَ فوقَهُنَّ وِشامُها

وقد شارك كل من زهير وطرفة لبيداً في تشبيه الاطلال بالوشم في ظاهر اليد وانفرد لبيد وحده بتشبيهها بالكتابة وتجديد الاقلام لما غاب منها ، أما تشبيه زهير فقوله[2] :

ديارٌ لها بالرقمتين كأنَّها مراجِعُ وَشْمٍ في نواشِرِ مِعْصَمِ

ويقول طرفة[3] :

---

١ – ديوان لبيد صفحة ٢٩٧ وما بعدها . الوحي : الكتابة . السلام : حجارة . زبر : كتب . تجد : تجدد . الرجع : الترديد . أسف : ذر عليه النؤور وهو مادة الوشم . كففا : دوائر . الوشام : ج وشم .

٢ – شرح المعلقات ، التبريزي صفحة ٥٣ .

٣ – شرح المعلقات ، التبريزي صفحة ٣٠ .

لخولةَ أطلالٌ بِبرْقة ثَهْمَدِ تلوحُ كباقي الوَشْمِ في ظاهرِ اليدِ

فالتشبيه في بيت زهير وفي بيت طرفة ساذج بسيط . أما تشبيه لبيد ففيه صورة حية كاملة ، فيها مراحل عمل الواشمة حين تذر النؤور وتجعله كففاً ، ثم تضرب فوقه الوشام بمغرزها أو ابرتها . فصورة لبيد فيها تفنن ولها جوانب وأبعاد وفيها حركة وتعقيد في صناعتها .

ونجد توافقاً كبيراً بين لبيد وزهير في معلقتيهما ، ولا ندري على التحقيق أكان لبيد قد تأثر بزهير وتعقبه في تشبيهاته وأغراضه أم كان ذلك توافقاً غير مقصود الواضح ان المعاني التي اشتركا فيها هي معان عامة كثر ترددها في الشعر الجاهلي . واذا نظرنا في هذه المعاني المشتركة نجد معاني لبيد أكثر جودة وأبعد شأواً من معاني زهير ، فزهير يذكر الديار وما مر عليها من زمن ، فقد غاب عنها ثم جاءها بعد حين يسترجع ذكرياته فقال [1] :

وقفتُ بها من بعدِ عشرينَ حِجّةً فلأيا عرفت الدارَ بعد توَهُّمِ

أما لبيد فلا يتوهم الديار ، ولا يذكر سنة بعينها بل يقول : ان هذه الديار اقفرت بعد أنس بأهلها ، ومضت عليها سنون طويلة فيها شهور الحل وشهور الحرم .

دِمَنٌ تَجَرَّمَ بعدَ عهدِ أنيسِها حِجَجٌ خلونَ حَلالُها وحَرامُها

وينظر زهير في الأطلال باحثاً عما خلفوه من آثار تدل على أهلها فلا يجد غير :

---

١ – المصدر السابق صفحة ٥٤ .

أثافيَّ سُفعاً في مُعرَّسِ مرجلٍ ونُؤْياً كجِذمِ الحوضِ لم يَتَثلَّمِ

وكذلك فعل لبيد ، فلاحظ النؤي وعوض عن ذكر الأثافي السفع بالثمام المطرح بعد أن تقوضت البيوت وحملت الأثقال .

عريَتْ وكان بها الجميعُ فأبكروا منها وغودِرَ نُؤيُها وثُمامُها

ويقف زهير على الديار يحييها ويسائلها فتصمت عن الجواب ولم تتكلم :

أمن أمِّ أوفى دِمْنَةٌ لم تَكَلَّمِ بحومانَةِ الدرَّاجِ فالمتَثلَّمِ

وينكر الديار فلما عرفها حياها بقوله :

فلما عرفت الدارَ قلت لربعِها ألا أنعمْ صَباحاً أيُّها الربعُ وأسلمِ

أما لبيد فيقف على الديار يسائلها ويناجيها ثم يعود لنفسه فيقر باستحالة أن تجيب هذه الصم الخوالد :

فوقفتُ أسألُها وكيف سؤالُنا صُمّاً خوالدَ لا يَبِيْنُ كلامُها

وهكذا فان لبيداً يذكر المرأة ويتغزل بها في مطالع قصائده ، ويذكرها حين يقف على الديار ويسأل الاطلال ، ويصفها وهي راحلة ظاعنة يتابعها ببصره ويسايرها بخياله ، فيعين المواضع التي مرت بها أو نزلت فيها . ويصف أماكنها وهي خالية وقد غدت مسرحاً للوحش من الحيوان ، ولذلك فقد تداخل ذكر المرأة بذكر الديار ، وحديثه اليها بذكرياته عن أطلالها . ولا تحسب ذلك اضطراباً في الذهن بقدر ما هو استجابة لدواعي البيئة وطبيعة الموضوع ، فان

المعاني يدعو بعضها بعضاً ، فالوقوف على الاطلال يذكر بأهلها ، ووصف الديار يوجب تحديدها وتبيين مواضعها ، وتسمية ما فيها من أودية وجبال وسهول وانجاد ، وعيون للمياه . وكان التأمل في الديار المقفرة يدعو الى ذكر آياتها من النؤي والأواري والأثافي والثمام الذي تسد به خصاص البيوت . وكان هذا الاستغراق في تأملها يقود الى ذكر ماضيها وكيف آلت اليـــه بفعل الرياح والأمطار ، وكيف أضحت بعد وقـــد نبت فيها النبات وكثرت الاشجار فاطمأنت اليها الحيوانات واتخذتها مسكناً وملاذاً . وهكذا فالمعاني مترابطة ومتداعية ، يأخذ بعضها برقاب بعض ، ويذكر أمر منها بأمور أخرى .

٣

ومهما يكن من أمر ، فقد تغزل لبيد وذكر المرأة حبيبة وظعينة عاتبـــة ولائمة ، ولكن مع ذلك لا يعد مع الغزليين حين يذكر شعراء الغزل، وهذا حق فقد كان غزلاً من الناحية الشكلية فقط ، وغزله تقليدي ليس فيه من حرارة الوجد واستعار العواطف واشتياق المحبين ، الا ما كان يصطنعه اصطناعاً من الشوق والهوى . وذلك لأنه لم يكن بطبيعته ميالاً للهو ، راغباً في النساء ، فقد عرف بالجد والعفة والمهابة . ولذلك جاء أكثر غزله في مطالع القصائد أو عند ذكر الديار ، لضرورة فنية وتقليد جرى عليه كما جرى عليه الشعراء من قبله . ولذلك أيضاً كان غزله قليلاً وفي أبيات معدودات في القصيدة ، فهو مسرع حين يتغزل لا يطيل الوقوف وهو موجز حين يتحدث عن المرأة او اليها ، لا يسترسل ولا يفصل . من ذلك أنه وقف في المعلقة عند الاطلال وقفة طويلة ، فلما جاء الى الغزل وصف الظعائن ومراكبها ورحيلها في أربعة أبيات ركز فيها على معان كثيرة ، وتراه في غزله عجلاً مسرعاً ، يريد ان يفرغ من الغزل الى موضوع آخر ، فالغزل عنده أداة يمهد بها لموضوع آخر يسارع اليه .

ومن دلائل هذا الغزل المصنوع ، أن لبيداً لم يمحض غزله – لو أحب –



امرأة بعينها ، فقد تغزل بنساء كثيرات منهن من أغفل أسماءهن ومنهن من ذكر اسماءهن مثل : نـوَار وسلمى وأسماء وخولة وهند وكُبَيْشَة . وليس من المألوف والمعقول ان تكون له كل هذه الصواحب وان يقوم بينه وبينهن ود صحيح وحب متين ، وهو الرجل العف المتزن الوقور .

وليس للبيد بعد ذلك أخلاق المحبين – لو كان محباً – وحقاً انه كان يصطنع في بعض شعره الرقة والشوق والعاطفة المشبوبة بل يذرف الدمع أحياناً على فراق أحبابه مما يكون عرضة للوم أصحابه . ولكننا كثيراً ما نجده في حديثه عن المرأة متعالياً شامخاً يصرم ودها ويهددها القطيعة والفراق . ويعنفها ان هي عاتبته أو لامته على كثرة انفاقه وتخرقه في كرمه .

وقد عوض لبيد عن ضعفه في الغزل ، بترك ذكر المرأة الى الديار ، يقف عليها ثم يسترسل في وصف أثارها ورسومها وما أبقته الرياح والامطار منها ، فيشبهها بالكتابة مرة وبالوشم مرة أخرى ، وحين يصف الديار يتذكر أهلها الذين بادوا أو الذين رحلوا ويصف رحيلهم وقوافلهم حين تتأهب للمسير ، وحين تمضي مبعدة في الطريق ، ويعنى هنا بذكر المواضع التي مرت بها فيسميها ويحددها . على ان الصورة الجميلة في ذكر الديار وأوصافها يعيبها ويقلل من شأنها ذلك التكرار لصور الديار وتشبيهاتها ، فصورة الكتابة والوشم وسكن الحيوان فيها ، تلح على ذهن لبيد في غير قصيدة ، ولا شك ان ذلك من آثار البيئة ومشاهدها المحدودة التي قلما يكون فيها تغيير أو تبديل .

وعلى كل حال فان شأن لبيد في الغزل، شأن صاحبيه النابغة الذبياني وزهير ابن أبي سلمى ، لم تكن المرأة لتؤثر في حياتهم ، ولم يكن الغزل من جياد فنونهم ، على ان لبيداً قد تميز عن صاحبيه وعن شعراء الجاهلية عامة بميزة تذكر له ، تلك هي تصوير مشاعر المرأة وعواطفها تجاه الرجل ووصف محاسنها الخلقية وسجاياها النفسية ، فقد أجرى الحديث على لسانها ، فذكرت محاسنه



وعاتبته وساقطته الحديث كما كان يساقطها . وقد عرف الغزل في الجاهلية وفي غير الجاهلية انه غزل من ناحية الرجل لا المرأة ، وان عناية الرجل منصبة على التدقيق في جسمها ووصف مفاتنه واظهار ما يعجب الرجل في المرأة من سمات الأنوثة ، أما صفاتها الخلقية فقلما كانت موضع احتفال او عناية [1] .

---

١ – هذا هو اسلوب الغزل العام وقد جاءت أبيات قليلة فيها تصوير لعواطف المرأة وحزنها على فراق حبيبها وحرصها عليه ان تصيبه غارة كما وصف الرجال خصال محبوباتهم الخلقية، ولكن هذا قليل نادر. انظر الغزل في العصر الجاهلي للدكتور الحوفي صفحة ٢٥٠ – ٢٥٢ حول تبادل الحب بين الرجل والمرأة .

الهجـــاء

١

لم يكن لبيد من فرسان الهجاء ، فان طبيعته ذات الوقار والتعقل وميله نحو المسالمة والموادعة جعلت بينه وبين الهجاء سداً ، فما عرف عن لبيد شر ، أو سوء أو نكر ، بل كان طيباً سمحاً عف اللسان دمث الأخلاق ، وهـــذه خصال تحجز بينه وبين الهجاء ، اللهم الا أن يضطر اضطراراً ويدفع اليه دفعاً كأن يجيب خصماً أو يرد على متجن على قومـــه أو يغضب لقبيلته حين تسام ظلماً ، فينبري للذب عنها والوقوف دونها . ومع كل ذلك فانه لا يهجو الهجاء البذيء القاسي بل يهدد ويوعد ، ويعاتب وينذر ، في لفظ عفيف وفي أبيات لا تطول .

ويحدثنا لبيد في مفاخره انه دافع الخصوم وأفحم الأعداء في مجالس النعمان ولكن لا أحد يدري بأي ضرب من الكلام كان دفاعه ، في أكبر الظن انه لم يكن هجاء — لأنه لم يبرع فيه براعة تمكنه من افحام خصومه — بل كان فخراً بنفسه واعتزازاً بقومه وتكذيباً لتقولات خصومه ، وقد كان كثير الفخر بهذه المجالس ، يذكر بلاءه ويتغنى بحسن فعاله في كثير من الزهو والاعتزاز .

ولكن لدينا من شعر لبيد ارجوزة وحيدة تشذ عن جميع شعره لما فيها من سوء واقذاع ، وقد أنشد هذه الارجوزة — فيما قيل — في مجلس النعمان هجا بها الربيع بن زياد العبسي ، الذي كان ينال من قومه بني جعفر ، ويكيد لهم عند الملك ، ويصد عنهم وجهه ، وكان لبيد آنذاك شاباً مع أعمامه وقد علم بكيد الربيع ، فانبرى يهجوه — في قصة طريفة تقدم ذكرها — بهذه الارجوزة حيث

بدأها مفتخراً بقومه ، وختمها بهجاء الربيع هجاء لاذعاً قبيحاً ، رماه بالبرص وصور هذه العلة تصويراً بذيئاً تفر منه النفس ، فمن قوله [1] :

لا تزجر الفتيان عن سوء الرعه | يا رب هيجا هي خير من دعه
نحن بنو أم البنين الأربعَه | ونحن خيرُ عامرِ بن صَعصَعَه
المُطْعِمونَ الجَفْنَةَ المُدَعْدَعَه | والضاربون الهام تحت الخيضَعَه

ثم يخاطب النعمان ويصف برص الربيع :

مَهْلَا أبيتَ اللعنَ لا تأكلْ مَعه | يُخبِرْكَ عن هذا خبيرٌ فاسمَعَه
إن استَهُ من بَرَصٍ مُلَمَّعَه | وانه يُدْخِلُ فيها إصبَعَه
يُدْخِلُها حتى يواري أشْجَعَه | كأنمـــا يطلبُ شيئاً ضَيَّعَه

ولا شك أن هذا ينافي ما قلناه عن طبيعة لبيد ، ولكن اذا علمنا ان لبيداً قال هذه الارجوزة وهو شاب في أول عهده بالشعر فسيستقيم الحكم السابق ، فقد أراد لبيد أن يدحض كيد الربيع بكيد مثله ، فاوقع بينه وبين الملك ، وقد وفق في مهمته وبلغ غايته فشوه صورة الربيع لدى النعمان ، بحيث صد هذا عنه وتنكر له وأمر بابعاده وترحيله لأهله .

---

١ — الديوان صفحة ٣٤٠ — ٣٤٣ . الرعة : حالة الاحمق التي رضي بها . الدعة : الخفض والراحة . أم البنين : ليلى بنت عامر بن ربيعة بن صعصعة زوجة مالك بن جعفر ، جدة لبيد لأبيه . الجفنة : القصعة الكبيرة . المدعدعة : المملوءة . الخيضعة : البيضة التي تلبس على الرأس. وقيل الخيضعة : اختلاط الاصوات في الحرب . الملمع : الذي يكون في جسده بقع تخالف سائر لونه . الأشجع : أصول الاصابع التي تتصل بعصب ظاهر الكف .

ومن ذيول هذه القصة — فيما يروى — ان ضمرة بن ضمرة انتصر للربيع بن زياد ، وكان حاضراً يشهد هجاء لبيد ، فهجاه لبيد بمثـــل ذلك الاسلوب وبحماس الشباب ذاك ، فقال [1] :

يا ضَمْرُ يا عبدَ بني كِلابِ ويا ابنَ كَلْبِ مُعْلَقٍ بنابِ
أكانَ هذا أولَ الثَّوابِ لا يعلَقَنْكَ ظفري ونابي
إني إذا عاقَبْتُ ذو عقابِ

٢

على ان هذه صفحة من حياة لبيد كان فيها غلاماً غراً لا يتروى ولا ينظر الى العواقب ، فلما شب ونضج ، اتخذ هجاؤه سمتاً آخر ، فيه عفة وترفع عن الشتيمة والفحش . فاذا كان لبيد قد هجا الربيع بذلك الاسلوب القاسي ، فانه بعد حين يهجوه باسلوب آخر فيه تهديد ووعيد بأنه سينال من قوم الربيع مثلما نال الربيع من قومه . واذا أراد أن يوجع في هجائه ، وصفهم بالسفاهة وخطل اللسان وذلك حين أغار الربيع بن زياد على بني عامر يريد يزيد بن الصعق ، فأخطأه فغنم سروح بني جعفر والوحيد ابني كلاب ، وقال الربيع [2] :

فإن اخطأتَ قومَك يا يزيدا فأنعِي جَعفَراً لك والوَحيدا

---

١ — انباء نجباء الأبناء صفحة ١٧٤ .

٢ — ديوان لبيد صفحة ٣٢٨ .

فتصدى له لبيد يرد عليه ويعرض بقومه[1] :

لستُ بغافرٍ لبني بغيضٍ سفاهَتَهمُ ولا خَطَلَ اللّسانِ
سآخذُ من سراتِهمُ بعِرْضي وليسوا بالوَفاءِ ولا المُداني
فإنَّ بقيةَ الأحساب مِنَّا وأصحابَ الحمالةِ والطِّعانِ
جراثيمٌ منعنَ بياضَ نَجْدٍ وأنتَ تُعَدُّ في الزَمعِ الدَّواني

فقد سفه بني بغيض وهون من أقدارهم وهدد بالانتقام من اشرافهم ، مع أن أشرافهم لا يدانون قومه وما هم بأكفاء لهم ، ثم وصم الربيع بأنه ليس من كرام الناس بل من الأتباع الأدعياء . فهذا هجاء ليس فيه فحش ولا اقذاع ، ولكنه يصيب القصد ويبلغ الغاية رغم عفته .

ويبدو أن لبيداً قد تعرض لظلم عيينة بن حصن الفزاري ، فقال يعيره بذل قومه وهزيمتهم يوم الردهة ومقتل ابنه مالك ، ويحقره بأنه ليس من همه عظيمات الأمور بل هو أهل لرعي الشاء وتكثير صغار الغنم ، وأنه رجل مغرور مزهو بنفسه جل غايته النساء ، فهو لذلك يبغضه ويبعد عنه ويستهين به ، على هذا النحو[2] :

---

١ – الديوان صفحة ٣٢٨ . خطل اللسان : طوله . السراة : الاشراف . الحمالة : تحمل الدية . جراثيم : اصول ، واصله التراب تجمعه الريح في اصول الشجر فيتلبد . الزمع : ج زمعة هنة زائدة في قوائم الشاة .

٢ – الديوان صفحة ٢٣٠ – ٢٣١ . الافوق : السهم . الرده : ج ردهة وهي النقرة في الجبل ولهم فيه يوم من أيامهم . الحبلق : غنم صغار لا تكبر . النميق : دعاء الراعي الشاء يريد التحقير هنا . ازهدوا من فنائكما : تهاونوا بك واستخفوا . فارك : مبغض اصله للمرأة تبغض زوجها .

رأيتَ ابنَ بدرٍ ذلَّ قومكِ فاعترفْ … غداةَ رمى جَحْشٌ بأفوقَ مالكا

بخيركُمُ نفساً وخيركُمُ أباً … أعزّهمُ حيّاً عليهم وهالكا

تذكرتَ منه حاجة قد نَسيتَها … وبالرِّدهِ منه حاجةٌ من ورائكا

فإنْ كنتَ قد سوَّقتَ معْزَى حَبلَّقاً … أبا مالكٍ فانعق اليك بشائكا

أبا مالك ان كنتَ بالسير مُعْجَبا … فدونَك فانظر في عيونِ نسائِكا

أبا مالكٍ اني لحُكمِكَ فارِكٌ … وزَيّانُ قد أمسى لحكمِك فارِكا

هُمُ حيّةُ الوادي فان كنتَ راقِياً … فدونَكَ أدرِكْ ماازدَهوْا من فِنائِكا

٣

وقد يتخذ لبيد في هجائه الهزء والسخرية سبيلاً الى ايجاع المهجو والنيل منه . نجد ذلك في هجائه جواب بن عوف الكلابي . الذي قضى بنفي بني جعفر قوم لبيد عن ديارهم ، حين وقع بينهم وبين بني أبي بكر بن كلاب حروب . وقد اغتاظ لبيد لهذا الحكم الجائر ، فقال يتهكم بجواب وينسبه الى قوم امه — وكانت غنوية من بني حرثان من بني ضبينة — ويشبهه — استهزاء به — بابن كسرى قاتل أبيه في غطرسته وكبره حيث اغلق أبوابه دون الناس . ويتوعده لبيد بغارة شديدة فيها فرسان بني جعفر فيقول [1] :

---

١ — الديوان صفحة ٢١ وما بعدها . بنو حرثان : من غنى . فرخ محرق : ابن كسرى . النعم : الابل . الضجوع : واد ، وبنو ضبينة يعرفون بالضجوع . الطمرة : المشرفة من الخيل والسريعة . الغاب : الأجام . شعث : غبر . الوغى : الحرب .

وَلَدَتْ بنو حُرْثانَ فرخَ مُحَرِّقٍ بِلِوَى الوضيعة مُرْتَجَ الأبوابِ

لا تَسْقِنِي بيديك إِنْ لم التَمِسْ نَعَمَ الضَجوعِ بغارةٍ أَسْرابِ

تهدي أوائلَهن كلُّ طِمِرَّةٍ جرداءَ مثل هِراوةِ الأَعْزابِ

يحملنَ فِتْيانَ الوَغى من جَعْفَرٍ شُعْثاً كأَنَّهُمُ أسودُ الغابِ

ثم يخاطب بني كلاب منكراً عليهم الرضا بظلم قومه ، مبيناً جـــورهم وعدوانهم محتجاً على حكم جواب هذا الذي لا يرى فيه غير الغطرسة والبطر كأنه بهذا الشموخ والاستعلاء ملك من الملوك لا يرد جواباً ولا يكلم أحداً [1] :

أبني كِلابٍ كيف تُنْفَى جعفرٌ وبنو ضَبِينَةَ حاضرو الأَجبابِ

قتلوا ابنَ عُروةَ ثم لَطُّوا دُونَهُ حتى نحاكِمَهم الى جَوَّابِ

بينَ ابنِ قُطْرَةَ وابنِ هاتكِ عرشهِ ما ان يجودَ لوافدٍ بخطابِ

وأسلحة لبيد في هذا الهجاء هي السخرية والوعيد ، كما ترى في البيت الأخير ونلمح في هذا الشعر أيضاً مسحة من العتاب حين يخاطب بني كلاب . وعلى هذا النحو كان يعاتب القبائل التي قعدت عن نصرتهم حين ظلمهم بنـــو أبي بكر وأجلوهم الى اليمن .

ولا شك ان لبيداً كان يشعر بشدة هذا الظلم الذي لحق به وأصاب قومه

---

١ – الديوان صفحة ٢٣ – ٢٤ . الاجباب : آبار ، وقيل منازل لبني جعفر . لطوا : ستروا . ابن هاتك عرشه : يريد ابن كسرى الذي قتل أباه .

فكان عليه أن يذود عن قومه ، ويسمع صوته من يعاديه ، ولو لم يكن الأمر كذلك لما اندفع ليقول في هجاء هذا البطن من قبيلته بني عامر . فهو مضطر أن يقف هذا الموقف .

ومثل هذا يقال في موقفه من المنافرة التي جرت بين عامر بن الطفيل ابن عمه وبين علقمة بن علاثة ، فحين حمي الشر بين الحيين وتحاكموا الى هرم بن قطبة الفزاري انبرى شعراء علقمة يهاجون لبيداً ، وكان لبيد مضطراً ان يرد عليهم ويدحض دعواهم دفاعاً عن ابن عمه عامر بن الطفيل الذي انحاز اليه والتزم جانبه . فقد بدأ السندري يتعرض بلبيد ثم استنصر به عامر بن الطفيل — كما تفصح عن ذلك القصيدة الثالثة والأربعون — فتردد لبيد أول الأمر وامتنع عن هجاء علقمة حفظاً على أواصر القربى ، فلما عير قحافة بن عوف بن الأحوص لبيداً بأن رهطه خذلوا أبا براء عامر بن مالك حيث قال [١] :

أنتم هزلتُمْ عامرَ بن مالكِ   في سنواتِ مُضَرِ الهَوالكِ

يا شرَّنا حَيًّا وشرٌّ هالكِ

قال لبيد عندئذ يرد عليه ويبين عدوان السندري وامتناعه عن شتم علقمة [٢] :

لمَّا دعاني عامرٌ لأَسبَّهُم   أبيتُ وإن كانَ ابنُ عَيْساءَ ظالما

لكيما يكونَ السندريُّ نديدَتي   وأجعلَ أقواماً عُموماً عَماعِما

---

١ — انظر ديوان لبيد صفحة ٢٨٧ .

٢ — ديوان لبيد صفحة ٢٨٦ — ٢٨٧ . ابن عيساء : هو السندري وعيساء أمه وقيل جدته . نديدتي : شبيهي وندي . العموم : جمع العم . العماعم : الجماعات .





وأنْبُشُ من تحت القبور أبوَّةً   كِراماً هم شَدُّوا عليَّ التمائِما

لَعِبْتُ على أكتافِهم وحُجورِهم   وليداً وسمَّوني مُفيداً وعاصِما

بَلَى أيُّنا ما كانَ شرا لِمالكٍ   فلا زالَ في الدنيا ملوماً ولائما

ونراه في البيت الأخير يفند زعم قحافة بن عوف ويعتز بعمه عامر بن مالك . وانظر في الأبيات تارة أخرى ، أترى فيها هجاء او ما يشبه الهجاء ؟ هو يرفض ان يهجوهم او يسبهم رغم ظلم السندري لسببين : الأول أنه ان أجاب السندري فقد جعله نداً له وكفءاً والسندري دون ذلك ، وهذا لا شك ازدراء للسندري وتعريض بهجائه . والسبب الثاني أنه ان هجا علقمة فقد سب أهله وشتم أعمامه وهم ذوو نعمته الذين رعوه وأكرموه وهكذا كان لبيد عفيفاً مع خصومه الذين بدأوه الهجاء . ولكنه مع كل ذلك كان مع ابن عمه عامر بن الطفيل على علقمة ، ينصره ويدعو الى نصرته ويحرض الحكم ليحكم لعامر فانه — فيما يرى — خير الرجلين وأفضل قومه وأقربهم لقيس نسباً وأوفاهم وأكرمهم قال يخاطب هرماً[1] :

يا هَرِمَ بن الأكرمينَ مَنْصِبا   انك قد وَلِيْتَ حكماً مُعجِبا

فأحكم وصوِّب رأسَ من تَصَوَّبا   إنَّ الذي يعلو عليها تُرْتَبا

لخيرُنا عمّـــا وأمّا وأبا   وعامرٌ خيرهُمـــا مُرَكَّبا

وعامر أدنى لقيس نسبا

---

١ — الديوان صفحة ٣٣١ . هرم : ابن قطبة ابن سنان الفزاري . الترتب : المقيم الثابت .

٤

ويجمل القول في هجاء لبيد ، انه هجاء عفيف ليس فيه فحش او بذاءة او اقذاع ، خلا ارجوزته في الربيع التي تعـد من نتاج الصبا واندفاع الشباب وطيشه ، فقد قال قولته تلك وهو حانق غاضب قد امتلأ صدره غيظاً وحقداً، فنفس عن صدره بتلك الارجوزة التي ذكر فيها سوءة الربيع أما ما تبقى من هجائه فهو أقرب الى الوعيد والتهديد ، بقوله في سياق الفخر أو سياق العتاب. وقد ظهرت في هجائه مسحة من التهكم وألوان من السخرية وبخاصة في هجاء جواب بن عوف الكلابي وهذا الضرب من الهجاء أشد وقعاً وأكثر ايلاماً من ذكر السوآت وغمز الاحساب والانساب .

وهجاء لبيد في جملته قليل ، فهو أبيات معدودة او مقطوعات قصيرة لم يبلغ القصيد المطول الذي فيه سعة وتفصيل وافاضة في القول . فربما هجا ببيت أو اثنين ثم جاوز الهجاء الى موضوع آخر تخلصاً من هذا اللون الثقيل المستكره الذي لم يوفق فيه كما وفق في غيره .

واذا رحنا ندقق في دواعي الهجاء عند لبيد ، نجدها في كثرتها قبلية أو ذات صلة بقومه وذوي قرباه ، فقد هجا الربيع بن زياد في مجلس النعمان دفاعاً عن قومه ، وغضباً لأعمامه حين كان يكيد لهم الربيع عند الملك .

وهجاه ثانية حين غزا قومه بني جعفر وبني الوحيد ، فهدده وأوعـده ، وهجا جواباً لأنه قضى بنفي قومه الجعفريين عن ديارهم . وهجا رهط علقمة بن علاثة نصرة لابن عمه عامر بن الطفيل وانصافاً لعمه عامر بن مالك وهكذا فان أكثر أهاجيه كانت تمليها عليه دوافع قبلية .

واذا نظرنا في حظ هجائه من الفن ، نجده ضئيلاً ، ذلك ان الجودة الفنية تتصل عادة بمهارة الشاعر في طرق موضوعاته ، والتفنن في عرضها وصياغتها



بأسلوب جميل يوفق بين الفكرة البارعة والعبارة الانيقة المأنوسة ، وصدق التعبير عن المشاعر الأصيلة . ولم يكن لبيد كذلك ، فمشاعره الهجائية ليست أصيلة بل ملفقة لأنه رجل عف وقور لا يجيد البحث عن مثالب الناس و كشف عيوبهم . ولعل من نتائج هذا الضعف في الهجاء وتأخره فيه انه كان يختار من الأوزان الرجز ، هذا البحر السهل الميسر ليعينه على نظم أهاجيه وتلفيقها .

وهجاء لبيد بعد ذلك كله صادق عفيف بسيط ساذج بعيد عن الغلو والمبالغة ، واذا صح قول خلف الأحمر من أن أشد الهجاء أعفه وأصدقه [١] . كان هجاء لبيد شديداً مؤلماً من بعض وجوهه .

●

وبعد : فهذه الفنون التي طرقها لبيد وهذه هي الخصائص البارزة في كل منها ، جئت بها في ذيل كل موضوع لتكون قريبة منه دالة عليه جامعة لميزاته الغالبة عليه . وقد طرق لبيد أكثر فنون الشعر الجاهلي غير المديح لأن مكانة لبيد ونفسيته وشعوره بكرم محتده ورفعة شأنه ما كانت تؤهله لذلك فلم يكن من عامة الناس ولا من مغموريهم ، بل كان سرياً من سراتهم وسيداً من سادتهم ، وما كان المدح في الجاهلية مألوفاً او مستحباً ، ولذلك لم يطرقه الا الأعشى والحطيئة من الشعراء المتكسبين ، أما زهير فقد كان معجباً بمروءة هرم والحارث لما حقنا من دماء قومه ، فكان يشيد بالنعمة ويكبر فيهما المروءة والشهامة . وأما النابغة فكان سياسياً يسفر لقومه بين الغساسنة والمناذرة ، وقد ركبه الطمع لما رأى من نعم الملوك ولطائم النعمان . ولم يكن لبيد كذلك مع انه زار الملوك وحضر مجالسهم ، فقد زارها وحضرها سيداً يمثل قومه ويدفع عنهم ، ورجلاً عفيف النفس رفيع المكانة اذا شاء ان يشيد بأحد فقد أشاد بقومه ،

---

١ - العمدة ٢/١٣٩ ط السعادة ١٩٠٧ .

واذا تغنى بقوة فقد تغنى بقوة قبيلته وفضلها وكرمها ، ولذلك فقد انحصر مديحه في قومه وجاء في سياق فخره بهم ، أو في سياق رثائه لهم .

لقد كان لبيد في فنونه مجلياً ، وصف فأبدع ، وفخر فبلغ الغاية ، ورثى فأوجع القلوب وصب الحزن في النفوس صباً ، وتأمل في الحياة فذكر حكماً صائبة وأمثالاً رائعة. على انه كان دون غيره من الشعراء في فني الهجاء والغزل، وقد كانت مكانته تحول دون الهجاء وعفة لسانه تمنعه أن يخوض في أعراض الناس ، كما كان وقاره ونظرته الجادة للحيـاة من أسباب تأخره في الغزل ، وانصرافه عن اللهو وأحاديث النساء .

الفصل الثالث

دعوى هجره الشعر في الاسلام

١

يكاد الرواة يجمعون على أن لبيداً هجر الشعر منذ هداه الله الى الاسلام ولم يقل في الاسلام غير بيت واحد ، وقد اختلفوا في هذا البيت وفي نسبته ، ففي رواية عن أبي عبيدة : أن البيت الذي قاله في الاسلام هو [١] :

الحمدُ لِلهِ إذْ لم يأتِني أجلي　　　حتى لَبِسْتُ من الإسلامِ سِرْبالا

وليس هذا البيت في شعر لبيد ، بل هو منسوب لقردة بن نفاثة السلولي ، من معاصري لبيد . ويقال ان قردة هذا وفد على النبي ﷺ ، وأنشده قوله [٢] :

بانَ الشبابُ فلم أحفلْ به بالا　　　وأقبلَ الشيبُ والإسلامُ إقبالا
وقد أروّي نديمي من مُشَعْشَعَةٍ　　　وقد أقلّب أوراكا وأكفالا
والحمدُ لله إذْ لم يأتني أجلي　　　حتى لَبِسْتُ من الإسلام سربالا

---

١ – الأغاني ٣٦٩/١٥ وفي رواية البيت خلاف ، فيقال (حق كساني من الاسلام سربالا) انباء نجباء الابناء صفحة ١٧٦ والخزانة ٣٧٧/١ ، ويروى (حتى اكتسيت من الاسلام سربالا) أسد الغابة ٢٦١/٤ .

٢ – معجم الشعراء صفحة ٢٢٣ ، والمؤتلف والمختلف صفحة ٣٣٩ .

وقيل بل ان البيت الذي قاله لبيد في الاسلام هو قوله [1] :

ما عاتبَ الحرُّ الكريمُ كنفسهِ والمرءُ يُصلِحُه الجليسُ الصالحُ

وهذا البيت من الأبيات المفردة في ديوان لبيد . وابن الأثير يقول : بل البيت الذي قاله في الاسلام هو [2] :

وكلُّ أمرىءٍ يوماً سيَعلم سَعيَهُ إذا كُشِّفَتْ عندَ الإلهِ المحاصِلُ

وهذا البيت من قصيدة جاهلية طويلة ، قالها في رثاء النعمان بن المنذر [3] . فالملاحظ ان الرواة يجمعون على أن لبيداً لم يقل في الاسلام الا بيتاً واحداً وقد اختلفوا في هذا البيت ، كما اختلفوا في نسبه الاول ، فمنهم من نسبه للبيد ومنهم من نسبه لقردة بن نفاثة . والراجح أنه لقردة في أبيات له .

والذين ذهبوا الى أن لبيداً هجر الشعر منذ هداه الله الى الاسلام يعزون رأيهم برواية تقول [4] : « كتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه الى المغيرة بن شعبة وهو على الكوفـــة ، أن استنشد من قبلك من شعراء مصرك ، ما قالوا في الاسلام ، فارسل الى الاغلب الراجز العجلي فقال أنشدني ، فقال :

أرَجَزاً تُريدُ أم قَصِيدا لقد طلبْتَ هَيِّنا موجُودا

---

١ - ديوان لبيد صفحة ٣٤٩ ، والشعر والشعراء صفحة ٩١ - ٩٢ ، ١٤٩ ، ومطالع البدور ٥٣/٢ ، ويروى (والمرء يصلحه القرين الصالح) الاصابة ٦٥٦/٣ .

٢ - أسد الغابة ٢٦١/٤ .

٣ - ديوان لبيد صفحة ٢٥٧ .

٤ - الأغاني ٣٦٩/١٥ - ٣٧٠ ط الدار ، ٩١/١٤ ط ساسي ، وطبقات الشعراء صفحة ١١٣ ، وابن سعد ٢٠/٦ ط ليدن .

ثم ارسل الى لبيد فقال : أنشدني ، فقال : ان شئت ما عفى عنه – يعني الجاهلية – فقال : لا ، أنشدني ما قلت في الاسلام ، فانطلق فكتب سورة البقرة في صحيفة ثم أتى بها وقال : أبدلني الله هذه في الاسلام مكان الشعر ، فكتب بذلك المغيرة الى عمر ، فنقص من عطاء الأغلب خمسمائة وجعلها في عطاء لبيد ، فكان عطاؤه الفين وخمسمائة ، فكتب الأغلب : يا أمير المؤمنين أتنقص عطائي أن أطعتك فرد عليه خمسمائة وأقر عطاء لبيد على الفين وخمسمائة » . والرواية جديرة بأن أقف عندها ، فهي رواية موثقة ، لا سبيل الى انكارها من ناحية ، ومن ناحية أخرى منسجمة مع منهج عمر بن الخطاب في رقابة الشعراء وحرصه على أن يتجهوا الوجهة الاسلامية ، وينبذوا ما كان لهم من عوائد الجاهلية ، ثم بصره بالشعر ورغبته في سماعه والحكم عليه .

اما جواب لبيد ، ففيه دلالة واضحة على صدق اسلامه وعمق ايمانه وانصرافه الى القرآن يقرأه ويكتبه ويتدارسه ، أما دلالة جوابه على هجره الشعر ، فنحن هنا ازاء احتمالين :

١ – اما أن يكون لبيد قد عزف عن قول الشعر في هذه الفترة ، لا لأنه لم يقل الشعر منذ أسلم كما ذهب الى ذلك الرواة ، بل لأنه شاخ وأسن وأجبل في هذا الوقت .

٢ – واما انه عرف ما أراده عمر من الاطمئنان الى ايمان الشعراء وتمسكهم بعرى الدين فأجاب الجواب الفطن الذكي المؤدب .

ولست مع الاحتمال القائل بتوقف لبيد عن قول الشعر زمن عمر ، وذلك لجملة أسباب :

أولها : ان له قصيدة قالها في الثناء على سلمان بن ربيعة الباهلي قاضي الكوفة من قبل عمر [١] وهي القصيدة الثامنة والخمسون في ديوانه [٢] .

---

١ – الاستيعاب ٣/٥٨٣ .

٢ – الديوان صفحة ٣٧٧ .



وثانيها : ان للبيد قصيدتين قالهما قبيل الوفاة (ق ٢٨ ، ٤٩) ومعنى هذا انه قالهما في زمن متأخر عن عهد عمر بن الخطاب ، لان بين وفاة لبيد وبين عهد عمر زمناً طويلاً ، وحتى اذا ذهبنا مع الفرض القائل ان لبيداً كان يستشعر دنو المنية قبل موته بفترة [1] ففي أكبر الظن انه قال القصيدتين في الوصية زمن عثمان ، ومما يعزز هذا رواية تنص صراحة على إجبال لبيد عن قول الشعر في زمن عثمان وفي ولاية الوليد بن عقبة ، وذلك حين هبت رياح الصبا ، ودعا الوليد الناس الى اعانة لبيد على مروءته ، وبعث الوليد اليه مائة بكرة وأبياتاً يمدحه فيها :

أرَى الجَزَّارَ يشحَذُ شَفرَتَيهِ إذا هَبَّتْ رِياحُ أبي عقيلِ ... الخ

نجد لبيداً عند ذلك يقول لابنته : « أجيبيه فلعمري لقد عشت برهة وما أعيا بجواب شاعر » [2] .

ونستطيع أن نتخذ من هذه الرواية ، دليلاً على توقف لبيد عن قول الشعر في هذه الفترة ، لكنه قبل ذلك قد واظب على قول الشعر طيلة خلافة عمر ، ومعنى هذا أن السبب في توقفه عن قول الشعر كبر سنه وعجزه وليس اسلامه وزهده ، لأن الاسلام لم يمنع الشعر ، ولم يحل بين الشعراء وبين فنهم ، وقد كان للبيد في حسان بن ثابت ورهطه من شعراء الانصار خير مثل في استمرار الشعراء على قول الشعر في الاسلام ، وكان له في تشجيع الرسول والخلفاء الشعراء على قول الشعر خير شاهد على تجنيد الشعر في سبيل الدعوة الاسلامية . ولم يكن

---

١ - مقدمة الديوان صفحة ٢٩ .

٢ - الأغاني ٣٧١/١٥ ط الدار ، والشعر والشعراء صفحة ١٥٠ ، وطبقات الشعراء صفحة ١١٤ .



ثمة تعارض بين زهد لبيد وانصرافه الى القرآن ، وبين قول الشعر وتسجيل عواطفه الدينية وتجاربه في هذه الحقبة .

٢

وأمام الدارس ثروة ليست هينة ولا قليلة من شعر لبيد الذي تتضح فيه الروح الاسلامية . ولكن معرفة الشعر الاسلامي وتمييزه من الشعر الجاهلي أمر غير ميسور . فهناك عقبات كثيرة تقوم دون ذلك . فليس كل شعر فيه قبس من الدين والتوحيد وحمد الله ، شعراً اسلامياً ، ذلك لأن لبيداً كان في الجاهلية على هدى ونور ، كان مؤمناً بالله مسبحاً بحمده راضياً بقضائه وقدره ، فالمعيار الديني لمعرفة شعره الاسلامي لا يكون وحده صالحاً في الحكم على شعره وزمن نظمه وكذلك ليس شرطاً أن يكون الشعر الاسلامي مطبوعاً بطابع الاسلام ، فان كثيراً من الشعر الذي نظمه الشعراء المخضرمون من معاصري لبيد ، لم يكن متأثراً بالاسلام ذلك التأثر الواضح مثل شعر الحطيئة ، والنابغة الجعدي ، وكعب بن زهير ، والعباس بن مرداس ، وغيرهم ، واذا كان في القليل من شعر هؤلاء أقباس من تعاليم الاسلام ، فان كثرة الشعر الذي نظموه في الاسلام لم يكن بينه وبين الشعر الجاهلي فرق واضح ، ذلك ان أثر الاسلام في شعر شعراء هذه الفترة لم يظهر واضحاً الا عند شعراء الانصار : حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبدالله بن رواحة الذين كانوا في حاضرة المسلمين وعلى صلة وثيقة برسول الله ﷺ وبتوجيه مباشر منه [١] ، وقد حملوا راية النضال ضد شعراء قريش من المشركين من مثل عبدالله بن الزبعري وضرار بن الخطاب وأبي سفيان بن الحارث وغيرهم [٢] .

---

١ – ينظر في هذا الاسلام والشعر صفحة ٦٣ وما بعدها .

٢ – ينظر تفصيل ذلك في شعر المخضرمين وأثر الاسلام فيه صفحة ٥٧ وما بعدها .

وعلى هذا فليس كل شعر فيه ما يدل على الايمان بالله وتوحيده اسلامياً ، وليس كل شعر خلا من نفحات الاسلام جاهلياً ، ولا بد لنا من التماس وسيلة لمعرفة القصائد الاسلامية من القصائد الجاهلية ، والمنهج الذي أرتضيه لذلك هو توثيق القصائد للتأكد من صحتها ، ثم الفحص عن كل قصيدة أو قطعة ومعرفة تاريخها والاحداث التي جاءت فيها أو اشارت اليها ، ثم أسلوبها وما فيها من دلالات اسلامية .

وقد خرجت من ذلك كله ، بأن للبيد تسع عشرة قصيدة وقطعة اسلامية غير القطع المنسوبة أو القصائد الجاهلية التي عاد اليها في الاسلام وزاد فيها أبياتاً اسلامية . وأحاول أن أنظر في القصائد الاسلامية حسب التدرج الزمني.

١ – شعره في رثاء عمه :

كل الشعر الذي جاء في رثاء عمه أبي براء عامر بن مالك هو شعر اسلامي ، وقد عرفنا فيما تقدم ، ان لبيداً أسلم قبل موت عمه ، وكان قد أوفده الى رسول الله ﷺ ليطب له من دبيلة ، فلقي لبيد رسول الله وأسلم وأقام في المدينة يقرأ القرآن ويتعلم الدين ، وقد كتب سورة الرحمن وخرج بها الى قومه [١] ، فلبيد كان أول قومه اسلاماً ، وقد تحقق فيما سبق ان اسلامه كان في السنة الثامنة ، وأعطى من غنائم حنين – مثلما أعطى علقمة بن علاثة – فعد من المؤلفة قلوبهم [٢] .

فعلى هذا كان اسلام لبيد قبل وفاة عامر بن مالك ، وكذلك قبل وفادة عامر بن الطفيل وأربد بن قيس أخي لبيد على رسول الله ثم مقتلهما بعد ذلك ،

---

١ – الأغاني ١٣٨/١٥ ط ساسي .

٢ – السيرة النبوية ١٣٤/٤ .



فتكون كل القصائد التي قيلت في رثاء هؤلاء قصائد قالها لبيد وهو مسلم. ولدينا من هذا الشعر الذي يرثي فيه عمه أبا براء أربع قصائد [1] ، أولها القصيدة الاولى في الديوان والتي مطلعها [2] :

أصبحتُ أمشي بعدَ سَلمَى بن مالكٍ   وبعد أبي قيسٍ وعُروَةَ كالأَجَبْ

يرثي فيها قومه : أعمامه وأبناء أعمامه وذوي قرباه ، ويقول الطوسي : ان أبا قيس في هذا البيت هو عامر بن الطفيل . أما عامر بن مالك فقد وصفه بذي الفضل في قوله :

وبعد أبي عَمْرٍو وذي الفضلِ عامرٍ
وبعد المُرَجَّى عُروةَ الخيرِ للكُرَبْ

وكذلك رثى عمه عامر بن مالك في القصيدة الثامنة ، والتي أولها [3] :

أعاذِلَ قومي فاعذُلي الآنَ أو ذَري
فلستُ وانْ أقصَرْتِ عنّي بمُقْصِرِ

وهي كسابقتها تعداد لمن هلك من أهله وحسرة على فراقهم ، ويذكر عمه أبا براء بالصفة السابقة (ذي الفضل) ويشيد بكرمه وسخائه اذا أجدب الناس وأجهدهم الفقر :

---

١ - اتجوز هنا في تسمية القصيدة فقد تكون ارجوزة أو قطعة .

٢ - الديوان صفحة ١ .

٣ - الديوان صفحة ٤٦ . الفورة : موضع في ديار بني عامر .



وبالفَورةِ الحَرّاب ذو الفضلِ عامرٌ
فَنِعْمَ ضيــاءُ الطارقِ المتَنَوِّرِ

ونِعْمَ مُناخُ الجار حَــلَّ ببيتهِ
إذا ما الكَعابُ أصبحتْ لم تَستَّرِ

وهناك أرجوزتان كلتاهما في رثاء أبي براء وحده ، لم يشرك معه أحداً ، الاولى : قالها اجابة لطلب عمه عند موته حيث قال له : « يا لبيد : ان حدث بعمك حدث ما كنت قائلاً فان قومك يزعمون أن عقلي قد ذهب ، والمــوت خير من عزوب العقل » ، فقال لبيد أرجوزته :

يا عامرَ بن مــالكٍ يا عَمّا ... أهلكتَ عَمّــاً وأعَشتَ عَمّا
إنْ تُمسِ فينا خَلَقاً رِمّــا ... فقد تكونُ واضِحاً خِضَمّا
مرتَدِيــاً سابِغَــةً مُعتَمّا ... مُتَّخِذاً أرضَ العــدوِّ حُمّا

ويقال : ان أبا براء بعد ذلك اتكأ على سيفه حتى قتل نفسه [١] .

والأرجوزة الثانية قالها بعد مــوت أبي براء ، يبكي عليه وينوح ، على شاكلة قوله [٢] :

---

١ – الديوان صفحة ٣٤٥ . أهلكت عما : أهلكت جماً كثيراً . الحم : القصد وكذلك المال والمتاع .

٢ – الديوان صفحة ٣٣٢ . يجوب : يقد جيب القميص . الامساح : ثياب من شعر . السلب : الثياب السود . مدره القــوم : الذي يدافع عنهم . الشياح : القتال والجد والحذر . الرداح : الضخمة الكثيرة .

قُوما تَجُوبانِ مع الأنْوَاحِ   في مأتم مُهَجَّرِ الرَّوَاحِ
يخمشنَ حرَّ أوجُهٍ صِحاحِ   في السُّلُبِ السُّودِ وفي الأمْساحِ
وأبِنَّا ملاعِبَ الرِّماحِ   أبا بَرَاءٍ مِدْرَه الشِّياحِ
يا عامراً يا عامرَ الصَّباحِ   ومِدْرَه الكتيبةِ الرَّداحِ .. الخ

وأول ما يلاحظ في هذا القسم من شعر لبيد الاسلامي ، انه يكاد يخلو من أثر الاسلام وتعاليمه ، وهذا أمر طبيعي ، لأن الشاعر حديث عهد بالدين ، وما زال بدوياً بعيداً عن حواضر المسلمين ، ولم تكن له صلات وثيقة بهم . ثم ان الرثاء متجه الى أناس تقوم أمجادهم على الفضائل والعادات الجاهلية ، وسنلاحظ ان رثاء أربد كذلك على هذا النمط الجاهلي الذي يخلو من ذكر الدين والاسلام ، الا القصائد المتأخرة التي أوغلت في الحياة الاسلامية .

٢ – شعره في رثاء أربد :

لقد قتل أربد بالصاعقة ولم يمض على اسلام لبيد غير عام واحد ، وهو بعد في البادية لم يهاجر الى الكوفة ، فكان طبيعياً أن يبكي لبيد أخاه كما يبكي الجاهليون موتاهم ، فرثاه باحدى عشرة قصيدة جاءت تسع منها على النمط الجاهلي وليس فيها للاسلام أثر ، وهي نتاج الفترة الاولى ، حيث كان حديث عهد بالاسلام وحديث عهد بمصيبته بأخيه ، أما القصيدتان الأخريان ، فقد قالهما في فترة متأخرة حيث قل حماسه وكاد ينسى أخاه ، وأوغل في الحياة الاسلامية وتفهم معنى الدين وعكف على القرآن يتعلمه ويحفظ سوره وآياته ،

فظهر لذلك أثر الاسلام في المرثيتين المتأخرتين [1] وهما أهم مراثيه ، يقـول في الأولى [2] :

بَلِينا وما تبلى النجومُ الطوالِعُ ... وتبقى الجبالُ بعدَنا والمصانِعُ

وقد كنتُ في أكتافِ جارِ مَضِنَّةٍ ... ففارَقني جارٌ بأَربَدَ نافِعُ

فـلا جَزِعٌ إنْ فَرَّقَ الدهرُ بَيْنَنـا

وكلُّ فتىً يوماً بهِ الدَّهرُ فاجِعُ ... الخ

أما الثانية فهي التي يبدأها بهذا المطلع الديني [3] :

إنَّ تقوى رَبِّنا خـيرُ نَفَلْ ... وبإذْنِ اللهِ رَيْثِي وعَجَـلْ

أحْمَـدُ اللهَ فـلا نِدَّ لَهُ ... بيديهِ الخَـيرُ مـا شاءَ فعلْ

من هداهُ سُبُلَ الخيرِ اهتدَى ... ناعِمَ البالِ ومن شاءَ أَضلْ.. الخ

وهذه القصيدة من قصائده الطوال اذ تبلغ خمسة وثمانين بيتاً ، وفيها مـا يدل على انه قالها في عهد متأخر وهو كبير السن يستثقل الحياة وطولها ، وذلك حيث يقول :

---

١ – هما القصيدة ٢٤ والقصيدة ٢٦ في الديوان .

٢ – الديوان صفحة ١٦٨ .

٣ – الديوان صفحة ١٧٤ ، ١٩٧ .

فمتى أهلِــكْ فلا أُحفِلُهُ بجلِي الآنَ من العيشِ بَجَلْ
من حياةٍ قد مَلِلْنا طــولَها وجديرٌ طولُ عيشٍ أن يُمَلْ

٣ – شعره في هجرة قومه :

ومن الشعر الاسلامي قصيدته التي قالها حين ذهب قومه مع الجند الاسلامي الفاتح في العراق والشام ، وقد قعدت بلبيد سنّه فلم يستطع أن يتجه مــع المجاهدين في سبيل الله فقال قصيدته التي أولها [١] :

إنّما يحفَظُ التُّقى الأبرارُ والى اللهِ يستقرُّ القَرارُ

يذكر قومه الذين نأوا عنه وغادروه عاجزاً مع الشيوخ والنساء والصبيان يتأمل في ديارهم ويحن اليهم ويتحسر على فراقهم فيقول [٢] :

هلكتْ عامرٌ فلم يبقَ منها برياضِ الأعرافِ الّا الدّيارُ
غــيرُ آلٍ وعَنّــةٌ وعَريشٌ ذَعْذَعتها الرياحُ والأمطارُ
وأرى آلَ عــامرٍ ودُّعــوني غيرَ قومٍ أفراسُهم أمهارُ
واقفيها بكلِّ ثغرٍ مَخُوفٍ هم عليها لَعمْرُ جَدّي نُضارُ

---

١ – الديوان صفحة ٤١ .

٢ – الديوان صفحة ٤٤ – ٤٥ . الآل : عيدان الخيمة . العنة : الحظيرة . العريش : ظلة من سعف وخشب . تجتويهم : تكرههم .

لم يُهينوا المـــولى على حَدَثِ الدَّهرِ ولا تَجْـتَويهمُ الأصهارُ

فعـــلى عامرٍ سلامٌ وحَمْـــدٌ حيث حَلُّوا من البلادِ وسارُوا

...

وينص لبيد في هذه الأبيات على هجرة قومه نحو الفتوح ، يرصدون الأعداء في الثغور المخوفة ، وفي البيت الأخير يؤكد هذا فيودعهم ويحييهم ويدعو لهم بالسلامة (حيث حلوا من البلاد وساروا) . وفي القصيدة يشير الى عمره الكبير وشيخوخته الفانية فيقول :

إنْ يكن في الحياةِ خيرٌ فقد أُنْـ ظِرْتُ لو كان ينفعُ الإنْظارُ

عشتُ دَهْراً ولا يدومُ على الأيـ ـامِ الا يَرَمْـرَمٌ وتعـارُ

٤ - ارجوزته في سلمان الباهلي :

وللبيد أرجوزة يثني فيها على سلمان بن ربيعة الباهلي ، وما وهبـه الله من نعمة البصر بالخيل ، وكان سلمان قاضياً على الكوفة في خلافة عمر بن الخطاب ، وكان يلي الخيل لعمر ويقال له سلمان الخيـل [١] ، وتتصل الأرجوزة بحادثة مفادها ان عمر بن الخطاب شك في العتاق والهجن من الخيل ، فجاء سلمان الباهلي بطست فيه ماء ، ثم قدم الخيل فرساً فرساً فما ثنى منها سنبكه فشرب جعله هجيناً ، وما شرب ولم يثن سنبكه جعله عتيقاً ، وذلك لأن في أعنـاق الهجن قصر فهي لا تنال المـاء على تلك الحال حتى تثني سنابكها ، وأعناق

---

١ - الاستيعاب ٣/٥٨٣ .

العتاق طوال . فقال لبيد أرجوزته معجباً بسلمان وما وهبه الله من معرفة واسعة وما حباه من فضل [1] :

من يَبْسُطِ اللهُ عليه إصْبَعا بالخيرِ والشَّرِّ بأيٍّ أولِعا
يملأْ له منه ذَنُوبا مُتْرَعا وقد أبادَ إرَمــا وتُبَّعا

وبعد أن ينظر في مصائر الأقوام السابقين ولقمان وأصحاب الفيل ، يذكر حال سلمان فيقول :

أنتَ جعلتَ الباهلِيَّ مِقْنَعا فينا فأمْسَى ماجِدا مُمَنَّعا
وحَقٌّ من رَفَعْتَه أنْ يُرفَعا وكان شَيْخا باهِليّاً أضْلَعا
لا يُحْسِنُ النَّعْلَ إذا تَشَسَّعا فاليومَ قد نالَ خِلالا أربعا
عِزّاً ومجداً وغِنىً ومَفْزَعا فما يَنَلْ فمـا نراهُ ضَيَّعا

٥ – شعره عند الوفاة :

ولعل آخر ما قال لبيد من شعر اسلامي هو الشعر الذي يوصي فيه ابنتيه كيف تؤديان حقه اذا حضرته الوفاة ، وليس من اللازم أن يكون هذا الشعر قد قاله عند دنو المنية ، فقد افترضنا سابقاً أن لبيداً قد عجز عن قول الشعر في عهد عثمان ، وأوصى ابنته ان تجيب الوليد بن عقبة على أبياته ، حيث قال لها :

---

١ – الديوان صفحة ٣٣٧ . الأصبع : هنا الأثر الحسن . المقنع : ذو القنع وهو الكرم والفضل الكثير . أضلع : جائر أعوج . تشسع النعل : انقطع الشسع وهو قبالها الذي يشد الى زمامها .

« أجيبيه ، فلعمري لقد عشت برهة وما أعيا بجواب شاعر »[1] وقد افترضنا أنه كان يستشعر الموت منذ زمن بعيد قبل الوفاة ، ولذلك نجد مع هذه الوصية وصية أخرى قالها لابن أخيه أبي حنيف يعلمه كيف يطعم الناس ويدعوهم الى جنازته . قال في الوصية الاولى لابنتيه[2] :

تَمَنَّى ابنتايَ أن يعيشَ أبوهُما وهل أنا إلّا من ربيعةَ أو مُضَرْ

ونائحتان تَنْدُبانِ بعاقِلٍ أخا ثِقَةٍ لا عينَ منهُ ولا أثرْ

وفي ابنَي نِزارٍ أسوةٌ إنْ جزعتُما وإن تسألاهُمْ تُخْبَرا فيهمُ الخَبَرْ

وينصح فيها ابنتيه بالصبر والجلد والا تعملا عمل الجازعات اللواتي يخمشن الوجوه ويلدمن الصدور ويحلقن الشعور على سنة الجاهليات ، فيقول :

فقوما فقولا بالذي قد عَلِمْتُما ولا تَخْمِشا وَجْها ولا تَحْلِقا شَعَرْ

وقولا هو المرءُ الذي لا خليلَهُ أضاعَ ولا خانَ الصديقَ ولا غَدَرْ

الى الحولِ ثم اسمُ السلامِ عليكما ومن يَبْكِ حولا كامِلا فقد اعتَذَرْ

أما وصيته الثانية فهي لابن أخيه ابي حنيف ، وهي قصيدة أطول من الاولى ، يذكر فيها أهله الذين مضوا ، ويبكي أباه وأعمامه ، ثم يوصي ابن أخيه

---

١ – الأغاني ٣٧١/١٥ .

٢ – الديوان صفحة ٢١٣ .

بالتزام مكارم الأخلاق وبذل المال ، واطعام ذوي الحاجة ، ويبين له كيف يواريه التراب ، فيقول[1] :

أَنبِئتُ أَنَّ أَبا حنيفٍ لامَني في اللائِمِينا

أُبنَيَّ هل أحسستَ أعمامي بَني أمِّ البنينا

وأبي الذي كان الأراملُ في الشتاء له قَطِينا

وبعد ان يذكر أهله الذين مضوا ، ويوصي ابن أخيه بالبذل والسخاء ، يقول في وصف نهايته :

واذا دفنتَ أباكَ فاجعلْ فوقَهُ خَشَبا وطِيْنا

وصفائِحاً صُمّا رواسِيَها يُسَدِّدْنَ الغضونا

ليقينَ وَجْهَ المرءِ سَفْسافَ التُرابِ ولن يقينا

وكل هذا الشعر الذي استطعنا ان نستدل عليه بتاريخه ومناسبته ، مما قاله في عهد اسلامه ، وهو شعر كثير ، تعداده ثلاثمائة وخمسون بيتاً ، وهو يقارب ثلث شعره جميعاً ، ومن غريب المصادفة أن لبيداً أمضى ثلثي عمره في الجاهلية وثلثاً في الاسلام ، وانه نظم ثلثي شعره في الجاهلية وثلثاً في الاسلام وهذا تناسب طبيعي بين عمره وانتاج شعره .

---

١ – الديوان صفحة ٣٢٢ .

٣

وفي شعر لبيد الجاهلي نظرات في الدين والآخرة وتسبيح الله وتوحيده ولا شك أن هذا الشعر الديني يختلف في طبيعته عن الشعر الديني الاسلامي المتأثر بالقرآن الكريم . غير أن الدارس لهذا الشعر دراسة فاحصة مقارنة ، يجد في بعض القصائد الجاهلية أبياتاً فيها من روح الاسلام وتعاليمه ، وفيها تأثر واضح بآيات القرآن الكريم ، وأغلب الظن أن هذه الأبيات اسلامية ، فقد عاد لبيد الى شعره الجاهلي وزاد فيه أبياتاً دينية وغير فيه وبدل ، ويبدو هذا واضحاً في قصيدته التي مطلعها [1] :

كُبَيْشَةُ حلَّتْ بعدَ عَهْدِكِ عاقِلا وكانت له خَبْلًا على النَّأي خابلا

وهي قصيدة لا سبيل الى الشك في كونها جاهلية ، جاء فيها هذه الأبيات بعد أبيات في الغزل [2] :

رأيتُ التُّقَى والحمدَ خيرَ تِجارَةٍ رَباحا اذا ما المرء أصبح ثاقِلا

وهل هو الا ما ابتنى في حياتِه إذا قذفوا فوقَ الضَّريحِ الجَنادِلا

وأثنَوْا عليهِ بالذي كان عندَهُ وعَضَّ عليه العائداتُ الأنامِلا

ثم ينتقل بعدها الى الناقة فيقول :

---

١ – الديوان صفحة ٢٣٢ .

٢ – الديوان صفحة ٢٤٦ – ٢٤٧ . طليح سفار: أتعبتها الاسفار حتى اهزلتها. المضاجع: موضع في ديار بني عامر .

فدَعْ عنكَ هذا قد مَضَى لسبيلهِ   وكَلِّفْ نَجيَّ الهَمِّ إنْ كنتَ باخِلا
طَليحَ سِفارٍ عُرِّيَتْ بعدَ بذلةٍ   ربيعا وصيفا بالمضاجِعِ كامِلا

واذا تأملنا في هذه الأبيات نجد أمرين ظاهرين :

الاول : أنها مقحمة في القصيدة غريبة عنها فقد جاءت حيث لا يقتضيها السياق .

والثاني : أن فيها من المعاني الاسلامية ممــا لم يعهد عند الجاهليين ، وان القارىء ليرى أصداء لآيات الله البينات في قوله :

رأيت التُّقَى والحمدَ خيرَ تجارةٍ   رَباحا إذا ما المرءُ أصْبَحَ ثاقِلا

فالتقى والحمد الفاظ اسلامية ، والبيت يذكر بقوله تعالى :

« يا أَيُّها الذينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكَمْ على تِجارةٍ تُنْجِيكُمْ من عَذابٍ أليم »[1] .

وقوله تعالى :

« أولئِكَ الذينَ اشْتَرَوْا الضَلالَةَ بالهُدَى فما رَبِحَتْ تِجارَتُهم وما كَانوا مُهْتَدِيْنَ »[2] .

---

١ - سورة الصف آية ١٠ .

٢ - سورة البقرة ١٦ .

والبيت الثاني :

وهل هُوَ الا ما ابتَنَى في حياتِه إذا قَذَفُوا فوقَ الضَريحِ الجَنادِلا

يعيد في الأذهان الآية الكريمة :

« وأنْ ليسَ لِلإنْسَانِ إلَّا ما سَعَى »[1] .

وقصيدة أخرى هي التاسعة والثلاثون ، ليس فيها ما يدل على تاريخها فهي تبدأ بذكر الله وحمده والايمان بقضائه وقوة ملكوته ، ثم ينظر في الزمان الذي أضعف الأقوياء وأباد العظماء ، ويتفكر في مصائر الملوك والعظماء والحكماء ، فيذكر صبحا العادي ، ولقمان ذا النسور وآل محرق وأبرهة وملوك كندة ، وهكذا يمضي يستلهم العبرة من الماضين والملوك الذاهبين وفي القصيدة روح اسلامي واضح يستغرق الأبيات الستة الأولى من القصيدة فيقول[2] :

لِلهِ نافِلَةُ الأجَلِّ الأفْضَلِ وله العُلَى وأثيثُ كلِّ مؤَثَّلِ
لا يستطيعُ الناسُ مَحْوَ كِتابِهِ أَنَّى وليس قَضاؤهُ بِمُبْدَلِ
سوَّى فأغلقَ دونَ غُرَّةِ عَرْشِهِ سَبْعاً طِباقاً فوقَ فَرْعِ المَنْقَلِ
والأرضَ تحتَهُمُ مِهادا راسِيا ثَبَتَتْ خوالِقُها بِصُمِّ الجَنْدَلِ
والماءُ والنيرانُ من آياتِهِ فيهنَّ موعِظَةٌ لمن لم يَجْهَلِ

---

١ – سورة النجم ٣٩ .

٢ – الديوان صفحة ٢٧١ – ٢٧٢ . المؤثل : الدائم . المنقل : ظهر الجبل . الخوالق : الجبال الملس .

بَلْ كلُّ سعيكَ باطلٌ إلَّا التُقَى   فإذا انقضَى شيْءٌ كأنْ لم يَفْعَلِ

وفي هذه الأبيات تتضح الأفكار الاسلامية والمعاني القرآنية ، فكل شيء يسير بأمر الله وقضائه ، وقد قدر الله تعالى على الناس أمره ولا رادّ لقضاء الله وقدره وليس من طبيعة الأشياء أن يدرك جاهلي هذه المعاني الاسلامية فلا بد أن يكون لبيد قد قرأ القرآن ووقف عند آياته البينات في قوله :

« واتْلُ ما أُوحِيَ اليكَ من كِتابِ رَبِّكَ لا مُبدِّلَ لكَلِماتِه ولن تَجِدَ من دُونِه مُلْتَحَداً »[1] .

أو قوله :

« وكلَّ شَيءٍ أحصَيْناهُ كِتابا »[2] .

لقد قرأ لبيد هذه الأبيات وغيرها واستطاع بعد ذلك ان يصوغ هذه المعاني الدينية على هدي من مفاهيم الدين ومعانيه والفاظه ، والذي أرجحه أن القصيدة ان لم تكن اسلامية ، فانه قد عاد اليها وبدل فيها وأضاف اليها هذه الأقباس الاسلامية والمعاني الدينية التي تعلمها في عهد اسلامه .

وعودة لبيد الى شعره الجاهلي في الاسلام يجيل النظر فيه ويبدل في أبياته ويغير في معانيه ويهذب أو يشذب ، أمر غير بعيد ، وقد أحس بذلك بعض القدماء فقد قال صاحب الاصابة في توجيه الرأي القائل بهجر لبيد الشعر في

---

١ – سورة الكهف ٢٧ .

٢ – سورة النبأ ٢٩ .

الاسلام : «نعم ويحتمل ان يكون زاد هذا البيت بخصوصه بعد أن أسلم، ويكون مراد من قال انه لم ينظم شعراً منذ أسلم، يريد شعراً كاملاً لا تكميلاً لقصيدة سبق نظمه لها»[1]. ويهمنا هنا العبارة الأخيرة من هذا النص، ولا عبرة بما تقدم.

ولكن مع كل ذلك علينا أن نحذر المبالغة في تقدير ما أضافه لبيد من شعر اسلامي الى قصائده الجاهلية، اذ أن في الشعر الجاهلي كثيراً من المعاني الدينية التي توافق الاسلام، من حيث الايمان بالله وتوحيده وحمده والاقرار بالبعث والحساب على نحو ما هو معروف في قصيدته التي رثى فيها النعمان بن المنذر وقد جاء في أولها[2]:

أَلَا تسألانِ المَرْءَ ماذا يُحاوِلُ ... أَنَحْبٌ فيُقْضَى أم ضَلَالٌ وباطِلُ

. . .

أرى النَّاسَ لا يدرونَ ما قَدْرُ أمرِهم ... بَلَى كُلُّ ذِي لُبٍّ الى اللهِ واسِلُ

ألا كُلُّ شيءٍ ما خَلا اللهَ باطِلُ ... وكلُّ نعيمٍ لا مَحالَةَ زائِلُ

وكلُّ أُناسٍ سوفَ تدخلُ بينهم ... دُوَيْهِيَةٌ تصفَرُّ منها الأنامِلُ

وكلُّ أمرىءٍ يوماً سَيَعْلَمُ سَعْيَهُ ... إذا كُشِّفَتْ عندَ الإلهِ المحاصِلُ

فان البيت الأخير يوافق قوله تعالى :

---

١ – الاصابة ٣٠٨/٣ .

٢ – الديوان صفحة ٢٥٤ – ٢٥٧ .

«أفلا يَعْلَمُ إذا بُعثِرَ ما في القُبورِ وحُصِّلَ ما في الصُدورِ
إنَّ ربَّهم بِهِمْ يومَئِذٍ لَخبيرُ»[1] .

فالمعاني الدينية الشائعة في هذه الأبيات توافق ما جاء به الاسلام، وهذا أمر ليس بغريب فقد كان بعض الجاهليين على يقين وايمان بالله وحده، وبالبعث والحساب لأنهم كانوا على بقية من دين ابراهيم، وان الفترة التي سبقت الاسلام كانت فترة ارهاص وتطلع لدين جديد تتوقعه النفوس وتهفو اليه الأفئدة، دون أن تدرك تلك النفوس والأفئدة متى يحدث وكيف يكون. وكانت هذه القصيدة مما نظمه لبيد قبيل الاسلام وهو متأثر بهذه الروح المتطلعة الى الهداية. وقد مر بنا تحقيق كون هذه القصيدة جاهلية، لأن لبيداً كان قد أنشدها في مجلس قريش وتتصل بها قصة عثمان بن مظعون[2] وكذلك ارتبطت هذه القصيدة بحديث رسول الله ﷺ :

«أصدَقُ كلمةٍ قالَها الشاعِرُ كلمةُ لبيدٍ : ألا كلُّ شَيءٍ ما خلَا اللهَ باطِلُ»[3] .

وأعود ثانية الى التأكيد على ان معرفة الشعر الديني الذي قاله لبيد في الجاهلية من الشعر الديني الذي قاله في الاسلام، أمر غير ميسور، ما لم تتوفر الأدلة الكافية للحكم على القصيدة وزمنها .

---

١ – العاديات آيه ٩ – ١١ .

٢ – الأغاني ٩٦/١٤ والسيرة ٣٧٠/١ .

٣ – صحيح مسلم ١٧٦٨/٤ .

٤

وعلى الباحث هنا ان يحذر من الشعر المنسوب للبيد والمحمول عليه، ويتراءى هذا الشعر اسلامياً للناظر فيه، لأن فيه دلالة زمنية ودلالة دينية. ولكن هذا الشعر لا يصح – بالتمحيص والتحقيق – للبيد، ولدينا من هذا الشعر قطعة في ديوانه منسوبة اليه، يزعم من رواها انه قالها يخاطب رسول الله ﷺ حين وفد لبيد عليه مع جماعة من قومه، وفي هذا الشعر يتضرع الى الرسول أن يعطيهم من فضله ويدعو لهم بالسقيا في سنة مجدبة ممحلة، فيقول [1] :

أتيناكَ يا خَيْرَ البريّـةِ كُلِّها ... لِترْحمنا ممـا لَقينا من الأَزْلِ
أتيناكَ والعذراءُ يَدْمَى لبانُها ... وقد ذَهِلَتْ أمُّ الصبيِّ عن الطفلِ
وألقى تَكَنِّيهِ الشجاعُ استكانَةً ... من الجوعِ صُمْتاً لا يُمِرُّ ولا يُحْلي
ولا شيءَ مما يأكلُ الناسُ عندنا ... سِوى العِلْهِزِ العاميِّ والعَبْهَرِ الفَسْلِ
وليس لنا إلا إليكَ فرارُنا ... وأين يفرُّ الناسُ إلا الى الرُّسْلِ

وقد مرت الاشارة الى هذه القطعة عند الكلام عن اسلام لبيد ورجحت انها لا تصح نسبتها للبيد، فهي مما لم يرو السكري، وليست في النسخ الاخرى غير النسخة التي اعتمد عليها احسان عباس وهذه القطعة من رواية الرياشي والكتب التي ذكرت أبياتاً منها – على قلتها – تضطرب في نسبتها، فتنسبها لأعرابي تارة [2] وتغفل نسبتها تارة أخرى [3] . وقد سجلت كتب السيرة والتاريخ

---

١ – الديوان ص ٢٧٧ . الازل : ضيق العيش . تكنيه : عدته ولأمته . العلهز : طعام يؤكل في المجاعات . العبهر : اسم للنرجس او الياسمين . فسلا : لأنه ليس مما يؤكل . العامي : الحولي .

٢ – البارع ص ٣١ .

٣ – اللسان (ابن) والبحر المحيط ٧١/٢ .

الشعر الذي مدح به رسول الله ﷺ ، واحتفلت به وذكرت تفصيلاً لحوادثه كما هو معروف عن قصيدة كعب بن زهير ، وقصائد الوفود سنة تسع [1] ولم تتطرق الى ذكر هذه الحادثة ولا هذا الشعر ، ولا أعلم في أخبار لبيد شيئاً عن هــذه الوفادة أو الجماعة ، ولذلك لا أعد هذا الشعر من شعر لبيد الاسلامي .

وهناك أبيات مفردة لم تنتظمها قصائد ولا مقطعات ساقها الرواة على انه قالها في عمره حين بلغ سبعاً وسبعين ، وحــين بلغ التسعين ، وحين بلغ مائة وعشراً، ولا شك أن عمر لبيد هذا بعد السابعة والسبعين، مما قضاه في الاسلام، والرواية تقول : ان لبيداً قال حين بلغ سبعاً وسبعين سنة [2] :

باتت تشَكّى إليَّ الموتَ مجهشَةً ... وقد حملتُكِ سبعاً بعد سَبْعينا
فإنْ تزادي ثلاثاً تبلُغي أملاً ... وفي الثــلاثِ وَفاءٌ للثمانِينا

فلما بلغ التسعين قال [3] :

كأني وقد جاوزتُ تسعينَ حِجّةً ... خَلَعْتُ بها عن منكبيَّ رِدائيا

وهذا البيت من قصيدة لزهير بن أبي سلمى في ديوانه [4]. فلما بلغ مائة وعشراً قال [5] :

---

١ – انظر في ذلك ، السيرة ٢/٥٠٣ ، ٥١٣ ، ٥١٤ ، ٥٦٣ ، ٥٦٥ ، ٥٨٢ ، ٥٩٢ وما بعدها وكذلك الكامل ٢/١٠٣ وما بعدها ، ١١٠ وما بعدها. وامتاع الاسماع ١/٤٣٤ – ٤٣٨ . وانظر تفصيل ذلك في شعر المخضرمين ص ٢٩٤ – ٣٠١ .
٢ – الديوان ص ٣٥٢ والأغاني ١٤/٩١ والعقد الفريد ٢/٧٧ .
٣ – الأغاني ١٤/٩١ والعقد ٢/٧٧ .
٤ – ديوان زهير شرح الاعلم ص ٨٧ .
٥ – الديوان ص ٣٥٠ والمعمرين ص ٦١ – ٦٢ والأغاني ١٤/٩١ والعقد ٢/٧٧ .

أليس في مائةٍ قد عاشَها رجلٌ وفي تكاملِ عَشْرٍ بعدَها عُمر

ولا شك أن هذا الشعر محمول على لبيد ، وهو ظاهر الصنعة ، ركيك النظم ، سقيم العبارة ، وقد أشار ابن سلام لذلك حين قال تعقيباً على هذه الأبيات :

« ولا اختلاف في ان هذا مصنوع تكثر به الأحاديث ويستعان به على السهر عند الملوك والملوك لا تستقصي » [1] .

واذا كانت صورة الشعر الاسلامي عند لبيد قد اتضحت وتحددت معالمها ، وأصبحت مبرأة من الفاسد المصنوع ، نستطيع بعد ذلك أن نتبين الملامح الروحية والسمات الاسلامية في هذا الشعر .

٥

لقد اتجه لبيد – منذ أسلم – بروحه وقلبه الى الله ، وبدأ يتفهم الدين الاسلامي ، وانصرف الى القرآن يحفظه ويقرأه ، وقد ظهرت آثار هذا التدين والفهم العميق للدين في زهده وتنسكه ، كما ظهرت في شعره الذي نظمه في الاسلام تسبيحاً لله ، وتمجيداً لذكره ، وحمداً لنعمته . وكان من أثر الاسلام في شعر لبيد أن تميز بالسلاسة والرقة وصارت هذه سمة له وصفة من صفاته . هذا من حيث الشكل ، أما من حيث المعنى فقد ظهرت المعاني الاسلامية في مظاهر ثلاثة :

أولها في استعماله المفردات الاسلامية التي كثر ذكرها في القرآن الكريم من مثل التقى والبر والأبرار والرحمة والبراءة والهداية والجزاء والسعي وحمد الله

---

١ – طبقات الشعراء ص ٥٠ . وقد قيل ان الشعبي كان ينشد عبد الملك هذه الابيات حين أحس بالموت فخفف عنه ، الأغاني ١٥/٣٧٥ والمعمرين ص ٦٨ – ٦٩ .

والنوافل ، وغيرها من ألفاظ الاسلام وكلماته التي صارت لها مدلولات دينية تختلف عن مدلولها الجاهلي ، من حيث ما تحمله من ايحاء اسلامي لم يكن معروفاً في الجاهلية .

وثانيها التزام شعره الديني بآداب الاسلام وأخلاقه وبره وصلاحه ودعوته الى المعروف والنهي عن المنكر ونبذ عادات الجاهلية ، وقد تجلى ذلك في شعره الذي قاله في الوصيتين لابنتيه ولابن أخيه ، ففيهما تتبين آداب الاسلام واضحة صادقة . أضف الى ذلك اختفاء الفخر والهجاء في شعره الاسلامي ، وتلك استجابة طبيعية لتعاليم الدين .

والمظهر الثالث من تأثر شعر لبيد بالاسلام هو محاكاته لآيات من القرآن الكريم ونظم معانيها واستلهام الأفكار القرآنية وصياغتها في شعره على نحو ما هو واضح في هذه الأبيات التي يتحدث فيها عن الأبرار والتقوى والعمل الصالح ويوم الحساب وكتابة الأعمال والجنة ونعيم المتقين في الآخرة [1] :

انما يحفظ التُّقى الأَبرارُ ... والى الله يستقرُّ القَرارُ

والى الله تُرْجَعونَ وعند ... اللهِ وِرْدُ الأمور والإِصدارُ

كلَّ شيءٍ أحصى كتاباً وعلماً ... ولديه تجلَّتِ الأَسرارُ

يوم أرزاقُ من يفضّلُ عُمٌّ ... مُوسَقاتٌ وحُفَّلٌ أبكارُ

---

١ — الديوان ص ٤١ — ٤٣ . عم : نخل طوال . موسقات : ذات أوساق أي أحمال . حفل : كثيرات الحمل . أناض : أثمر وبلغ . العيدان : النخل الطوال . الجبار : القصار . ضروعها في ذراها : اي حمل النخل . المدارس : الذي قارف الذنوب من الدرس وهو الجرب . حسان : حسنات .

فاخِراتٌ ضُروعُها في ذُراها وأناضَ العيدانُ والجبَّارُ
يوم لا يُدْخِلُ المُدارِسَ في الرحمةِ إلَّا بَراءةٌ واعتذارُ
وحِسانٌ أعدَّهُـنَّ لأشْها دِ وغفْرُ الذي هو الغَفَّارُ
ومَقامٍ أكرِمْ به من مَقامٍ وَهَـوادٍ وسُنَّةٌ ومُشارُ

وهكذا يمضي في هذا الشعر يستوحي القرآن الكريم ، في ذكر الصالحين والأبرار والمرجع الى الله والحساب وكتابة الأعمال والاشهاد والمغفرة والجنة والمقام الكريم ويستطيع الحافظ لكتاب الله أن يقف عند الآيات الكريمة التي نقل منها لبيد معانيه من مثل قوله تعالى :

« ولِلّهِ غيبُ السَّمٰواتِ والأرضِ وإليهِ يَرْجِعُ الْأَمْرُ كلُّه »[1].

وقوله :

« وكُلَّ شَيْءٍ أحصَيْنَاهُ كِتَابًا »[2] .

أو قوله :

« وأحاطَ بما لَدَيْهِم وأحصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا »[3] .

---

١ - سورة هود آية ١٢٣ .

٢ - النبأ ٢٩ .

٣ - الجن ٢٨ .

وقوله :

« وَيَزِيدَهُم من فَضْلِه واللهُ يُرْزِقُ من يشاء بغيرِ حِسَاب »[1] .

وقوله :

« فأمّا الذينَ آمنوا باللهِ واعتَصمُوا به فسَيُدْخِلُهُم في رحمَةٍ منهُ »[2] .

وهكذا تجد في كل بيت صدى لآية كريمة أو أكثر من آية . ويؤكد لبيد في ثنايا شعره على العمل الصالح والبر والتقى وايمانه بالله الذي اليه يرجع كل شيء فيقول من قصيدة أخرى[3] :

وما البِرُّ إلا مُضْمَرَاتٌ من التُّقَى ... وما المالُ إلا مُعْمَراتٌ ودائِعُ

وما المالُ والأهلونَ إلا وديعةٌ ... ولا بدَّ يوماً أن تُرَدَّ الودائِعُ

ويقر بأن الله سبحانه أحاط بكل شيء علماً ، ولا يعلم الغيب الا هو فهو ينكر على من يزعم علم الغيب فيقول[4] :

لَعَمْرُكَ ما تدري الضَّوارِبُ بالحَصَى

ولا زاجِراتُ الطيرِ ما اللهُ صانعُ

---

١ – النور ٣٨ .

٢ – النساء ١٧٥ .

٣ – الديوان ص ١٧٠ .

٤ – الديوان ص ١٧٢ .

سَلوهُنَّ إنْ كذَّبتمُوني متى الفتى
يذوق المنايا أو متى الغيثُ واقِعُ

وتتضح المعاني القرآنية أيضاً في هذه القصيدة التي يفتتحها بالحمد والهداية والتوكل على الله فيقول [1] :

إنَّ تقوى رَبِّنا خَيْرُ نَفَلْ وبإذنِ اللهِ ريشي وعَجَلْ

وقد أفاد في صدر البيت من قوله تعالى :

« وتزوَّدُوا فإنَّ خيرَ الزَّادِ التَّقْوَى » [2] .

ويقول :

أَحْمَــدُ اللهَ فلا نِدَّ لَهُ بيديه الخَيْرُ ما شاءَ فَعَلْ

فهو يوحد الله الذي لا إله الا هو ولا شريك له ، ولعله فطن الى قول الله تعالى :

« فلا تَجْعَلُوا لِلهِ أنداداً وأنتم تَعْلَمُونَ » [3] .

---

١ - الديوان ص ١٧٤ .

٢ - سورة البقرة ١٩٧ .

٣ - سورة البقرة ٢٢ .

ويقول :

مَن هَدَاهُ سُبُلَ الخيرِ اهتدَى   ناعِمَ البالِ ومن شاءَ أَضَلْ

وهذا من قوله تعالى :

« فإنَّ اللهَ يُضِلُّ من يشاءُ ويهدِي من يَشاءُ »[1] .

ويقول بعد ذلك في شحذ العزيمة وبعد الهمة وكسر شهوات النفس ونوازعها[2] :

واكذبِ النفسَ إذا حدَّثتها   إنَّ صِدقَ النفس يُزْري بالأَمَلْ

ويحترس لبيد من أن كذب النفس في الحد من مطامعها وأمانيها، لا ينصرف الى أن يكذب النفس في ايمانها وتقاها ، فيقول :

غير أنْ لا تكذِبَنْها في التُّقى   واخْزُها بالبِرِّ لِلهِ الأَجَلْ

ولم تقتصر افادة لبيد من القرآن الكريم على صياغة المعاني الدينية ومعاني الآيات القرآنية في شعره ، بل أفاد من أسلوب القرآن وبلاغته ، فقد نظر في قوله تعالى :

---

١ – فاطر ٨ .

٢ – الديوان ص ١٨٠ .

« قالَ رَبِّ إنِّي وَهَنَ العَظْمُ مِني واشتعَلَ الرأسُ شَيْبا »[1] .

فصاغ هذا المجاز في قوله[2] :

إنْ تَرَى رأسِيَ أمسى واضِحا   سُلِّطَ الشيبُ عليه فأشْتَعَلْ

ومن مظاهر الاسلام في شعر لبيد هذا الايمان المطلق بالقدر والتسليم لقضاء الله ، وعنده أن ما يصيب الانسان قدر مكتوب عليه ، ولا راد لأمر الله ، وعلى المرء ان يحمد الله على خيره ويشكره على نعمته ، وقد سجل هذا الايمان في أكثر من قصيدة ، في مثل قوله[3] :

لِلّه نافلةُ الاجلِّ الأفْضَلِ   ولَهُ العُلَى وأثيثُ كُلِّ موَّثَلِ
لا يستطيعُ الناسُ مَحْوَ كِتابِه   أنَّى وليسَ قضاؤهُ بمُبَدَّلِ

ثم يقول :

بل كلُّ سعيِكَ باطلٌ الا التُّقَى   فإذا انقضَى شَيْءٌ كأنْ لم يُفْعَلِ

وعلى هذه الشاكلة من الايمان بما قدر الله .

« وكانَ أمرُ اللهِ قَدَرا مقدُوْرَا »[4] .

---

١ – سورة مريم ٤ .
٢ – الديوان ص ١٧٧ .
٣ – الديوان ص ٢٧١ .
٤ – الاحزاب ٣٨ .

ارجوزته التي يقول فيها[1] :

من يبسطِ اللهُ عليه إصْبَعا   بالخير والشرّ بأيٍّ أوْلِعا
يملأ له منه ذَنُوبا مُتْرَعا   وقد أبادَ أرمـــا وتُبَّعا

ويتجاوز تأثر لبيد بآيات الله ومحاولة ترجمتها في شعره ، الى التمسك بتعاليم الاسلام وآدابه والتخلق باخلاقه ، ودعوة الناس الى اتباع كل ذلك ، فهو حين تدنو منيته يجد أن خير ما يوصي به ابن أخيه أن يتمسك بآداب الاسلام من الانفاق في سبيل الله واعانة الضعفاء واطعام المساكين والاحسان الى النساء المعوزات ، وان يكون حيالهن براً عفيفاً محسناً ، باذلاً لهن الطعام متصدقاً في سبيل الله . وذلك في قوله[2] :

وافعلْ بمالكَ ما بَدا لكَ إنْ مُعانا أو مُعِينا
واعْففْ عن الجاراتِ وامنحهُنَّ مَيْسِرَكَ السمينا
وابذُلْ سنامَ القِدْرِ ان سِواءها دُهْما وجُونا

ولا تقف عند كلمة (الميسر) فلا يريد بها الا الجزور التي تنحر لاطعام الناس وانما ذكرها بهذا اللفظ اتباعاً لاسلوب الصناعة القديم ، فقصده هنا الذبيحة ليس غير . ولعل من آداب الاسلام في نفس لبيد أنه كان يوصي ابنتيه عند الموت ان تتجنبا عادات الجاهلية من الجزع على الميت فينهاهما عن النواح

---

١ – الديوان ص ٣٢٧ .

٢ – الديوان ص ٣٢٤ .



وخمش الوجوه وحلق الشعر الذي نهى عنـــه الاسلام ، ويدعوهما الى تأبينه بذكر الفضائل التي يحبها الاسلام من الوفاء والأمانة والبر والصلاح فيقول [١] :

فقوما فقولا بالذي قد عَلِمْتُما ولا تَخْمُشا وَجْها ولا تَحْلِقا شَعَرْ

وقولا هو المرءُ الذي لا خَلِيْلَهُ أضاعَ ولا خانَ الصديقَ ولا غَدَرْ

وفي أكبر الظن أن لبيداً قد عرف رأي الاسلام في النياحـــة على الميت والجزع عليه ، وقد وعى حديث رسول الله ﷺ :

« المَيِّتُ يُعَذَّبُ في قبرِهِ بما نِيْحَ عليهِ » [٢] .

٦

واذا نظرنا بعد ذلك في شعره الاسلامي جملة لنتبين السمات العامة فيه نجد جملة أمور :

منها أن هذا الشعر عذب رقيق سلس ، والفرق بعيد بين جزالة شعره الجاهلي وغلظ الفاظه وغريب عبارته ، وبين هذا الشعر اللين السهل ، ولا شك أن مرجع ذلك الى أثر القرآن الكريم وأسلوبه العذب المشرق المبرأ من الوعورة والتعقيد ، ثم ان طبيعة الموضوعات الدينيـــة تضفي على الاسلوب اشراقاً وصفاء .

وقد ظهر أثر الاسلام في شعر لبيد واضحاً جلياً ، لا نكاد نجـــده بهذه

---

٢ – الديوان ص ٢١٣ .

٣ – صحيح مسلم ٤١/٣ .



الصورة عند غيره من شعراء البادية المعاصرين ، فاذا كان أثر الاسلام في شعر الآخرين لمحات خافتة ، واشارات ضئيلة ، فعند لبيد شعر اسلامي واضح جلي ، ولعل مرد هذا الى ان لبيداً كان في الجاهلية مؤمناً بالله مسبحاً بحمده متطلعاً الى الهداية ، فلما ظهر الاسلام كان لبيد من المسلمين الصالحين الزاهدين العاكفين على القرآن الحافظين لآياته ، فحين كان يقول الشعر في الاسلام فانه كان ينظمه على هدى القرآن يستلهم معانيه ويصوغها شعراً ، فظهرت هذه المعاني حمداً لله وتسبيحاً له ، واقراراً بالبعث والحساب ، وايماناً بقضائه ، واطمئناناً الى قدره. وقد تجلت المعاني الاسلامية في شعر لبيد في صور ثلاث :

١ — في اقتباسه من آيات القرآن وصياغة معانيها .

٢ — وفي كثرة ما يردد من الألفاظ الاسلامية التي أصبح لها معنى ديني وجو روحي لم يكن لها في الجاهلية كالرحمة التي تعني الجنة مثلاً .

٣ — وفي اتباع تعاليم الاسلام والتأدب بآدابه .

ويكثر في هذا الشعر الاسلامي الحديث عن الموت والآخرة والحساب وكتابة الأعمال والشهود ، واستخلاص العبرة من الأقوام البائدة والملوك الهالكين والعظماء والحكماء السابقين ، وذلك لأن هذا الشعر الكثير منه متصل بالرثاء ، رثاء أخيه أربد أو عمه عامر بن مالك أو قومه الآخرين .

وآخر ما يلاحظ في هذا الشعر انه خلا من ذكر الخلافات التي قامت بين المسلمين ، في عهد عثمان وعلي رضي الله عنهما ، ولم يتأثر بالفتن والحروب ، وذلك أمر طبيعي لأن لبيداً كان من الزهاد الناسكين وأكثر الزهاد اعتزلوا تلك الخلافات المذهبية والسياسية ، ورأوا فيها فتنة ومحنة أصابت المسلمين القاعد فيها خير من الساعي ، ثم ان لبيداً كان شيخاً كبيراً لم تؤهله سنه الخوض في

معمعان الحروب ، هذا إضافة إلى أن نفسه الهادئة المسالمة كانت ترغب إليه ال الاعتزال والانزواء

ولعل في كل ما تقدم دليلاً صادقاً ورداً شافياً على الزعم الباطل الذي توهمه القدماء وتابعهم فيه كثير من المحدثين من ان لبيداً هجر الشعر منذ أسلم ، ولم يقل في الاسلام غير بيت او بيتين ، ولعل في هذا أيضاً عبرة لنا وللدارسين فلا يؤخذ كل ما شاع من قضايا الأدب وبديهاته ، على انه صحيح لا شك فيه ، وليس كل قضية التقى عندها الأدباء حجة يجب التسليم لها والاقرار بها ما لم يقم دون ذلك بصر نافذ وتحقيق دقيق وتمحيص صادق، فلا يركن في هذا الى الشائع المشهور ، كما لا يركض خلف الدعوات الخادعة الباطلة .

الفصل الرابع

خصائص شعره

لقد مرت في فنون شعر لبيد لمحات عن خصائص كل فن ، ثم تذييل لكل موضوع بأبرز خصائصه ، وأحاول هنا أن أتحدث عن خصائص شعره عامة من حيث المعاني والألفاظ والأخيلة وطريقة التعبير ، ومن حيث الأوزان والقوافي وبناء القصيدة .

ولا شك ان كثيراً من الخصائص قد يشترك فيها شعراء الجاهلية عامة . بل قد يشترك فيها شعراء العصور التي تلت العصر الجاهلي فأخذت عنه وتأثرت به . وغير خاف أن دراسة شاعر جاهلي كبير مثل لبيد وتبين خصائصه الفنية أمر شاق غير ميسور ، لأن شعر معاصريه لم يدرس بعد دراسة فنية ناضجة بحيث يستطيع الدارس أن يستأنس بالخبرات السابقة والدراسات الرائدة وان يعقد مقارنة بين الشاعر وأقرانه في هذا الفن أو ذاك . ولذلك فهذه الخصائص التي استجليها من شعره قد يتميز بها لبيد وحده، وقد تصدق على شعراء آخرين ممن عاصروه وعاشوا في مثل بيئته وثقافته .

١

الوضـــوح :

ولعل أول ما يلاحظ في شعر لبيد وضوحه وبعده عن الغلو والمبـــالغة ، فمعانيه واضحة لا تعقيد فيها ، تلائم الفطرة وتنسجم وطبيعة مجتمعه البدوي ،

وتستبعد الغموض والتفلسف ، ولا شك ان البساطة والوضوح أثران من آثار البيئة وصفاء الذهن واعتدال المزاج ، ودليل على عقلية هادئة مستقرة لا اضطراب فيها ولا قلق . ولا يراد هنا بالبساطة السذاجة والبدائية ، ففن لبيد من حيث معانيه وأخيلته ولغته يدل على رقي عقلي ، وعناية فنية ومهارة في صناعة الشعر وصياغة معانيه وصوره . والبساطة لا تناقض اجالة النظر وصقل الفكرة وشحذ الذهن وغير ذلك من الوسائل التي يجود بها الشعر . وليس الفن كله معقداً مركباً بل منه البسيط الواضح الذي يلائم الفطرة والطبيعة الصحراوية ، ومنه المركب المعقد المغرق في الخيال الذي هو نتاج الحضارة والمدنية .

وبيئة الشاعر مكشوفة مضيئة ، فضاؤها رحب يمتد فيه البصر ، والشمس ساطعة وحياة الشاعر سهلة بسيطة ، سواء في ذلك عمله وطعامه ولباسه وسكنه فلم تكن لذلك تراود خياله ألغاز معمية أو هواجس خفية ، فكان من الطبيعي أن يستمد صوره وأخيلته من الواقع الواضح لأنه لا يتخيل من وراء حجاب . فجاءت معانيه واضحة بسيطة لأنها عالجت حياة بسيطة واضحة ، بعيدة عن الحضارة وما يتبع الحضارة من أدب يميل الى الاغراب والمبالغة .

ومن مظاهر هذه البساطة في شعره ، الصدق في التعبير وفي نقل الصور المشاهدة نقلاً يكاد يكون أميناً ، وبخاصة حين يحدد المواضع ويعين الأماكن ، وحين يفخر أو يرثي ، فلا يبالغ في الخيال ولا يسرف في التصور ، وذلك لأنه يتحدث عن أحوال رآها وسمعها وتجارب عاش فيها وذكريات أحس بها .

ويتمثل الصدق في انفعالاته ومشاعره وعواطفه ، كما يتمثل في الحوادث والوقائع والذكريات ، وكذلك في المشاهد والأخيلة ، وحتى في العبارة والأسلوب ، من ذلك ما نلاحظ أن العبارة تأتي طبيعية بريئة من الكلفة خالية من الزخرف والصنعة وان معانيه ترسل ارسالاً وتنساق على السجية ، واذا ظهر



في شعره ما يشعر بالصنعة والأناقة فان ذلك من صفاء القريحة ، وحدة الذكاء ، وقوة الشاعرية ، وسيطرته الكاملة على اللغة ، وإلمامه بها إلماماً تاماً ، ومعرفته لخصائصها التعبيرية والموسيقية ويتمثل الصدق في التعبير عن عواطفه وأحاسيسه بصراحة ووضوح ، وكذلك في الصور المنتزعة مَن البيئة التي شهدها وألفها ، فهو حين يقول [1] :

أصبحتُ أمشي بعدَ سلمى بنِ مالكِ

وبعد أبي قيسٍ وعُروةَ كالأجَبْ

يَضِجُّ اذا ظِـــلُّ الغُرابِ دنا لهُ

حِذاراً على باقي السَّناسِنِ والعَصَبْ

يعبر عن عاطفة صادقة في رثاء أعمامه وأبناء أعمامه الذين يحبهم وقد تركوا في نفسه احساساً بالألم والوحدة ، ويعبر بصدق عن مشهد رآه وتأثر به ، مشهد الجمل الذي قطع سنامه أيام القحط والجدب — فهو يرتعد خوفاً وألماً اذا أحس غراباً دنا له أو توهم دنوه لما يفعله الغراب من النقر ببقايا سنامه وأعصابه وفقار ظهره ، فهذه صورة مؤثرة ، لأنها صادقة انتزعها من الواقع المشاهد ، وقـــد استطاع أن يجمع بين الصدق الفني والصدق الواقعي على السواء .

---

١ — الديوان ص ١ . سلمى بن مالك : عم لبيد . ابو قيس : عامر بن الطفيل . عروة : عروة الرحال بن عتبة بن مالك . الأجب : المقطوع السنام . السناسن : رؤوس فقار الظهر .

٢

الطابع البدوي :

وشعر لبيد مرآة انعكست فيها كل مظاهر الحياة البدوية ، فقد مثل البيئة خير تمثيل ، تناول كل جانب من جوانب البادية فتحدث عنه بتفصيل ، صور ما فيها من جبال ووهاد ، وطرق ممتدة ، ومرابع خضر ، ونبات زاه ، ووصف الآثار والدمن ، كما وصف السحب والأمطار والسيول ، رسم مشاهد كثيرة لحيوانها ، وقص لكل حيوان قصة وصور حال هذه الحيوانات في طردها وفي قتالها في أمنها وفي خوفها ، صورها قطعاناً مجتمعة ، وأفراداً عازبة ، واستعار منها تشبيهاته وصوره ، تحدث عن المنازل والديار ، كما تحدث عن ارتحال أهلها ووصف قوافلهم وهوادج نسائهم ، وتابعها في سيرها فرسم لها مخططاً لرحلتها مبيناً المواضع التي تنزل فيها والأماكن التي تمر بها ، ولم ينس أن يصف ما خلف الظاعنون من الحجارة والنؤى والأثافي والأواري والثام . ولم يغادر جانباً من جوانب الحياة البدوية الا تحدث عنه وسجله في شعره ، فلذلك نجد فيه صورة صادقة لذلك العصر في حياته المعيشية وفي حروبه وفي سلمه ، في مثله العليا وعاداته وطبيعة أهله . وصف خير العصر وما فيه من نعمة وبركة ، كما وصف بؤسه وشقاءه وما ينزل به من جدب وقحط . صور حر الهاجرة ولفح السموم كما صور ريح الشمال وجمد الشتاء الذي يخرس الناس ويكفتهم في بيوتهم . واقرأ أي قطعة أو قصيدة من شعره ، فانك واجد فيها ريح البادية وطعم الصحراء ، فكل صوره ومعانيه منتزعة من بيئته ، مصورة لها أصدق تصوير ، لا يشذ عن ذلك الا في القليل النادر ، وهذا القليل كان من اتصال لبيد باسباب الحضارة ، من وفاداته على النعمان وحضوره مجالس قريش أو مجالس الملوك في اليمن ، كقوله يصف غلمان النعمان [1] :

---

١ – الديوان ص ١٩٦ . الهبانيق : الوصفاء، واحدهم هبنيق . محجوم : ابريق عليه فدام. همل : فاض . الروايا : الابل يحمل عليها الماء . الطبيع : النهر .

والهَبـــانيقُ قِيامٌ معهم كلُّ محجومٍ اذا صُبَّ هَمَلْ

تَحْسُرُ الديباجَ عن أذرُعِهِم عندَ ذي تاجٍ اذا قالَ فَعَلْ

فتَـــوَلّوْا فاتِراً مَشْيُهُم كَرَوايا الطِّبْعِ هَمَّتْ بالوَحَلْ

ولا شك ان هذا الأثر البدوي الواضح الذي ترك وسمــــه على شعره ، له جرائره على الشعر الجاهلي عامة ومنه شعر لبيد، من ذلك أنه حدد أفق الشعراء في اطار البيئة الذي لا يتجدد ، فضعف لذلك خيالهم وتشابهت صورهم ، وظهر من جراء ذلك التكرار في الصور والمعاني ، سواء في ذلك المعاني المتكررة عند الشعراء ، أم عند الشاعر الواحد ، ترى ذلك واضحاً في صور الاطلال وتشبيهها بالخط الدارس ، فقـــد جاءت هذه الصورة عند كثير من شعراء الجاهلية ، فامرؤ القيس يقول [1] :

لِمَنْ طَلَـــلٌ أبصَرْتُهُ فَشَجاني كَخَطِّ زَبُورٍ في عَسِيبِ يَماني

وتناول حاتم الطائي هذه الصورة فقال :

أتعرفُ أطلالاً ونُؤْياً مُهَدَّما كخَطِّكَ في رِقٍّ كِتاباً مُنَمْنَما

وأخذها الهذلي فقال :

عرفت الديارَ كرسمِ الكتاب يزَبِّرُه الكاتِبُ الحِمْيَرِي

---

١ – انظر قوله والابيات بعده في الوساطة ، الجرجاني ص ١٨٧ . زبور : كتاب. عسيب: جريد النخل . النؤى : جدول يجعل حول الخباء ليتسرب فيه الماء . الرق : الجلد يكتب عليه.



أما لبيد فقد أتقن الصورة حيث قال :

وَجلا السيولُ عن الطلولِ كأنَّها زُبُرٌ تُجِدُّ مُتُونَها أقلامُها

فالصورة نفسها مكررة عند هؤلاء الشعراء وعند غيرهم ، ونراها تتكرر أيضاً عند الشاعر الواحد نفسه ، فقد أعاد لبيد هذه الصورة ثانية في قوله [1] :

دَرَسَ المَنــا بمُتالِعٍ فأبانِ وتقادَمَتْ بالحُبْسِ فالسُّوبانِ

فنعافِ صارةَ فالقنانِ كأنها زُبُرٌ يُرَجِّعُها وليـــدُ يمانِ

وهكذا تتكرر الصورة وتعاد مرة واثنتين وثلاثاً ، وقل في مثل هــذا في تشبيه الديار الدارسة بالوشم ، فقد جاءت الصورة عند زهير كما هي عند لبيد في أكثر من موضع وقد مرت بنا فيما سبق ، وكذلك يقال في وصف البرق والسحاب والمطر ، فالأوصاف الرائعة عند امرىء القيس الذي يقول [2] :

دِيمَةٌ هطلاءُ فيهــا وَطَفٌ طَبَقَ الأرضِ تَحَرَّى وتَدُرْ .. الخ

هي نفسها عند عبيد بن الأبرص في قوله [3] :

---

١ – الديوان ص ١٣٨ . المنا : المنازل. متالع : موضع . أبان : جبل . الحبس : موضع. السوبان : واد . النعاف : رؤوس الأودية . صارة : موضع او جبل . القنان : جبل . يرجعها: يرددها .

٢ – ديوان امرىء القيس صفحة ٨٩ ط السندوقي والعقد الثمين صفحة ١٢٥ . الديمة : المطر الدائم . هطلاء : غزيرة . وطف : استرخاء . طبق الارض : تعم الأرض . تحرى : تعمد الى الامكنة وتثبت فيها . تدر : تصب ويكثر ماؤها .

٣ – ديوان عبيد بن الأبرص صفحة ٩ .



سقى الرباب مجلجل الـ أكناف لماح بروقه .. الخ

وكذلك هي عند أوس بن حجر في قوله [1] :

اني أرقت ولم تأرق معي صاحِ لمستَكِفٍّ بُعَيْدَ النوم لَوَّاحِ .. الخ

أما لبيد فقد وصف البرق والسحاب والمطر وحكى صوت الرعد في أول معلقته وكرر كذلك الصور في قوله [2] :

أصاحِ تَرَى بريقاً هَبَّ وَهْنا كمصباح الشَّعِيلَةِ في الذُّبالِ .. الخ

والأمثلة على هذا التكرار كثيرة ، وليس مرد ذلك الى السرق — كما قد يظن ولكن مرجعه الى تأثير البيئة المحدودة المشاهد ، المتشابهة الصور . التي كثيراً ما تكون سبب سآمة القارىء ومله واليها يعزى ضعف الخيال وجدبه [3] .

٣

التعبير بالصور :

ويكثر في شعر لبيد التصوير ، وخاصة في الوصف حيث يرسم مناظر

---

١ - ديوان أوس بن حجر صفحة ١١٨ .

٢ - ديوان لبيد صفحة ٨٨ . هب : لمع وأضاء . وهنا : بعد ساعة من الليل . الشعيلة : النار . الذبال : الفتيلة .

٣ - انظر رأي المستشرق جب في أثر البادية في الشعر :

Gibb : Arabic Literature; An introduction. P. 10.

ومشاهد رائعة مكتملة الجوانب ، يلم بالصورة الماماً تاماً يدقق في اجزائها ويحصر اطرافها ويستقصي جوانبها ، وهذا دليل التمكن في الفن والدقة في التعبير وخصب الخيال . وقد رأيت في أوصافه أنه يرسم لوحات كاملة يعنى بكل تفاصيلها وأجزائها على الرغم من ايجازها ، ولعلك تذكر وصف الديار المقفرة في معلقته ، ورأيت كيف وصف الرسوم وحدد مواقعها وشبه آثارها وذكر قدمها وما مر عليها من أشهر طويلة ، وكيف سقطت فيها الأمطار ونبتت الاعشاب وعلا الايهقان وولدت الظباء والنعام والنعاج وراحت صغارها تمرح وترتع على مرأى من أمهاتها ، فقد جمع لبيد في صورته تلك كل ما يمكن ان يجمع في الصورة المتقنة ، فوفر لها عناصر هامة لازمة لجمال المشهد من ذكر الزمان والمكان والمياه واللون في النبات ، والحركة في الحيوان ، والصوت في السحاب ، وهكذا تجده يدقق في صوره ، ثم هو لا يكتفي بهذا التدقيق والاستيعاب ، بل يرسم الصورة ثم يستكمل جوانبها ثم يحققها ويتقنها ، وانظر الى هذه الصورة صورة حمار الوحش واتانه وهما يعدوان فيثيران سحابة من غبار ، وتأمل كيف دقق وتأنق وحقق [1] :

فتنازعا سَبِطاً يطير ظِلَالُهُ ... كدُخانِ مُشْعَلَةٍ يُشَبُّ ضِرَامُها

مشمولةٍ غُلِثَتْ بنابِتِ عَرْفَجٍ ... كدُخانِ نارٍ ساطعٍ أسنامُها

فقد صور الغبار المثار بينهما كغلالة رقيقة يتنازعانها وشبه هذا الغبار بدخان نار مشبوبة الضرام ، وقد كملت الصورة في هذا البيت ولو شاء لاكتفى بها ، ولكنه أراد أن يفصل هذا التشبيه ويتقنه ويبين أن هذه النار قد أوقدت

---

١ - الديوان صفحة ٣٦٠ . سبطاً : غباراً ممتداً . مشعلة : نار . الضرام : الحطب الدقيق . مشمولة : أصابتها ريح الشمال . غلثت : خلط حطبها . نابت عرفج : عرفج طري وهو نوع من النبات ينبت في السهل . اسنامها : أعاليها .

بنبات العرفج الطري الذي يثير الدخان الكثيف ويزيد لهب النار بحيث تسطع أعاليها وأن ريح الشمال تمر عليها فتزيد من ضرامها وسطوعها . والأمثلة على هذا التفصيل كثيرة قد مر بنا منها في وصف الحيوان ووصف السحاب والرياض والديار الشيء الكثير .

ويقدم لبيد صوراً كاملة مركزة في أبيات قليلة وتمتاز مع ايجازها وتركيزها بالحيوية والحركة وتزدان بالالوان ، والأجواء المثيرة المشحونة بالعواطف ، هذا الى تمثيل واضح جميل يجلو الصورة ويزيدها حيوية وبهاء ، اقرأ ذلك في وصفه للثور تلجئه الامطار والريح الباردة الى أصل أرطاة[1] :

فباتَ كأنهُ قاضي نُذورٍ يلوذُ بِغَرْقَدٍ خَضِلٍ وَضَّالِ

إذا وَكَفَ الغُصونُ على قَرَاهُ أدار الروقَ حالاً بعدَ حالِ

جَنوحَ الهالكيِّ على يديهِ مُكِبًّا يجتلي نُقَبَ النِصالِ

تجده قد صور الثور تحت الاشجار يحفر في الارض ويجدّ في الحفر كأن عليه نذراً أن يحفر ، أو كأنه مصلّ مكب على صلاته فهو في حركة دائمة ، وقد بين حذر الثور وشدة ذعره بحركة قرنيه حين تسقط قطرات المطر العالقة بالغصون على ظهره فيهيىء قرنيه تأهباً للقتال ، ثم أضاف صورة أخرى مثل بها حركة يديه حين يعالج الرمال فشبهه بصيقل مكب على سيف يجلو ما عليه من صدأ . فتراه هنا قد حشد ثلاث صور ، وعني عناية شديدة بحركة الحيوان .

---

١ – الديوان ٧٧ – ٧٨ . غرقد خضل : شجر ندي . ضال : سدر البر . وكف : قطر. قراه : ظهره . الروق : القرن . جنوح الهالكي : انكباب وميل الصيقل . النقب : الصدأ .



ومن علائم التركيز لدى لبيد أنه يرسم صورة كاملة أنيقة في بيت واحد كما في قوله[1] :

وَتضِيءُ في وجه الظَّلامِ منيرةً   كَجُمانَةِ البحريِّ سُلَّ نِظامُها

فقد صور البقرة وسط الظلام بللها المطر وهي بيضاء ساطعة البياض تتحرك قلقة خائفة بصورة اللؤلؤة انفرطت من عقدها ، فهي تضطرب على الارض وتتلألأ فيخطف نورها الابصار . وهذه صورة أخرى أكثر حيوية ، أوجزها في بيت واحد يصف هيئة الثور عند عدوه[2] :

تَشُقُّ خمائِلَ الدَّهْنا يَدَاهُ   كما لَعِبَ المقامِرُ بالفِيالِ

أو هذه الصورة[3] :

لها حَجَلٌ قد قرَّعتْ من رُؤوسِه   لها فوقَهُ مما تَحَلَّبَ واشِلُ

يصف صغار الابل عند ضروع أمهاتها ، وقد سال على رؤوسها لبن أمهاتها وتحلب عليها فبدت كأنها قرع .

وقد يستعين لبيد في جلاء صوره بالتعبير المجازي ، والصور البيانية كالتشبيه والاستعارة والكناية .

---

١ – الديوان صفحة ٣٠٩ . الجمانة : اللؤلؤة . نظامها : خيطها .

٢ – الديوان صفحة ٨٠ . الخمائل : الرمال فيها شجر . الدهناء : برية . الفيال : لعبة كانوا يلعبون بها .

٣ – الديوان صفحة ٢٦٠ . الحجل : هنا صغار الابل على التشبيه باناث القبج أي اصبحت الابل الصغيرة صلعاً لكثرة ما يسيل على رؤوسها من لبن امهاتها .



١ – وأبرز هذه الوسائل وأكثرها هو التشبيه ، والتشبيه أوسع ضروب البيان استعمالاً ، في شعره ، وتشبيهات لبيد طريفة جميلة بارعة ، انظر ذلك في هذا البيت [١] .

ويَظَلُّ مرتقِبا يقلّبُ طَرْفَهُ   كعريشِ أهلِ الثَّلَّةِ المهدوم

فهو يصف ظليماً خائفـــاً يتلفت وجناحه متهدل مسترخ ، يشبه عريشاً متهدماً مما يستظل فيه رعاة الغنم ، وكذلك تظهر براعة التشبيه في هذه الصورة المعبرة ، صورة المعركة التي اسفرت عن انتصار الثور ومصرع الكلاب حيث تركها قتيلة مضرجة بدمائها كأنها ظروف مترعة بالدماء ، فالدم ينزف منها ويتنزى من جوانبها [٢] :

حتى انجلتْ عنه عَمَايَةُ نَفْرِه   فكأن صَرْعاها ظروفُ دِنانِ

وتتميز في شعر لبيد ضروب من التشبيه اظهرها وأهمها :

أ – تشبيه من يعقل بما لا يعقل كقوله يشبه الناس بالديار [٣] :

وما الناس الا كالديارِ وأهلِها   بها يومَ حلُّوها وغَدْواً بلاقِعُ

---

١ – الديوان صفحة ١١٤ . أهل الثلة : اصحاب القطيع من الضأن .

٢ – الديوان صفحة ١٤٦ . انجلت : انكشفت : عماية نفره : ما ألبسه من الفزع الذي عمى عليه أمره . ظروف دنان : اوعيتها .

٣ – الديوان صفحة ١٦٩ . غدوا : غداً . بلاقع : قفار .

وقوله في صفة النساء المجهدات البائسات[1] :

تأوي الى الأطنابِ كلُّ رذِيَّةٍ مثلِ البلِيَّةِ قالِصٌ أهدامُها

وقوله في مصير الانسان[2] :

وما المرءُ إلا كالشّهابِ وضوئهِ يحُورُ رماداً بَعْدُ إذْ هوَ ساطِعُ

ب – تشبيه ما لا يعقل بمن يعقل ، وأكثر ما يجيء بتشبيه الحيوان بالانسان مثل قوله في تشبيه السباع من الحيوان باللصوص[3] :

وغادرتُ مرهوباً كأنَّ سباعَهُ لصوصٌ تَصَدَّى للكسوبِ المحاوِلا

وقوله في صفة حمار الوحش[4] :

يُطَرِّبُ آناءَ النهار كأنَّهُ غَويٌّ سقاهُ في التِّجارِ نديمُ

وله أوصاف كثيرة للثور يشبهه بالانسان على نحو قوله[5] :

---

١ – الديوان صفحة ٣١٩ . الرذية : المهزولة يريد امرأة فقيرة . البلية : الناقة التي تشد عند قبر صاحبها لا تطعم ولا تسقى حتى تموت . قالص اهدامها : مرتفعة خلقانها .

٢ – الديوان صفحة ١٦٩ . يحور : يصير .

٣ – الديوان صفحة ٢٣٥ . مرهوباً : وادياً مخوفاً .

٤ – الديوان صفحة ٩٦ . اناء النهار : ساعات النهار . الواحد : أنى . يطرب : يردد النهاق .

٥ – الديوان صفحة ٧٩ . تحسر : تنكشف. الغمرات: كربات الهموم المراهن: الفرس الذي يراهن به ، ولذلك فهو ايضاً مراهن .

وَوَلَّى تحسُرُ الغَمَراتُ عنهُ كما ولّى المراهِنُ ذو الجِلَالِ

جـ — تشبيه تمثيل أو تشبيه صورة بصورة ، وهو أجود التشبيه لانه مركب يحتاج الى فطنة وذهن خصب مصور نحو قوله [1] :

وجَلَا السيولُ عن الطلولِ كأنَّها زُبُرٌ تُجِدُّ متونَها أقلامُها

أو قوله مصوراً قرن الثور حين يطعن صفاح الكلاب كأنه مخصف يخرج من نعال خلقة بالية [2] :

يَشُكُّ صِفاحَها بالرَّوْقِ شَزْرا كما خَرَجَ السِرادُ من النِقال

وقوله مصوراً الموت حين يسوق الناس نحو الهلاك براعي ابل يزجر ما تخلف من ابله ويسوقها نحو القطيع [3] .

ويمضون أرسالا ونَخْلُفُ بعدَهم كما ضَمَّ أخرى التالياتِ المُشايِعُ

ويشبه صورة الوعول حين ينهمر عليها المطر فيجلو ظهورها ، بصورة فتيان الصاغة يجلون اللؤلؤ القشيب [4] :

---

١ — الديوان صفحة ٢٩٩ . جلا : كشف . زبر : كتب . تجد : تجدد .

٢ — الديوان صفحة ٧٩ . يشك . يطعن . صفاحها : جنوبها . شزراً : جانباً . السراد : السير الذي يخصف به . المسرد : المثقب او المخرز . النقال : النعل الخلق .

٣ — الديوان صفحة ١٧٠ . ارسالاً : جماعة بعد اخرى . نخلف بعدهم : نبقى . التاليات : اواخر الابل . المشايع : الذي يزجر الابل .

٤ — الديوان صفحة ٣١ . متونهن : متون البقر . التلاميذ : غلمان الصاغة . القشب : القشيب الجديد .

فالماءُ يجـــلو متونَهن كما يجلو التَلامِيذُ لؤلؤاً قَشِبا

الى غير ذلك من الشواهد الكثيرة التي حسنت شعر لبيد .

د — تشبيه مزدوج :

وذلك بأن يوفر في البيت أكثر من تشبيه كقوله في وصف ذكر النعام ، حيث يشبه ساقه بسافلة الرمح وصدره بآلة موسيقية [1] :

صَعْلٌ كسافِلةِ القَناةِ وظيفُهُ وكأنَّ جُؤْجُؤَهُ صفيحُ كِرانِ

أو تشبيه النساء في الهوادج بالبقر وبالظباء متحننات على صغارهن [2] :

زُجَلاً كأنَّ نِعاجَ توضحَ فوقَها وظباءَ وجرةَ عُطَّفاً آرامُها

وتشبيه السحاب بالملاحف ، وصوت الرعـــد بجلبة الابل قد عزلت عن فصالها حين أخرجوا مرباع الرئيس من الغنيمة [3] :

كأنَّ فيهِ لما ارتفقتُ له رَيْطاً ومرباعَ غانمٍ لَجِبا

---

١ — الديوان ص ١٤٨ . صعل : نعام صغير الرأس دقيق العنق . كران : عود ، آلة موسيقية .

٢ — الديوان ص ٣٠٠ .

٣ — الديوان ص ٣٠ . ارتفقت : اتكأت على مرفقي . ريطـــا : ملابس أو ملاحف . المرباع : ربع الغنيمة حصة الرئيس .

الى غير ذلك من التشبيهات التي افتن في صياغتها . والتشبيه عادة أكثر الوسائل التصويرية الشائعة في الشعر الجاهلي .

٢ - الاستعارة :

وكذلك استعان لبيد في تجلية صوره بالاستعارة ، والاستعارة ضرب من المجاز يقــوم على تناسي التشبيه ، وهي فن صعب لا يتيسر لكل الشعراء ، ولذلك فقد قلت في الشعر الجاهلي ، وقد جاء عند لبيد جملة استعارات تدل على سعة خياله وتمكنه من فنه ، وكثير منها اعجب النقاد في العصور المتقدمة مَن ذلك قوله [١] :

وغداةَ ريحٍ قد وزعت وقَرَّةٍ   إذ اصبحت بيدِ الشَّمالِ زِمامُها

فانظر الى هذا التخيل وكيف جعل للغداة زماماً ، وللشمال يداً تتحكم بزمام الغداة ومثل هذه الاستعارة قوله [٢] :

أَضَــلَّ صِوارَه وتَضَيَّفَتْهُ   نَطُوفٌ أمرُها بيدِ الشَّمالِ

ومن جيد الاستعارة قوله يصور غروب الشمس ونزول الظلام [٣] :

حتى إذا ألقتْ يداً في كافرٍ   وأَجَنَّ عوراتِ الثغور ظَلامُها

---

١ - الديوان ص ٣١٥ . وزعت : كففت . قرة : شدة البرد . زمامها : أمرها .

٢ - الديوان ص ٧٧ . الصوار : قطيع بقر الوحش. تضيفته : نزلت به سحابة . نطوف: تنطف بالماء .

٣ - الديوان ص ٣١٦ . القت : أي الشمس جعل لها يداً . كافر : ليل ساتر . عورات الثغور : مواضع المخافة منها .



وهذه الأبيات تحتوي على استعارات من النوع الذي يسميه البلاغيون بالاستعارة المكنية – وهي أعز طلباً وأبعد منالاً من التصريحية – وسر الجمال فيها هذا الخيال البعيد الذي لا يتأتى الا للصناع القادرين : وقد كرر الصورة التي تمثل الغروب في البيت الأخير في قوله [1] :

فلما تَغَشّى كلَّ ثغرٍ ظلامهُ　　　وألقتْ يداً في كافرٍ مُسْيَ مغربِ

وانظر كذلك الاستعارة في قوله يصف النساء في الهوادج مشبهاً إياهن بالظباء في كناسها [2] :

شاقتْكَ ظُعْنُ الحيِّ حين تحمَّلُوا　　　فتكنَّسوا قُطُناً تَصِرُّ خِيامُها

ومن استعاراته الجميلة قوله في المطر حيث صور ريح الجنوب تحلب الغمام كما تحلب الناقة [3] :

مَرَتِ الجنوبُ له الغَمامَ بوابلٍ　　　ومجَلْجِلٍ قَرِدِ الرَّبابِ مُديمِ

الى غير ذلك من استعاراته الطريفة .

٣ – الكنايــــة :

ومن الصور البيانية التي اصطنعها في ابراز صوره وتأدية معانيه الكناية ،

---

١ – الديوان ص ١٤ . مسى مغرب : مساء مغرب .

٢ – الديوان ص ٣٠٠ . الظعن : النساء اللواتي في الهوادج . تحملوا : ارتحلوا . تكنسوا : دخلوا الكناس ، وهنا الهودج . قطناً : جماعات . تصر خيامها : تحدث صريراً لجدتها .

٣ – الديوان ص ١١٢ . مرت : حلبت رياح الجنوب السحاب . الوابل : المطر الشديد . مجلجل : كثير الرعد . قرد : مجتمع . الرباب : السحاب الذي تراه كأنه متدل . مديم : دائم .

واجادة التعبير بالكناية يدل على براعة الشاعر في صياغة معانيه بأسلوب رفيع وعبارة موجزة دالة فيها ضرب من الجمال لا يتأتى إظهاره بدونها . وكنايات لبيد كثيرة وفيها بساطة وجمال . فهو يقول في كثرة قومه بني جعفر [1] :

ولقد أراني تارةً من جَعْفَرٍ　　في مثلِ غيثِ الوابلِ المُتَحَلِّبِ

ويقول ذاكراً الموت في البيت الاول ، وحسرة النساء والمهن في البيت الثاني [2] :

وهل هو الا ما ابتنى في حياته　　إذا قذفوا فوقَ الضريح الجَنادِلا

وأثنَوا عليه بالذي كان عندَهُ　　وعضَّ عليهِ العائداتُ الأَنامِلا

وكنى عن الموت باصفرار الأنامل [3] :

وكلُّ أُناسٍ سوف تدخلُ بينَهم　　دويهِيَّةٌ تصفَرُّ منهـــا الأَنامِلُ

وعبر عن الصبح بمنطق الدجاج وضرب الناقوس فقال [4] :

فصَدَّهُم منطِقُ الدجاجِ عن العهـ　　ـد وضربُ الناقوسِ فاجْتنِبا

---

١ – الديوان ص ١٥٧ . الوابل : المطر . المتحلب : المتساقط ، يريد كثرة العدد .

٢ – الديوان ص ٢٤٧ . الجنادل : الصخور .

٣ – الديوان ص ٢٥٦ . دويهية : هنا الداهية العظيمة .

٤ – الديوان ص ٢٦ . منطق الدجاج : كناية عن الصبح .

والأمثلة كثيرة على استعانة لبيد في ابراز صوره وجلائها بضروب المجاز، وليس من همي هنا احصاؤها، وحسبي هذه الأمثلة التي تدل على مقدرة الشاعر وتمكنه من فنه ودلالة هذه التعابير البيانية على سعة خياله – بالنسبة الى غيره من معاصريه – وخصب قريحته. ولا شك ان لبيداً لم يتكلف هذه الصور تكلفاً ولم يعمد الى هذه الأساليب البيانية عمداً بل كانت تأتي على السجية والفطرة السليمة.

٤

صفات الصورة :

وهذه الصور الكثيرة التي تختلف وسائل ادائها وتتنوع فنون التعبير فيها مستمدة من البيئة ومرتبطة بحياة البادية، ولذلك جاءت هذه الصور في جملتها حسية مادية لأنها نتاج البيئة، وان تفكير الشاعر، معانيه وأخيلته وألفاظه كلها مرتبطة بالمظاهر التي تقع عليها حواسه. واذا أنعمنا النظر في الصور التي مرت وبخاصة في التشبيه، نجد الصحراء ومعالمها والحياة البدوية وحيوانها ونباتها ممثلة في تلك الصور، ونراها كذلك واضحة بسيطة، لا يجد الشاعر مشقة ولا عسراً في استحضارها، ولا يجد القارىء – حين تيسر له اللغة – جهداً في ادراكها وتذوقها، فهي واضحة وضوح الصحراء بسيطة بساطة البادية.

وهذه الظاهرة الحسية المادية لا تزايل الصورة، حتى في تعبيرها عن أمور معنوية غير ملموسة كالحلم والكرم والوفاء والشرف، فالشاعر الجاهلي غير قادر على تصور المعنويات أو التعبير عنها الا مجسمة في ماديات محسوسة أو متعلقة بأشخاص بأعيانهم، أنظر ذلك في هذا البيت الذي صور فيه حلم قومه [١] :

---

١ – الديوان ص ١٣٧.

ولهم حُلومٌ كالجِبالِ وسادَةٌ نُجُبٌ وفَرْعٌ ماجدٌ وأُرُومُ

فقد عبر عن سعة حلمهم بصورة مادية هي صورة الجبال العالية . ويشبه كذلك سماحة أخيه وكرمه بالمطر يسقي الأرض ويكثر خيرها [1] :

يعفو على الجَهْدِ والسؤالِ كما أُنْزِلَ صَوْبُ الربيعِ ذي الرَّصَدِ

ويتكرر هذا التشبيه حين يفخر لبيد بفضله وكرمه الذي هو كالمطر يصيب الأرض فينعشها [2] :

ومنِّي على السباقِ فضلٌ ونعمةٌ كما نَعَشَ الدَّكْداكَ صوبُ البوارقِ

ويشبه الكلام الشديد والمناظرة الحامية بالسهام المصمية [3] :

إذ دَعَتْني عامرٌ انصرُها فالتقَى الألسنُ كالنَّبْلِ الدُّوَلْ

فرميتُ القوم رِشْقا صائبا ليس بالعُصْلِ ولا بالمقْتَعِلْ

او يصور هزيمة خصمه الربيع بن زياد وخذلانه حين افحمه ، بصورة جمل به قروح من داء السلال فهو يمشي بطيئاً متعثراً مترنحاً [4] :

---

١ – الديوان ص ١٥٩ . يعفو : يكثر . الصوب : المطر . الرصد : المطر يكون في أول الزمان .

٢ – الديوان ص ٢٢٩ . الدكداك : الرمل المستوي المتكبس .

٣ – الديوان ص ١٩٤ . الرشق : الدفعة من السهام . العصل : المعوجة . المقتعل : الذي لم يبر جيداً من السهام .

٤ – الديوان ص ٢١٨ . السلال : داء . يكتنف : يمشي رويداً .

فافحمتهُ حتى استكانَ كأنَّهُ قريحُ سُلَالٍ يكتفُ المشْيَ فاتِرُ

ويتخيل الشرف والمجد بيتاً شامخاً عالي البناء [1] :

فبنَى لنا بيتاً رفيعاً سَمْكُه فسما اليه كَهْلُها وغُلامُها

وهكذا تتضح هذه النزعة لتجسيم المعاني وتشخيصها والتعبير عنها بصور مادية حسية ، وهذه السمة التي صبغت شعر لبيد – كما صبغت شعر الجاهليين كان لها جرائرها ، كما كان لها فوائدها ..

فمن جرائرها : انها حددت الخيال والتصور ، وربطت الذهن بمشخصات ، فلم تتح للشاعر ان ينطلق في تصوير المعنويات كالوفاء والسماحة والكرم وغيرها تصويراً شاملاً عاماً بحيث يعالج الفكرة نفسها غير مرتبطة بشخص معين أو صورة في بيئة محدودة ، ولم تتح للشاعر ايضاً ان يتعمق في وصف الخواطر والأفكار والعواطف والأحاسيس . ومن عيوبها ايضاً انها جعلت الصور تتكرر بحيث صار طابعها السآمة والجدب ، لان الظواهر الحسية متعلقة بالصحراء ، ومناظر الصحراء محدودة متشابهة ، ثم ان هذه المناظر لا تستلطفها الأذواق الحضرية فلذلك قد تعجب اناساً دون آخرين .

أما ما نراه من فوائد هذه المادية الحسية ، فانها جعلت الشاعر يدقق في موضوعاته ويفصل في اوصافها ، ويولد في معانيها فيصب المعنى الواحد في صور مختلفة وقوالب جديدة امعاناً منه في الايضاح وزيادة في استقصاء جوانب الموصوف واستيفاء اجزائه . وانت واجد هذا الاستقصاء والتدقيق لو تمعنت في وصفه للنعام مثلاً ، فهو يصف رأسه وريشه ويشبه هذا الريش المتهدل بخرق

---

١ – الديوان ص ٣٢١ . السمك : الارتفاع .

بالية منشورة على اغصان ، ثم يصفه وهو يعدو وقد تناثر ريشه وتساقط ، ذاكراً هيئته عند العدو حيث جمع نفسه وعقد منكبيه وصك حلقومه ، ثم يتأمل تارة أخرى في ساقه فيشبهها بالرمح وفي صدره فيشبهه بالعود آلة الطرب ويبين تعلقه بانثاه و كلفه بها ، وهكذا تراه يتتبع أحواله ويصف شكله ويدقق في جسمه ، فلا يغادر منه ناحية الا ذكرها على نحو قوله [1] :

أفذاكَ أم صَعْلٌ كأن عِفاءَهُ أوزاع ألقاءِ على أغصانِ

يُلْقي سَقِيطَ عِفائِه مُتَقاصِرا للشَدِّ عاقدَ منكبٍ وجِرانِ

صَعْلٌ كسافلةِ القَناةِ وظيفُه وكأنَّ جُؤْجُؤَهُ صفيحُ كِرانِ

كَلِفٌ بعاريةِ الوظيفِ شِمِلَّةٍ يمشي نِخلال الشَّرْيِ في خِيْطانِ

وحين تتأمل في المعلقة تجده كيف وقف على الديار الدارسة فشبه رسومها بالكتابة على الحجر ثم الح على هذه الصورة ودقق فيها وفصل فشبه الطلول التي غسلتها الأمطار وازاحت التراب المتراكم عليها ، بالكتب التي طمست كتابتها ، وبعد عهدها بكاتبها ، وشبه السيول التي غسلتها بالاقلام تجدد ما انطمس من معالمها، ولم يترك هذه الصورة، بل نظر اليها من جانب آخر فشبهها بالوشم القديم جاءت الواشمة لتجدده فهي تذر عليه النؤور وترسم عليه داراتها لتظهره من جديد ، وهكذا فهو يقول [2] :

---

١ – الديوان ص ١٤٧ – ١٤٨ . صعل: نعام صغير الرأس دقيق العنق . عفاءه : ريشه. ارزاع : قطع سقيط ، ما سقط منه . جران : باطن الحلق . صفيح كران : عود من اخشاب مشقوقة . كلف : محب لانثاه . شملة : سريعة . الشرى : شجر الحنظل . خيطان : فرق .

٢ – الديوان ص ٢٩٧ ، ٢٩٩ ، ٣٠٠ . تأبد : توحش . المدافع : امكنة يندفع منها الماء . الوحي : الكتابة . السلام : الحجارة . زبر : كتب . تجد : تجدد . متونها : ظهورها واوساطها . الرجع : الترديد . أسف : ذر . النؤور : مادة الوشم . كففا : دوائر وحلقات . النؤى : جدول يجعل حول الخباء ليتسرب فيه الماء . الثمام : نبت يلقى على البيوت من الحر او تسد به خللها .

عَفَتِ الديارُ محلُّها فمقامُها   بِمنىً تأبَّدَ غَوْلُها فَرِجامُها

فمدافعُ الرَّيَّانِ عُرِّيَ رسمُها   خَلَقاً كما ضَمِنَ الوحِيَّ سِلامُها

. . .

وجَلَا السيولُ عن الطلول كأنَّها   زُبُرٌ تُجِدُّ متونَها أقلامُها

او رَجْعُ واشمةٍ أُسِفَّ نَؤُورُها   كِفَفاً تعرَّضَ فوقهنَّ وِشامُها

فوقفت اسألها وكيف سؤالُنا   صُمّاً خوالدَ ما يبينُ كلامُها

عَرِيَتْ وكانَ بها الجميعُ فأبكروا   منها وغُودِرَ نؤيُها وثُمامُها

فتراه يدقق ويفصل ويعنى بالاجزاء ويلح على التشبيه ويقلب المشبه به على وجوه مختلفة ، ثم يعني بعد ذلك بالصور الفرعية المتشعبة من المعنى الاول .

ولعل من أسباب هذا ان ملاحظة الشاعر كانت دقيقة ، وعنايته كبيرة بحيث لم يترك شيئاً من أمور بيئته الا صوره بصورة واضحة كاملة ، سواء أكان ذلك الشيء جليلاً أم حقيراً ، واصدق مثل لذلك عنايته بالرسوم والاطلال الدارسة وما فيها من نؤي وثمام وأثفية ، فهو يدقق في كل جوانب الصورة التي يرسمها ولا يهمل جانباً وان كان صغيراً تافها ، انظر الى هذه الأبيات ولاحظ كيف فطن لبيد الى ما لم يفطن اليه غيره قال في وصف الماء القديم وحوضه البالي الذي ثلمته الرياح والأمطار [1] :

---

١ – الديوان ص ١٨٣ – ١٨٤ . فراط القطا : اوائلها . تغليس : السير في آخر الليل . العرمض : الطحلب . داثر : حوض دارس . الشيش : صوت الماء . السبل : المطر المسبل .

فوردْنا قبلَ فُرَّاطِ القَطا ... إنَّ من وِرْديَ تغليسُ النَّهَلْ

طاميَ العَرْمَضِ لا عهدَ له ... بأنيسٍ بعدَ حولٍ قد كَمَلْ

فهَرَقْنا لهــما في دائِرٍ ... لضواحيهِ نشيشٌ بالبَلَــلْ

راسخُ الدِمنِ على اعضادِهِ ... ثلمَتْهُ كلُّ ريحٍ وسَبَلْ

٥

العناية بالحال مع الهيئة :

رأينا ان بيئة الشاعر قد لونت شعره وطبعته بطابع حسي مادي ، وهذا هو المذهب العام للشعر العربي في الجاهلية ، فصور الشعراء أغلبها تعنى بالجانب الحسي ، فهي تجسم المعاني وتشخصها ، وفي هذا ولا شك جلاء للصورة وتوضيح لجوانبها ، وقد استتبع ذلك عناية بالأجزاء والتفاصيل ، واهتمام كبير بالتشبيه وعرض صور كثيرة للمشبه به ، بحيث يدعو ذلك إلى الاستطراد والخروج عن أصل الفكرة ، وجاءت أوصاف الشعراء الجاهليين معنية بمظهرها الخارجي ، وناقة طرفة — في معلقته — في ذلك خير مثال ، فقد صورها دمية واضحة الأعضاء ، لم ينس منها جزءاً ولا عضواً ، ولم يغادر عصباً ولا عرقاً ، دون أن يصفه ، فهو رسام بارع ينقل صورة ناقته بأعضائها وملامحها الجسمية ، الا ان صورة الناقة هذه دمية صامتة لا حياة فيها ولا حركة ، ومثل هذا الوصف عند الجاهليين كثير ، ولم يشذ عنهم لبيد ، ولكنه لم يكثر منه . وهذا الضرب من التصوير هو الذي اعنيه بوصف الهيئة ، الوصف الحسي المــادي الذي يتناول الموصوف من الخارج .

ولكن بعض الشعراء وجهوا عنايتهم الى وصف الحالة ، حــالة الموصوف

سواء كان حيوانا أم انسانا ، فوصفوه وصفا داخليا ، صوروا فيه الحياة والحركة تحدثوا عن الجوانب النفسية والعاطفية من حب وكره ، وخوف وضعف وجرأة وجبن صوروا نشاطه ومرحه ، حركاته وسكناته ، زهوه وخيلاءه ، وحتى أفكاره في بعض الأحايين ، ومن أولئك الشعراء الذين اهتموا بتصوير الحال – الى اهتمامهم بتصوير الهيئة – شاعرنا لبيد، بل ان هذه الظاهرة تتضح في شعره ، أكثر مما تتضح عند الشعراء الآخرين . وقد مر بنا في شعره الوصفي تفصيل في ذلك ، وبخاصة في حديثه عن البقرة الوحشية وقصتها ، وفي حديثه عن الثور ونضاله وانتصاره ، وفي حديثه عن حمار الوحش وأتانه ، وقد قرأت هناك تلك القصص الطريفة التي تصور أحوال الحيوان النفسية وطرفا من خصاله ونضاله فلا أعيدها هنا عليك كراهة الاكثار . ويجدر بي هنا أن أسجل بعض الملاحظ في تصوير الحال :

١ – أولها تصوير المشاعر والعواطف : وقد تجلت في البقرة ، خوفها وحزنها وفجيعتها بولدها وترقب الصياد وكلابه ، وانظر في هذه القطعة كيف مثل عواطف البقرة وهواجسها النفسية [1] :

تنجُو نَجاءَ ظليمِ الجَوِّ أفزعَهُ ريحُ الشَّمالِ وشَفَّانٌ لها دِرَرُ

باتَتْ الى دَفِّ أرطَأةٍ تحفرُهُ في نفسِها من حبيبٍ فاقدٍ ذِكَرُ

غدتْ على عجَلٍ والنفسُ خائِفةٌ وآيةٌ من غدوِ الخائفِ البُكَرُ

---

١ – الديوان ص ٦٨ – ٦٩ . تنجو نجاء ظليم الجو : تمر كمر الظليم . الجو : المطمئن من الارض . الشفان : الريح الباردة . درر : من المطر . دف ارطاة : جانب شجرة من الأرطى تستكن بها . فاقد : ولدها فقدها فهو فاقد . الآية : العلامة .

وقوله [1] :

عَلِهَتْ تردد في نِهاءِ صَعائِدٍ ... سَبعاً تؤاماً كامـلاً أيّامُها

حتى إذا يَئِسَتْ وأسحقَ حالِقٌ ... لم يُبْـلِهِ إرضـاعُها وفِطامُها

وتوجّسَتْ رِزَّ الأنيسِ فراعَها ... عن ظهرِ غيبٍ والأنيسُ سَقامُها

فغدَتْ كِلا الفرجينِ تَحسَبُ أنّهُ ... مولى المخافةِ خلفُها وأمامُها

فها هي تعدو كالظليم المذعور تدفعه ريح الشمال الباردة ، ثم تلوذ بأصل شجرة وهي حزينة متألمة (في نفسها من حبيب فاقد ذكر) وقد جمع الشاعر المخاوف حين صور غدوها وتبكيرها ، وبين جزعها حين كانت، تبحث عن ولدها سبعة أيام بلياليها ، وتحدث عن يأسها بعد طول انتظار وطول غيبة ، وكشف عن مخاوفها وهي تتوجس رز الأنيس ، ثم في هروبها وهي لا تدري من أين تأتيها المخاطر ، ومتى تصيبها المنية ، وهكذا نجد لبيداً يقلب الكلام ليبين أحوال الحيوان النفسية، فهمه أن يمثل المخاوف والأحزان والعواطف وهواجس النفس ولم يعرض للهيئة من وصف الاعضاء وحسن البناء .

وكذلك يقال في الناقة فأغلب الأوصاف التي جاءت في الناقة تصورها مرحة نشيطة خفيفة الحركة لا تتعب ولا تعرف الكلل ، وهي صابرة راضية محتملة الجهد والعنت .

٢ ـ ويلاحظ أيضاً انه حين يصور أحوال الحيوان النفسية في حال خوفه

---

١ ـ الديوان ص ٣١٠ ـ ٣١١ . علهت : جزعت وقلقت . نهاء : ج نهى وهو مجتمع الماء . اسحق حالق : جف ضرعها . توجست : تسمعت .



وحزنه . يهيىء الجو الطبيعي مع الجو النفسي ، فيصور في ذلك رهبة الليـــل وحزنه وخوفه وظلامه الشديد ، وقسوة المنـــاخ من برد شديد ومطر هاطل وريح باردة عاصفة هي ريح الشمال ، ثم عذاب الحيوان في التربة التي تنهار تحت اقدامه فلا تتماسك ، وتزيد من مخاوفه حركة الاغصان التي تساقط قطرات الماء على ظهر الحيوان فيجفل ويحرك قرنيه خوفاً وحذراً ، انظر ذلك في قوله [1] :

كأخنَسَ ناشطٍ جادتْ عليهِ ببُرْقَةِ واحفٍ أُخرَى الليالي

أضلَّ صِـــوارَهُ وتضيَّفتْهُ نَطُوفٌ أمرُها بيدِ الشَّمالِ

فباتَ كأنهُ قاضي نُذُورٍ يلوذُ بغَرْقَدٍ خَضِلٍ وضالِ

إذا وكَفَ الغُصونُ على قَرَاهُ أدارَ الرَّوْقَ حالا بعدَ حالِ

٣ — وتكثر هنا الحركة كثرة واضحة ، تراها في عدو الحيوان وهروبه ، في نشاطه وخفته ، في المقاتلة بين الثور وكلاب الصيد ، وفي ملاحقة الصياد ، وفي سرعة الفرس وهباب الناقة في الزمام ، في سفر الظعائن ، واضطراب السراب وهبوب الريح ونزول المطر ، الى غير ذلك مما لا حصر له من الحركات .

٤ — ثم يمثل المشاهد التي فيها حركات وأحوال ويقربها للذهن أما باستعمال

---

١ — الديوان ص ٧٦ — ٧٧ . الاخنس : الثور ، والخنس ارتداد الانف في الوجـــه . واحف : مكان . صواره : بقره . تضيفته : نزلت به سحابة . نطوف : تنطف بالماء تسيل قليلاً قليلاً . غرقد : شجر . خضل : ندى . الضال : السدر البري . وكف : قطر . قراه : ظهره . الروق : القرن .



صيغ الحال الاعرابية أو بوصف الهيئة الدالة على الأوضاع والحركات ، لاحظ في هذا حركات الحمار الكثيرة وأوضاعه وهو يحوم حول أتانه [1] :

ظَلَّتْ تُخالِجُـــهُ وظَلَّ يحوطُها طَوْراً ويَرْبأُ فوقَهـــا ويَحُومُ

يوفي ويرتَقِبُ النِّجادَ كأنَّـــهُ ذو إرْبَةٍ كُلَّ المرامِ يرومُ

حتى تَهجَّرَ في الرَّواحِ وهاجَهُ طَلَبُ المعقِّبِ حَقَّهُ المظلومُ

وكذلك في تصوير أحوال الحمار وهو يتفكر في أمره ، ثم وهو يدفع أتانه ويثير غباراً كالضباب [2] :

يُقلِّبُ أطرافَ الأمورِ تَخالُهُ بأحناءِ ساقٍ آخرَ الليلِ ماثلا

فَهيَّجَها بعد الخِلاجِ فسامَحَتْ وأنْشأ جَوْناً كالضَّبابةِ جائلا

وكذلك تجد الحركات والأحوال في المعركة التي تنشب بين الثور وكلاب الصيد ، كيف يبكر الصياد ، وكيف يقاتل الثور قتال فارس مقدام ، وكيف يشك صفاح الكلاب ، ثم يحرص على بيان حال الثور بعد ذلـــك حين يخرج منتصراً موفور العافية [3] :

---

١ – الديوان ص ١٢٧ – ١٢٨ . تخالجه : تميل عنه جانباً . يربأ : يعلو رابية . يوفي : يشرف . ذو اربة : ذو حاجة . المعقب : الذي يطلب حقه .

٢ – الديوان ص ٢٣٧ . ساق : جبل لبني أسد . سامحت : طاوعت أي الاتن . الخلاج : التودد والتعشق . جوناً : غباراً أسود يشبه الضباب .

٣ – الديوان ص ١٤٥ – ١٤٦ .

وهكذا يكاد كل شعره يفيض بهذه الأحوال والحركات وتصوير العواطف والمشاعر والهواجس النفسية ، ولا شك أنه كان يصدر في ذلك عن عاطفة انسانية كبيرة في حبه للحيوان ، وشغفه به ، واشفاقه عليه ، ولعل من أثر هذه العاطفة الانسانية ان البقرة او الثور يكونان في منجاة دائماً من كلاب الصيد وسهام الصائد .

٦

بناء القصيدة :

في ديوان لبيد أربع وثلاثون قصيدة — غير المقطوعات والأبيات المفردة — منها ست قصائد مطولات أبياتها بين خمسين بيتاً وبين اثنين وتسعين بيتاً وبقية القصائد عدة أبياتها بين عشرة أبيات وأربعين بيتاً لكل قصيدة ، ويكثر في قصائده الطوال الوصف والفخر والغزل وذكر الديار ، وتتنوع فيها الأغراض ، ويكثر الانتقال من موضوع لآخر . وخير مثال لهذه القصائد الطوال المعلقة .

ولبيد يصنع قصائده على نمط خاص به ربما لا نعهده عند شعراء آخرين . ولكي نقف على صناعة لبيد ونتبين ميزات فنه ، ننظر في بناء القصيدة وتكوينها :

أ — المطلع :

لم يلتزم لبيد مطلعاً معيناً ، بل نوع في مطالعه ، فجاءت على ضروب مختلفة ، ولكن الملاحظ ان القصائد الطوال كانت تبدأ بذكر الديار أو الغزل التقليدي ، أما القصائد المتوسطة والقصار ، فكانت تتفاوت بين الرثاء والهجاء والدين ، حيث افتتح بعض قصائده بتسبيح الله وحمده ، والصفة الغالبة في



مطالع القصائد هي الوقوف على الديار ووصفها وسؤالها . واذا رحنا نرتب المطالع ونصنفها حسب كثرتها وأهميتها نجد :

١ ـ ذكر الديار ووصفها والوقوف عليها أو مساءلتها . وغالباً ما تكون هذه المطالع في القصائد الطويلة التي تتنوع موضوعاتها وتتعدد أغراضها على نحو قوله [١] :

أَلَمْ تُلْمِمْ على الدِّمَنِ الخَوالي لِسَلْمَى بالمذانِبِ فالقُفالِ

أو قوله [٢] :

عَفَتِ الديارُ مَحَلُّها فَمُقامُها بِمِنىً تأَبَّدَ غَوْلُها فَرِجامُها

٢ ـ الغزل أو عتاب امرأته . وكثيراً ما يرد مرتبطاً بذكر الديار ، وهذه المطالع تكثر كذلك في القصائد الطوال التي تتنوع موضوعاتها في مثل قوله :

كُبَيْشَةُ حَلَّتْ بعدَ عَهْدِكَ عاقِلا وكانت له خَبْلًا على النَّأْيِ خابلا

أو قوله :

أعاذِلَ قومي فاعذُلي الآنَ أو ذَرِي

فلستُ وإن أقصرتِ عني بِمُقْصِرِ

---

١ ـ الديوان ص ٧٢ .

٢ ـ الديوان ص ٢٩٧ .

٣ — رثاء قومه وأهله وبخاصة أربد ، وكثيراً ما يمتزج بنزعة متشائمة ، يتذمر من الحياة وتطاول الأيام ويتحسر على ذهاب الطيبين ، وغالباً ما تكون هذه المطالع في القصائد القصار أو المقطوعات التي تحافظ على الوحدة الموضوعية ، وقليلاً ما يخرج الى موضوع آخر ، ومن هذه المطالع قوله [١] :

لن تُفْنِيا خَيْرَاتِ أَرْ بَدَ فابكِيا حتَّى يَعُودا

أو قوله [٢] :

يا مَيَّ قومي في المآتم واندبي فتىً كان ممن يبتني المجدَ أروعا

ولم يشذ عن هذا المنهج الا في قصيدة واحدة ، هي قصيدته التي رثى بها النعمان بن المنذر ، فقد كانت طويلة بلغت اثنين وخمسين بيتاً ، وشغل أكثرها وصف قوة النعمان وسعة سلطانه ، وقد كثرت فيها الحكمة التفكر في الحياة والموت ومطلع القصيدة [٣] :

أَلَا تسألانِ المَرْءَ ماذا يُحاوِلُ أَنَحْبٌ فيُقْضَى أم ضَلَالٌ وباطِلُ

٤ — ذكر الدين وتسبيح الله وحمده وتوحيده ، وقد جمع في هذا النوع بين القصائد القصيرة ذات الموضوع الواحد او الموضوعات القريبة المتشابهة المتصلة بالدين كالحكمة وذكر الماضين مثل التي يقول في أولها [٤] :

---

١ — الديوان ص ١٦٣ .

٢ — الديوان ص ١٧٣ .

٣ — الديوان ص ٢٥٤ .

٤ — الديوان ص ٣٨ .

حمدت اللهَ واللهُ الحميدُ وللهِ المؤثَّـلُ والعديدُ

أو قوله [1] :

إنما يحفظ التُّقى الأبرارُ وإلى اللهِ يستقِرُّ القرارُ

وجمع بين القصائد الطويلة التي تتعدد فيها الموضوعات ويكثر فيها الاستطراد مثل قصيدته التي بلغت خمسة وثمانين بيتاً ، وقد بدأها بقوله [2] :

إنَّ تقوى ربنا خيرُ نَفَلْ وبإذنِ اللهِ رَيْثِي وعَجَلْ

٥ – ومنها مطالع في موضوعات مختلفة كالهجاء والفخر والحكمة أو تذكر الماضين أو العتاب ، وقد جاءت هذه المطالع في المقطعات ذوات الغرض الواحد في مثل قوله في الهجاء [3] :

ولدتْ بنو حُرثانَ فرخَ مُحَرِّقٍ بِلِوَى الوَضيعةِ مُرْتَجَ الأبوابِ

أو قوله في الفخر [4] :

مَنْ كان منِّي جاهلاً أو مُغَمَّرا فما كان بِدْعاً في بَلائِي عامِرُ

---

١ – الديوان ص ٤١ .

٢ – الديوان ص ١٧٤ . النفل : الفضل والعطية .

٣ – الديوان ص ٢١ .

٤ – الديوان ص ٢١٥ .

أو قوله في العتاب [1] :

لما دعاني عامرٌ لأسبّهم   أبيْتُ وان كان ابنُ عَيْساءَ ظالما

وهكذا نجد لبيداً لم يخرج على مألوف شعراء عصره من العناية بالمطالع وبخاصة التي تبدأ بالغزل والديار فهي صفة غالبة على شعره كما هي غالبة على شعر الجاهليين ، وان الذي يميز مطالعه هذا التصرف والتنويع في الموضوعات التي افتتح بها قصائده .

ب – التخلص والانتقال :

يكثر التخلص حيث تكثر الموضوعات في القصائد الطويلة ، وحظ لبيد من هذه القصائد كبير ، فقد تقدم أن للبيد عشرين قصيدة طويلة منها أربع قصائد مسرفة في الطول تبلغ على التوالي : ستين ، خمسة وثمانين ، ثمانية وثمانين ، اثنين وتسعين بيتاً ، غير ذوات الخمسين أو ذوات الأربعين أو ذوات الثلاثين . ولذلك كثرت الموضوعات في القصيدة الواحدة ، وكثر الانتقال من موضوع لآخر ، وانتقالات لبيد في أكثرها طبيعية منسجمة ليس فيها فصل أو انقطاع بل كثيراً ما يمهد الموضوع السابق للموضوع اللاحق ويتخلص اليه بمهارة وبراعة ، ولم يتبع لبيد أسلوباً معيناً في تخلصه ، فقد اتخذ في ذلك وسائل كثيرة ، ولكننا نستطيع بتقصي انتقالاته وملاحظة اللوازم التي استعملها أن نرتبها حسب كثرتها وغلبتها على النحو الآتي :

١ – الواو :

واو رب أو واو الابتداء ، وتكاد تكون هي اللازمة الغالبة على انتقالاته

---

[1] – الديوان ص ٢٨٦ .

فقد جاءت أكثر من عشرين مرة ، وغالباً ما تتكرر هذه الانتقالات في القصيدة الواحدة بنفس الأداة ، من ذلك قوله في واو رب [1] :

وكثيرةٍ غرباؤها مجهـــولةٍ ترجى نوافلها ويُخشى ذامُها

أو قوله [2] :

وغيثٍ بدكداكٍ يزين وهاده نباتٌ كوشي العبقريّ المخلَّبِ

أما تخلصه بواو الابتداء فمثل قوله [3] :

وحميتُ قومي إذ دعتني عامرٌ وتقدَّمتْ يومَ الغبيطِ وفودُ

وقوله [4] :

وكنتُ إذا الهمومُ تحضَّرتني وضنَّتْ خلَّةٌ بعدَ الوصالِ

٢ — الاستفهام :

وقد يتخلص بالاستفهام ، فاذا استعمل الهمزة فتكون مقرونة اما بالاشارة مثل قوله [5] :

---

١ — الديوان ص ٣١٧ .
٢ — الديوان ص ١١ .
٣ — الديوان ص ٣٧ .
٤ — الديوان ص ٧٥ .
٥ — الديوان ص ٨١ .

أذلكَ أم عِراقِيٌّ شَتيمٌ أرنٌّ على نَحائِصَ كالمَقالي

أو تكون مقرونة بالنفي مثل قوله [1] :

أوَ لَمْ تكن تَدْرِي نَوَارُ بأنَّني وَصَّالُ عَقْدِ حبائِلٍ جَذَّامُها

وقد استعمل الحرف (هل) في الاستفهام كما في قوله [2] :

هل يُبْلِغَنِّي ديارها حَرَجٌ وَجْناءُ تفري النَّجاءَ والخَبَبا

وقد يأتي الانتقال بهل مقروناً بـ (يا) كما في قوله [3] :

يا هل تَرَى البرقَ بِتُّ أَرْقُبُهُ يُزجِي حَبِيًّا إذا خَبا ثَقَبا

٣ – الاشارة :

والاشارة من أساليب الانتقال عند لبيد ولكنها لا تأتي وحدها الا قليلا كقوله [4] :

تلك ابنةُ السعديِّ أضحَتْ تشتكي لتخونَ عهدي والمَخانَةُ ذَامُ

---

١ – الديوان ص ٣١٣ .

٢ – الديوان ص ٢٧ .

٣ – الديوان ص ٢٩ .

٤ – الديوان ص ٢٩١ .

بل يكثر مجيئها مسبوقة بحرف من الحروف ، كالفاء في قوله [1] :

فبتلك أقضي الهَمَّ إنَّ خِلاَجَهُ سَقَمٌ وإني للخِلاجِ صَرُومُ

ويكثر مجيء الاشارة مسبوقة بالهمزة ومتبوعة بـ (أم) وهذا اساوب تكرر في شعره مثل قوله [2] :

أفتلكَ أم وحشيةٌ مسبوعَةٌ خَذَلَتْ وهاديةُ الصِوارِ قِوامُها

٤ - الأمر :

وقد استعمل الأمر كذلك ، ولا يأتي الأمر الا متصلا بالفاء والواو الا قليلا كقوله [3] :

اعقِلي إن كنتِ لَمَّا تَعْقِلي ولقد أفلَحَ من كانَ عَقَلْ

وأكثر ما يأتي متصلا بالفاء مثل قوله [4] :

فدَعْ عنك هذا قد مَضَى لسبيلِهِ وكَلِّفْ نَجِيَّ الهَمِّ انْ كنتَ رَاحِلا

وأقل من ذلك اتصال الأمر بالواو ، كقوله [5] :

---

١ - الديوان ص ١٣١ .
٢ - الديوان ص ٣٠٧ .
٣ - الديوان ص ١٧٧ .
٤ - الديوان ص ٢٤٧ .
٥ - الديوان ص ٣٢٤ .

وأفعَلْ بما لكَ مــا بدا لك إنْ مُعانا أو مُعِينا

٥ – الفـــاء :

واستعمال الفاء كثير ، وتأتي مقرونة أيضاً أمــا بالأمر أو بالاشارة أو بالاستفهام وقد تقدم ذلك ، وقليلا ما تأتي وحدها مثل قوله [١] :

فصرفت قصرا والشؤون كأنها غرب تحث به القلوص هزيم

أو قوله [٢] :

فصَدَدْتُ عن أطْلالِهِنَّ بجَسْرَةٍ عَيْرَانَةٍ كالعقْرِ ذِي البُنْيان

٦ – قـــد :

لا تأتي الا مقرونة باللام ومسبوقة بالواو ، سواء كانت للتحقيق كقوله [٣] :

ولقَدْ سَئِمْتُ من الحياةِ وطولِها وسُؤالِ هذا الناسِ كيفَ لبيدُ

أم للتعليل كقوله [٤] :

ولقد يعلمُ صَحْبي كلُّهــم بِعَدَانِ السَّيْفِ صَبْرِي ونَقَلْ

---

١ – الديوان ص ١٨٦ .
٢ – الديوان ص ١٢١ .
٣ – الديوان ص ٣٥ .
٤ – الديوان ص ١٨٦ .

٧ – أو :

وقد يتخلص باستعمال (أو) في مواضع قليلة مثل قوله [١] :

أو عازِبٍ جادَتْ على أرْوَاقِه   خَلْقاءُ عامِلَةٌ ورَكْضُ نُجُومِ

٨ – بــل :

وأقل من ذلك استعماله (بل) وقد وردت في المعلقة في موضعين وذلك في قوله [٢] :

بل أنتِ لا تدرينَ كم من ليلةٍ   طَلْقٍ لذيذٍ لَهْوُها ونِدَامُها

وقوله [٣] :

بل ما تذَكَّرُ من نَوَارَ وقد نَأَتْ   وتقَطَّعَتْ أسبابُها ورِمامُها

٩ – التخلص بغير أداة :

وقد يأتي الانتقال بغير أداة ، ولكنه هنا يستعمل صيغة تشعر ببدء فكرة جديدة ، وهذا أسلوب يكثر في شعره مثل قوله [٤] :

---

١ – الديوان ص ١١١ .
٢ – الديوان ص ٣١٣ .
٣ – الديوان ص ٣٠١ .
٤ – الديوان ص ٩٣ .

سقَى قومي بني مَجْدٍ وأسقَى   نُمَيْراً والقَبائِلَ من هِلَالِ

أو قوله [1] :

رأيتُ التُّقَى والحمدَ خيرَ تِجَارةٍ   رَباحا إذا ما المرءُ أصبَحَ ثاقِلا

أو قوله [2] :

بنو عامرٍ من خيرِ حَيٍّ علمتُهُمْ   ولو نَطَقَ الأعداءُ زُورا وباطِلا

الى غير ذلك .

من هذا يتضح أن لبيداً لم يلتزم بصيغة خاصة معينة في التخلص من موضوع لآخر ، وقد استخدم في كل موضع الأداة التي تفي بحاجته في الانتقال ، وترضي حاسته الفنية ، ولذلك كثرت وسائل التخلص في شعره ، ولم يقف عند أسلوب بعينه ، وبتقصي المواضع التي تخلص فيها من الغزل والديار الى الناقة — وهذا ترتيب طبيعي في الشعر الجاهلي — نجد تنويعاً في هذا التخلص ، ولم يلتزم في هذا الموضع بصيغة تقليدية أو معنى مكرر ، وبذلك لا يصح ما ذهب اليه بعض الباحثين من ان الجاهليين التزموا في التخلص الى الناقة خاصة صيغاً بعينها وجمدوا عليها وان هذا الجمود قد الغى شخصيات الشعراء [3] . بل قد يصح العكس في هذا ، فللبيد أساليب في التخلص تختلف عن أساليب زهير أو طرفة أو الأعشى .

---

١ — الديوان ص ٢٤٦ .

٢ — الديوان ص ٢٤٩ .

٣ — الدكتور محمد محمد حسين ، مقدمة ديوان الاعشى ص (ث) .

وفد كان لبيد مجيداً في انتقالاته ، فهو يحتال للمعنى الجديد بأن يمهد له ويعقد صلة بين معنى سابق وآخر لاحق ، ولذلك قل استعماله لأساليب القطع التي تكثر عند الجاهليين في قولهم (دع ذا) ولم ترد هذه الصيغة في شعر لبيد الا مرتين ، ولم أجد في شعره ما يشعر بالقطع أو التخلص الرديء الا في قصيدة واحدة هي القصيدة الثانية عشرة ، فقد كان في سياق وصف الحمار وأتانه ثم انتقل فجأة الى ذكر بعض القبائل التي هزمها قومه يوم النخيل فقال[1] :

شفَى النفسَ ما خُبِّرْتُ مُرّانَ أَزْهِفَتْ ... وما لَقِيَتْ يومَ النُّخَيْلِ حَرِيمُ

وأكبر الظن أن في القصيدة أبياتاً ساقطة قبل هذا البيت ، ومما يقوي هذا الظن ان تعداد هذه القصيدة خمسة عشر بيتاً ، وقد بدأها بذكر دار هند ثم وصف الحيوان ، وقد كانت عادته الاطالة في مثل هذه القصائد التي يبدؤها بذكر الديار ثم وصف الحيوان .

٧

الوحدة الموضوعية :

والأمر الذي يمكن ان نفيده من عناية لبيد بالانتقال وحسن التخلص من فكرة لأخرى أو موضوع لآخر هو هذا الربط المحكم بين الموضوعات ، فالموضوع الواحد مترابط في أفكاره ، والأفكار مرتبة والأبيات موصولة بعضها ببعض ، بحيث لا يمكن الاستغناء عن أبيات من القصيدة ولا يمكن تبديل مواضعها دون الاخلال بمعانيها ، هذا في الموضوع الواحد، ثم ترتيب الموضوعات في القصيدة الواحدة ، فالموضوعات مرتبة بحيث تكمل الفكرة فكرة أخرى ،

---

١ ـ الديوان صفحة ٩٨ . أزهفت : لم تصر الى خير ، صرعت .

وهناك نظام في ترتيبها قد يعزى الى عناية لبيد وتخطيطه للقصيدة ، وقد يعزى الى ما يسمى بتداعي الخواطر ، فالقارىء للشعر العربي عامة وشعر لبيد خاصة يجد ثمة نظاماً في القصائد الطوال ، فأغلبها تبدأ بذكر الديار ، ولا شك أن حياة البادية حياة نقلة وأسفار ، فهو يمر على ديار الأحبة وقد ظعنوا ، فتهيج هذه الديار مشاعره ويتذكر صلاته بأهلها ، قد تكون له فيها ذكريات طفولة وصبا ، وقد تكون أيام حب وهوى فيتغزل بحبيبته ويذكر أيامه وإياها ، ثم يصف وداعها حين سارت الظعائن وبعدت الحمول ، فيتابعها ببصره ، فاذا غابت في لجج السراب تابعها بذهنه، فيذكر المواضع التي مرت بها أو حلت فيها ثم يفيق من هذه الذكريات ، فيركب ناقته ويعاود رحلته في هذه البادية المقفرة الموحشة التي ليس فيها ما يؤنس وحدته ويطرد وحشته غير ناقة جسرة عيرانة ، فيأخذ في وصفها والثناء عليها ويذكر صفاتها من الصبر والقوة والجرأة والسرعة وغير ذلك من الصفات الجيدة ، ويقرب هذه الصفات بتشبيهها بحيوانات الصحراء ، فيتوهم لهذه الحيوانات قصصاً طريفاً ، يجد فيه تعبيراً عن خوالج صدره ، وتنفيساً عن همومه فيقص ويصف ما تقع عليه عينه أو ما يحيط به خياله ، وهو بذلك يرضي نزعتين في نفسه يخفف عن همومه ويطرد مخاوف الوحدة من ناحية ، ويرضي نزعته الفنية بتحبير قصيدة أو جزء من قصيدة من ناحية أخرى . ثم ان هذه الرحلة فيها متاعب ومصاعب يحرص على تسجيلها فيذكر صبره وحسن بلائه وبعد همته وقوة عزيمته ، وهذا يدعوه الى الفخر بنفسه وذكر أمجاده وخصاله ، ثم يدعوه واجبه القبلي ان يذكر قومه ويشيد بفعالهم ويتغنى بأمجادهم ، وهو في أثناء ذلك يتأمل في الحياة ومصير الماضين فيسوق الحكم والأمثال والمواعظ . وهكذا نجد الصلة وثيقة بين موضوعات القصيدة الواحدة ، فكل جزء فيها يذكر بجزء بعده ويستجيب لجزء قبله ، فاذا المعاني موصولة يأخذ بعضها برقاب بعض لأن الأفكار متداعية ، هذا اذا أحسن الشاعر التخلص والربط بين الموضوعات ولم يكن في القصيدة قطع أو بتر ، والشاعر الجيد هو الذي يحسن وصل فكرة بأخرى بحيث تبدو امتداداً

لها ، ونستطيع أن نلمس ذلك في قصائد لبيد الطويلة من مثل القصائد : الحادية عشرة ، والخامسة عشرة ، والسادسة والعشرين ، والخامسة والثلاثين ، والسادسة والثلاثين ، وكذلك المعلقة التي يصح أن نجعلها نموذجاً جيداً لذلك .

وقد يقال إن الوحدة الموضوعية اذا تحققت في المقطوعات وبعض القصائد الطويلة فانها لا تطرد في كل القصائد ، وهذا صحيح فان بعض القصائد يبدو فيها التفكك والاضطراب ، ولست أعزو سبب ذلك الى اضطراب ذهن لبيد أو عدم عنايته بالربط بين الموضوعات ، ولكني أعزو ذلك الى أن شعر لبيد — كأكثر الشعر الجاهلي — قد تعرض للضياع وسقط منه الكثير ، واعتراه التقديم والتأخير ، فلا بد أن يكون قد سقط جزء من تلك القصائد أو أبيات منها فبقي التفكك والانقطاع دليلاً على تلك الأجزاء الساقطة ، ومما يعزز هذا الفرض أن في ديوان لبيد عدداً كبيراً من الأبيات المفردة التي لم تنتظمها مقاطع أو قصائد ، ولا شك أن تلك الأبيات بقايا مما ضاع أو سقط من شعره .

ونستطيع أن ندلل بعد ذلك على عناية لبيد بترابط القصيدة وحرصه على وحدتها بمظاهر ثلاثة تبدو واضحة في شعره وتقوم دليلاً على وحدة القصيدة وهي :

١ — الاستدارة .　　٢ — والاستطراد .　　٣ — والقصص .

١ — الاستدارة :

والاستدارة صورة من صور ترابط أبيات القصيدة وتماسكها ، فقد يسوق الشاعر مجموعة من الأبيـــات ، كل بيت تام المعنى بنفسه ، ولكن المعنى العام للقطعة لا يتم الا في البيت الأخير ، فالذهن عند القراءة يبقى معلقاً متابعاً لمعاني الأبيات ، حتى يستريح الى البيت الأخير الذي فيه تمام المعنى ، وقد تمثل ذلك في شعر لبيد بعدة صور :



أ – فقد يذكر الفعل في بيت ثم يؤخر مفعوله الى بيت آخر مثل قوله [1] :

فـــورَدْنا قبلَ فُرّاطِ القَطا … إنَّ من وِرْدِيَ تَغْلِيسَ النَّهَلْ
طاميَ العَرْمضِ لا عهـــدَ لهُ … بأنيسٍ بعدَ حَوْلٍ قد كَمَلْ

فقد ذكر الفعل (ورد) في البيت الأول ، وجاء بمفعوله (طامي) في البيت الثاني ، وهو صفة لمفعول محذوف تقديره (وردنا ماء أو منهلاً طامي العرمض).
ومثل هذا قوله [2] :

فدَعْ عنكَ هذا قد مَضَى لسبيلهِ … وكَلِّفْ نَجِيَّ الهَمِّ إنْ كنتَ راحِلا
طَليحَ سِفارٍ عُرِّيَتْ بعدَ بذلةٍ … ربيعا وصيفا بالمضاجِعِ كامِلا

فقد جاء بالفعل (كلف) في البيت الأول وأخر المفعول (طليح) الى البيت الثاني . فجعل البيتين مترابطين لا يمكن الاكتفاء بواحد منهما دون الآخر .

ب – أو ان يذكر الشرط وفعله في بيت ، ويأتي بجوابه في بيت آخر كقوله [3] :

فقُولَا لهُ إنْ كانَ يُقْسِمُ أمرَهُ … ألمَّا يَعِظْكَ الدَّهرُ أُمُّكَ هابِلُ
فتَعْلَمَ أنْ لا أنتَ مُدْرِكُ ما مضَى … ولا أنت مما تَحْذَرُ النفسُ وائِلُ

---

١ – الديوان صفحة ١٨٣ – ١٨٤ .

٢ – الديوان صفحة ٢٤٧ .

٣ – الديوان صفحة ٢٥٥ .

فقد أخر جواب (لما) الى البيت الثاني فنصب به (تعلم)، وكذلك قوله[1] :

فان تَنأَ دارٌ أو يَطُلْ عهدُ خُلَّةٍ   بعاقبةٍ أو يُصبحُ الشَّيْبُ شامِلا

فقد تَرتعي سَبْتا ولسنا بجِيرةٍ   مَحَلَّ الملوكِ نُقْدَةَ فالمَغاسِلا

الى غير ذلك من الشواهد الكثيرة .

جـ — أو أنه يأتي بمتعلق الفعل في بيت متأخر كما في قوله[2] :

عتيقُ سُلافاتٍ سَبَتْها سفينةٌ   تَكُرُّ عليها بالمزاج النَياطِلُ

بأشهبَ من أبكارِ مُزْنِ سَحابَةٍ   وأرْيِ دَبُورٍ شارَهُ النحلَ عاسلُ

فقد أخر الجار والمجرور (بأشهب) وكذلك جاء بعده وقد علق (على ما تريه) بالفعل قبله[3] .

تَكُرُّ عليه لا يُصَرَّدُ شربَهُ   إذا ما انتَشى لم تحتضِرْهُ العواذِلُ

على ما تُرِيهِ الخمرُ اذ جاشَ بحرهُ   وأوشَمَ جودٌ من نَداهُ ووابِلُ

د — أو قد يذكر المبتدأ في بيت ويخبر عنه في بيت آخر، كما في قوله[4] :

---

١ — الديوان صفحة ٢٤٥ .

٢ — الديوان صفحة ٢٥٨ .

٣ — الديوان صفحة ٢٥٨ .

٤ — الديوان صفحة ١٨١ .

وَمُجُودٍ من صُباباتِ الكَرَى عاطفِ النُمرٌقِ صَدْقِ المبتَذَلْ
قال هَجِدْنا فقد طالَ السُّرَى وقَدَرْنا ان خَنَى الدهرُ غَفَلْ

او قوله في وصف الابل حيث شبه النخيل باحداجها على المقلوب ، وقد آخر خبر (كأن) الى البيت الثاني في قوله (أحداجها) ، فقال :

فَرُحْنَ كأنَّ الناديات من الصَفا مذارعها والكارعاتِ الحَوَامِلا
بذي شَطَبٍ أحداجُها إذْ تحمَّلوا وحَثَّ الحُداةُ الناعجاتِ الذَّوامِلا

والأمثلة على هذا الضرب من تعليق الكلام وربط الأبيات بعضها ببعض كبيرة ، وحسبنا ما تقدم منها .

٢ – الاستطراد :

والاستطراد دليل آخر على وحدة القصيدة ، ففي ذهن الشاعر خط واضح لمجرى القصيدة ، فحين تدعوه المناسبة أن يخرج الى وصف جانبي كقصة حيوان أو تفصيل جزء من أجزاء الموضوع أو استكمال معنى من المعاني بتشبيهه، فانه سرعان ما يعود الى سياقه الاول ليربط بين الموضوع العام وهذا الخروج العارض وقد رأينا ألواناً من هذا الاستطراد وبخاصة حين يصف ناقته فيشبهها بالحمار أو بالبقرة أو بالثور ، ثم يمضي يحكي مغامرة هذا الحيوان ومحنته وانتصاره على كلاب الصيد ، حتى اذا اكتفى من رسم صور المشبه به عاد الى الناقة ثانية ليعقد الصلة بين قوة هذا الحيوان ونشاطه وبين قوة ناقته وصفاتها ، وهكذا فان الموضوعات وان تعددت فهي تجري وفق نظام معين فيه عود على السياق ، أي



أن هناك وحدة في الموضوع يحافظ عليها ويعقد لأجلها هذه الصور الجانبية كي تكتمل الصورة العامة التي يريدها .

وقد يكون الاستطراد طويلاً يستغرق مقاطع من القصيدة كما في وصف الحيوان أو غير الحيوان كالغزل بالمرأة ، فمثلاً نراه في القصيدة الخامسة والثلاثين يتحدث عن كُبيشة وصواحبها ومنازلها ، ثم يستطرد الى الناقة ويشبهها بحمار الوحش ثم بثور الوحش ويعود بعد ذلك الى سياقه الأول في الغزل ، ويمضي متغزلاً بصاحبته فيذكر شوقه اليها وأيامه معها ، ويصف محاسنها ومحاسن صواحبها ، فيقول [1] :

يَرُضْنَ صِعابَ الدُّرِّ في كل حِجَّةٍ   ولو لم تكن أعناقُهنَّ عواطِلا

غرائرُ أبكارٌ عليها مَهابَةٌ   وعُونٌ كرامٌ يرتدينَ الوَصائِلا

كأن الشَّمولَ خالطتْ في كلامِها   جَنِيّاً من الرمان لَدْنا وذابِلا

فنراه حين تعرض لكلامها شبهه بالخمرة ، ثم راح يفصل في ذكر الخمرة وقدمها وأباريقها وسقاتها ، وكأنه نسي الموضوع الأول [2] :

لذيذاً ومنقوفاً بصافي مَخِيلَةٍ   من الناصِع المختومِ من خَمْرِ بابلا

---

١ – الديوان ص ٢٤٣ – ٢٤٤ . الحجة : شحمة الاذن ويقال : الخرزة أو اللؤلؤة تعلق في الاذن . الوصائل : ثياب يمانية . الشمول : الخمر .

٢ – الديوان ص ٢٤٤ – ٢٤٥ . المنقوف : المقشر الذي استخرج ما فيه من حب ، او المتروك من الشراب وهنا الممزوج بماء مخيلة . والمخيلة : السحابة . الرصف : الماء الذي ينحدر من الجبال على الصخر فيصفو . البيض : هنا الأباريق أتأقوا : ملأوا . الغلل : المصفاة ، وهو الفدام على رأس الابريق . الرازقي : الكتان . الكرسف : القطن . صفقت : مزجت .

يُشَنُّ عليها من سُلافَةِ بارقٍ سناً رَصَفاً من آخر الليلِ سائلا

تُضَمَّنُ بيضاً كالأُوَزِّ ظروفُها إذا أتأَقُوا أعناقَها والحواصِلا

لها غَلَلٌ من رازِقيٍّ وكُرْسُفٍ بأيمانِ عُجْمٍ يَنْصُفُونَ المُقاوِلا

إذا صُفِّقَتْ يوماً لأربابِ رَبِّها سمعت لها من واكفِ العُطْبِ واشلا

حتى اذا هو استكمل أوصاف الخمرة ، وأرضى حاسته الفنية في وصفها ، عاد الى سياقه الأول في الغزل ، وراح يستعيد ذكرياته ويتحدث الى صاحبته[1]:

فان تنأ دارٌ أو يَطُلْ عَهْدُ خُلَّةٍ بعاقِبَةٍ أو يُصْبِحُ الشيبُ شاملا

فقد نرتَعِي سَبْتاً ولسنا بِجِيرَةٍ مَحَلَّ الملوكِ نُقْــدَةً فالمَغاسِلا

ليالِيَ تحتَ الخِــدرِ ثِنْيَ مُصيفَةٍ

من الأُدْمِ ترتادُ الشُّروجَ القَوابِلا .. الخ

وقد يكون استطراده قصيراً يجتزىء ببيت أو اثنين يعالج فيهما جانباً معيناً يوضح فكرة أو يستكمل جانباً من جوانب الصورة الاولى ، ثم يتابع سياقه المرسوم وذلك كأن يتحدث عن الناقة وقوتها وطولها فيشبهها بسفينة

---

١ – الديوان ص ٢٤٥ . سبتاً : دهراً . ثني : ظبية ولدت بطنين . مصيفة : ولدت بعدما كبرت . الشروج : مسايل الماء .

أحكم بناؤها ، فيصف هذه السفينة في بيتين ، ثم يعود الى ناقته في البيت الثالث وذلك حيث يقول [1] :

فثنيتُ كَفِّي والقِرابَ ونُمرُقي ومكانهنَّ الكُورُ والنِّسْعانِ
كسفينةِ الهنديِّ طابقَ درءَها بسَقائِفٍ مشبوحَــةٍ ودِهانِ
فالتام طائِقُها القديمُ فأصبحَتْ ما ان يُقوِّمُ دَرْءَهـا رِدْفانِ
فكأنها هي يومَ غِبٌّ كلالِها أو أسفَعُ الخدين شاةُ إرانِ

أو أن يتحدث عن حمار الوحش ويمثل صوته بصوت رجل غوي قد شرب الخمر ، ثم يقف عند الخمر يصفها في بيت واحد مبيناً دبيبها في العظام ويعود بعدها الى استكمال قصة الحمار وأتانه [2] :

يُطَرِّبُ آناءَ النهارِ كأنَّــهُ غويٌّ سقاهُ في التِّجارِ نديمُ
أُميلَتْ عليــهِ قُرقُفٌ بابليّةٌ لها بعد [illegible] العِظامِ هميمُ
فَرَوَّحَها يعــلو النِّجادَ عشيةً أَقَبُّ كَكُرِّ الأندَريِّ شتيمُ

---

١ – الديوان ص ١٤٢ – ١٤٣ . القراب : غلاف السيف . ويروى الفتان بوزن كتاب وهو غشاء الرحل من أدم . النمرق : الوسادة . الكور : الرحل وأداته . النسعان : السيران . طابق: احكم عملها. درءها: عيبها وفرجتها . الطائق : الفرجة بين خشبتين . ردفان : ملاحان. اسفع الخدين : الثور . شاة اران : كل وحشية من الحيوان ذات سرعة ومرح .

٢ – الديوان ص ٩٦ – ٩٧ . أناء النهار : ساعاته . يطرب : يردد نهاقه . قرقف بابلية : خمر منسوبة الى بابل لقدمها . هميم : دبيب خفي. أقب : ضامر . كر الاندري : حبل من ليف منسوب الى اندر قرية بالشام . شتيم : كريه الوجه . والبيت الاخير أصله (يقلو النجاد) ويعلو أحسن وأنسب .

والأمثلة كثيرة على هذه الاستطرادات الطويلة المفصلة، أو السريعة الموجزة، وكلها تدل دلالة واضحة على ان الشاعر يحافظ على الخط العام للقصيدة وهي عنده كُلٌ متماسك، والاستطراد حين يؤتى به لفائدة يتمم بـــه البناء العام للقصيدة.

٣ – القصص :

واذا كانت النظرة الى الاستطراد قائمة على وحدة القصيدة في سياقها العام حيث يعود بعد خروج الى الموضوع الأول، فان الوحدة العضوية تتمثـــل في شعره القصصي ضمن القصة الواحدة، حيث نجد ان الفكرة الواحدة تبدأ ببداية القصة وتنتهي عند نهايتها، والشاعر حين يروي قصة البقرة أو الثور أو الحمار أو الظليم يظل ذهن القارىء مرتبطاً بها، متتبعاً للأحداث التي يسوقها، مترقباً للنهاية التي تنتهي اليها، وبذلك لا يمكن أن يكون في الشعر القصصي تفكك أو انقطاع، لأن الحبكة القصصية توجب الترابط والتماسك فتشد الأبيات بعضها الى بعض فيأتي كل بيت في موضعه المعين ليروي جزءاً معيناً من الحادثة، وانظر في هذه القصة القصيرة – التي يصور فيها البقرة وهي تبحث عن وليدها الذي أضلته فافترسته السباع – كيف تتماسك الأبيات ويأخذ بعضها برقاب بعض لتؤدي جميعاً الى النهاية المؤلمة [1] :

وقَنـــاةٌ تبغي بحربة عهداً من صَبُوحٍ قَفَّى عليه الخَبالُ

نظرتْ عهدَه وباتت عليـــه بين فَلْحٍ واللَّوْذِ غُبْسٌ بِسالُ

---

١ – الديوان ص ٢٧٠ . القناة : البقرة الوحشية . الصبوح : اراد هنا ولدها . غبس : غبر أي ذئاب باسلة .

فابتغَتْهُ بالرمـــلَتَيْنِ ثـــلاثاً كلَّ يومٍ في صـــدرِها بَلْبالُ
ثم لاقت بصيرةً بعـــد يأسٍ وإهاباً في بعضِـــه أوصالُ

وقد قرأت فيما مضى قصصاً كثيراً للحيوان ، فلو أجلت النظر فيه لوجدت قصصاً ممتعاً فيه حوادث متتابعة تجري وفق نسق مترابط ، وتجد ان الأبيات فيها لا تقوم بنفسها بل تقوم بمجموعها ...

٨

اســــلوبه :

وأسلوب لبيد بعد ذلك تام الصياغة بالغ الجودة ، وهو على العموم جزل قوي شديد الأسر متين العبارة رصين الألفاظ . ويبدو شعر لبيد للنظرة الاولى صعباً غريباً مغرقاً في البداوة وخاصة في الموضوعات التي يتعرض فيها لوصف الصحراء أو حيوانها ، وليس من هذه الصعوبة الى معانيه وأخيلته ، بل مرجعها الى اللغة التي يكثر فيها الغريب ، وتشيع فيها ألفاظ البادية ، وأسماء مواضعها وصفات حيوانها . ولا ننسى هنا أن لبيداً كان [illegible] شعره في لغة بدوية غير لغتنا ، ويصف بيئة صحراوية غير بيئتنا ، ولكن مع كل ذلك فأبناء الحاضرة في عصره كانوا يجدون فيه غرابة وقوة وحوشية . ولا شك أسلوب لبيد كان ولا يزال يخضع لأثرين ظاهرين : أولهما البيئة ، وثانيهما الموضوع الذي يعالجه .

ولبيد شاعر بدوي وشعره مرآة صـــادقة لبيئته ، فقد سجل فيه كل مظاهرها ، وصف الرمال والنجاد والوديان ، وذكر المواضع والمنازل ، وبين الرياح والامطار والسحب ورسم صوراً حية لحيوانها الأليف منه والوحشي ، ونقل عادات البدو ومظاهر حياتهم المعاشية والاجتماعية ، ولم يغادر صغيرة

ولا كبيرة الا ذكرها أو أشار اليها ، فلذلك كثر في شعره الغريب والنادر ، ووجد علماء اللغة فيه بغيتهم فكثر ذكره في المعاجم وكتب اللغة كثرة مفرطة ، بحيث يندر ان تجد كتاباً في اللغة يخلو من شواهد شعره ولا شك ان هـــذا الغريب والنادر ، انما يكثر في شعره حين يتناول الموضوعات المتصلة بالبادية ، من وصف لمعالمها وحيوانها أو فخر بأمجاد بدوية ، أما حين يتناول الموضوعات الذاتية التي هي تعبير عن خوالج النفس أو وصف لمعالم الحضارة — وقد ظهرت بعض آثارها في شعره لأسفاره وزياراته — نجد شعره عذباً رقيقاً سلساً خالياً من الغريب مبرا من الخشونة والوعورة ، وذلك حين يتغزل أو يرثي أو يهجو أو يتفكر في الحياة فيذكر الماضين ويسوق الحكم . ولا بد هنا من التمثيل لبيان أثر البيئة والموضوع في وعورة الأسلوب أو سلاسته . اقرأ هذه القطعة الوحشية الكزة في قوله يصف حمار الوحش وأتانه [1] :

كأنَّ قَتُودي فوقَ جَأْبٍ مُطَرَّدٍ ... يُفِزُّ نَحُوصاً بالبَراعيم حائلا

رعاها مَصابَ المُزْنِ حتى تَصَيَّفا ... نِعافَ القَنانِ ساكناً فالأجاولا

فكانَ له بَرْدُ السِّماكِ وغَيْمُهُ ... خليطاً غدا صُبْحَ الحرامِ مُزايِلا

---

١ – الديوان ص ٢٣٥ – ٢٣٧ . القتد والقتود : خشب الرحل . جأب : حمار غليظ . مطرد : متتابع في سيره لا يكبو . يفز نحوصاً : يثير أتناً سمينة . البراعيم : موضع . حائل : لم تحمل أي الاتن . نعاف القنان : سفح جبل القنان وهو لبني أسد. الاجاول : مواضع . اعتقاه الصيف : اي ان الصيف جفف المـــاء الا بقايا في الثماد وهي الحفر . البهمي : نبت من احرار البقول . العرب : يبس البهمي . والسفا : شوك البهمي . ناصل : ساقط . الصلاصل : بقايا تبقى من الماء . العهد : أول المطر . والحوض والسؤبان : موضعان . رقد : جبل لبني أسد . ثادق : ماء لبني فقعس. صارة : جبل لبني أسد. الاعابل : مكان. النسيل ما سقط من الوبر. الزحاليف: المواضع المنحدرة من متنه . الطريقة : الخط الممتد على مثنى الحمار . قافلاً : عائداً .

فلما اعتقاهُ الصيفُ ماءَ ثِمادِهِ ... وقد زايلَ البُهمي سَفا العِربِ ناصِلا

ولم يتذكَّرْ من بقيَّةِ عهدِهِ ... من الحوضِ والسُؤبانِ إلا صِلاصِلا

فاجمادَ ذي رَقْدٍ فأكنافَ ثادِقٍ ... فصارةَ يوفي فوقها فالأعابلا

وزالَ النَّسيلُ عن زحاليفِ متنه ... فاصبحَ ممتدَّ الطريقةِ قافلا

ومنشأ الغلظة والغرابة هنا ليس في المعاني التي يريد ، بل في صفات الحمار والأتان ، وفي هذه الأماكن الاعرابية والمواضع النائية في قلب نجد . ولكنك تراه حين يتناول موضوعاً آخر لا سلطان للبادية عليه ، يرق رقة ربما لا تحسبها تصدر عن بدوي ، فانظر الى هذا الرثاء الحزين في عوف بن الأحوص[1] :

قومي إذا نامَ الخَلِيُّ ... فأبنِّي عَوفَ الفواضِلْ

عوفَ الفوارس والمجا ... لسِ والصَواهِلِ والذَوابِلْ

يا عوفُ احلمَ كلَّ ذي ... حِلمٍ وأقولَ كلَّ قائِلْ

يا عوفُ كنت إمامَنا ... وبقيةَ النفرِ الاوائِلْ

وهذا حديث النفس الحزينة المتألمة فهو تعبير عن مشاعر صادقة يجري على السجية ، واسمعه كذلك يتحدث الى صاحبته ، يحدثها عن نفسه وحسن فعاله واقدامه[2] :

---

١ – الديوان ص ٢٣١ .

٢ – الديوان ص ٦٢ – ٦٣ .

قالت غداةَ انتجينا عندَ جارتِها أنتَ الذي كنتَ لولا الشيبُ والكِبَرُ

فقلتُ ليس بياضُ الرأس من كِبَرٍ لو تعلمينَ وعند العالِم الخَبَرُ

لو كان غيري سُلَيْمَى اليومَ غيّرهُ وقْعُ الحوادثِ إلّا الصارِمُ الذَّكَرُ

ما يمنع الليلُ مِنّي ما هَمَمْتُ بِهِ ولا أحارُ إذا ما اعتادَني السَّفَرُ

إني أقاسي خُطوبا ما يقومُ لها إلا الكِرامُ على أمثالِها الصُّبُرُ

وسر هذه السلاسة في شعره الذاتي الذي يعبر عن عواطفه وأشواقه وخوالج نفسه ان هذا الشعر لم يخضع لأثر البيئة وان طبيعة الموضوع جعلته بهذا الشكل بحيث لم يشبه شيء من صناعة ولا كلفة ، لأن التعبير عن العواطف أمر يفهمه الناس في كل العصور ، ولغة العواطف الانسانية لا تتغير ، ولا يحول دون فهمها عقبة من بيئة أو لغة .

وقد نجد اختلاف الاسلوب في القصيدة الواحدة حين تختلف الموضوعات فقد رأيت في المعلقة كيف يغرب حين يصف الديار أو الناقة ، ولكنه يرق حين يتغزل بنوار أو يفخر بكرمه وموقفه في مجلس النعمان . وتستطيع ان تلمس هذه الظاهرة في أكثر قصائده الطويلة ، حيث تتنوع الموضوعات . واليك هذه القصيدة السهلة في مطلعها حين يسبح الله ويحمده [1] :

إنَّ تقوى ربِّنا خيرُ نَفَلْ وبأذنِ الله ريثي وعَجَلْ

---

[1] – الديوان ص ١٧٤ .

أَحْمَدُ اللهَ فلا نِــدَّ لَهُ ... بيديهِ الخيرُ ما شاء فَعَلْ

من هَداهُ سُبُلَ الخيرِ اهتدَى ... ناعِمَ البالِ ومن شاءَ أَضَلْ

فان نفسه هنا متوجهة الى الله يحمده ويذكر نعمته باسلوب رقيق عذب هادىء ولكن لو قرأت الأبيات التي بعد هذا التسبيح في نفس القصيدة تجده يذكر الصحراء ويصف ناقته بهذا الاسلوب الجزل الغليظ[1] :

ورِقاقٍ عُصَبٍ ظُلمــانُه ... كَحَزِيقِ الحَبَشيِّينَ الزُّجَلْ

قد تجاوزتُ وتحتي جَسْرَةٌ ... حُرَجٌ في مِرْفَقَيْها كالفَتَلْ

تَسْلُبُ الكانِسَ لم يُوأَرْ بِها ... شُعبَةَ الساقِ إذا الظِلُّ عَقَلْ

وتَصُكُّ المَرْوَ لما هَجَّرَتْ ... بنكِيبٍ مَعِرٍ دامي الاَظَلْ

واذا حركتُ غَرْزِي أَجْمَرَتْ ... أو قَرَا بي عَدْوُ جَوْنٍ قد أَبَلْ

بالغُراباتِ فَزرَّافاتِهــا ... فَبِخَنْزِيرٍ فأطرافِ حُبَلْ ...الخ

---

١ – الديوان ص ١٧٤ – ١٧٦ . الرقاق : الصحراء المتسعة اللينة . عصب : نشيط . الحزيق : الجماعة من الناس والطير وكذلك الزجل . جسرة : ناقة ضخمة طويلة . حرج : لا تركب ولا يضربها الفحل ليكون اسمن لها. الفتل: اندماج في مرفقيها . الكانس : كناس الظبي. لم يوأر بها : لم يشعر بها . الظل عقل : اعتدل . تصك المرو : تضرب الحجارة . معر : ساقط ناصل . الاظل : باطن المنسم من البعير . اجمرت الناقة : اسرعت وعدت . الغرز : مثل الركاب للفرس. ابل: جزأ عن الماء بالرطب . الغرابات : آكام سود . زرافاتها : ما زرف اليها أي دنا . خنزير : جبل باليمامة . الحبل : موضع باليمامة .

ولا شك أن ايثار الكلمات الغريبة في وصف البادية وحيوانها وبخاصة الناقة أمر درج عليه الشعراء الجاهليون عامة ، ولكن لبيداً كان من اولئك الغلاة في ركوب هذا المركب الصعب .

والوعورة في شعر لبيد لم تكن مقصورة على ذكر المواضع البدوية ، والمفردات الغريبة النادرة، بل تشمل ايضاً استعماله صيغاً ثقيلة في بعض الاحايين كقوله [1] :

والنِّيبُ إنْ تَعْرُ مِني رِمَّةً خَلَقا ... بعدَ المماتِ فإنِّي كنتُ أَثَّئِرُ

ولاحظ (اثئر) هذه ما اثقلها ، فقد صاغها على (افتعل) من الثأر ، وكذلك صاغ على افتعل من القول فقال [2] :

فإنَّ اللهَ نافلةٌ تُقاهُ ... ولا يَقْتالُها إلا سعيدُ

يريد ولا يقولها الا سعيد . وهو يميل الى الضخامة في الصيغ ، فيعدل احياناً عن صيغة (فعل) الى (تفعل) وذلك في قوله (تحضرتني) [3] :

وكنت إذا الهمومُ تحضَّرَتْني ... وضَنَّتْ خُلَّةٌ بعدَ الوِصالِ

وقد زاد في فخامتها اتصالها بالتاء وياء المتكلم .

---

١ – الديوان ص ٦٣ . النيب : الابل المسنة . تعرو : تأتي العظام .

٢ – الديوان ص ٣٨ . نافلة : هبة وعطية .

٣ – الديوان ص ٧٥ .

واسوأ من ذلك قوله (تدأكأت) التي لا يكاد اللسان يحسن نطقها الا بعد عسر، لتقارب مخارج حروفها وتكرار التاء والهمزة وذلك في قوله [1]:

وَتَدَأْكَأَتْ أركانُ كلِّ قبيلةٍ   وفوارسِ الملكِ الهُمامِ تَذُودُ

وانظر الاضطراب في نطق كلمه (يؤر) والاوجه المحتملة في معانيها وتفسيرها [2]، في قوله [3]:

تَسْلُبُ الكانِسَ لم يؤْرْ بِها   شُعْبَةَ الساقِ إذا الظِلُّ عَقَلْ

وقد يستعمل الفاظاً أعجمية ثقيلة قبيحة مثل (قردماني) الفارسية في قوله يصف درعاً [4]:

فَخْمَةً ذَفْراءَ تُرْتَى بالعُرَى   قُرْدُمانِيّاً وتَرْكاً كالبَصَلْ

وفي شعر لبيد كلمات اعجمية أخرى ولكنها ليست كالقردماني في ثقلها، وذلك مثل: التلاميذ، العقر، السوذانق، الهبانيق.

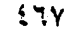
---

١ – الديوان ص ٣٧. تدأكأت: ازدحمت. الاركان: الجوانب. الهمام: الاسد، سمي هماماً لانه يهمهم اذا مشى.

٢ – انظر في هذا شرح ابن قتيبة، المعاني الكبير صفحة ٧٩٢، وشرح ابن سيدة، المخصص ١/١٤.

٣ – الديوان ص ١٧٥. لم يوأر بها: لم يشعر بها.

٤ – الديوان ص ١٩١. ذفراء: تغير رائحتها من الحديد. ترتي: تشد. قردمانياً: دروع، والكلمة فارسية (كردماند) اي عمل وبقي. تركاً: بيضا.



وقد تجيء الصعوبة من تركيب العبارة وصياغتها على اسلوب غير مألوف ، أو باستعمال مجازات غير واضحة الدلالة بحيث يذهب الرواة في تفسيرها مذاهب شتى ، ولا يكاد يجتمع اثنان على فهم عبارته .

وانظر في هذه الأبيات الأربعة التي يخاطب فيها عمه أبا براء وقد وقعت بينهما جفوة ، ولاحظ كيف يستعمل فيها التمثيل الغريب [1] :

فقلتُ ازدَجِرْ أحناءَ طَيرِكَ واعلَمَنْ بأنكَ إن قدَّمتَ رجلكَ عاثِرُ
وإن هوانَ الجار للجار مؤلِمٌ وفاقِرةٌ تأوي اليها الفَواقِرُ
فأصبحتَ أنّى تأتِها تبتئس بِها كلا مركبيها تحتَ رجلكَ شاجِرُ
فإن تتقدَّم تغشَ منها مقدَّما عظيماً وإنْ أخرتَ فالكِفلُ فاجِرُ

وتأمل في البيتين الأخيرين كيف ركب هذا المركب الوعر الغريب ، فانه يريد ان يقول : انك من أي جهة جئت هذه الخطة والداهية لزمك بأسها ، وانك ان فقدتني فلم تجد مثلي ولكنه لم يكن واضحاً بل أغرب حين اتخذ التمثيل من الناقة ولذلك فقد حار الشراح في توجيه هذين البيتين فاتعبوا انفسهم واتعبوا من بعدهم [2] .

وقد تجيء بعض أبيات لبيد وفيها ابهام في تبين علاقة الكلمات من الناحية الاعرابية بحيث يضطرب النحاة في توجيه مثل هذا البيت [3] :

---

١ – الديوان ص ٢٢٠ – ٢٢٢ .

٢ – انظر في ذلك المعاني الكبير ص ٨٧١ ، والكتاب، سيبويه ٤٣٢/١ . وأمالي المرتضى ١٠٩/٢ ط السعادة ١٩٠٧ .

٣ – انظر الخزانة، البغدادي والوجوه التي ساقها ٣٣٥/١ – ٣٣٦ ، ٤٤١/٣ – ٤٤٢، ٦٩/٢ ط عبد الحميد .

حتى تَهَجَّرَ في الرواحِ وهاجَهُ   طَلَبُ المُعَقِّبِ حَقَّهُ المظلومُ

٩

لوازم في شعره :

ومن يقرأ ش ـ لبيد يجد في أسلوبه جملة خصائص لفظية في تكوين عبارته ، وهذه الخصائص تتكرر حتى تصبح سمة بارزة في شعره ، ولوازم يلتزم بها ، من ذلك :

أ ـ الحـــذف :

المتأمل في عبارة لبيد يجد ميلاً للاختصار والاستغناء عما يمكن الاستغناء عنه من الألفاظ ، وقد تمثل ذلك في الحذف ، فهو كثيراً ما يحذف الموصوف ويكتفي بالصفة مثل قوله [1] :

واذا شَتَوا عادَتْ على جيرانِهم   رُجُحٌ تُوَفِّيها مرابِعُ كُومُ

ورجح صفة لجفان التي استغنى عنها ، وقوله [2] :

فمتى يَنْقَعْ صراخٌ صادِقٌ   يَحْلِبُوهُ ذاتَ جَرْسٍ وزَجَلْ

يريد كتيبه ذات جرس ، الى كثير من مثل هذا، والحذف عند لبيد لا يخل

---

١ ـ الديوان ص ١٣٦ .

٢ ـ الديوان ص ١٩١ .

بالمعنى بل يدل عليه السياق ، وكأنه كان يعنى بالعبارة القصيرة التي لا تطويل فيها ولا حشو ولا فضول .

ومن الحذف أن يكتفي بالضمير عن الاسم ، من غير أن يذكر الاسم في بيت سابق كقوله [1] :

فَكَلَّفْتُها وَهْماً كأنَّ نَحِيزَهُ شَقائِقُ نَسَّاجٍ يَوُمُّ المَناهِلا

فلم يذكر الناقة ، بل أشار اليها بالضمير .

وهناك ضرب آخر من الحذف في شعره وهو حذف جزء من بنية الكلمة كقوله [2] :

وقبيــــلٍ من لكيزٍ شاهد رهطِ مرجومٍ ورهط ابن المَعَلْ

يريد ابن المعلّى فحذف . وكذلك قوله [3] :

دَرَسَ المَنا بِمُتالِعٍ فأبانَ وتَقادَمَتْ بالحُبْسِ فالسُّوبانِ

يريد المنازل ، وان كان هذا الضرب الذي يسميه القدمــــاء بالتثليم [4] ، أو القبض [5] ، انما دعت اليه الضرورة .

---

١ - الديوان ص ٢٣٣ .
٢ - الديوان ص ١٩٩ .
٣ - الديوان ص ١٣٨ .
٤ - الموشح ص ٢٣٤ .
٥ - المزهر ١/١٩٥ .

ب – التذييـــل :

ويتردد في ثنايا شعره تذييل لبعض الابيات مما يكسب البيت حسناً وجمالاً، ويقع في النفس موقع الحكمة الصائبة ، فمن ذلك قوله [1] :

قَومٌ لهم عرفت مَعَدٌّ فضلَها   والحقُّ يعرفُه ذَوُو الألبابِ

فكأنه في عجز البيت يقرر حقيقة عامة ، وكذلك قوله [2] :

صادَفْنَ منها غِرَّةً فأصَبْنَها   إنَّ المَنايا لا تطيشُ سِهامُها

أو قوله [3] :

واكذبِ النفسَ إذا حدَّثْتَها   إنَّ صِدْقَ النفسِ يُزْري بالأَمَلْ

أو قوله [4] :

أَكْرَمْتُ عِرْضِي أنْ يُنالَ بنَجْوَةٍ   إنَّ البريءَ من الهَناتِ سَعِيدُ

والتذييل في شعر لبيد كثير ، وبخاصة في القصائد الطوال .

---

١ – الديوان ص ٢٤ .

٢ – الديوان ص ٣٠٨ .

٣ – الديوان ص ١٨٠ .

٤ – الديوان ص ٣٧ .

جـ – واو رب :

ويكثر لبيد كذلك من استعمال واو رب ، وقد مر بنا انه كان يستفيد من هذه الواو في التخلص والإنتقال الى موضوع جديد ، فهو يستعملها في التخلص كما يستعملها في غيره ، ويكفي أن ننظر في قصيدته الثانية لنجده قد استعمل هذه الواو ثماني مرات ، وهو قدر كبير في قصيدة واحدة ، وقد يلتزم بها في بيتين متتاليين كقوله [1] :

ودعوةِ مرهوبٍ أجبت وطعنةٍ رفعتُ بها أصواتَ نَوْحٍ مُسَلَّبِ
وغيثٍ بدَكْداكٍ يَزينُ وِهادَهُ نَباتٌ كوشي العبقرِيّ المخلَّبِ

وقد كررها في المعلقة خمس مرات في مثل قوله [2] :

وكثيرةٍ غرباؤُها مجهولةٍ تُرجَى نوافِلُها ويُخْشَى ذامُها
وجزورِ أيسارٍ دعوتُ لحتفِها بمغالِقٍ مُتَشابِهٍ أجسامُها

د – استعمالات أخرى :

وفي شعر لبيد استعمالات أخرى تثير الانتباه ، من ذلك : الفصل بين الصفة والموصوف مثل قوله [3] :

---

١ – الديوان ص ١١ .

٢ – الديوان ص ٣١٧ – ٣١٨ .

٣ – الديوان ص ٢٧١ .

لِله نافلةُ الأجلّ الأفضَلِ   وله العُلَى وأثيثُ كلّ مُؤثَّلِ

يريد : لله الأجل الأفضل نافلة .

تقديم الصفة على الموصوف كقوله[1] :

تخيرنَ من غَوْلٍ عِذَابا وَرِيَّةً   ومن مَنْعِجٍ بيضَ الجِمامِ عَدامِلا

يريد عداملا بيض الجمام . أو قوله وقد قدم الصفة وأضافها الى موصوفها[2] :

شهدتُ فلم تُنْجِحْ كواذبُ قولِهِم   لدَيَّ ولم أحْفِلْ ثَنا كلِّ مِشْغَبِ

وقد يؤخر الفعل كما في قوله[3] :

وعانٍ فكَكْتُ الكَبْلَ عنه وسُدْفَةٍ   سَرَيْتُ وأصحابي هَدَيْتُ بكوكَبِ

وتأمل في هذا الأسلوب : وسدفة سريت وأصحابي هديت .

وقد تأتي في شعره جمل توضيحية أو اعتراضية ، مثل قوله في وصف الثور[4] :

---

١ – الديوان ص ٢٤١ .

٢ – الديوان ص ٢٠ .

٣ – الديوان ص ٩ .

٤ – الديوان ص ٧٨ .

فجالَ ولم يَجُلْ جُبنْا ولكن تَعرُّضَ ذِي الحفيظَةِ للقِتالِ

فهو يحترس ان يفهم أنه جال هرباً أو جبناً . وقوله [1] :

ولقد علمتِ ـ لو ان علمك نافعٌ ـ وسمعتِ ما يتحدَّثُ الأقوامُ

أو قوله [2] :

فدعي الملامةَ ـ ويبَ غيركِ ـ إنَّهُ ليس النَوالُ بلومِ كلِّ كريمِ

ولبيد في اصطناعه مثل هذا الأسلوب يزيد المعنى وضوحاً ، ويضفي عليه لمحات دالة لهــا أثرها في توجيه المعنى وتحسينه ، انظر قوله : (لو يستطيعه) وكيف كشف في هذه الجملة عن الجو النفسي الذي يعانيه الثور [3] :

وباتَ يُريدُ الكِنَّ ـ لو يستطِيعهُ ـ يعالج رَجَّافا من التُرْبِ غائِلا

وقد يحمل لبيد الكلمة معاني فوق دلالتها العامة وذلك في مثل تصرفه بالاشارة حين يشير بالمفرد للجمع في قوله [4] :

ولقد سَئِمْتُ من الحياةِ وطولِها وسُؤالِ هذا الناسِ كيفَ لبيدُ

وقوله [5] :

فإنْ تسأَلينا فِيمَ نحنُ فإنَّنا عصافيرُ من هذا الأنامِ المُسَحَّرِ

---

١ – الديوان ص ٢٩١ .
٢ – الديوان ص ١١٠ .
٣ – الديوان ص ٢٣٩ .
٤ – الديوان ص ٣٥ .
٥ – الديوان ص ٥٦ .

١٠

موسيقى شعره

البحور :

لقد نظم لبيد في اكثر البحور المتداولة في الشعر الجاهلي ، واذا القينا نظرة على الجدول الملحق بهذا الفصل ، نجد أكثر شعره يدور على ثلاثة أبحر ، هي : الطويل والكامل ، والوافر ، وتمتاز هذه البحور بكثرة المقاطع واستيعابها للموضوعات الهادئة التي فيها روية ودقة وتعقل . أما الأبحر القصيرة فقد استعمل منها الرجز بكثرة ، ومجزوء الكامل بقلة . ولم يهمل مع ذلك البحور المتوسطة فقد نظم في الرمل والمنسرح والبسيط والخفيف ، وان كانت هذه البحور أقل شيوعاً في شعره من سابقاتها وقد اختفت في شعره الاوزان التي لم يقبل عليها الجاهليون كثيراً كالمديد ، والمتدارك ، والسريع ، أما المتقارب فقد رويت له فيه أبيات مفردة لم تصح نسبتها اليه ، وله بيتان فقط في الهزج . اما المقتضب والمضارع فهما بحران مهملان في الشعر عامة .

والسمة العامة في أوزان لبيد هي البحور الطويلة الكثيرة المقاطع ، ففيها جاء أكثر شعره ، وللطويل من هذه الاوزان الصدارة ، فقد عالج فيه كل الفنون الشعرية من وصف وفخر وغزل ورثاء وهجاء وحكمة ودين .

واذا نظرنا في البحور الطويلة (الطويل والكامل والوافر) نجدها تكثر خاصة في الوصف والفخر والرثاء ، ولا شك ان هذه الفنون تحتاج الى نفس متأمل طويل وانفعال هادىء رزين لا عنف فيه ولا سرعة ، وفي مقاطع هذه البحور الكثيرة ما يوفر حاجة الشاعر للتعبير عن هذه الفنون العميقة الهادئة ، هذا مع ملاحظة ان قصائد الرثاء التي جاءت على هذه البحور تمتاز بالحزن

الهادئ والتفكر في الحياة والنظر الى مصير العالمين ، وليس في هذه القصائد لوعة شديدة ولا جزع أو يأس ، لأن ذلك لا ينسجم والبحر الذي نظم فيه مرثيته ، وانظر هذه المرثية التي اختار لها الطويل وزناً كيف تجري في جو حزين له جلاله ووقاره [1] :

بَلِينا وما تَبلَى النجومُ الطوالِعُ ... وتبقَى الديارُ بعدَنا والمصانِعُ

وقد كنتُ في أكنافِ جارِ مَضِنَّةٍ ... ففارقني جارٌ بأَرْبَدَ نافعُ

فلا جَزِعٌ إنْ فَرَّقَ الدهرُ بيننا ... وكُلُّ فتىً يوماً به الدهرُ فاجِعُ

فلا أنا ياتيني طريفٌ بفرحَةٍ ... ولا أنا مما أحدثَ الدهرُ جازِعُ .. الخ

ومن الواضح من هذه الأبيات انه يفصح عن تجلده وتصبره في تعقل ومهابة وقد نظم هذه القصيدة بعد فترة من مقتل أخيه ، أما في أول عهده بفقد أخيه حين كان منفعلاً جازعاً ، فقد كان يبكيه بلوعة ، يندبه وينوح عليه كما تنوح النساء ، لذلك فقد كان طبيعياً ان يختار الأوزان الخفيفة القصيرة للتعبير عن انفعالاته النفسية وعواطفه المضطرمة . فقد اختار مجزوء الكامل ليبكي أخاه ويحث الناس على بكائه [2] :

لن تُغْنِيا خَيراتِ أرْ ... بَدَ فابكِيا حتى يَعُودا

قولا هو البَطَلُ المحا ... مي حين يكسون الحديدا .. الخ

---

١ – الديوان ص ١٦٨ .

٢ – الديوان ص ١٦٣ .

ولا غرابة أن يختار الرجز الذي يلائم النواح والعويل في بكاء عمه أبي براء[1] :

قومـــا تجوبانِ مع الأنواحِ   في مـــأتمٍ مُهَجِّرِ الرواحِ
يَخْمِشْنَ حُرَّ أوجهٍ صِحاحِ   في السُّلُبِ السُّودِ وفي الأمساحِ
وأبنّا ملاعِبَ الرِّماحِ ... الخ

وقد أفاد لبيد من الرجز في الهجاء أيضاً فقد هجا الربيع بن زياد في قصيدته المشهورة في مجلس النعمان بالرجز ، وبه كذلك قال شعره في المنافرة حين نصر ابن عمه عامر بن الطفيل .

ولا شك ان لبيداً كان يحسن اختيار البحر المناسب للموضوع الذي يريد ، وقد كان يستخدم الأوزان الطويلة للموضوعات التي فيها روية وإمعان نظر ، كما يختارها حين يريد أن يبدع روائع شعره التي عرفت في الوصف والفخر وذكر الديار . أما حين يرتجل الشعر ويقوله على البديهة حين يجيش صدره بانفعالات حزينة ملتاعة كالرثاء ، أو انفعالات غاضبة ثائرة كالهجاء ، فان عواطفه كانت تتدفق في أوزان قصيرة سريعة شديدة الايقاع ، وفي أخبار لبيد ما يدل على هذا الارتجال ، فقد ألممنا سابقاً بقصة مهاجاته الربيع ابن زياد وكيف انتصر ضمرة بن ضمرة للربيع ، فهجاه لبيد على البديهة[2] :

يا ضَمْرُ يا عَبْدَ بني كِلابِ   ويابنَ كلبٍ مُغْلَقٍ بِبابِ

---

١ – الديوان ص ٣٣٢ .

٢ – الديوان ص ٤٠٤ .

أكانَ هذا أولَ الثوابِ لا يَعْلَقَنْكَ ظفري وناني

إني اذا عاقبتُ ذو عِقابِ

وحاول أن تقارن بين هذا الشعر أو الشعر الذي قاله في أوزانه الخفيفة القصيرة ، وبين الشعر الذي قاله في الاوزان الطويلة الكثيرة المقاطع ، لترى الفرق بين البديهة والارتجال ، وبين نتاج الذهن والعمل المبدع المتروي الذي يتجلى فيه فن لبيد واصالته .

والملاحظ ان للرجز مكانة في شعر لبيد ، على خلاف اقرانه الجاهليين ، فقد استخدمه في الرثاء والهجاء والفخر ، وذكر فضل الله على الناس ونعمه ، كما في ارجوزته التي أولها [1] :

من يبسطِ اللهُ عليه إصْبَعا بالخير والشَّرِّ بأيٍّ أولِعا

فقد عني لبيد بالرجز عناية تلفت النظر ، ولعله أول الجاهليين اهتماماً بهذا الوزن ، الذي كان الأدباء في عصر التدوين ينظرون اليه على انه أقل رتبة من أوزان الشعر الأخرى ، لأنه وزن سهل وهو في متناول النـاس جميعاً وانه (يعرض في كلام العوام كثيراً) [2] .

والذي يلقي نظرة على دواوين الفحول الجاهليين لا يجد للرجز مكاناً واضحاً ، فديوان امرىء القيس ليس فيه غير اربع مقطوعات قصيرة ، منها اثنتان من المشطور واثنتان من غير المشطور ، اما غيره فليس لهم الا النزر القليل وقد

---

١ – الديوان ص ٣٣٧ .

٢ – اعجاز القرآن ، الباقلاني ص ٥٨ .

لاحظ القدامى هذه الظاهرة وسجلها الجاحظ في قوله : « ومن الشعراء من يحكم القريض ولا يحسن من الرجز شيئاً ، ففي الجاهلية منهم زهير والنابغة والأعشى ، واما من يجمعهما فامرؤ القيس وله شيء من الرجز وطرفة وله كمثل ذلك لبيد وقد أكثر » [1] .

ورجز لبيد كله من المشطور ، وهو بعامة قريب سهل الألفاظ يكاد يخلو من الغريب وهو أكثر شعره سلاسة ووضوحاً وليس فيه ما في الرجز الأموي من الغلظة والغرابة ، ذلك الرجز الذي اضحى كالأحاجي عند أبي النجم وذي الرمة والعجاج ورؤبة .

القافيـــة :

واذا تركنا الاوزان الى القوافي نجد لبيداً يعنى بها عناية كبيرة ، يختار لها الحروف الموسيقية التي تتناسق مع الوزن والموضوع ، وقد استعمل الحروف الشائعة في القافية ، وأكثر ما جاء في شعره من القوافي حسب هذا الترتيب : حرف الميم فاللام ودونها الراء والباء ، وأقل من هذه الحروف العين والنون والدال والحاء ، وقد جاءت قطع قصيرة لكل من القاف والكاف والفـاء والسين ، وقد اختفت من شعره حروف هي : الهمزة والثاء والياء والصاد والضاد والظاء والطاء والهاء ، وهي نادرة الاستعمال في الشعر عامة .

وأكثر قوافي لبيد مطلقة ، وقد جاءت في شعره قطع قليلة وأبيات مفردة فيها قافية مقيدة ، أما القصائد فكلها مطلقة القوافي حاشا واحدة ، هي اللامية الطويلة التي أولها [2] :

---

١ – البيان والتبيين ٣/٨٤ .

٢ – الديوان ص ١٧٤ .



إنَّ تقوى رَبِّنا خَيْرُ نَفَلْ   وبإذنِ اللهِ ريثي وعَجَلْ

ومن عناية لبيد بموسيقى القافية انه عني بالف التأسيس وأكثر من الالتزام بها ، ففي شعره أكثر من عشر قصائد تجري هذا المجرى ، على نحو ما هو معروف في معلقته وكذلك في مثل قوله [1] :

ألا تسألانِ المرءَ ماذا يُحاوِلُ   أنَحْبٌ فيُقْضى أم ضَلالٌ وباطلُ

أو قوله [2] :

كُبَيْشَةُ حلَّتْ بعدَ عهدِكَ عاقلا   وكانت له خَبْلاً على النأيِ خابِلا

وفي قوافي لبيد توقيع يحدثه من تكرار حرفين ، حرف القافية وحرف مد قبله ، وهو حركة طويلة تعرف عند أهل العروض بـ (الردف) وأكثر ما يجيء الردف ألفاً مثل قوله [3] :

انما يحفـظ التُّقى الأَبرارُ   والى الله يستقرُّ القَـرارُ

وقد جاءت ثلث قوافيه تقريباً مردوفة على هذا النحو ، وأقل من ذلك مجيء الياء أو الواو في هذا الموضع كقوله [4] :

سَفَهاً عَذلتِ وقلتِ غيرَ مُليمِ   وبُكاكِ قِدْما غيرُ جِدٌّ حكيمِ

---

١ - الديوان ص ٢٥٤ .
٢ - الديوان ص ٢٣٢ .
٣ - الديوان ص ٤١ .
٤ - الديوان ص ١٠٧ .

ويقول في القصيدة نفسها [1] :

لو كان حَيٌّ في الحياةِ مخلَّدا في الدهرِ ألفاه أبو يَكْسوم ِ

وقد يجعل بعض قوافيه يتكرر فيها حرف مع القافية غير الف الاطلاق ، وذلك لاحساسه الموسيقي برنين القافية ونغمتها في الأذن ، وكأنه كان يرسم المنهج الذي عرف فيما بعد بلزوم ما لا يلزم وذلك في مثل قوله [2] :

وقولى ألا لا يُبعِد اللهُ أربدا وهدَّى به صدعَ الفؤاد المُفَجَّعا

عميد أناس قد أتى الدهرُ دونَه وخَطُّوا له يوماً من الأرض مضجعا

لعمرُ ابيكِ الخيرِ يا ابنةَ اربدٍ لقد شَفَّني حُزنٌ أصابَ فأوجَعا

وقد يبلغ التناسق في القافية مبلغاً كبيراً بحيث تتتابع ثلاثة أحرف غير حرفي الوصل والاطلاق ، وقد اتضح ذلك في بعض أبيات معلقته على شاكلة قوله ملتزماً الراء قبل الف التأسيس [3] .

من كلِّ محفوفٍ يُظِلُّ عصيَّهُ زوجٌ عليهِ كِلَّةٌ وقِرامُها

زُجَلاً كأنَّ نِعاجَ توضِحَ فوقَها وظباءَ وجرةَ عطَّفاً آرامُها

١ — الديوان ص ١٠٨ .

٢ — الديوان ص ١٧٣ .

٣ — الديوان ص ٣٠٠ .

وهكذا تتوالى هذه الايقاعات من مثل : ابرامها ، صرّامها ، جرامها ، كرامها . وقد يذهب لبيد في بعض شعره الى التزام عدة حروف في القافية كي يجعل المقطع الاخير يجري على ايقاع جميل وذبذبة صوتية تستغرق سبع حركات على صيغة واحدة هي صيغة (فاعلينا) ، أنظر ذلك في قوله [1] :

أُنبِئْتُ أَنَّ أَبا حَنيفٍ لامَني في الـ ... لائمينا
مـــا ان رأيت ولا سمعت بمثلهم في الـ ... عالمينا
فَلئِــن بعثتُ لهم بُغاةَ مـــا البُغاةُ بـ ... واجدينا
وتراجعوا غُــبْرَ المرافق من أخيهم ... يائسينا
في رَبْرَبٍ كنعــاج صـــارةَ يبتئِسْنَ بـ ... مالَقِينا

وهذه النغمة ليست متأتية من تفعيلة الضرب التي تلزم مجزوء الكامل وهي : (متفاعلاتن او مستفعلاتن) بل مرجعها الى التزام الألف التي تقابـــل الفاء في مستفعلاتن .

الاصوات والحروف :

والحس الموسيقي المرهف في اذن لبيد جعله يتأنق في اختيار ألفاظه ويجانس بين حروفها ويناسق بين أصواتها بحيث ينشأ في البيت الواحد أكثر من ترجيع صوتي بل يحدث مع القافية قافية أخرى داخلية يترنم بها مع القافية الخارجية ، فتتردد الأنغام بين الصدر والعجز في البيت ، وبين المقاطع في الشطر ، على شاكلة ما مر بنا في المعلقة ، وانظر من ذلك بعض أبياتها [2] :

---

١ – الديوان ص ٣٢٢ – ٣٢٦ .

٢ – الديوان ص ٢٩٧ – ٢٩٨ .

عفتِ الديارُ محلُّها فمقامُها بمنىً تأبّـدَ غوْلُها فرِجامُها

دِمنٌ تجَرّمَ بعد عَهْدِ أنيسِها حِججٌ خلونَ حلالُها وحرامُها

رُزِقتْ مرابيعُ النجومِ وصابَها وَدْقُ الرواعِدِ جَوْدُها فَرِهامُها

فقد التزم هنا لازمتين ، فالتصريع مكرر في هذه الأبيات ، ثم عجز كل بيت فيه مشاكلة بين المقطعين الاخيرين ، وما إن نمضي في قراءة القصيدة حتى نجد أنفسنا أمام سلسلة موسيقية تنتظمها الهاءات على هذا النسق :

ظباؤها ونعامها — نؤيها وثمامها — أثلهـا ورضامها — أسبابها ورمامها — صلبها وسنامها — ضربها وكدامها — عصيانها ووحامها — خـوفها آرامها ... وهكذا .

ولا يكتفي لبيد بهذا النوع من الترجيع الموسيقي والايقاع الذي يجيء من مزاوجة كلمات ذوات مقاطع متشابهة ، بل نراه يوزع في البيت موسيقى يحدثها من المجانسة بين الحروف ذوات المخارج المتشابهة ، كالمؤاخاة بين أحرف المد أو أحرف الهمس وغيرها ، وقد تكون هذه الموسيقى من تكرار الاصوات المتشابهة أو من حصول الجناس الناقص وانظر ذلك في هذه الأبيات [1] :

١ ـ أرى النفس لَجّتْ في رَجاءِ مكذّبِ

وقـد جرَّبتْ لو تقتدي بالمجرَّبِ

---

١ — الديوان ص ٣ — ١٦ .

٢ ـ وسانيتُ من ذي بهجةٍ ورقيتُه
عليه السُّمُوطُ عــابسٍ متغضبِ

٣ ـ وفارقتــه والودُّ بيني وبينَــه
وحُسنِ الثنــاء من وراء المغيبِ

٤ ـ تراه رَخيَّ البالِ إنْ تلقَ تلقَهُ
كريماً ومــا يذهب به الدهرُ يذهبِ

٥ ـ وعانٍ فككت الكَبْلَ عنه وسُدْفَةٍ
سريتُ وأصحابي هديتُ بكوكبِ

٦ ـ وصُحمٍ صيامٍ بين صَمْدٍ ورَجْلَةٍ
وبيضٍ تُوَّامٍ بين مَيْثٍ ومِذْنَبِ

٧ ـ ويوم هــوادى أمره لشَمالــه
يُهتِّــكُ أخطالَ الطِّراف المطَنَّبِ

تجد أن لبيداً يوزع في كل بيت حروفاً متشابهة أو حروفاً متقاربة في الجرس بحيث يجعل للكلمات أصــداء وتراجيع ، أنظر في البيت الأول كيف وزع الجيمات و كيف وازن في البيت الثاني بين (سانيت) و (رقيت) ثم كرر العين في (عليه) و (عابس) والسين في (السموط) و (عابس) وفي البيت الثالث جعل المشابهة بين (بيني) و (بينه) و (الثناء) و (وراء) . وفي البيت

الرابع جانس بين (تلق) و (تلقه) و (يذهب) و (يذهب) ، ولاحظ في العجز هذه الهاءات المتتالية . وفي البيت الخامس نشر خمسة كافات ثم وازن في الايقاع بين (سدفة سريت) و (أصحابي هديت) هذا غير الباءات المتكررة. ونجد في البيت السادس توالي الصاد والميم في (صحم) و (صيام) و (صمد) ، ثم جعل الميات في العجز تستمر في ترجيعها في (توأم) و (ميث) و (مذنب) وفي البيت السابع جاء بهاءات متوالية ثم جعل الكلمات الثلاث الأخيرة كلا منها تحتضن الطاء احتضاناً تسمع له في أذنــــك طنيناً (اخطال ، الطراف ، المطنب) .

ويحاول لبيد أن يجعل في شعره نوعاً من الجناس الخفي يـــتردد في أبيات القصيدة جميعاً ، وهذا ما يحبب شعره الى نفس قارئه ، بحيث يجعله يقبل على قراءته على الرغم مما فيه من ألفاظ غريبة جافية ، وكأنه كان ينتقي ألفاظه انتقاء ويتخير منها ما كان ذا جرس ، ثم يوائم بين الألفاظ بحيث يحـــدث لها بالمجاورة رنيناً أو طنيناً أو صلصلة . وحتى ألفاظه الحوشية الغريبة المغرقة في البداوة كان يختارها لما فيها من وقع موسيقي أنظر الى كلمة (دحيضة) هذه الكلمة الوحشية النافرة كيف جعلها ترق وتلين وتتجاوب في موسيقاها مـــع موسيقى (غضيض) في قوله [1] :

أنامت غضيض الطرف رخصاً ظلوفه

بذات السليم من دحيضـــة جادلا

وهذه الموسيقى الداخلية في البيت تتضح أكثر في الأوزان القصيرة ، فان

---

١ – الديوان ص ٢٤٦ .



سرعة الايقاع وتشابهه، تعين الشاعر على اشاعة جو موسيقي من تشابه الكلمات والحروف ، وانظر قوله [1] :

١ ـ أُنبئتُ أنَّ أبا حنيفٍ لامَني في اللائمينا

٢ ـ وافعلْ بمالك ما بدا لك إنْ مُعاناً أو معينا

٣ ـ واذا دفنت أباكَ فاجعلْ فوقه خَشَباً وطِينا

٤ ـ وصفائحاً صُمّاً رواسيها يُسَدِّدْنَ الغُضونا

٥ ـ لِيَقِينَ وجهَ المرءِ سَفْسافَ التراب ولن يقينا

٦ ـ ثم اعتبر بثنا رهطك إذْ ثَوَى جَدَثاً جنينا

تجد المواءمة بين (لامني) و (اللائمينا) في البيت الأول وشابه في الثاني بين (بمالك) و (ما بدالك) وجانس بين (معانا) و (معينا) وكرر السينات والصادات في البيت الرابع ، وكرر في الخامس (يقين) مرتين كما كرر السين والفاء في (سفساف) ، وأكثر من الثاءات في البيت السادس وقارب بين جيمي (جدث) و (جنين) وأظهر التنوين في (جدثاً) والنونين في (جنين) .

●

ويطول بنا الحديث لو تتبعنا الروائع الموسيقية في شعر لبيد سواء في اختيار أوزانه أم انتقاء قوافيه أم اصطفاء كلماته ، وفي هذا دلالة واضحة على أن

---

١ – الديوان ص ٣٢٢ ، ٣٢٥ .

لبيداً كان يعنى بشعره ويثقفه ويجيل النظر فيه ويخرجه هـــذا الاخراج المجوّد المبرأ من العيوب ، الا ما ندر . وحقاً ان الأخبار لا تذكر لبيداً ضمن الشعراء المحككين المنقحين الموصوفين بعبيد الشعر كزهير ورهـــطه ، ولكن الدلائل تنبىء ان لبيداً كان يصنع شعره صناعة فنية فيتروى فيه ولا يرتجله ارتجالاً ، وبخاصة شعره في الوصف والفخر الذي اختار له البحور الطويلة ذوات المقاطع الكثيرة .

واذا كان في شعره بديهة وارتجال ، فانك تجده في الموضوعات العاطفية كالهجاء الذي يعبر عن غضبة او الرثاء الحار الذي هو بكاء ونحيب ، وهذا الشعر المرتجل دون ذاك المجود فناً وروعة وابداعاً وبعد :

فهذه أبرز الخصائص التي رأيتها في شعر لبيد ، ولا شك ان هناك جوانب أخرى في شعره ، لم أتعرض اليها ، لأنها أما ان تكون خصائص عامة تشمل الشعر الجاهلي جملة ، واما ان تكون خاصة بفن دون آخر ، وقد مضى الحديث عنها عند التعرض لذلك الفن .

إن الكلام عن شعر لبيد أمر ليس له انتهاء فكلما أمعن الدارس في النظر فيه تفتحت له جوانب جديدة وانحاء طريفة وكل ذلك دليل على اصالة أصيلة وفن رفيع .

جدول يبين فنون شعر لبيد وأوزانه ونسبة كل منهما

وفق ديوان لبيد طبعة احسان عباس

البحر	الوصف	الفخر	الرثاء	الغزل والديار	الحكمة والدين	الهجاء	مجموع ابيات كل بحر	النسبة المئوية لكل بحر
الطويل	٩٩	١٠٣	٧٨	٣٨	٣٣	٥١	٤٠٢	٣٤٪
الكامل	١٠٦	٨٣	٢٥	٤٠	٣١	٣	٢٨٨	٢٤٪
الوافر	٦٤	٢١	٤٠	٢٨	٢	١	١٥٦	١٣٪
الرجز	—	١٠	٤٢	—	٢١	٥٦	١٢٩	١١٪
الرمل	٣٩	٣١	٨	—	٦	—	٨٤	٧٪
المنسرح	٢٠	٢	١٤	٧	—	—	٤٣	٤٪
البسيط	١٠	١٢	—	١٦	—	—	٣٨	٣٪
مجزوء الكامل	—	—	٣٢	—	—	—	٣٢	٣٪
الخفيف	٧	٦	—	—	١٣	—	٢٦	٢٪
الهزج	—	—	—	٢	—	—	٢	
مجموع أبيات كل فن	٣٤٥	٢٦٨	٢٣٩	١٣١	١٠٦	١١١	مجموع الأبيات ١٢٠٠	
النسبة المئوية لكل فن	٢٩٪	٢٢٪	٢٠٪	١١٪	٩٪	٩٪		

الفصل الخامس

مكانته وأثره

١

اذا عد فحول الجاهلية عد لبيد بينهم ، واذا عدت الصفوة من ذوي القصائد الطوال الجياد التي عرفت بالمعلقات كان لبيد منهم ، واذا عد الشعراء المخضرمون كان لبيد في طليعتهم . واذا عد شعراء المسلمين الذين أقبلوا على الدين ، ونهلوا منه ، وتأثروا به ، كان لبيد من صفوتهم .

وهنالك جوانب كثيرة تستطيع ان تنظر من أي جانب شئت ، فستجد لبيداً فحلاً مبرزاً وشاعراً له مكانته وخطره وأثره فيمن بعده .

فلبيد شاعر قديم ومتقدم ، قدمه القدامى وأجله المحدثون ، فمنهم من نظر الى شعره وما فيه من لغة وغريب وجزالة وقوة ، فقدمه على شعراء البادية ، ومنهم ، من نظر الى أوصافه ومعانيه ، وسبقه الى معان جميلة رائعة وتشبيهات بديعة نادرة ففضله وآثره ، ومنهم من نظر الى حكمه وأمثاله ، وصلاحه وتدينه وتأثره بمعاني الاسلام واستجابته لداعي الدين ، فأجله وأكبره ، ومنهم من نظر الى تلك الصفات جميعاً ولم ينس أن يضعه في موضعه المناسب فقال فيه كلمته ، وبوّأه مكانته الحقيقة به .

وقبل ان اعرض لرأي النقاد القدامى في شاعرية لبيد ومكانته بين الشعراء، أود أن أشير الى أن طبيعة الأحكام التي كانت تصدر عن الأدباء والنقاد، والشعراء أيضاً، ليس لها قاعدة معينة أو منهج واضح يصدرون عنه ويحكمون بموجبه، وانما هي آراء تقال دافعها الاعجاب والتأثر بقصيدة أو بيت من قصيدة، ودي أذواق وميول، فقد يقدم ناقد شاعراً على الشعراء لبيت أعجبه، ثم يقدم شاعراً آخر عليه لبيت غيره استحسنه، فيكون هذا أشعر الناس لقوله كذا، ويكون ذاك — أشعر الناس لقوله كذا، كما فعل مروان بن أبي حفصة — فيما يقال — انه انشد يوماً شعر زهير فقال: زهير والله أشعر الناس، ثم انشد شعراً لأمرىء القيس فقال: امرؤ القيس أشعر الناس، ثم أنشد للاعشى فقال الأعشى أشعر الناس، ثم قال: والناس والله أشعر الناس [1].

ولم يتفق الأدباء — منذ كانوا — على أيهم أشعر الشعراء، فنجد لكل منهم شاعراً مفضلاً يقدمه ولا يرضى بديله أحداً. أما الشعراء انفسهم فان أحكامهم في تقديم شاعر على آخر صادرة من توافق شعرهم وشعر من يقدمونه، فهناك توافق وتجاوب في الذوق والأسلوب والمنهج العام، وقد ساق المفضل رواية تنبىء عن ذلك فقال: «سئل الفرزدق فقال: أمرؤ القيس أشعر الناس، وقال جرير: النابغة اشعر الناس وقال الأخطل: الأعشى أشعر الناس، وقال ابن أحمر: زهير أشعر الناس، وقال ذو الرمة: لبيد أشعر الناس، وقال نضر بن شميل: طرفة أشعر الناس، وقال الكميت: عمرو بن كلثوم أشعر الناس» ويعلق الأدباء على هذا بقولهم: «وهذا يدلك على اختلاف في الأهواء وقلة الاتفاق» [2].

---

١ — الاغاني ١٠/٨٣.

٢ — العمدة، ابن رشيق ١/٦٢ والمزهر ٢/٢٩٩.

ولا شك أن الفيصل في هذه الأحكام هو الذوق الفني للشاعر، ومدى استجابته لشعر شاعر بعينه، ولا يمكن ان تقوم هذه الاحكام حجة على تقديم شاعر وتفضيله بصورة عامة مجمع عليها. ومع ذلك فقد نرى النقاد يفطنون الى أن لكل شاعر ميداناً هو سابق فيه من ذلك ما يروى ان يونس بن حبيب سئل يوماً من أشعر الناس، فقال: «لا أومىء الى رجـــل بعينه، ولكنني أقول: امرؤ القيس اذا ركب والنابغة اذا رهب وزهير اذا رغب والأعشى اذا طرب»[1] ويريد ابن حبيب ان ميدان أمرىء القيس هو الوصف، وتجويد النابغة في اعتذارياته، وأحسن شعر زهير في مديحه، وخير شعر الأعشى في الخمريات..

واذا كان ابن حبيب قد فضل شاعراً على شاعر في موضوع بعينه فقد يفضل آخرون شاعراً لبيت قاله يكون فيه أشعر الشعراء، ويفضلون آخر عليه لبيت غيره. وهذا ما نجده واضحاً في قول الفرزدق فقد سئل عن أشعر العرب فقال بشر بن أبي خازم بقوله:

ثوى في مَلْحَدٍ لا بُدَّ منه   كفَى بالموتِ نأياً واغترابا

وسئل ثانية فقال أشعر الناس ذو القروح حين يقول:

وقاهم جَدُّهُم ببني أبيهم   وبالاشقَيْنِ ما كان العِقابُ[2]

فمناط التفضيل هنا اعجاب الشاعر ببيت، وقد رأينا ان الفرزدق اهتز حين سمع بيت لبيد:

---

١ - الاغاني ٩/١٠٨.

٢ - العمدة ١/٦٠.

وجَلا السيولُ عن الطلولِ كأنّها زُبُر تُجِدُّ متونَها أقلامُها

حتى قيل انه سجد سجدة سماها (سجدة الشعر) [1] .

ومن هنا تظهر الصعوبة في تفضيل شاعر على آخر أو شعر على شعر ، لخضوع ذلك الى ذوق الناقد وميوله ومزاجه فتختلف بذلك نظرة الناس . ونجد مصداق هذا في كلمة قالها بشار بن برد الشاعر حين سئل عن أجود بيت للعرب فقال : « ان تفضيل بيت على اشعار العرب لشديد ، ولكن أحسن كل الاحسان وأوجز وأعجز لبيد في قوله [2] :

اكذب النفسَ اذا حَدَّثْتَها إنَّ صِدقَ النفسِ يُزري بالأَمَلْ

فبشار يرى صعوبة تقديم بيت من الشعر بعينه ، ولكنه يستحسن من الشعر ما يعجبه ، وقد استحسن للبيد قوله ذاك ، وقد يستجيد لغيره بيتاً أو أبياتاً في موضوع غيره .

ومن كل هذا يتبين ان القدماء لم يتفقوا على تقديم شاعر بعينه وان اتفقوا — أو كادوا — على تقديم طبقة بعينها وليس هناك قاعدة في تفضيل شاعر على آخر ، وقد اتبع النقاد طريقة جائرة لا ضابط لها في الحكم على شعر الشاعر أو تقديمه ، واحكامهم تخضع غالباً لأذواقهم وميولهم ، والى الزاوية التي ينظرون من خلالها الى شعر هذا الشاعر أو ذاك ، وسنجد ان بعض من فضلوا لبيداً نظروا الى ناحية الصلاح والتدين فيه ..

---

١ — الاغاني ١٥/٣٧١ .

٢ — الاعجاز والايجاز ، الثعالبي ص ١٤٤ ط اسكندر آصاف ١٨٩٧ م .

٢

وأحاول هنا أن اتعرض لرأي النقاد في لبيد ثم استخلص المكانة الحقيقة به ، واتلمس بعد ذلك أثره فيمن بعده .

لقد نظر ابن سلام الى لبيد على انه من شعراء قيس النابهين ، فهو من جملة فحول كانت فيهم الشاعرية – قبل ان تنطفىء شعلة الشعر في قيس وتنتقل الى تميم في الاسلام – وابرز شعراء قيس المقدمين : النابغة الذبياني ، وزهير ابن أبي سلمى ، وابنه كعب بن زهير ، ولبيد ، والنابغة الجعدي والحطيئة ، والشماخ وأخوه مزرد ، وخداش بن زهير [١] .

واذا تأملنا في هذه المجموعة من شعراء قيس نجد النابغة شاعر ذبيان غير منازع ، وزهيراً شاعر مزينة – وكلاهما من غطفان كبرى قبائل قيس – ولبيداً شاعر بني عامر وقد غطى على الجعدي وعلى خداش بن زهير وكلاهما من قومه بني عامر بن صعصعة ، ويرى أبو عمرو بن العلاء ان خداش ابن زهير « اشعر في قريحة الشعر من لبيد ، وابى الناس الا تقدمة لبيد » [٢] ولم يوضح أبو عمرو سبب تقديم الناس لبيداً ، وكأنه يرى ما لا يراه الناس ، مع أن أبا عمرو يحب شعر لبيد ويؤثره على غيره لما فيه من دين وصلاح [٣] .

وقد قدم ابن سلام في طبقاته الحطيئة وكعب بن زهير على لبيد اذ جعلهما في الطبقة الثانية مع أوس بن حجر وبشر بن أبي خازم [٤] وجعل لبيداً في الطبقة الثالثة مع النابغة الجعدي وأبي ذؤيب الهذلي والشماخ بن ضرار [٥] . وحين وضع

---

١ – طبقات الشعراء صفحة ٣٤ وانظر العمدة ١/٥٥ .
٢ – طبقات الشعراء صفحة ١١٩ .
٣ – الموشح صفحة ٧١ .
٤ – طبقات الشعراء صفحة ٨١ .
٥ – طبقات الشعراء صفحة ١٠٣ .



ابن سلام لبيداً والشماخ في مرتبة واحدة ، راح ينظر الى شعر لبيد على ضوء شعر الشماخ وبمقارنته به ، ومعروف ان الشماخ كان شديد متون الشعر ، فلذلك حكم ابن سلام على لبيد انه عذب المنطق رقيق حواشي الكلام ، وقد أوجز صفات لبيد وشعره في قوله : « وكان لبيد بن ربيعة أبو عقيل . فارساً ، شاعراً شجاعاً ، وكان عذب المنطق ، رقيق حواشي الكلام ، وكان مسلماً رجل صدق » [1] .

ويرى ابن سلام أيضاً المتانة وشدة الأسر في شعر كل من الشماخ ولبيد ، ولكنه يقارن بين شعر الشاعرين فيرى ان شعر لبيد أسهل من شعر صاحبه لما في شعر الشماخ من كزازة ليست في شعر لبيد ، فلذلك يقول : « فأما الشماخ فكان شديد متون الشعر ، أشد أسر كلام من لبيد ، وفيه كزازة ، ولبيد أسهل منه منطقاً » [2] .

واذا كان ابن سلام قد وضع الشعراء في طبقات ، وجعل لبيداً في الطبقة الثالثة وقدم عليه شعراء ما هم أكثر شاعرية منه — مثل شعراء الطبقة الثانية : أوس بن حجر وبشر بن أبي خازم و كعب بن زهير والحطيئة — فان علماء الشعر لم يقروا ابن سلام على هذا التقسيم فقدموا لبيداً والشماخ وجعلوهما في طبقة أوس ابن حجر ، ففي رواية عن الأصمعي قال : سمعت أبا عمرو يقول : « كان أوس ابن حجر فحل الشعراء ، فلما نشأ النابغة طأطأ منه ، وأما الكلبي فانه زعم ان من هذه الطبقة لبيد بن ربيعة والشماخ بن ضرار » [3] . وهذا يدل دلالة واضحة على اختلال المقياس ، فعلى حين يعد ابن سلام أوساً من شعراء الطبقة الثانية ، فان أبا عبيدة يجعله من شعراء الطبقة الثالثة ويقرنه بالحطيئة والنابغة الجعدي[4] ، وهو بذلك يؤخر الحطيئة أيضاً الذي جعله ابن سلام في الطبقة الثانية .

---

١ – نفس المصدر صفحة ١١٣ .
٢ – طبقات الشعراء صفحة ١١٠ والأغاني ٩/١٦٠ .
٣ – الأغاني ١١/٧٠ .
٤ – المصدر السابق .

وقد أنزل أبو عبيدة لبيداً منزلة أفضل مما أنزله ابن سلام فهو عند الأول من طبقة الأعشى ، فقد روى القرشي انه قال : « أشعر الناس أهل الوبر خاصة ، وهم : امرؤ القيس وزهير والنابغة ... . وفي الطبقة الثانية الأعشى ولبيد وطرفة »[1] ، فنلاحظ هنا أن لبيداً وطرفة من طبقة واحدة مع الأعشى ، ومعنى هذا ان لبيداً تقدم عند أبي عبيدة على كثير من الشعراء كالحطيئة وأوس ابن حجر وبشر بن أبي خازم وكعب بن زهير ، ثم هو مقرون بالأعشى الذي عده ابن سلام في شعراء الطبقة الأولى .

أما أبو زيد القرشي فيقدم لبيداً على كثير من الشعراء فهو عنده « أفضلهم في الجاهلية والاسلام ، وأقلهم لغوا في شعره[2] » .

وقد رأى النقاد والشعراء ثمة توافقاً بين شعر طرفة ولبيد ، فقد رأيت أن أبا عبيدة جعلهما في مرتبة واحدة[3] ، وكذلك فعل الفرزدق حيث جعلهما في موضع واحد حين شبه الشعر بجمل بازل عظيم فنحر « فجاء امرؤ القيس فأخذ رأسه ، وعمرو بن كلثوم سنامه ، وزهير كاهله ، والأعشى والنابغة فخذيه ، وطرفة ولبيد كركرته[4] ، ولم يبقَ الا الذراع والبطن فتوزعناهما بيننا »[5] . وقد كان لبيد نفسه يقرن شاعريته بشاعرية طرفة ويقدمه على نفسه ، فهو يرى أن أشعر الشعراء امرؤ القيس ثم طرفة بعده ثم أبو عقيل يعني نفسه بعد طرفة[6] .

---

١ - جمهرة اشعار العرب صفحة ٣٤ .

٢ - نفس المصدر صفحة ٦٤ .

٣ - نفس المصدر صفحة ٣٤ .

٤ - كركرة البعير : صدره .

٥ - جمهرة اشعار العرب صفحة ٧٥ .

٦ - الشعر والشعراء صفحة ٩١ - ٩٢ والأغاني ١٥/٣٦٨ - ٣٦٩ .

ولدينا حكم للنابغة الذبياني على شعر لبيد وتفضيله منذ كان صبياً يافعا ، فقد قيل ان النابغة الذبياني لقي لبيداً حين وفد مع قومه على مجلس النعمان ، فاستنشد النابغة لبيداً فأنشده ففضله على بني عامر ، ثم استزاده فأنشده ففضله على قيس كلها [١] ، وحكم النابغة هذا صادر عن اعجابه بشاب تلتمع عيناه بالذكاء والشاعرية وهو ينشد الشعر الجيد على حداثة سنه ، وهو حكم له قيمته من شاعر كبير كان قاضي الشعراء .

واذا كان هذا الفريق من النقاد والشعراء قد قدم لبيداً وأعجب بشعره ، فان فريقاً آخر لم يرَ في شعره تلك الجودة ولا ذلك الرونق ، فعلى حين نجد ابن سلام يرى في شعر لبيد عذوبة وسهولة منطق ورقة في حواشي الكلام ، نجد الأصمعي — مع اقراره بجودة شعر لبيد وحسن صناعته — لا يرى فيه حلاوة فهو يصفه بطيلسان طبري يعني جيد الصنعة له حلاوة [٢] ، وكذلك يرى أبو عمرو ابن العلاء ان شعر لبيد (رحى بزر) [٣] ، ولكن الأصمعي وأبا عمرو بن العلاء قد فضلا لبيداً وأحبا شعره لما فيه من دين وتقوى وصلاح ، فالاصمعي يقول عنه : « كان رجلاً صالحاً » [٤] ، أما أبو عمرو بن العلاء فقد كان يقول « ما أحد أحب الي شعراً من لبيد بن ربيعة ، لذكره الله عز وجل ولاسلامه ، ولذكره الدين والخير ، ولكن شعره رحى بزر » [٥] ، وكان اذا سئل عن الأعشى وعن لبيد ، قال : « لبيد رجل صالح ، والأعشى رجل شاعر » [٦] ، أما صلاح لبيد

---

١ – الأغاني ٣٧٧/١٥ .

٢ – الموشح صفحة ٧١ والصناعتين ١٢٨ .

٣ – الموشح صفحة ٧١ .

٤ – المصدر السابق .

٥ – المصدر السابق .

٦ – الخزانة ١٢٢/١ ط عبد الحميد .

وايمانه وذكره الله والتوحيد في شعره فحقيقة عرفها الناس للبيد في الجاهلية والاسلام . وهم حين يؤكدون هذه الحقيقة يقتدون بقول رسول الله ﷺ ، في شعر لبيد حين قال : « أصدق كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد :

ألا كل شيء ما خلا الله باطل » [1] .

والذي يتضح من هذا كله ان الآراء في شعر لبيد قليلة ، وهي على قلتها لا تتفق على تقويم شعره بصورة دقيقة . ولم أجد من النقاد من تعصب له أو تعصب عليه ، خلا ذا الرمة الذي قدمه وجعله أشعر الشعراء ، لانه كان ينهج نهجه ويتبع أسلوبه ، ويحب نزعته البدوية الواضحة .

والنقاد بعامة على الرغم مما في أقوالهم من تفاوت ، وفي احكامهم من تعسف وتناقض ، قد عرفوا لكل شاعر مزية ، فاستجادوها له ونوهوا بها وأشادوا بذكر صاحبها ، فقد قالوا : ان امرأ القيس ابتدع أشياء استحسنتها العرب واتبعه فيها الشعراء ، منها استيقاف الصحب والبكاء على الديار ورقة النسيب وتشبيه النساء بالظباء والبيض [2] وأثنوا على زهير لأنه لا يعاضل بين الكلام ولا يتبع حوشيه ولا يمدح الرجل الا بما فيه [3] ، وقالوا ان الأعشى أمدح الشعراء للملوك وأوصفهم للخمر ، والنابغة أوضح الشعراء معنى وأبعدهم غاية وأجودهم اعتذاراً ، وان لبيداً أقل الشعراء لغواً وأفضلهم في الجاهلية والاسلام ، وان عمرو بن كلثوم أعزهم نفساً وأجودهم واحدة ، وان طرفة أنبغهم اذ بلغ على حداثة سنه ما بلغه القوم في طول أعمارهم [4] . وهكذا فقد عرفوا لكل شاعر مزية امتاز بها ، وجانباً أحسن فيه ، وميداناً هو سابق فيه .

---

١ – صحيح مسلم ١٧٦٨/٤ .
٢ – طبقات الشعراء صفحة ٢٦ .
٣ – طبقات الشعراء صفحة ٢٩ .
٤ – جمهرة اشعار العرب صفحة ٦٤ وما بعدها والمزهر صفحة ٢٩٩ – ٣٠٠ .

٣

واذا عرفنا مكانة لبيد عند النقاد المتقدمين ، فيجدر ان ننظر في هـــذه المكانة عند الشعراء الذين جاءوا بعده . وحكم الشعراء — فيما أحسب — أصدق من حكم الناقدين ، لأن الشاعر ينظر الى من سبقه على انه قدوة ومثال ، وينظر الى شعره على انه النموذج الجيد الذي يحكم عليه بحاسته الفنية وذوقه الأصيل ، وقد نظم بعض الشعراء قصائد ذكروا فيها فحـــول الشعراء ونوابغهم الذين أعجبوا بهم ، وثقفوا شعرهم ونسجوا على منواهم ، ومن أولئك الشعراء سراقة البارقي — وكان معاصراً لجرير والفرزدق — فقد نظم قصيدته التي أولها [١] :

إنَّ الأَحبةَ آذنوا بـــترَحُّلِ ... وبصرمِ حَبلِكَ باكِراً فتحَمَّلِ

ذكر فيها الفحول ومنازلهم وما أفاد منهم ، فقال :

ولقد أُصبتُ من القريض طريقةً ... أعيَتْ مصادِرُها قرين مُهَلْهِلِ

بعد امرئ القيس المنوَّهِ باسمِهِ ... أيام يهذِي بالدَّخولِ فحوملِ

وأبو دُوادٍ كان شاعرَ أُمَّـــةٍ ... أفلَتَ نجومُهم ولمـــا يأفلِ

ويعدد من الفحول أبا ذؤيب وحسان بن ثابت وابنه عبد الرحمن وزهيراً وابنه كعباً والحطيئة والأعشى، حتى يصل الى ذكر لبيد فيصفه بأنه في الفحول شأنه في ذلك شأن حاتم الطائي ، يقول :

---

١ — ديوان سراقة البارقي صفحة ٦٤ — ٧١ ط حسين نصار سنة ١٩٤٧ .

واذكر لبيداً في الفحولِ وحاتِماً سيلومُكَ الشعراءُ إنْ لم تفعَلِ

ثم يمضي يذكر طائفة أخرى من الشعراء يضع كل شاعر في موضعه المناسب.

وللفرزدق قصيدة مماثلة يفتخر فيها بأنه ورث عن فحول الشعراء طريقتهم وأخذ عنهم الصناعة فحذقها ، ولذلك فهو يعدد أولئك الشعراء في قصيدته التي أولها [1] :

إنَّ الذي سَمَكَ السماءَ بنى لنا بَيْتاً دعائِمُــه أعزُّ وأطوَلُ

حتى يقول [2] :

وَهَبَ القصائِدَ لي النوابغُ إذ مضَوا وأبو يزيد وذو القروح وجرولُ
والفحلُ علقمةُ الذي كانت لَهُ حلل الملوك كلامُه لا يُنْحَلُ
وأخو بني قَيْسٍ وهُنَّ قتلنَهُ ومهلهِلُ الشعراء ذاك الأولُ
والجعفريُّ - وكان بِشْرٌ قبلَه - لي من قصائده الكتابُ المجملُ
ولقد رَوِثْتُ لآلِ أوسٍ منطِقا كالسُّمِ خالطَ جانبيهِ الحنظَلُ

---

١ - ديوان الفرزدق صفحة ٧١٤ - ٧٢٥ ط عبدالله الصاوي ، والنقائض ١/٢٠١ .

٢ - النوابغ : النابغــة الذبياني ، والجعدي ، والشيباني . ابو يزيد : المخبل السعدي . ذو القروح : امرؤ القيس . جرول : الحطيئة . اخو بني قيس : طرفة : الجعفري : لبيد .

والفرزدق يخص بالذكر الشعراء الفحول الذين أعجب بهم وأخذ عنهم. وإذا كان سراقة قد أكد على ان لبيداً في الفحول فان الفرزدق ذكره في سياقهم، وذكر انه يحتفظ بشعره فله من قصائده (الكتاب المجمل).

أما الطرماح بن حكيم، فكانت في ذهنه صورة رائعة من حزن لبيد على أخيه أربد ولا بد ان يكون الطرماح قد حفظ جانباً كبيراً من مراثي لبيد بحيث يتمثلها حين يرثي موتاه، ويجاوز ذلك فيتأسى بلبيد حين فارق أخاه، يقول الطرماح في احدى مراثيه[1]:

فإني وإياكُم وموعدُ بَيْنَنا كيوم لبيدٍ يومَ فارقَ أرْبَدا

وهذه الصورة التي تمثلها الطرماح، كانت حاضرة في ذهن البحتري أيضاً فيذكر حزن لبيد على أربد كما يذكر حزن متمم على أخيه مالك بن نويرة وذلك في قصيدته التي أولها[2]:

هذي المعاهد من سعاد فسَلِّمِ واسألْ وإنْ وَجَمتْ ولم تتكلَّمِ

حتى يقول:

ومُنوا برائعةِ الفراق فإنَّهُ سَلْمُ السُهادِ وحربُ نوم النُوَّمِ

ألوي بأربدَ عن لبيدٍ واهتدي لابني نويرةَ مالكٍ ومتَمِّمِ

---

١ – الازمنة والامكنة ٢/٣١٣.

٢ – ديوان البحتري ٢/٢٣١ ط هندية ١٩١١.

وذكر أبو تمام لبيداً كذلك وقرنه بصاحبيه طرفة والأعشى في قصيدة مطلعها[1] :

طلل الجميع لقد عفوتَ حميدا وكفى على رزئي بذاكَ شهيدا

وقف على الديار واستذكر الشعراء الفحول الذين وقفوا قبله وقفته هذه فقال :

اذكرتنا الملك المضلل في الهوى والأعشَيَيْنِ وطَرْفَةَ ولبيدا

أما أبو العلاء المعري فصورة لبيد في ذهنه زاهية حافلة ، فقد ذكره في رسالة الغفران ، فانزله في خير منزل ، اسكنه الجنة واطنب في وصف عيشه الرغيد فيها ، وانشده واستنشده ، ودل في ذلك على شهرة لبيد وعلو مكانته فقال : « فبينا هم كذلك : اذ مر شاب في يده محجن ياقوت ، ملكه بالحكم الموقوت فيسلم عليهم فيقولون : من أنت ؟ فيقول : أنا لبيد بن ربيعة بن كلاب، فيقولون : أكرمت أكرمت ، لو قلت : لبيد ، وسكت ، لشهرت باسمك ، وان صمت ، فما بالك في مغفرة ربك ؟ فيقول : انا بحمد الله في عيش قصر أن يصفه الواصفون : ولدي نواصف وناصفون ، لا هرم ولا برم ، فيقول الشيخ : تبارك الملك القدوس ، ومن لا تدرك بغيته الحدوس ، كأنك لم تقل في الدار الفانية :

ولقد سَئِمْتُ من الحياةِ وطولِها وسؤالِ هذا الناسِ كيفَ لبيدُ

---

١ – ديوان ابي تمام بشرح الخطيب ، التبريزي صفحة ٤١٢ تحقيق عبده عزام .



ولم تفه بقولك :

فمتى أهلِـكْ فلا أُحفِلُهُ بجلِي الآنَ من العيشِ بَجَلْ
من حياةٍ قد مَلِلْنا طـولَها وجديرٌ طولُ عيشٍ أن يُمَلْ

فانشدنا ميميتك المعلقة ، فيقول : هيهات ، اني تركت الشعر في الدار الخادعة ولن اعود اليه في الدار الآخرة ، وقد عوضت ما هو خير وأبر .. »[1].

وليس أدل على شاعرية لبيد وذيوعها ، وعلو مكانته ان تبقى صورته زاهية في أذهان المتأخرين من مثل احمد الخفاجي المصري[2] الذي يقول :

فلولا الشعرُ بالعلمـاء يُزْري لكنتُ اليومَ أشعرَ من لبيد

وكما جرى ذكر لبيد تنويهاً واشادة واكراماً على لسان الشعراء ممن فضلوه واعجبوا به وبشعره ، فكذلك كان لبيد حديث المجالس ، وكان شعره سائراً على السن المتحدثين ، ينشدونه ويتمثلون به ، ويضربون به الأمثال ويتخذون منه العبر والحكم ، فمنذ العصر الاول كانت السيدة عائشة — أم المؤمنين — تحفظ الكثير من شعر لبيد وتعجب به وتفضله حتى انها قالت — فيما يروي

---

١ — رسالة الغفران صفحة ٢١٥ ط دار المعارف ١٩٦٣ .

٢ — سلافة العصر في محاسن الشعراء بكل مصر ، علي صدر الدين المدني المعروف بابن معصوم صفحة ٤٢١ ط ١٣٢٤ هـ . وينسب هذا البيت للامام الشافعي كما في تذكرة الشعراء للسمرقندي . صفحة ٢٠ ، فارسي ط طهران .

الشعبي — : « رويت للبيد نحواً من الف بيت »[1] وانها كانت تعجب بشعره وتتمثل بحكمته ، وتترحم عليه حين تذكره ، ومعروفة هي الرواية المسلسلة عن هشام بن عروة عن أبيه ، ان عائشة انشدت بيت لبيد :

ذهبَ الذينَ يُعاشُ في أكنافِهم ... وبقِيتُ في خَلْفٍ كجلدِ الأجرُبِ

فقالت : « رحم الله لبيداً ، فكيف لو رأى زماننا هذا ، قال عروة : رحم الله أم المؤمنين فكيف لو ادركت زماننا هذا ، قال هشام : رحم الله أبي فكيف لو رأى زماننا هذا ، قال كاتبة : سمعناه مسلسلاً بهذا القول باسناد مقارب »[2] .

وكذلك كان المعتصم الخليفة العباسي يجل لبيداً ويحب شعره ويتمثل به ويستنشد من حضره ان ينشدوه شعر لبيد[3] .

ويطول بنا الحديث لو تتبعنا أثر لبيد وشعره في مجالس الملوك والأدباء ، وفي كل ذلك دلالة على مكانته في نفوسهم وسيرورة شعره واستحسان الناس اياه .

٤

ومهما يكن من شيء فان الأدباء والشعراء قد عرفوا للبيد مكانته وبوأوه منزلة رفيعة ، فهو واحد من فحول الجاهلية البارزين تفرد بمزايا كما تفرد غيره

---

١ – سير اعلام النبلاء ، الذهبي ١٣٨/٢ .

٢ – سير اعلام النبلاء ١٣٩/٢ وانظر العقد الفريد ٢٧٥/٥ وجمهرة الاشعار صفحة ٣٠ .

٣ – الأغاني ٣٧٢/١٥ .



وموضع لبيد عند اصحاب الطبقات لم ينزل عن الطبقة الثالثة كما عند ابن سلام . وهو من شعراء الطبقة الثانية عند أبي عبيدة وهذه مكانة حقيقة به ولم نجد من أخَّرَ لبيداً عن الطبقة الثالثة، بل وجدنا من قدمه وجعله بمصاف الاعشى[1]. فهو على هنا واحد من الفحول المقدمين وواحد من اصحاب المعلقات المعدودين هذا في الجاهلية ، أما في الاسلام ، فقد كان أبرز الشعراء المخضرمين اذ لمع في هذه الفترة جمهرة من الشعراء : ففي المدينة شعراء الانصار حسان بن ثابت ، وكعب بن مالك ، وعبد الله بن رواحة وقد حمل هؤلاء راية النضال في سبيل الله ونشر كلمة الدين والذب عن اعراض المسلمين .

وفي مكة شعراء المشركين — الذين كانوا يناقضون شعراء المسلمين في المدينة — وأبرزهم عبد الله بن الزبعري ، وضرار بن الخطاب وأبو سفيان بن الحارث ، وقد خبا نجم هؤلاء بعد فتح مكة ودخولهم في الاسلام . هذا في الحاضرة أما في البادية فقد ظهر عدد كبير من الشعراء أبرزهم لبيد وكعب بن زهير ، والنابغة الجعدي ، والحطيئة والعباس بن مرداس . وقد تأثر هؤلاء الشعراء بالاسلام وشارك بعضهم في المعارك الاسلامية ، وقالوا الشعر في نصرة المسلمين ولكنهم لم يبلغوا المكانة والمنزلة التي بلغها لبيد في الاسلام ، حيث ظهر أثر الدين في شعره واضحاً كما ظهر في سلوكه من زهد وتقى وبر وصلاح ، فحاز لذلك منزلة رفيعة بين صحابة رسول الله ﷺ ، فقد أجلّه الناس وقدروه لاسلامه وجودة شعره من ناحية ، ولأنه بقية الفحول الجاهليين في الاسلام من ناحية ثانية ، فهو أكبر شعراء عصره ، فني أقرانه ، وذهبت لداته ، ولم يبق منهم غير النابغة الجعدي ، ولبيد أعلى مكانة وشاعرية . وكان لبيد يحس بأنه أكبر شعراء عصره ، وانه بقية الفحول فقد كان يعد نفسه ثالث ثلاثة هم أشعر

---

١ — جمهرة اشعار العرب صفحة ٣٤ .

الشعراء حين يسأله الناس وهو في الكوفة فيقدم امرأ القيس ، ويثني بطرفة ثم هو ثالثهم [1] .

والذين قدموا لبيداً رأوا في شعره روائع استجادوها وتمثلوا بها ، وجيد لبيد كثير ، وله أمثال سائرة وحكم خالدة ومعـــان شاعت بين الناس ودلت على مقدرته وسحره ، وقد رأينا الكثير من ذلك عند الحديث عن فنون شعره . ولعل أبرز السمات التي لمسها من قدم لبيداً وفضله هي :

١ — عذوبة المنطق ورقة حواشي الكلام كما لمسها ابن سلام [2] .

٢ — قلة اللغو وبعده عن السخف والهذر في شعره كما رآها القرشي [3] .

٣ — الصلاح والتقوى وذكر الله والدين كما عرف له ذلك أبو عمرو بن العلاء والاصمعي [4] .

٤ — كثرة الأمثال والحكم والرائع الجديد في شعره كما شهد له بذلـــك الفرزدق وبشار بن برد [5] .

٥ — الروح البدوية الغالبة على شعره ، واجادة تصوير المشاهد الصحراوية ومناظر الحيوان . هذه الصفات التي جعلت شاعراً مثل ذي الرمة يفضله ويجعله أشعر الشعراء [6] .

---

١ — الشعر والشعراء صفحة ٩١ - ٩٢ والأغاني ٣٧٢/١٥ والحور العين ١١٧ .

٢ — طبقات الشعراء صفحة ١١٣ .

٣ — جمهرة اشعار العرب صفحة ٦٤ .

٤ — الموشح صفحة ٧١ .

٥ — الأغاني ٣٧١/١٥ والايجاز والاعجاز ١٤٤ .

٦ — العمدة ٦٢/١ والمزهر ٢٩٩/٢ .



٦ – يضاف الى كل ذلك شخصية لبيد وما عرف عنه في الجاهلية والاسلام من سيادة وكرم وشجاعة ومروءة وبر وصلاح بحيث شهد له بذلك كل من ترجم له ، فذكروه بخير وأثنوا عليه .

٥

أثره فيمن بعده :

وقد ترك شعر لبيد اثاراً واضحة في شعر الشعراء اللاحقين فحاكوه وقلدوه وترسموا خطاه . بل أخذوا أبياتاً بعينها فصاغوا معانيها صياغة جديدة تم عن الأصل وتعرب عن المحاكاة والتقليد أو الأخذ والسرقة . وأحاول هنا أن أسوق أبرز المعاني التي أخذها الشعراء من لبيد بدافع من اعجابهم وحبهم في أن يترسموا خطى القدوة والمثل ، قال لبيد [١] :

من المُسْبِلِينَ الرَّيْطَ لَذٌّ كأنما ... تَشَرَّبَ ضاحي جلدِهِ لونَ مُذْهَبِ

أخذه الأخطل فقال [٢] :

لَذٌّ تقبّلهُ النعيمُ كأنَّمــا ... مُسِحَتْ ترائِبُه بماءِ مُذْهَبِ

وقال لبيد يصف ناقته [٣] :

كعَقْرِ الهاجريِّ إذا ابتَناهُ ... بأشباهٍ حُذِينَ على مِثالِ

---

١ – ديوان لبيد صفحة ٨ .

٢ – ديوان الاخطل صفحة ٢٧ ط الكاثوليكية ١٨٩١ م .

٣ – ديوانه صفحة ٧٦ .

صاغه الطرماح في قوله [1] :

حرجاً كمِجْدَلِ هاجريٍّ لَزَّهُ   بذوات طَبْخِ أطيمةٍ لا تخمدُ
قُدِّرَتْ على مُثُلٍ فهن نوائحٌ   شَتَّى يلائِمُ بينهن الفَرْقَدُ

وكذلك نظر الطرماح الى قول لبيد [2] :

تَشُقُّ خمائِلَ الدَّهنا يداهُ   كما لَعِبَ المقامِرُ بالفِيالِ

فقال [3] :

وغدا تَشُقُّ يداهُ أوساطَ الرُّبا   قسمَ الفِيالِ تَشُقُّ أوسطَهُ اليَدُ

ويقال ان لبيداً أول من شبه الأباريق بالبط في قوله [4] :

تُضَمِّنُ بِيضاً كالإوَزِّ ظروفُها   إذا أتأقوا أعناقَها والحواصِلا

أخذه ابن الطثرية فقال [5] :

ويوم كظِلِّ الرمحِ قَصَّرَ طولَهُ   دَمُ الزِّقِّ عنا واصطفافُ المزاهرِ
كأن أباريقَ اللُّجينِ لديهمُ   إوَزٌّ بأعلى الضيف عوجُ المناقرِ

---

١ – الشعر والشعراء صفحة ١٥٤ .
٢ – ديوانه ص ٨٠ .
٣ – الشعر والشعراء صفحة ١٥٤ .
٤ – ديوانه صفحة ٢٤٤ .
٥ – الشعر والشعراء صفحة ١٥٦ .

وكذلك قال أبو الهندي [1] :

سَتُغْني أبا الهندي عن وطبِ سالم   أباريقُ لم يعلَقْ بها وَضرُ الزّبْدِ
مفــدّمةً قزّاً كأن رقابهَـــا   رقابُ بناتِ الماء تفزَعُ للرّعْدِ

وقال لبيد في تطاول الأيام [2] :

أليس ورائي إن تراخت منيتي   لزومُ العَصا تُحنَى عليها الأصابعُ

أخذه مسلم بن الوليد فقال بعد أن ذكر الشيب [3] :

فإن تُبقِني الأيامُ تُجنْبْنيَ العَصا   وإن تُفْنِني فكلُّ حيٍّ لها أكْلُ

وقال لبيد [4] :

وإنّا واخوانا لنا قد تَتابعوا   لكالمغتَدي والرائحِ المتهَجّرِ

أخذه أبو نواس فقال [5] :

سبقَونا الى الرحيلِ   وإنا عـــلى الأثر

---

١ - المصدر السابق صفحة ١٥٦ .

٢ - الديوان صفحة ١٧٠ .

٣ - ديوان مسلم بن الوليد صفحة ٧٤ ط ليدن سنة ١٨٧٥ م .

٤ - ديوان لبيد صفحة ٥٧ .

٥ - ديوان ابي نواس صفحة ١٩٥ والشعر والشعراء ١٥٦ .

وقال لبيد في وصف أربد [١] :

مُمقِرٌ مُرٌّ علي أعدائِه   وعلى الأدنين حُلْوٌ كالعَسَل

أخذه أبو الطيب المتنبي فقال [٢] :

أنت طوراً أمرٌّ من ناقِع السُّمِّ   وطوراً أحلى من اللسان

وقد علق الجرجاني بقوله : « وهو بيت لبيد لفظاً ومعنى وقد قصر عنه ، لأن لبيداً فصل الحالين بين الأعداء والأدنين ، وأجمل أبو الطيب القول » [٣] .

وقال المتنبي أيضاً في هذا المعنى [٤] :

متفرّقُ الطعمينِ مجتمعُ القُوَى   فكأنــه السَّرَّاءُ والضَّرَّاءُ

ونظر المتنبي كذلك الى قول لبيد [٥] :

أحكم الجِنْثِيُّ من عوراتِها   كلَّ حِرْباءٍ إذا أُكْرِهَ صَلّ

حين قال [٦] :

أين ذي الرقةُ التي لك في الحر   ب إذا استُكْرِهَ الحديدُ وصَلّا

---

١ – ديوانه صفحة ١٩٧ .

٢ – ديوان المتنبي ، شرح الواحدي صفحة ١٩٨ .

٣ – الوساطة صفحة ٢٩٩ .

٤ – ديوان المتنبي صفحة ١٩٨ .

٥ – ديوانه صفحة ١٩٢ .

٦ – ديوان المتنبي صفحة ٥٧٩ .

وقال لبيد [1] :

ما ان سَمِعْتُ ولا رأيتُ بمثلهم في العالمينا
فمكثتُ بعدَهم وكنتُ بطولِ صحبتهم ضَنينا

أخذه مهيار فقال [2] :

من اشتكى الشوقَ إذ هزّتْ وسادَتَهُ مدامعٌ تنتَحي أو أضلعٌ تَجِبُ
فما أسِفْتُ لشيءٍ فائتٍ أسفي من أن أعيشَ وجيرانُ الغضاغيبُ

والأمثلة على هذه المعاني التي سبق اليها لبيد كثيرة ، ليس من همي هنا حصرها ، وإنما سقت ما فيه دليل على سبقه وغلبة معانيه وأثره في الشعراء بعده .

وليس أدل على جودة شعر لبيد ، وشدة أسره ، وقوة عبارتـــه ورائع معناه ، من ان يترك أثراً بارزاً في شاعر أموي كبير هو ذو الرمة الذي تعقب لبيـــداً في شعره وحاكاه ، ونظم في موضوعاته ، وكرر معانيه ودل دلالة واضحة على شدة تأثره بشعره وتفضيله على من سواه حتى عده أشعر الناس كما مر بنا [3] .

ومن مظاهر تعلق ذي الرمة بلبيد وتأثره به ، أن اتخـــذ المعلقة مثالاً يحتذى . فحاول أن يحاكيها في قصيدته البائية الطويلة التي أولها [4] :

---

١ - ديوانه صفحة ٣٢٣ .

٢ - ديوان مهيار الديلمي ١٢٩/١ ط دار الكتب ١٩٢٥ م. والبديع ، ابن المعتز ١٣١ .

٣ - العمدة ٦٢/١ والمزهر ٢٩٩/٢ .

٤ - ديوان ذي الرمة صفحة ١ - ٣٥ ، نشر كارليل هيس ط كمبرج ١٩١٩ م .



ما بالُ عينكَ منها الماءُ ينسكِبُ　　كأنَّه من كُلَى مفريةٍ سَرِبُ

فقد تعقب قصيدة لبيد في أسلوبها وموضوعاتها وفي قصص الحيوان فيها فكل معنى عند لبيد نجد صداه في قصيدة ذي الرمة :

وقف لبيد على الديار ووصف الاطلال ، وكذلك فعل ذو الرمة ، تغزل لبيد بنوار وذكر بعدها وفراقها ومشهد ارتحالها ، فتابعه ذو الرمة متغزلاً بمية ذاكراً محاسنها متخيلاً أيامها مستحضراً ذكرياتها ، ثم يتخلص لبيد من الغزل الى الناقة واصفاً قوتها وفرط نشاطها ، فيصف ذو الرمة ناقته كذلك . فاذا بلغ لبيد الى وصف حمار الوحش وأتانه ، نهج ذو الرمة نهجه وتعقبه خطوة خطوة ، فقد قرأت في المعلقة قصة حمار الوحش عند لبيد ، وكيف غالب الفحول على الآتان فاصطفاها لنفسه ودفعها أمامه ليتفرد بها بعيداً عن الفحول ، ومكث وإياها أشهر الشتاء مكتفياً بالرطب عن الماء ، حتى اذا هاجت رياح الصيف واضرَّ بهما العطش ، انطلق بها يقطع الاكام والنجاد حتى بلغا عين ماء كثيفة النبات كثيرة القصب ، فوردا ماءها وعاما فيها . هذه المشاهد وغيرها مما صور لبيد نجدها عند ذي الرمة مع شيء من البسط والتفصيل والتغيير الجزئي الذي لا يخرج على الصورة العامة . فاذا كان لبيد قد تخلص الى الحمار والاتان بقوله [1] :

أو ملمع وسقَتْ لأحقبَ لاحَهُ　　طردُ الفحولِ وضَربُها وكِدامُها

يعلو بها حُدْبَ الإكامِ مُسَحَّجٌ　　قد رابَهُ عِصيانُها ووِحامُها... الخ

---

١ - ديوان لبيد ص ٣٠٤ . ملمع : اتان استبان حملها . وسقت : حملت . الاحقب : الحمار الذي في موضع الحقب منه بياض . كدامها : عضها . مسحج : معضض . وحامها : شهوتها اليه .

فان ذا الرمة يتخلص أيضاً الى الحمار واتنه ، ثم يقص قصة هذا الحمار وانتصاره على الفحول بقوله [1] :

وَثْبَ المُسَحَّجِ من عانات مَعْقُلَةٍ كأنه مستبانُ الشَّكِ أو جَنَبُ

يحدو نَحائِصَ أشباهاً مُحَمْلَجَةً وُرْقَ السرابيلِ في ألوانِها خطبُ . الخ

ثم يشبه لبيد ناقته بالبقرة المسبوعة ، ويقص قصتها ويصور محنتها منتقلاً الى ذلك بقوله [2] :

أفتلكَ أم وحشيَّةٌ مسبوعَةٌ خَذَلَتْ وهاديةُ الصُّوارِ قِوَامُها

خَنْساءُ ضَيَّعتِ الفريرَ فلم يَرِمْ عُرْضَ الشقائقِ طَوْفُها وبُغامُها

أما ذو الرمة فينتقل الى وصف ثور الوحش الموشومة سيقانه بنقط سود ، فيقول [3] :

أذاكَ أم نَمِشٌ بالوَشْيِ أكرُعُهُ مُسَفَّعُ الوجهِ غادٍ ناشطٍ شَبَبُ

---

١ – ديوان ذي الرمة ، القصيدة الاولى . معقلة : موضع . نحائص : اتن سمينة . محملجة : موثقات الاجساد . ورق السرابيل : شعورها رمادية تميل الى السواد .

٢ – ديوان لبيد ص ٣٠٧ – ٣٠٨ . وحشية مسبوعة: بقرة أكل السبع ولدها . الصوار: طليعة القطيع من البقر ، أو الثور وحده . الفرير : ولد البقرة .

٣ – أذاك : اي الحمار. ام نمش بالوشي اكرعه : اي الثور الذي في أرجله نقط سود وبيض. مسفع : في وجهه سفعة وهي سواد او خطوط سود . شبب : شاب جلد لشط .

ويبدأ التوافق التام بين وصف لبيد لبقرته ، ووصف ذي الرمة لثوره حين يجيىء الليل وينزل المطر ، وتلوذ بقرة لبيد بأصل شجرة من الأرض وتقضي ليلة باردة قاسية رهيبة ، وهي ترتجف وسط الظلام ، وتتلألأ بلونها الابيض الساطع [1] :

باتَتْ وأسبَلَ واكفٌ من ديمةٍ   يروي الخمائلَ دائماً تَسجامُها

يعلو طريقةَ مَتْنِها متواتر   في ليلةٍ كفرَ النجومَ غَمامُها

تَجْتافُ أصلًا قالِصا متنبِّذا   بِعُجوبِ أنقاءٍ يميلُ هُيامُها

وتضيءُ في وَجْهِ الظلام مُنِيرَةً   كَجُمانَةِ البحريِّ سُلَّ نِظامُها

حتى اذا انحسرَ الظلامُ وأسفرت   بكرَتْ تزلُّ عن الثَرَى أزلامُها

وقد أخذ ذو الرمة هذه المعاني فرددها وبسطها وفصل فيها ، وقف عند كل بيت فتمثله واستوعبه ، ثم أعاده في صورة جديدة زاهية ، وهي صورة على ما فيها من مهارة وبراعة ، لا تخفي الأصل الذي اقتبست منه والمثال الذي احتذته . فذو الرمة يصور الثور يجري في الصحراء يبتغي المأوى وقد أحاطت به الرمال من كل جانب ، حتى اذا أجنه الليل وداهمه المطر ، لجأ الى شجرة من الأرطى يدفع اغصانها ويلوذ تحت فروعها ، والمطر يسقط من فوقه وتنتثر قطراته على متنه حبات متلألئة كأنها جمان . ويتأمل الثور فيما حوله من ورق متساقط متغير اللون تدفعه الرياح وتفوح رائحته كمسك عبق تنتشر

---

[1] – ديوان لبيد ص ٣٠٩ – ٣١٠ . الواكف : القطر . الديمة : المطر الدائم . الطريقة : خطة مخالفة في لونها . كفر : ستر. تجتاف : تدخل في جوفه. قالص: مرتفع . متنبذ : متفرق. انقاء : كثبان . ازلامها : قوائمها شبهها بالقداح .



رائحته من دكان عطار . ومثلما كانت بقرة لبيد (تضيء في وجـه الظلام منيرة) ، فكذلك ثور ذي الرمة يلتمع بلونه الأبيض تحت البروق كأنه رجل عزب ، تلفع في ثياب حريرية بيضاء . وانظر كيف أعاد ذو الرمة صياغة معاني لبيد في قطعته السابقة . يقول[1] :

حتى إذا جعلتهُ بينَ أظهرها ... من عُجْمَةِ الرملِ أثباجٌ لها حَبَبُ

ضَمَّ الظلامُ على الوحشيّ شملتهُ ... ورائحٌ من نشاصِ الدلوِ منسكِبُ

فباتَ ضيفاً إلى أرطاةِ مرتكِمٍ ... من الكثيب لها دِفءٌ ومُحْتَجَبُ

وحاول ان تقارن هذا البيت الأخير بقول لبيد السابق :

تجتافُ أصْلَا قالِصا مُتَنَبِّذَا ... بِعُجوبِ أنقاءٍ يميلُ هُيامُها

ثم يمضي ذو الرمة يصف الليل والمطر والبرق ، والتماع الثور الأبيض تحت ضوء البرق الخاطف[2] :

تجلو البوارقُ عن مُجْرَمِّزٍ لَهَقٍ ... كأنـــه مُتَقَبِّيٌ يَلْمَقٍ عَزَبُ

والوَدْقُ يستَنُّ في أعلى طريقَتِه ... جَوْلَ الجُمانِ جرى في سلكِه الثُّقَبُ

---

١ – ديوان ذي الرمة ص ١٨ . ثبج الرمل : معظمه . الدلو : نجم في السماء . النشاص : السحاب المرتفع المتراكم .

٢ – ديوان ذي الرمة ص ٢٠ . البوارق : سحاب فيه مطر وبرق . المجرمز : المتقبض المجتمع فيه بعض الى بعض ، اراد الثور . لهق : أبيض . يلمق : القباء المحشو . عزب : ليس له أهل . الودق : المطر الشديد . يستن : يجري .

وقد نظر في هذا الى بيت لبيد :

وتَضيءُ في وسْطِ الظلامِ منيرةً　　كجُمانةِ البحريّ سُلَّ نِظامُها

ونقل قوله كذلك :

يعلو طريقةَ متنِها متواتِرٌ　　في ليلةٍ كفرَ النجومَ ظلامُها

وكما وصف لبيد خوف البقرة من وحشة الليل وهي تعاني من الرمال المنهارة تحت قدمها تريد أن تثبت فلا تستطيع ، حتى اذا أسفر الصبح انطلقت مبكرة وهي تتسمع رزّ الأنيس خائفة مذعورة لا تدري موضع المخافة منها ، فكذلك تناول ذو الرمة هذه المعاني ، وراح يكرر ما قاله لبيد ، وذلك حيث يقول[1] :

وقد توَجّسَ رِكْزاً مُقفِرٌ نَدُسٌ　　بنَبْأَةِ الصوتِ ما في سَمْعِه كَذِبُ

فباتَ يشئِزه ثأدٌ ويُسهِرُه　　تذاوُبُ الريحِ والوسواسِ والهِضَبُ

حتى اذا ما جَلَا عن وجهه فَلَقٌ　　هاديه في أخرياتِ الليلِ منتَصِبُ

---

١ – ديوان ذي الرمة ص ٢١ – ٢٢ . توجس : تسمع . الركز : الصوت الخفي . ندس : فطن . النبأة : الصوت. يشئزه : يقلقه . الثأد : الندى . تذاؤب الريح : هبوبها من كل وجه وهو مأخوذ من خداع الذئب . الوسواس : حديث النفس . الهضب : الامطار واحدتها هضبة . الفلق : الصبح . هاديه : أوله. الاغباش : بقايا ظلمة الليل . ليل تمام : طويل . طارقه : مأخوذ من طارقته نعلي اي جعلت لها طراقاً فوق طراق . تطخطخ الغيم : تراكمه وسواده . جوب : فرج من السحاب يرى منه السماء . أقطاره : جوانبه . تذاءبه : تناوله كالذئب .

أغباشَ ليلٍ تمامٍ كانَ طارقهُ   تَطَخطُخ الغيمِ حتى ما به جُوَبُ

غدا كأن به جِنًّا تذاءبُهُ   من كل أقطارِه يخشَى ويرتقِبُ

وأنت ترى هنا كيف يتابع ذو الرمة لبيداً في كل معنى ويترسم خطاه خطوة بعد خطوة ، ألست ترى البيت الأخير اعادة أمينة لبيت لبيد :

فغدَت كِلاَ الفرْجينِ تحْسَبُ أنّهُ   مولَى المخافةِ خلفُها وأمامُها

ثم يصور لبيد كيف تصدى الرماة لهذه البقرة ، فأرسلوا سهامهم فأخطأتها ثم أرسلوا كلابهم فشبت معركة حامية خرجت البقرة منتصرة بعد ان صرعت الكلاب وتركتها مضرجة بدمائها ، على نحو ما يقول [1] :

حتى إذا يَئِسَ الرماةُ وأرسَلوا   غُضفاً دواجِنَ قافلاً أعْصامُها

فَلَحِقْنَ واعتكرتْ لها مَدرِيَّةٌ   كالسَّمْهرِيَّةِ حَدُّها وتمامُها

لتذودَهُنَّ وأيقنَتْ إنْ لم تذدْ   أنْ قد أُحِمَّ من الحتوفِ حِمامُها

فتقصَّدَتْ منها كَسابِ فَضُرِّجتْ   بدَمٍ وغُودِرَ في المكَرِّ سُخامُها

ويتناول ذو الرمة هذه المعركة الضارية بين الثور وكلاب الصيد ، فيقف عندها ويطيل الوقوف ، يرسم الجو النفسي للثور في شموخه وكبريائه ، ويصور

---

١ — الديوان ص ٣١١ – ٣١٢ . غضفاً : كلاباً مسترخية الآذان . دواجن : معودة للصيد . قافل : يابس . اعصامها : قلائدها . اعتكرت : كرت . مدرية : حربة ويريد قرنها . كساب : اسم كلبة . سخام : اسم كلب .

جو المعركة بما فيه من حيوية تتمثل في الوقوف عند وصف الصياد وفي طعنات الثور في اعناق الكلاب وفي صدورها وقلوبها ، وتتمثل في الدماء المسفوحة التي خضبت قرنيه ، ثم خروج الثور منتصراً يطأ اشلاء ضحاياه ، على نحو ما يقول :

هاجتْ له جُوَّعٌ زرقٌ مُخَصَّرةٌ　　　شوازِبٌ لاحَها التغريثُ والجَنَبُ

غُضْفٌ مُهَرَّتَهُ الأنيابِ ضاريَةٌ　　　مثلُ السراحين في أعناقها العَذَبُ

ويمضي يفصل في وصف الصياد وفي احوال الثور حتى يقف عند المعركة الضارية التي ينتصر بها الثور فيقول [1] :

فكرَّ يمشُقُ طعناً في جواشِنِها　　　كأنَّهُ الأجرَ في الاقبالِ يحتسِبُ

فتارةً يَخِضُّ الأعناقَ عن عُرُضٍ　　　وَخْضاً وتنتظم الأسحارُ والحُجبُ

يُنحي لها حَدَّ مدريٍّ يجوفُ به　　　حالاً ويصلِدُ حالاً لهذمٌ سَلِبُ

حتى إذا كُنَّ محجوزاً بنافِذَةٍ　　　وزاهقا وكلا رَوْقَيهِ مُخْتَضِبُ

وَلَّى يَهُزُّ انهزاماً وسطها زَعِـلاً

جذلان قد أفرَخت عن رَوْعه الكُرَبُ

---

١ ــ ديوان ذي الرمـــة ص ٢٥ ـ ٢٧ . يمشق طعناً : يطعن طعناً مطابقاً . جواشنها : صدورها . الاحتساب : طلب الثواب . يخض : يطعن سريعاً . الاسحار : ج سحر وهو الرئة . ينحى : يقبل عليه . مدري : القرن . يجوف به: يصل الجوف . لهذم : قاطع . سلب: طويل. محجوزاً : اي اصابها الطعن في حجزتها اي وسطها . زاهقاً : هالكاً . زهقت الروح : خرجت. روقيه : قرنيه . يهز : يمر مراً سريعاً . زعلا : نشيطاً .

وهكذا ترى أن ذا الرمة كان ينقل شعر لبيد نقلاً ويترجمه ترجمة مبسوطة مفصلة ، فكل معنى في هذه القصيدة ، صدى لمعنى في معلقة لبيد ، وكأنه يقف عند المعاني التي طرقها استاذه لبيد وقفة متأمل معجب ، ثم يروح يشرحها ويصوغها من جديد صياغة تنم عن الأصل من غير أن تفسده ، بل تضفي عليه ثوباً رائعاً بديعاً، وقد تابع ذو الرمة لبيداً في أسلوب القصة وتسلسل موضوعاتها وأحداثها ونهايتها التي انتهت اليه . ولا يكتفي ذو الرمة بهذه المتابعة ، بل يقتدي بلبيد في نظرته الانسانية، حيث يجعل البقرة دائماً ناجية من سهام الصياد وضراوة كلابه ، وما من مرة جعل البقرة – أو أي حيوان خائف مطارد – خاسرة في صراعها مع أعدائها ، وكذلك فعل ذو الرمة اذ جعل الثور غالباً منتصراً . هذا على النقيض مما نجد عند شعراء هذيل ، اذ يجعل أبو ذؤيب الهذلي – في قصيدته التي أولها [1] :

أَمِنَ المنونِ وريبِها تتوجَّعُ   والدهرُ ليس بمعتِبٍ من يَجْزَعُ

– سهام الصياد تستقر في جوف الثور فيكبو متخبطاً بدمائه كما يكبو فحل الابل [2] :

فبدا له رَبُّ الكِلاب بكفِّهِ   بيضٌ رِهابٌ ريشُهنَّ مُقَزَّعُ

فرمى لينقذ فَرَّهــا فهوَى لَهُ   سهمٌ فانفــذَ طُرَّتيهِ المِنْزَعُ

فكَبا كما يكبو فَنيقٌ تارِزٌ   بالخَبْتِ إلا أنه هو أبرَعُ

---

١ – المفضليات ص ٨٥٠ ط لايل .

٢ – المفضليات ص ٨٧٥ – ٨٧٦ .

ولم يكن ذو الرمة ليتابع لبيداً هذه المتابعة الدقيقة ، لولا ما في شعر لبيد من جوانب رائعة ، ومعان نادرة ملكت على ذي الرمة دهشته واستحوذت على اعجابه ، بحيث صار سلطان شعر لبيد لا يفارق شعره .

ويستطيع القارىء المحص لشعر ذي الرمة في قصائده الاخرى أن يجد لمحات واضحة ، وآثاراً بينة من فن لبيد ومعانيه ، وحتى ألفاظه .

وبعد : فمن كل ما مر في هذا الفصل ، نستطيع أن نستدل — باطمئنان — على ان لبيداً كان واحداً من الفحول المقدمين في الجاهلية ، وشاعراً فذاً بين شعراء المعلقات المفضلين ، وكان في طليعة الشعراء المخضرمين ، وأجود الشعراء المسلمين شعراً ، وخيرهم زهداً وصلاحاً ، ولذلك نزل من نفوس المسلمين منزلة رفيعة سامية ، كما نزل من نفوس الأدباء والشعراء بعده منزلة جليلة ، فقد أحبه الناس ، وأكرموه وقدموه وأعجبوا بشعره ، فتمثلوا به وتناشدوه ، وصار حديث مجالسهم وأسمارهم ، واستمدوا منه الفصاحة والجمال ، والحكم والأمثال ، ورأوا فيه مرآة لحياة البادية في لغتها وبيئتها ، كما رأوا فيه مرآة صافية للنفس المسلمة التقية الصالحة ، التي ذكرت الله وتفكرت في آلائه وسبحت بحمده .

فهرس المصادر والمراجع *

١ ــ المصادر المطبوعة :

(أ)

● **الآلوسي – محمود شكري (– ١٣٤٢ هـ) .**

١ ــ بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب ، بعناية بهجت الأثري ط ٢ . ١٣٤٢/١٩٢٤ .

● **الآمدي – ابو القاسم الحسن بن بشر بن يحيى (– ٣٧٠ هـ) .**

٢ ــ المؤتلف والمختلف ، تحقيق عبد الستار فراج ط احياء الكتب ١٣٨١ / ١٩٦١ .

● **الأبشيهي – شهاب الدين محمد بن أحمد (– ٨٥٠ هـ) .**

٣ المستطرف من كل فن مستظرف ، ط حجر .

● **ابن الأثير – علي بن محمد بن عبد الكريم الشيباني الجزري (ت ٦٣٠ هـ).**

٤ ــ الكامل في التاريخ ، ط المنيرية بمصر ١٣٤٩ هـ .

٥ ــ اسد الغابة في معرفة الصحابة ، ط المكتبة الاسلامية طهران .

٦ ــ اللباب في تهذيب الانساب ، ط القدسي ، مصر ١٣٥٧ هـ .

(*) هذه مصادر الدراسة قبل حذف بعض الفصول .

● **ابن الأثير – نصر الله بن محمد الشيباني الجزري (٦٣٧ هـ) .**

٧ – الجامع الكبير ، ت مصطفى جواد وجميل سعيد ، ط بغداد ١٩٥٦ م .

● **ابن الأثير – المبارك بن محمد الشيباني الجزري (ت ٦٠٦ هـ) .**

النهاية في غريب الحديث والأثر ، ط حجر .

● **أحمد أمين .**

٨ – فجر الاسلام ، ط ٧ النهضة مصر ، ١٣٧٤ هـ . ١٩٥٥ م .

● **الاخطل – غياث بن غوث (– ٩٢ هـ) .**

٩ – ديوان الاخطل ، ط الكاثوليكية ، بيروت ١٨٩١ م .

● **اسامة بن منقذ – الامير (– ٥٨٤ هـ) .**

١٠ – لباب الآداب ، تحقيق احمد شاكر ، ط الرحمانية ، مصر ١٣٥٤/١٩٣٥ .

١١ – المنازل والديار ، نسخة مصورة نشرها أنس خالدوف ط موسكو ١٩٦١م .

● **الاشبيلي – ابو بكر محمد خير بن عمر الاموي (– ٥٧٥ هـ) .**

١٢ – فهرسة ما رواه عن شيوخه ، ط المكتبة الاندلسية بيروت ١٣٨٢/١٩٦٣ .

● **الاشعري – علي بن اسماعيل (– ٣٣٠ هـ) .**

١٣ – مقالات الاسلاميين ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٠ م .

● **الاصفهاني – ابو الفرج علي بن الحسين بن محمد الاموي (– ٣٥٦ هـ) .**

١٤ – الأغاني ، ط دار الكتب و ط سامي .

● **الاصفهاني — ابو القاسم حسين بن محمد الراغب .**

١٥ — محاضرات الادباء ، ط بيروت ١٩٦١ م .

● **الاصمعي — ابو سعيد عبد الملك بن قريب (— ٢١٥ هـ) .**

١٦ — كتاب الابل ، نشر ضمن الكنز اللغوي في اللسان العربي بعناية هفنر ط بيروت ١٩٠٣ م .

١٧ — اسماء الوحوش وصفاتها ، تحقيق رودوف جاير ط وين ١٨٨٨ م .

١٨ — الاصمعيات ، تحقيق عبد السلام هارون واحمد شاكر ط دار المعارف ١٩٦٤ م .

١٩ — الاضداد ، ضمن ثلاثة كتب في الاضداد نشر هفنر ط بيروت ١٩١٢ م .

● **ابن الاعرابي — ابو عبد الله محمد بن زياد (— ٢٣١ هـ) .**

٢٠ — اسماء خيل العرب وفرسانها ، مع كتاب نسب الخيل لابن الكلبي ط ليدن ١٩٢٨ م .

● **الاعشى — ميمون بن قيس (— ٦٢٩ م) .**

٢١ — ديوان الاعشى، شرح وتحقيق محمد محمد حسين ط مكتبة الجماميز ١٩٥٠م.

● **الاعلم الشنتمري — ابو الحجاج يوسف بن سليمان بن عيسى (— ٤٧٦ هـ).**

٢٢ — مختار الشعر الجاهلي ، تحقيق مصطفى السقا ١٩٤٨ م .

● **الوارد .**

٢٣ — العقد الثمين في دواوين الشعراء الستة الجاهليين ، ط ليدن ١٨٦٩ م .

● **امرؤ القيس — بن حجر الكندي .**

٢٤ — ديوان امرىء القيس ، ط السندوبي ، مصر ١٣٤٩ هـ .

● **الانباري — محمد بن القاسم (— ٣٢٧ هـ) .**

٢٥ — الاضداد ، تحقيق ابي الفضل ابراهيم ، ط الكويت ١٩٦٠ م .

● **ابن الانباري — ابو البركات عبد الرحمن بن محمد (— ٥٧٧ هـ) .**

٢٦ — اسرار العربية ، تحقيق محمد بهجت العطار ، ط دمشق ١٣٧٧/١٩٥٧ .

٢٧ — شرح المعلقات السبع الطوال الجاهليات ، تحقيق عبد السلام هارون ، ط دار المعارف ١٩٦٣ م .

٢٨ — نزهة الألباء في طبقات الأدباء ، نشر علي يوسف ، القاهرة ١٢٩٤ هـ .

(ب)

● **الباقلاني — ابو بكر محمد بن الطيب (— ٤٠٤ هـ) .**

٢٩ — اعجاز القرآن ، تحقيق احمد صقر ، ط دار المعارف ١٩٦٣ .

● **البحتري — ابو عبيدة الوليد بن عبيد (— ٢٨٤ هـ) .**

٣٠ — حماسة البحتري ، ط ليدن ١٩٠٩ و ط شيخو بيروت ١٩١٠ م .

٣١ — ديوان البحتري ، ط هندية ، مصر ١٩١١ م .

● **البخاري — ابو عبدالله محمد بن اسماعيل (٢٥٦ هـ) .**

٣٢ — صحيح البخاري (الجامع الصحيح) ط أوربا .

● **البديعي — يوسف البديعي قاضي الموصل (— ١٠٧٣ هـ) .**

٣٣ — هبة الايام فيما يتعلق بأبي تمام ، نشر محمود مصطفى ١٣٥٢ / ١٩٣٤ .

● **بروكلمان — كارل .**

٣٤ — تاريخ الادب العربي ، ترجمة عبد الحليم النجار ، ط دار المعارف مصر ١٩٦١ م .

● **البغدادي — عبد القادر بن عمر (— ١٠٩٣ هـ) .**

٣٥ — خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، ط الاميرية بولاق و ط محي الدين عبد الحميد .

٣٦ — رسالة التلميذ ضمن نوادر المخطوطات ، عبد السلام هارون .

● **البكري — ابو عبيد عبد الله بن عبد العزيز (— ٤٨٧ هـ) .**

٣٧ — سمط اللآلي ، بعناية عبد العزيز الميمني ، ط لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٥٤ هـ .

٣٨ — فصل المقال في شرح كتاب الامثال ، تحقيق عابدين واحسان عباس ، ط الخرطوم ١٩٥٨ م .

٣٩ — معجم ما استعجم من اسمـــاء البلاد والمواضع ، تحقيق مصطفى السقا ١٣٦٤ / ١٩٤٥ .

● **البلاذري — احمد بن يحيى بن جابر (— ٢٧٩ هـ) .**

٤٠ — انساب الاشراف ، ط الجامعة العبرية ١٩٣٦ الجزء الخامس و ط دار المعارف الجزء الاول ١٩٥٩ م .

٤١ — فتوح البلدان ، ط المصرية ١٣٥٠ / ١٩٣٢ .

● **بلاشير — ريجيس .**

٤٢ — تاريخ الادب العربي ، العصر الجاهلي ، ترجمة ابراهيم كيلاني ط دمشق ١٩٥٦ م .

● **البيضاوي — ناصر الدين عبد الله بن عمر (— ٦٨٥ هـ) .**

٤٣ — تفسير البيضاوي (انور التنزيل وأسرار التأويل) ، ط فليشر ليبزي ١٣٦٤ / ١٨٤٨ .

(ت)

● **التبريزي — ابو زكريا يحيى بن علي (— ٥٢٠ هـ) .**

٤٤ — شرح الحماسة ، ط ٣ السعادة ١٣٤٦ هـ .

٤٥ — شرح المعلقات العشر ، بعناية كارلوس لايل ، ط ليدن .

● **التجيبي — ابو الطاهر اسماعيل بن احمد البرقي (— ٤٣٠ هـ) .**

٤٦ — المختار من شعر بشار ، نشر بدر الدين العلوي ، ط لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٤ م .

● **ابو تمام — حبيب بن أوس الطائي (— ٢٣١ هـ) .**

٤٧ — ديوان ابي تمـــام بشرح الخطيب التبريزي ، تحقيق عبده عزام ، ط دار المعارف مصر ١٩٥١ — ١٩٥٧ م .

● **التميمي — ابو الطاهر محمد بن يوسف بن عبدالله (— ٥٣٨ هـ) .**

٤٨ — المسلسل في غريب لغة العرب ، تحقيق محمد عبد الجواد ، ط مصر ١٩٥٧ م .

(ث)

● **ثعلب ــ ابو العباس احمد بن يحيى** (ــ ٢٩١ ﻫ) .

٤٩ ــ مجالس ثعلب (أمـــالي ثعلب) تحقيق عبد السلام هارون ، ط ٢ دار المعارف ١٩٦٠ م .

٥٠ ــ قواعد الشعر ، ط ليدن ١٨٩٠ م .

● **الثعالبي ــ ابو منصور عبد الملك بن محمد بن اسماعيل** (ــ ٤٢٩ ﻫ) .

٥١ ــ الاعجاز والايجاز ، ط مصر ١٨٩٧ م .

٥٢ ــ التمثيل والمحاضرة ، تحقيق عبد الفتاح الحلو ، ط القاهرة ١٣٨١/١٩٦١ .

٥٣ ــ ثمار القلوب في المضاف والمنسوب ، ط مصر ١٣٢٦ / ١٩٠٨ .

٥٤ ــ خاص الخاص ، ط السعادة مصر ١٣٢٦ / ١٨٠٩ .

٥٥ ــ فقه اللغة وسر العربية ، نشر سليجمان .

٥٦ ــ مختصرات من مؤنس الوحيد، بعناية غوستاف فلوجل، ط وين ١٨٢٩ م.

(ج)

● **الجاحظ ــ ابو عثمان عمرو بن بحر** (ــ ٢٥٥ ﻫ) .

٥٧ ــ البيان والتبيين ، تحقيق عبد السلام هارون ، ط لجنة التأليف ١٣٦٧ / ١٩٤٨ .

٥٨ ــ الحيوان ، تحقيق عبد السلام هارون ، ط الحلبي مصر ١٣٥٦ / ١٩٣٨ ــ ١٩٤٥ .



٥٩ – رسائل الجاحظ (رسالة فخر السودان على البيضان) ، ط التقدم مصر ١٣٢٤ .

٦٠ – المحاسن والاضداد ، ط ٢ الجمالية مصر ١٣٣٠ هـ .

● **الجبوري – يحيى وهيب .**

شعر المخضرمين وأثر الاسلام فيه ، ط بغداد ١٩٦٤ .

● **الجرجاني – القاضي علي بن عبد العزيز (– ٣٦٦ هـ) .**

٦١ – الوساطة بين المتنبي وخصومه ، ط دار احياء الكتب العربية ١٣٦٤ / ١٩٤٥ .

● **جرجي زيدان .**

٦٢ – العرب قبل الاسلام ، بعناية حسين مؤنس .

● **ابن الجزري – شمس الدين محمد بن محمد الشافعي (– ٨٣٣ هـ) .**

٦٣ – غاية النهاية في طبقات القراء ، بعناية براجشتراسر ، ط السعادة مصر ١٩٣٣ م .

● **ابن جني – ابو الفتح عثمان (– ٣٩٢ هـ) .**

٦٤ – التمام في تفسير اشعار هذيل ، تحقيق احمد القيسي واحمد مطلوب ، ط بغداد ١٩٦٢ .

٦٥ – الخصائص ، تحقيق محمد علي النجار ، ط دار الكتب المصرية ١٣٧٦ / ١٩٥٦ .

٦٦ – سر صناعة الاعراب ، تحقيق مصطفى السقا ورفاقه ، ط مصر ١٣٧٤ / ١٩٥٤ .

٦٧ — المنصف ، شرح ابن جنى لكتاب التصريف لأبي عثمان المازني ، تحقيق ابراهيم مصطفى وعبد الله امين ١٣٧٣ هـ / ١٩٥٤ م .

● **جواد علي .**

٦٨ — تاريخ العرب قبل الاسلام ، ط المجمع العلمي العراقي بغداد ١٩٥٦ م .

● **الجواليقي — ابو منصور موهوب بن احمد** (— ٥٤٠ هـ) .

٦٩ — شرح أدب الكاتب ، ط القدسي ١٣٥٠ هـ القاهرة .

٧٠ — المعرب من الكلام الاعجمي ، تحقيق احمد شاكر ، ط دار الكتب ١٣٦١ هـ ،

● **ابن الجوزي — ابو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد** (— ٥٩٧ هـ) .

٧١ — المنتظم في تاريخ الملوك والامم ، ط حيدر آباد ١٣٥٩ هـ .

● **جوستاف لوبون .**

٧٢ — حضارة العرب ، ط الحلبي ١٩٢٥ م .

● **الجوهري — ابو نصر اسماعيل بن حماد** (— ٣٩٨ هـ) .

٧٣ — الصحاح (تاج اللغة وصحاح العربية) ، تحقيق احمد عبد الغفور ، ط دار الكتاب العربي ١٣٧٥ — ١٣٧٧ هـ .

(ح)

● **حاتم الطائي — حاتم بن عبدالله بن سعد** (— ٤٦ ق. هـ. / ٥٧٨ م) .

٧٤ — ديوان حاتم الطائي ، ط ليدن ١٨٧٢ م .

● **ابن حبيب – محمد بن حبيب (– ٢٤٥ هـ) .**

٧٥ – المحبر ، ط دائرة المعارف العثمانية ، الدكن ١٣٦١ / ١٩٤٢ .

● **ابن حجر – شهاب الدين احمد بن علي العسقلاني (– ٨٥٢ هـ) .**

٧٦ – الاصابة في تمييز الصحابة ، ط مصطفى محمد مصر ١٣٥٨ / ١٩٣٩ .

● **ابن حزم – ابو محمد علي بن احمد الاندلسي (– ٤٥٦ هـ) .**

٧٧ – جمهرة انساب العرب ، تحقيق عبد السلام هارون ، ط دار المعارف ١٩٦٢ م .

٧٨ – جوامع السيرة ، تحقيق احسان عباس وناصر الدين الاسد ، ط دار المعارف .

● **حسان بن ثابت – الخزرجي الانصاري (– ٥٤ هـ) .**

٧٩ – ديوان حسان بن ثابت ، ط هيرشفيلد ، ليدن ١٩١٠ م .

● **الحصري – ابو اسحق ابراهيم بن علي الحصري القيرواني (– ٤٥٣ هـ) .**

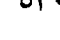
٨٠ – زهر الآداب ، نشر زكي مبارك وعبد الحميد ، ط السعادة ١٣٧٣/١٩٥٣ .

● **الحطيئة – جرول بن أوس (– ٣٠ هـ) .**

٨١ – ديوان الحطيئة ، تحقيق نعمان امين ، ط ١٣٧٨ هـ .

● **ابن الحنبلي – رضى الدين محمد بن ابراهيم الحلبي (– ٩٧١ هـ) .**

٨٢ – بحر العوّام فيما اصاب العوام ، تحقيق عز الدين التنوخي ، ط دمشق ١٩٣٧ م .



● **الحوفي – احمد محمد .**

٨٣ – الحياة العربية في الشعر الجاهلي ، ط ٤ نهضة مصر .

٨٤ – الغزل في العصر الجاهلي ، ط نهضة مصر .

٨٥ – المرأة في الشعر الجاهلي ، ط نهضة مصر ١٩٥٤ م .

● **ابو حيان التوحيدي (– ٤١٤ ﻫ) .**

٨٦ – مثالب الوزيرين ، تحقيق ابراهيم الكيلاني ، دمشق ١٩٦١ م .

● **ابن حيان الجباني – ابو عبد الله محمد بن يوسف الاندلسي (–٧٥٤ﻫ) .**

٨٧ – التفسير الكبير المسمى بالبحر المحيط ، ط السعادة مصر ١٣٢٨ ﻫ .

(خ)

● **الخالديان – ابو عثمان سعيد (– ٣٩٠ ﻫ) وابو بكر محمد بن هاشم (– ٣٨٠ ﻫ) .**

٨٨ – الأشباه والنظائر ، تحقيق محمد يوسف ، ط لجنة التأليف ١٩٥٨ – ١٩٦٥م .

● **ابن خردا ذبة – ابو القاسم عبيد الله بن عبد الله (– ٣٠٠ ﻫ) .**

٨٩ – مختار من كتاب اللهو والملاهي ، نشر اغناطيوس عبده ، ط بيروت ١٩٦١ م .

● **ابن خلدون – عبد الرحمن بن خلدون المغربي (– ٨٠٨ ﻫ) .**

٩٠ – تاريخ ابن خلدون (كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر) ، ط دار الكتاب اللبناني ١٩٥٦ .





٩١ — مقدمة ابن خلدون ، ط مصطفى محمد ، مصر .

(د)

● **ابن دريد — ابو بكر محمد بن الحسن الازدي البصري (— ٣٢١ ﻫ) .**

٩٢ — كتاب جمهرة اللغة ، ط حيدر آباد ، الدكن ١٣٤٥ ﻫ .

٩٣ — الملاحن ، نشر ثوربك ، ط هايلدربك ١٨٨٢ م .

● **الدسوقي — عمر الدسوقي .**

٩٤ — النابغة الذبياني ، ط الكتاب العربي ، القاهرة .

● **الدينوري — ابو حنيفة احمد بن داوود (— ٢٨٢ ﻫ) .**

٩٥ — الاخبار الطوال ، ط وزارة الارشاد القومي مصر ١٩٦٠ م .

٩٦ — كتاب النبات ، نشر لوين ، ط ليدن ١٩٥٣ م .

● **الذهبي — الحافظ شمس الدين محمد بن احمد بن عثمان (— ٧٤٨ ﻫ) .**

٩٧ — سير اعلام النبلاء ، ط دار المعارف مصر ١٩٦٢ م .

٩٨ — العبر في خبر من غبر، تحقيق صلاح الدين المنجد ، ط الكويت ١٩٦٠ م.

● **ذو الرمة — غيلان بن عقبة العدوي (— ١١٧ ﻫ) .**

٩٩ — ديوان ذي الرمة ، تصحيح كارليل هنري هيس ، ط كامبردج ١٣٣٧ / ١٩١٩ .

(ر)

● **الرازي — فخر الدين بن ضياء الدين خطيب الري محمد بن عمر (— ٦٠٦ ﻫ) .**



١٠٠ – تفسير الرازي (مفاتيح الغيب المشتهر بالتفسير الكبير) ، ط مصر ١٣٠٨ هـ .

● **ابن رشيق – ابو علي الحسن بن رشيق القيرواني (– ٤٦٣ هـ) .**

١٠١ – العمدة في محاسن الشعر وآدابه، ط ٢ محي الدين عبد الحميد، ط السعادة ١٩٥٥ م .

(ز)

● **الزبيدي – محمد مرتضى الحسيني (– ١٢٠٥ هـ) .**

١٠٢ – تاج العروس في جواهر القاموس ، ط الخيرية مصر ١٣٠٦ هـ .

● **الزبيدي – ابو بكر محمد بن الحسن بن مذحج (– ٣٧٩ هـ) .**

١٠٣ – لحن العوام ، تحقيق رمضان عبد التواب ، ط الكمالية مصر ١٩٦٤ م.

● **الزبير بن بكار – ابو عبدالله بن ابي مصعب (– ٢٥٦ هـ) .**

١٠٤ – جمهرة نسب قريش واخبارها، تحقيق محمود شاكر، ط المدني ١٣٨١هـ.

● **الزجاجي – ابو القاسم عبد الرحمن بن اسحق (– ٣٤٠ هـ) .**

١٠٥ – الابدال والمعاقبة والنظائر ، تحقيق عز الدين التنوخي ، ط دمشق ١٣٨١ / ٩٢٦٢ .

١٠٦ – أمالي الزجاجي ، تحقيق عبد السلام هارون ، ط الكويت ١٩٦٢ م .

● **الزمخشري – ابو القاسم جار الله محمود بن عمر (– ٥٣٨ هـ) .**

١٠٧ – اساس البلاغة ، ط دار الكتب المصرية ١٣٤١ هـ .





١٠٨ – تفسير الكشاف ، ط مصر ١٣٠٧ هـ .

١٠٩ – الفائق في غريب الحديث، نشر البجاوي وأبي الفضل ١٣٦٤ / ١٩٤٥ .

١١٠ – المستقصى في أمثال العرب ، ط دار المعارف حيدر أباد ١٣٨١/١٩٦٢ .

● **زهير بن ابي سلمى .**

١١١ – ديوان زهير ، شرح احمد بن احمد الشيباني ثعلب ، ط دار الكتب ١٣٦٣ / ١٩٤٤ .

● **الزوزني – ابو عبدالله الحسين بن احمد (– ٤٨٦ هـ) .**

١١٢ – شرح المعلقات السبع ، ط بيروت ١٣٧٧ / ١٩٥٨ .

● **ابو زيد – سعيد بن أوس بن ثابت الانصاري (– ٢١٥ هـ) .**

١١٣ – كتاب المطر ، ضمن البلغة في شذور اللغة ، ط شيخو بيروت ١٩٠٨ م.

(س)

● **السجستاني – ابو حاتم سهل بن محمد (– ٢٥٥ هـ) .**

١١٤ – الاضداد، ضمن ثلاثة كتب في الاضداد نشر هفنر، ط بيروت ١٩١٢ م.

١١٥ – المعمرون والوصايا ، نشر عبد المنعم عامر ، ط احياء الكتب العربية ١٩٦١ م .

● **سراقة البارقي – سراقة بن مرداس (– ٧٩ هـ) .**

١١٦ – ديوان سراقة البارقي ، نشر حسين نصار ، ط لجنة التأليف ١٣٦٦ / ١٩٤٧ .



● **ابن سعد – محمد بن سعد بن منيع الزهري (– ٢٣٠ هـ) .**

١١٧ – الطبقات الكبير ، ط سخو ليدن ١٣٢٢ هـ .

● **ابن السكيت – ابو يوسف يعقوب بن اسحق (– ٢٤٤ هـ) .**

١١٨ – اصلاح المنطق ، تحقيق شاكر وهارون ، ط ٢ دار المعارف ١٣٧٥ / ١٩٥٦ .

١١٩ – الاضداد، ضمن ثلاثة كتب في الاضداد، نشر هفنر، ط بيروت ١٩١٢م.

١٢٠ – القلب والابدال ، نشر ضمن الكنز اللغوي بعناية هفنر ، ط بيروت ١٩٠٣ م .

١٢١ – مختصر تهذيب الالفاظ (هو متن كتاب الالفاظ) ، ط لويس شيخو ١٨٩٧ م .

● **ابن سلام – محمد بن سلام الجمحي (– ٢٣١ هـ) .**

١٢٢ – طبقات فحول الشعراء ، تحقيق محمود شاكر ، ط دار المعارف مصر ١٣٧١ هـ / ١٩٥٢ م .

● **السهيلي – ابو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله الخثعمي (– ٥٨١ هـ) .**

١٢٣ – الروض الانف (في تفسير ما اشتمل عليه حديث السيرة النبوية لابن هشام) ، ط ١٩١٤ م .

● **سيبويه – ابو بشر عمرو بن عثمان (– ١٨٠ هـ) .**

١٢٤ – الكتاب ، ط الاميرية بولاق ، مصر ١٣١٧ هـ .

● **السيوطي – جلال الدين عبد الرحمن بن ابي بكر (– ٩١١ هـ) .**

١٢٥ – الاتقان في علوم القرآن ، ط مصر ١٢٧٩ هـ .

١٢٦ – الدر المنثور في التفسير بالمأثور ، ط حجر ، مصر .

١٢٧ – شرح شواهد المغنى ، ط مصر ١٣٢٢ هـ .

١٢٨ – المزهر في علوم اللغة وأنواعها ، ط السعادة ١٣٢٥ هـ .

(ش)

● **ابن الشجري – ابو السعادات هبـــة الله بن علي بن محمد الحسني (– ٥٤٢ هـ) .**

١٢٩ – حماسة ابن الشجري ، ط دار المعارف العثمانية ، الهند ١٣٤٥ هـ .

● **الشريشي – ابو العباس احمد بن عبد المؤمن ت (٦٢٠ هـ) .**

شرح مقامات الحريري ، ط القاهرة ١٩٥٢ م .

● **الشماخ بن ضرار الغطفاني (– ١٨ هـ) .**

١٣٠ – ديوان الشماخ بن ضرار ، نشر الشنقيطي ١٣٢٧ هـ .

● **الشهرستاني – محمد بن عبد الكريم (– ٥٤٨ هـ) .**

١٣١ – الملل والنحل ، نشر محمد بدران ، القاهرة ١٩٤٧ م .

● **شوقي ضيف .**

١٣٢ – العصر الجاهلي ، دار المعارف ، مصر ١٩٦٠ م .

● **شيخو – لويس شيخو اليسوعي (– ١٩٢٧ م) .**

١٣٣ – شعراء النصرانية ، بيروت ١٩٢٦ م .



(ص)

● **صاعد الاندلسي – القاضي ابو القاسم صاعد بن احمد** (– ٤٦٢ هـ) .

١٣٤ – طبقات الامم ، ط السعادة مصر .

● **الصفدي – صلاح الدين خليل بن ايبك** (– ٧٦٤ هـ) .

١٣٥ – الوافي بالوفيات ، باعتناء ديلدينغ ، ط الهاشمية دمشق ١٩٥٩ م .

● **الصقلي – ابو هاشم محمد بن محمد بن ظفر الصقلي** (– ٥٦٥ هـ) .

١٣٦ – انباء نجباء الابناء ، ط التقدم ، مصر .

● **الضبي – المفضل بن محمد الضبي** (– ١٧٠ هـ) .

١٣٧ – امثال العرب ، ط الجوائب ، قسطنطينية ١٣٠٠ هـ .

١٣٨ – المفضليات، شرح ابن الانباري، نشر كارلوس لايل، ط ليدن ١٩٢٠ م.

(ط)

● **ابن طباطبا – محمد بن احمد العلوي** (– ٣٢٢ هـ) .

١٣٩ – عيار الشعر ، تحقيق طه الحاجري وزغلول سلام ، ط مصر ١٩٥٦ م .

● **الطبري – ابو جعفر محمد بن جرير** (– ٣١٠ هـ) .

١٤٠ – تاريخ الطبري ، ط أوربا و ط الحسينية .

١٤١ — تفسير الطبري (جامع البيان في تفسير القرآن) ، ط بولاق ١٣٢٨ هـ .

● **طه حسين .**

١٤٢ — حديث الاربعاء ، طه الحلبي ١٣٥٦ / ١٩٣٧ .

● **ابو الطيب اللغوي — عبد الواحد بن علي اللغوي الحلبي (— ٣٥١ هـ).**

١٤٣ — الابدال ، تحقيق عز الدين التنوخي ، ط دمشق ١٣٧٩ / ١٩٦٠ .

١٤٤ — الاتباع ، تحقيق عز الدين التنوخي ، ط دمشق ١٣٨٠ / ١٩٦١ .

١٤٥ — الاضداد في كلام العرب ، تحقيق عزت حسن ، ط دمشق ١٣٨٢ / ١٩٦٣ .

١٤٦ — شجر الدر في تداخل الكلام بالمعاني المختلفة ، محمد عبد الجواد ، ط ١٩٥٧ .

١٤٧ — المثنى ، تحقيق عز الدين التنوخي ، ط دمشق ١٣٨٠ / ١٩٦٠ .

(ع)

● **ابن العبري — ابو الفرج غريغوريوس بن هارون المالطي (— ٦٨٥ هـ).**

١٤٨ — مختصر الدول ، ط بيروت .

● **ابن عبد البر — ابو عمر يوسف بن عبد الله النمري القرطبي (— ٤٦٣ هـ) .**

١٤٩ — الاستيعاب في معرفة الاصحاب ، تحقيق محمد البجاوي ، ط نهضة مصر .

١٥٠ — الانباه على قبائل الرواة ، (وهو المدخل لكتاب الاستيعاب) ، ط القاهرة ١٣٥٠ هـ .

● **ابن عبد ربه الاندلسي** (— ٣٢٧ هـ) .

١٥١ — العقد الفريد ، تحقيق احمد امين ورفاقه ، ط لجنة التأليف ١٣٦٥ / ١٩٤٦ .

● **عبد الرحمن بن عبد العزيز — الشيخ ابو زيد نزيل مكة .**

١٥٢ — الوشاح في تثقيف الرماح في رد توهيم المجد الصحاح، ط بولاق ١٢٨١ هـ.

● **ابن عبد الكافي — عبد الله بن عبد الكافي** (— ٧٢٤ هـ) .

١٥٣ — شرح المضنون به على غير اهله ، ط السعادة مصر ١٣٣١ / ١٩١٣ .

● **عبيد بن الابرص** — (— ٢٥ ق. هـ / ٦٠٠ م) .

١٥٤ — ديوان عبيد بن الابرص ، بعناية شارلس ليال ، ط دار المعارف مصر .

● **عبيد بن شرية الجرهمي** (— ٤٨ هـ) .

١٥٥ — اخبار عبيد بن شرية (بذيل كتاب التيجان) ، ط الهند ١٣٤٧ هـ .

● **ابو عبيدة — معمر بن المثنى** (— ٢١٠ هـ) .

١٥٦ — كتاب الخيل ، ط حيدر آباد ، الهند ١٣٥٨ هـ .

١٥٧ — مجاز القرآن ، نشر محمد سزكين ، ط مصر ١٣٧٤ / ١٩٥٥ .

١٥٨ — النقائض ، تحقيق بيفان ، ط ليدن ١٩٠٥ م .

● **عرام بن الاصبغ السلمي** (— القرن الثالث الهجري) .

١٥٩ — اسماء جبال تهامة وسكانها ، تحقيق عبد السلام هارون ١٣٧٣ هـ .

● **عروة بن الورد العبسي** (– ٣٠ ق. هـ / – ٥٩٤ م) .

١٦٠ – ديوان عروة بن الورد شرح بن السكيت ، ط ابن ابي شنب ، الجزائر ١٩٢٦ م .

● **العسكري – ابو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل** (– ٣٩٥ هـ) .

١٦١ – كتاب الصناعتين ، تحقيق البجاوي وابي الفضل ١٣٧١ / ١٩٥٢ .

● **العسكري – ابو احمد الحسن بن عبد الله** (– ٣٨٢ هـ) .

١٦٢ – شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف ، تحقيق عبد العزيز احمد ، ط مصر ١٩٦٣ م .

١٦٣ – المصون في الادب ، تحقيق عبد السلام هارون ، ط الكويت ١٩٦٠ .

● **علي بن الوزير ابي عمران** (– ٦٧٣ هـ) .

١٦٤ – عنوان المرقصات والمطربات ، ط جمعية المعارف ١٢٨٦ هـ .

● **علي فهمي الموستري** .

١٦٥ – حسن الصحابة في شرح اشعار الصحابة ، روشن ، مطبعة سي ١٣٢٤ هـ .

● **العيني – بدر الدين محمود بن احمد** (– ٨٥٥ هـ) .

١٦٦ – شرح الشواهد (المقاصد النحوية) ، على هامش الخزانة ، ط بولاق ١٣٤٧ هـ .

(غ)

● **الفزولي – علاء الدين علي بن عبد الله البهائي** (– ٨١٥ هـ) .

١٦٧ – مطالع البدور في منازل السرور ، ط القاهرة ١٢٩٩ هـ .

(ف)

● **ابن فارس – ابو الحسين احمد بن فارس بن زكريا (– ٣٩٥ ﻫ) .**

١٦٨ – الاتباع والمزاوجة ، نشر برونو جسزن ١٩٠٦ م .

١٦٩ – الحور العين ، نشر كمال مصطفى ، ط السعادة ١٣٦٧ / ١٩٤٧ .

١٧٠ – المجمل ، ط القاهرة ١٣٣١ ﻫ .

١٧١ – معجم مقاييس اللغة ، تحقيق عبد السلام هارون ، ط مصر ١٣٦٦ ﻫ .

● **ابو الفداء – عماد الدين اسماعيل صاحب حماة (– ٧٣٢ ﻫ) .**

١٧٢ – المختصر في اخبار البشر ، ط الحسينية مصر ١٣٢٥ ﻫ .

● **الفرزدق – ابو فراس همام بن غالب (– ١١٠ ﻫ) .**

١٧٣ – ديوان الفرزدق ، ط الصاوي ١٣٥٤ ﻫ / ١٩٣٦ م .

● **ابن الفقيه – ابو بكر احمد بن محمد الهمذاني (– ٣٦٥ ﻫ) .**

١٧٤ – مختصر كتاب البلدان ، ط ليدن ، بعناية دي غويه ١٣٠٢ / ١٨٨٥ .

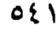
● **الفيروزابادي – مجد الدين محمد بن يعقوب (– ٨١٦ ﻫ) .**

١٧٥ – القاموس المحيط ، ط الحلبي مصر ١٩١٣ م .

(ق)

● **القالي – ابو علي اسماعيل بن القاسم (– ٣٥٦ ﻫ) .**

١٧٦ – أمالي القالي (الأمالي والنوادر) ، ط السعادة مصر ١٣٧٣ / ١٩٥٣ .





١٧٧ ــ البارع في اللغة ، طبع عن الاصل المخطوط بعنايه فلتون ، ط ليدن ١٩٣٣ م .

● **ابن قتيبة ــ ابو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري (ــ ٢٧٦ هـ) .**

١٧٨ ــ أدب الكاتب ، ط ليدن ١٩٠٠ م .

١٧٩ ــ كتاب الاشربة ، تحقيق محمد كرد علي ، ط دمشق ١٣٦٦ / ١٩٤٧ .

١٨٠ ــ كتاب الأنواء في مواسم العرب ، تصحيح شارل بيلا ، ط الهند ١٣٧٥ / ١٩٥٦ .

١٨١ ــ تأويل مشكل القرآن ، تحقيق احمد صقر ، ط الحلبي ١٩٥٤ .

١٨٢ ــ الشعر والشعراء ، ط ليدن ١٩٠٤ م .

١٨٣ ــ عيون الاخبار ، ط دار الكتب المصرية ١٣٤٣ / ١٩٢٥ .

١٨٤ ــ المعارف ، ط دار الكتب ١٩٦٠ و ط الاسلامية .

١٨٥ ــ المعاني الكبير في أبيات المعاني، ط حيدر آباد ، الهند ١٣٦٨ / ١٩٤٩ .

١٨٦ ــ الميسر والقداح ، نشر محب الدين الخطيب القاهرة ١٣٤٢ هـ.

١٨٧ ــ النعم والبهائم ، نشر بويجس ، ط لايبزك ١٩٠٨ م .

● **القرشي ــ ابو زيد محمد بن ابي الخطاب .**

١٨٨ ــ جمهرة اشعار العرب ، ط الاميرية بولاق ١٣٠٨ هـ .

● **ابن القطاع ــ ابو القاسم علي بن جعفر السعدي (ــ ٥١٥ هـ) .**

١٨٩ ــ كتاب الافعال ، ط دائرة المعارف ، الهند ١٣٦٠ هـ.

● **ابن قيم الجوزية – شمس الدين محمد المعروف بابن قيم الجوزية الحنبلي (– ٧٥١ هـ) .**

١٩٠ – كتاب الفوائـــد المشوق الى علوم القرآن وعلم البيان ، ط السعادة مصر ١٣٢٧ هـ .

● **القلقشندي – ابو العباس احمد (– ٨٢١ هـ) .**

١٩١ – نهاية الأرب في معرفة انساب العرب ، تحقيق ابراهيم الابياري ، ط القاهرة ١٩٥٩ م .

(ك)

● **ابن كثير – اسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي (– ٧٧٤ هـ) .**

١٩٢ – البداية والنهاية ، ط السعادة مصر ١٣٥١ / ١٩٣٢ .

● **كثير عزة – عبد الرحمن بن ابي جمعه (– ١٠٥ هـ) .**

١٩٣ – ديوان كثير عزة ، بعناية هنري بيرس ، ط الجزائر ١٩٢٨ م .

● **كشاجم – ابو الفتح محمود بن حسن الكاتب (– ٣٥٨ هـ) .**

١٩٤ – المصايد والمطارد ، نشر اسعد طلس ، ط بغداد ١٩٥٤ م .

● **ابن الكلبي – ابو المنذر هشام بن محمد بن السائب (– ٢٠٤ هـ) .**

١٩٥ – الاصنام ، تحقيق احمد زكي ، ط دار الكتب ١٣٤٣ / ١٩٢٤ .

● **ابن كيسان – ابو سعيد الحسن بن محمد بن احمد (– ٢٩٩ هـ) .**

١٩٦ – تلقيب القوافي وتلقيب حركاتها ، نشر ريت دبلن ١٨٥٨ ضمن مجموعة .



(ل)

● **لبيد بن ربيعة العامري (— ٤٠ هـ) .**

١٩٧ — ديوان لبيد ، ط الخالدي ، وين ١٨٨٠ م .

١٩٨ — قطعة من ديوان لبيد ، ط هوبر ١٨٨٧ م .

١٩٩ — ديوان لبيد، ط بروكلمان ١٨٩١ م .

٢٠٠ — ديوان لبيد، ط احسان عباس، الكويت ١٩٦٢ م (وهو الذي اعتمدناه في الاشارة) .

(م)

● **ابن ماجة — الحافظ ابو عبد الله محمد بن يزيد القزويني (— ٢٧٥ هـ).**

٢٠١ — سنن ابن ماجة ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، مصر ١٣٧٣ / ١٩٤٣ .

● **المبرد — ابو العباس محمد بن يزيد (— ٢٨٥ هـ) .**

٢٠٢ — الفاضل ، تحقيق عبد العزيز الميمني ، ط دار الكتب ١٣٧٥ / ١٩٥٦ .

٢٠٣ — الكامل ، نشر زكي مبارك واحمد شاكر ، ط الحلبي ، مصر ١٣٥٦ / ١٩٣٧ .

٢٠٥ — نسب عدنان وقحطان ، تحقيق عبد العزيز الميمني ، ط لجنة التأليف ١٣٥٤ / ١٩٣٦ .

● **المتنبي — ابو الطيب احمد بن الحسين الجعفي (— ٣٥٤ هـ) .**

٢٠٦ — ديوان المتنبي ، شرح الواحدي ، بعناية ديتريصي ، ط برلين ١٩٦١ م .

● **محمد محمد حسين .**

٢٠٧ – اساليب الصناعة في شعر الخمــــر والناقة بين الاعشى والجاهليين ، ط الاسكندرية ١٩٦٠ م .

٢٠٨ – الهجاء والهجاؤون في الجاهلية ، ط الآداب ، الاسكندرية ١٩٤٧ م .

● **ابو مسحل الاعرابي – عبد الوهاب بن حريش** (في اوائل القرن الثالث).

٢٠٩ – النوادر ، تحقيق عزة حسن ، ط دمشق ١٣٨٠ / ١٩٦١ .

● **المسعودي – علي بن الحسين** (– ٣٤٥ هـ) .

التنبيه والاشراف ، ط عبدالله الصاوي ، مصر ١٣٤٦ / ١٩٢٧ .

٢١٠ مروج الذهب ، ط محي الدين عبد الحميد ١٩٥٨ م .

● **ابن مسكويه – ابو علي احمد بن محمد** (– ٤٢١ هـ) .

٢١١ – تجارب الامم ، نشر كاتتاني ، ط ليدن ١٩٠٩ م .

● **مسلم – ابو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري** (– ٢٦١ هـ).

٢١٢ – صحيح مسلم ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ١٣٧٥ / ١٩٥٥ .

● **مسلم بن الوليد الانصاري** (– ٢٠٨ هـ) .

٢١٣ – ديوان مسلم بن الوليد ، بعناية دي غويه ، ط ليدن ١٨٧٥ م .

● **المرتضى – الشريف المرتضى علي بن الحسين العلوي** (– ٤٣٦ هـ) .

٢١٤ – أمــــالي المرتضى (غرر الفوائد ودرر القلائد) ، تحقيق ابي الفضل ١٣٧٣ / ١٩٥٤ .





● **المرزباني – ابو عبيد الله محمد بن عمران (– ٣٨٤ هـ) .**

٢١٥ – معجم الشعراء ، تحقيق عبد الستار فراج ، مصر ١٣٧٩ / ١٩٦٠ .

٢١٦ – الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء ، ط السلفية ، القاهرة ١٣٤٣ هـ .

● **المرزوقي – ابو علي احمد بن محمد بن الحسن (– ٤٢١ هـ) .**

٢١٧ – الازمنة والامكنة ، ط دائرة المعارف ، الهند ١٣٣٢ هـ .

٢١٨ – شرح ديوان الحماسة ، تحقيق أحمد أمين وهارون ، ط لجنة التأليف ١٣٧١ / ١٩٥١ .

● **ابن المعتز – ابو العباس عبد الله بن المعتز (– ٢٩٦ هـ) .**

٢١٩ – البديع ، تحقيق كراتشوفسكي ، ط لندن ١٩٣٥ .

● **المعري – أبو العلاء (– ٤٤٩ هـ) .**

٢٢٠ – رسالة الغفران ، ط دار المعارف ١٩٦٣ م .

٢٢١ – شروح سقط الزند ، شرح التبريزي (٥٠٢) والبطليوسي (– ٥٢١ هـ) والخوارزمي (– ٦١٧ هـ) ، ط دار الكتب ١٩٤٥ – ١٩٤٨ .

● **ابن معصوم – السيد علي صدر الدين بن احمد الحسني** ، (القرن الحادي عشر) .

٢٢٢ – سلافة العصر في محاسن الشعراء بكل مصر ، الخانجي ١٣٢٤ هـ .

● **المفضل بن سلمة – ابو طالب المفضل بن سلمة بن عاصم (– ٢٩١ هـ) .**

٢٢٣ – الفاخر ، تحقيق عبد العليم الطحاوي ، ط مصر ١٣٨٠ / ١٩٦٠ .

● **ابن مقبل – تميم بن أبيّ بن مقبل (– ٣٧ هـ) .**

٢٢٤ – ديوان ابن مقبل ، نشر عزة حسن ، دمشق ١٩٦٢ م .

● **المقريزي – تقي الدين احمد بن علي (– ٨٤٥ هـ) .**

٢٢٥ – امتاع الاسماع بما للرسول من الأبناء والأموال والحفدة والمتاع ، نشر محمود شاكر ١٩٤١ م .

● **ابن منظور – ابو الفضل جمال الدين محمد بن المكرم الافريقي الانصاري (– ٧١٦ هـ) .**

٢٢٦ – لسان العرب ، ط بولاق ١٣٠٠ هـ وط صادر بيروت .

● **مهيار الديلمي – ابو الحسن مهيار بن مرزويه (– ٤٢٨ هـ) .**

٢٢٧ – ديوان مهيار الديلمي ، ط دار الكتب المصرية ١٩٢٥ م .

● **الميداني – أبو الفضل أحمد محمد النيسابوري (٥١٨ هـ) .**

٢٢٨ – مجمع الأمثال ، ط ٢ ، السعادة ١٣٧٩ / ١٩٥٩ .

(ن)

● **النابغة الذبياني – زياد بن معاوية (– ١٨ ق. هـ / ٦٠٤ م) .**

٢٢٩ – التوضيح والبيان عن شعر نابغة ذبيان ، ط السعادة مصر .

٢٣٠ – خمسة دواوين العرب ، ط بيروت .

● **ناصر الدين الاسد .**

٢٣١ – مصادر الشعر الجاهلي ، ط دار المعارف ١٩٥٦ م .



● **ابن نباتة – جمال الدين ابن نباتة المصري** (– ٧٦٨ هـ) .

٢٣٢ – سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون ، تحقيق أبي الفضل ، القاهرة ١٨٨٣ / ١٩٦٤ .

● **ابن النديم – ابو الفرج محمد بن اسحق بن يعقوب** (– ٣٨٥ هـ) .

٢٣٣ – الفهرست ، ط فلوجل لايبزك ١٨٧١ م و ط الاستقامة بمصر .

● **نشوان الحميري – ابو سعيد نشوان بن سعيد بن نشوان** (– ٥٧٣ هـ) .

٢٣٤ – منتخبات من شمس العلوم ، نشر عظيم الدين أحمد ، ط ليدن ١٩١٦ .

● **النهرواني – المعافى بن زكريا** (– ٣٩٠ هـ) .

٢٣٥ – الجليس والأنيس ، نشر ألبرت ديتريش ، مجلة المجمع العلمي العربي ، مجلد ٢٤ .

● **النويري – احمد بن عبد الوهاب** (– ٧٣٢ هـ) .

٢٣٦ – نهاية الأرب ، ط دار الكتب المصرية ١٩٢٩ م .

● **ابو نواس – الحسن بن هانىء** (– ١٩٨ هـ) .

٢٣٧ – ديوان أبي نواس ، ط اسكندر اصاف ١٨٩٨ م .

(هـ)

● **ابن هذيل الاندلسي – علي بن عبد الرحمن** (القرن الثاني) .

٢٣٨ – حلية الفرسان وشعار الشجعان ، تحقيق عبد الغني حسن ، ط دار المعارف ١٩٥١ م .

● **ابن هشام – جمال الدين عبد الله بن يوسف بن هشام الانصاري** (– ٧٦١ هـ) .

٢٣٩ – شرح بانت سعاد ، بعناية غويدي ، ط ليبزك ١٨٧١ م .

● **ابن هشام – ابو محمد عبد الملك بن هشام** (– ٢١٨ هـ) .

٢٤٠ – السيرة النبوية – تحقيق السقا ورفاقه ١٩٥٥ ، ط عبد الحميد .

● **الهمداني – ابو محمد الحسن بن احمد** (– حوالي ٣٦٠ هـ) .

٢٤١ – الاكليل ، نشر الكرملي – ط بغداد ١٩٣١ ، الجزء الثامن فقط .

٢٤٢ – صفة جزيرة العرب ، نشر محمد بن عبد الله بن بليهد النجدي ، ط السعادة ، مصر ١٩٥٣ م .

(و)

● **الواحدي – ابو الحسن علي بن احمد النيسابوري** (– ٤٦٨ هـ) .

٢٤٣ – أسباب نزول القرآن ، تحقيق أحمد صقر ، ط مصر .

● **الواقدي – محمد بن عمر** (– ٢٠٧ هـ) .

٢٤٤ – المغازي (مغازي رسول الله) ، ط السعادة ١٣٦٧ هـ .

● **وهب بن منبه** (١١٤ هـ) .

٢٤٥ – التيجان في ملوك حمير ، دائرة المعارف العثمانية ، الهند ١٩٤٧ م .



● **ياقوت — شهاب الدين ابو عبد الله الرومي الحموي** (— ٦٢٦ ه) .

٢٤٦ — المشترك وضعاً والمفترق صقعاً ، ط وستينفيلد ، جوتنجن ١٨٤٦ م .

٢٤٧ — معجم الأدباء (ارشاد الأريب الى معرفة الأديب) ، ط مرجليوث ١٩٣٠ م .

٢٤٨ — معجم البلدان ، بعناية وستنفيلد ، ط لايبزك ١٨٦٦ م .

● **اليزيدي — ابو عبد الله محمد بن عباس** (— ٣١٠ ه) .

٢٤٩ — امالي اليزيدي ، ط دائرة المعارف ، الهند ١٣٦٧ / ١٩٤٨ .

● **اليعقوبي — احمد بن أبي يعقوب بن جعفر** (— ٢٨٢ ه) .

٢٥٠ — تاريخ اليعقوبي ، ط الغري ، النجف ١٣٥٨ ه .

● **ابن يعيش — موفق الدين يعيش بن علي بن يعيش** (— ٦٤٣ ه) .

٢٥١ — شرح المفصل ، ط المنيرية ، مصر .

● **اليمني — أبو عبد الله محمد بن حسين بن عمر** (— ٤٠٠ ه) .

٢٥٢ — كتاب مضاهاة أمثال كتاب كليلة ودمنة بما أشبهها من أشعار العرب ، بيروت ١٩٦١ .

● **مجهول المؤلف .**

٢٥٣ — مجموعة المعاني ، ط الجوائب ، قسطنطينية ١٣٠١ ه .

٢ ـــ المصادر المخطوطة :

● **الاصمعي – عبد الملك بن قريب (– ٢١٥ هـ) .**

٢٥٤ – بقية الاصمعيات التي اخلت بالمفضليات، دار الكتب المصرية رقم (٤٠) ش أدب .

● **البصري – علي بن ابي الفرج بن الحسن (– ٦٥٩ هـ) .**

٢٥٥ – الحماسة البصرية ، دار الكتب المصرية (٥٢٠) أدب .

● **ابو الطيب اللغوي – عبد الواحد بن علي (– ٣٥١ هـ) .**

٢٥٦ – مراتب النحويين ، دار الكتب المصرية ، مكتبة احمد تيمور .

● **العزيزي – محمد بن ايوب .**

٢٥٧ – جمهرة اشعار العرب، معهد المخطوطات جامعة الدول العربية و كوبريلي ١٢٢٧ .

● **لبيد بن ربيعة .**

٢٥٨ – ديوان لبيد ، شرح الطوسي ، دار الكتب المصرية (٩٧٧) شعر تيمور .

٢٥٩ – ديوان لبيد ، نسخة كاملة بدار الكتب (٥٤٧) أدب .

٢٦٠ – ديوان لبيد، ضمن مجموعة كتبها الشنقيطي ، دار الكتب رقم (٦) ش .



● **النحاس – ابو جعفر احمد بن محمد بن اسماعيل المصري (– ٣٣٨ هـ).**

٢٦١ – شرح المعلقات ، دار الكتب المصرية رقم (٤٦٠) .

● **ابن فضل الله العمري (– ٧٤٩ هـ) .**

٢٦٢ – مسالك الابصار ، دار الكتب المصرية رقم (٤٨٦١) أدب .

● **الثعالبي – ابو منصور عبد الملك بن محمد (– ٤٢٩ هـ) .**

٢٦٣ – المنتخب من شعر العرب ، دار الكتب المصرية ، مكتبة فيض الله رقم (٢١٣٣) .

٣ ــ المراجع الأجنبية :

أ ــ الانجليزية :

Gibb (H. A. R.) :

264 — Arabic Literature, An introduction - London 1920.

Khuda Bukhsh :

265 — Contributions to the history of Islam Civilization. Calcutta 1930.

Mohammad Ali (M.) :

266 — Mohammad the Prophet - Lahore 1933.

Nicholson (R. A.) :

267 — Aliterary history of the Arab - London 1941.

Lyall (C. J.) :

268 — Comentery on ten ancient Arabic. Poems.

269 — Ancient Arabian Poetry - Calcutta 1894.

Oleary (De Lacy) :

270 — Arabia before Mohammad 1927.

Smith (R.) :

271 — Kinship and Marriage in old Arabia - London 1907.

Sayce (A. H.) :

272 — Early Isreal.





Sloane (W. G. M.) :

273 — The Poet Labid - Lepzig 1877.

274 — Encyclopaedia of Islam. (Labid B. Rabia Amir B. Sasaa Macca).

ب – الالمانيـــة :

Huber :

275 — Lebids Leben.

276 — Das Leben des Labid.

Von Kremer (Alfred) :

277 — Ueber die Gedichte des Labyd - Wien 1881.

Wustenfeld (F.) :

278 — Cenealogischen Tabellen der Arubischen Stamme und familien - Gottingen 1852.

جـ – الفرنسية :

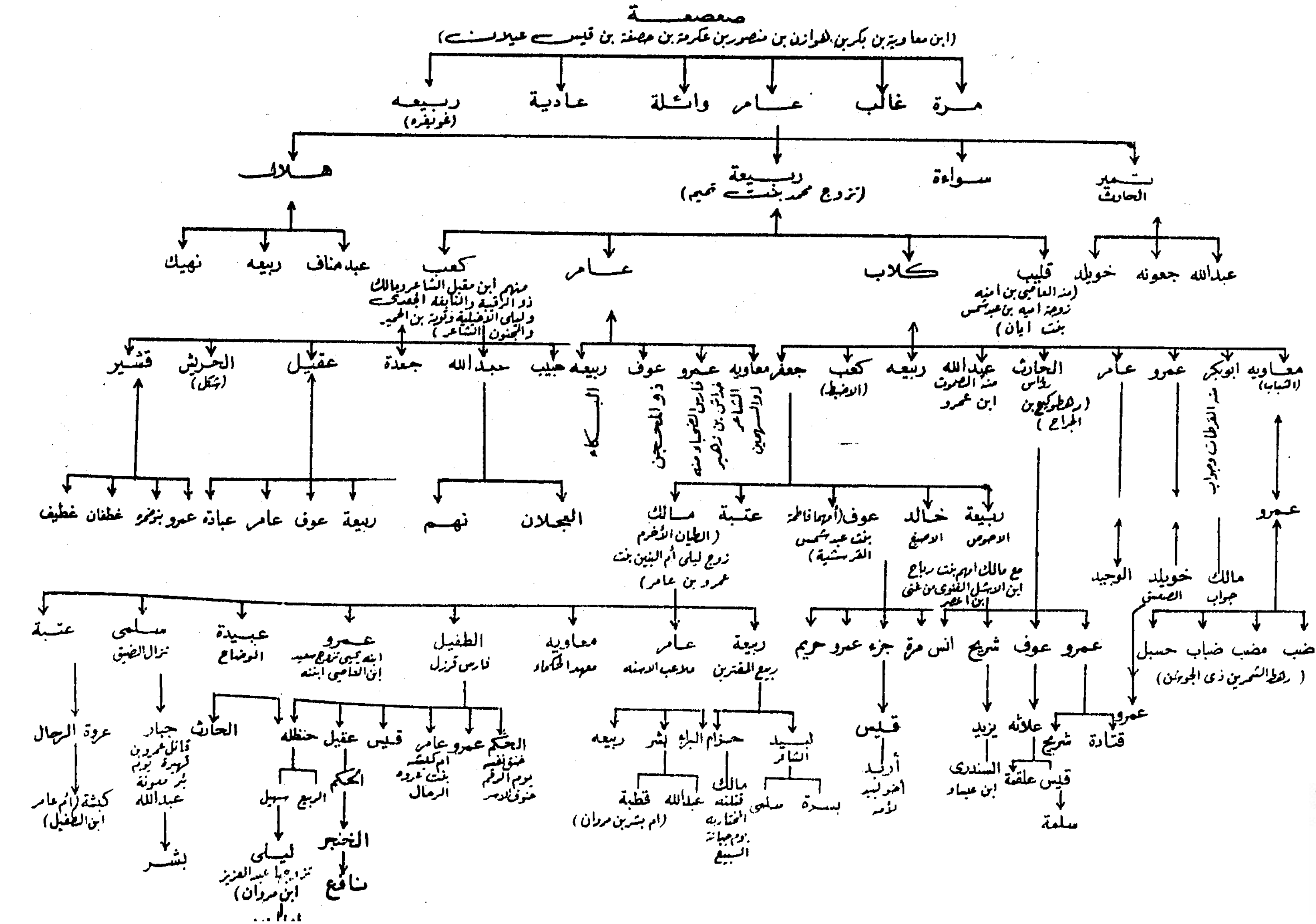
Perceval (Caussin de) :

279 — Essai sur L'histoire des Arabes 1849.

د – الفارسية :

● السمرقندي – أمير دولتشاه علاء الدولة بختيشاه الغازي (– ٨٩٢ هـ) .

٢٨٠ – تذكرة الشعراء ، نشر محمد رمضاني ط خاور ، طهران ١٣٣٨ هـ .



صعصعة
(ابن معاوية بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان)
مرة
غالب
عامر
واثلة
عادية
ربيعه
(غونبقره)
نمير
الحارث
سواءة
ربيعة
(تزوج محمد بنت تميم)
هلال
عبدالله
جعونه
خويلد
قليب
(منه العاصي بن اميه زوجة اميه بن عبد شمس بنت ابان)
كلاب
عامر
كعب
منهم ابن مقبل الشاعر ومالك ذو الرقيبة والنابغة الجعدي وليلى الأخيلية وثور بن الحمير والمجنون الشاعر)
عبدمناف
ربيعه
نهيك
معاويه
(الضباب)
ابوبكر
منه القرطات وجواب
عمرو
عامر
الحارث
(رهط كيع بن الجراح)
عبدالله
منه الضموت ابن عمرو
ربيعه
كعب
(الاضبط)
جعفر
معاويه
عمرو
فارس الضحياء منه خداش بن زهير الشاعر وذو السهمين
عوف
ذو المحجن
ربيعه
البكاء
حبيب
عبدالله
جعدة
عقيل
الحريش
(شكل)
قشير
عمرو
مالك
جواب
خويلد
الصمتي
الوجيد
ربيعة
الاحوص
خالد
الاصبغ
عوف
(أمهما فاطمة بنت عبد شمس القرشية)
عتبة
مالك
(الطيان الأخرم زوج ليلى أم البنين بنت عمرو بن عامر)
مع مالك امهم بنت رباح ابن الاشل الغنوي بن غني ابن اعصر
العجلان
نهم
ربيعة
عوف
عامر
عبادة
عمرو
بزمزو
غطفان
غطيف
ضب
مضب
ضباب
حسبل
(رهط الشمر بن ذي الجوشن)
عمرو
عوف
شريح
انس
مرة
جزء
عمرو
حريم
ربيعة
ربيع المقترين
عامر
ملاعب الاسنه
معاويه
معود الحكماء
الطفيل
فارس قرزل
عمرو
ابنه يحيى تزوج سعيد ابن العاصي ابنته
عبيدة
الوضاح
سلمى
نزال المضيق
عتبة
عمرو
قتادة
شريح
علاثه
يزيد
قيس
أربد
أخو لبيد لأمه
لبيد
الشاعر
حزام
البراء
بشر
ربيعه
الحكم
خنوفنير يوم الرقم
عمرو
عامر
ام كلثم بنت عروه الرحال
قيس
عقيل
حنظله
الحارث
جبار
قاتل عمرو بن قهيرة يوم بئر معونة
عبدالله
عروة الرحال
قيس
علقمة
السندري
ابن عباد
بسرة
سلمى
مالك
قتلته الحنفاريه يوم جبانه السبيع
عبدالله
قطبة
(ام بشر بن مروان)
الحكم
الربيع
سهيل
الخنجر
نافع
ليلى
تزوجها عبدالعزيز ابن مروان
سلمة
بشر
كبشة (أم عامر ابن الطفيل)

منازل القبائل العربية
قبيل الإسلام
دكتور يحيى الجبوري

خريطة منازل القبائل العربية قبيل الاسلام



فهرس

صفحة

الكتب الصادرة للمؤلف

١ ـ الاسلام والشعر	بغداد ١٩٦٤
٢ ـ شعر المخضرمين وأثر الاسلام فيه	بغداد ١٩٦٤
٣ ـ ديوان العباس بن مرداس السلمى	بغداد ١٩٦٨
٤ ـ الجاهليــة	بغداد ١٩٦٨
٥ ـ شعر النعمان بن بشير الانصارى	بغداد ١٩٦٨
٦ ـ شعر عروة بن أذينة	بيروت ١٩٧٠
	الكويت ١٩٨٠
٧ ـ لبيد بن ربيعة العامرى	بيروت ١٩٧٠
	الكويت ١٩٨٠
٨ ـ شعر المتوكل الليثى	بيروت ١٩٧١
٩ ـ شعر الحارث المخزومى	النجف ١٩٧٢
١٠ ـ الشعر الجاهلى خصائصه وفنونه	بيروت ١٩٧٢
١١ ـ شعر عبدة بن الطبيب	بيروت ١٩٧٢
١٢ ـ شعر عبد الله بن الزبير الاسدى	بغداد ١٩٧٤
١٣ ـ شعر أبى حية النميرى	دمشق ١٩٧٥
١٤ ـ شعر عمر بن شأس الاسدى	النجف ١٩٧٦
١٥ ـ شعر عمرو بن لجأ التيمى	بغداد ١٩٧٦
١٦ ـ الحيرة ومكة (ترجمة عن الانكليزية)	بغداد ١٩٧٦
١٧ ـ ديوان الطغرانى (بالاشترا كمع الدكتور على جواد الطاهر)	بغداد ١٩٧٦
١٨ ـ شعر هدبة بن الخشرم العذرى	دمشق ١٩٧٦
١٩ ـ أصول الشعر العربى (ترجمة عن الانكليزية)	بيروت ١٩٧٨
٢٠ ـ شعر عبد الله بن الزابعرى	القاهرة ١٩٧٨

